كارين هاوكينز

فَاتِنة الكُتب

THE BOOK CHAMBER

ترجمة: خالد الجبيلي

فاتنة الكتب

THE BOOK CHAMBER

كارين هاوكينز

ترجمة خالد الجبيلي

دار مدارك للنشر والتوزيع
2021

إلى الكابتن هوت كاب الذي جلس معي ذات يوم مثلج
أمام نار متأججة في قاعة بلانتير الموسيقية،
قصر مذهّب من العصر الرومانسي في بيركشاير،
نناقش النقاط المتعلقة بحبكة رواية «فاتنة الكتب»،
الكتاب الأعزّ إلى قلبي.
نيت، أنت سحري.

استهلال

سارة

دوف بوند، نورث كارولاينا

٢١ تموز (يوليه) ٢٠٠١

في يوم السبت الذي أعقب عيد ميلادها السابع، تكلّم كتاب مع سارة ماي دوف. لو كانت أكبر سنًّا، لكان من الممكن أن تفاجأ أو تُصاب بصدمة، لكن بما أنها فتاة لا تتجاوز السابعة من العمر، عنيدة وتؤمن إيماناً مطلقاً بسانتا كلوز (بابا نويل)، وجنيّة السنّ، وأرنب عيد الفصح، فلم يرمش لها جفن.

بعد أن فكّرت قليلاً، قالت إن الكتب تتكلّم دائماً في داخل سكون رأس المرء، لكن ذلك يتم عادة عندما يُقرأ الكتاب. لذلك لم يثر سماع كتاب يتكلّم قلقها.

بالإضافة إلى ذلك، فهي من عائلة دوف، ويعرف الجميع أن عائلة دوف عائلة خاصّة. وكلما أتيحت لأمّها الفرصة، كانت تقول بافتخار إنه عندما كانت عائلة دوف تنجب سبع بنات، كما هو حالها الآن، فإن أشياء جيدة تحدث لبلدتهم، دوف بوند.

لم تكن الأمّ تبالغ في قولها هذا، لأن التاريخ أثبت صحة ذلك. ففي سنة ١٧٣٥، ولدت ابنة دوف السابعة لعائلة دوف، وعندما بلغت جين دوف، الابنة الرابعة، السابعة من عمرها، أصاب البلدة جفاف شديد. فبكت جين، الطفلة الطيبة القلب التي تحبّ الحيوانات كثيراً، عندما تذكرت جميع الحيوانات العطشى في المزرعة، وعندما كانت دموعها تسيل من عينيها، كانت الغيوم تتجمّع في السماء، وينهمر المطر. ومنذ ذلك الحين، كلّما بكت جين، أمطرت السماء، وقيل إنه كلّما أراد المزارعون في البلدة أن تهطل الأمطار، جلبوا لجين كمية من البصل، وكلّما أرادوا أن تشرق الشمس، جلبوا لها قليلاً من البسكويت.

في عام ١٨٢٩، جاءت ابنة سابعة إلى هذه الدنيا. وقالوا إن لون شعر ابنتهم البكر، ماري دوف، بلون الذهب المجدول، وتمتلك القدرة على العثور على المجوهرات المفقودة، ففرح سكان البلدة كثيراً. وفي أحد أيام الصيف القائظة، عندما كانت ماري تخوض في مياه الجدول الذي يعبر البلدة، ركلت ماري بقدمها حجرة اكتشفت تحتها سبيكة ذهبية كبيرة، فبدأ السباق على البحث عن الذهب في بلدة دوف بوند. واستمر هذا السباق المحموم في البحث عن الذهب طوال اثنتين وثلاثين سنة نجم عنه بناء مبنى البلدية بواجهته الرخامية، وظهور ثمانية مبان جديدة مشيدة من الحجر في الشارع الرئيسي، ومدرسة جديدة، وشوارع عدة تصطف على جوانبها بيوت أنيقة لا تزال قائمة حتى اليوم.

كانت سارة وأمّها وأخواتها يعشن في أحد تلك البيوت. بيت كبير مليء بالشقوق ينبعث منه صرير تتسرب إليه حرارة الصيف الخانقة مهما وضعن مكيّفات هواء في نوافذ البيت. لهذا السبب، كانت سارة وأخواتها يذهبن إلى المكتبة العامة في بلدة دوف كلّ يوم سبت طوال الصيف ويستمتعن بهواء المكيفات المنعش.

كانت سارة تحبّ الذهاب إلى المكتبة كثيراً. وبما أنها كانت أصغر من أصغر أخواتها بخمس سنوات ولم تكن تبدي اهتماماً بالمكياج أو بمرافقة الفتيان، وهما الشيئان الوحيدان اللذان كانت أخواتها يهتممن بهما، فقد ملأت أيامها بالكتب. ففي كلّ يوم سبت، بعد أن توصلهن أمّهن إلى المكتبة، كانت أخوات سارة يتوجهن إلى قسم مجلات الأزياء ويتهامسن ويتضاحكن، بينما تجوب سارة ممرات المكتبة وتسير بين رفوف الكتب تبحث عن كتب فيها قصص عن التنانين.

كانت سارة تأمل من أعماق قلبها أن تكون التنانين موجودة في صفحات جميع الكتب، لا في بعضها فقط، وكان من حسن حظها أنه توجد كتب عديدة تحكي عن التنانين. ومع أنها لم تتجاوز السابعة من عمرها، فقد كانت تقرأ منذ أن كانت في الثالثة من عمرها، وهي حقيقة تتبجح بها أمّها لكل من ينصت إليها. كانت سارة قارئة نهمة، وكانت تجد أصدقاء كثيرين في طيات تلك الكتب. كان ارتياد المكتبة يعني لها متعة تفوق متعة الاستمتاع بهواء المكّيف البارد المنعش. فقد كانت الكتب حياة بالنسبة لها.

في يوم السبت الذي أعقب عيد ميلادها السابع، توجهت سارة إلى قسم «كتب الشباب الصغار» غير عابئة بضحكات أخواتها اللاتي كنّ يتصفحن إحدى مجلاتهن السخيفة. وعندما مرّت أمام الخزانة الزجاجية التي تضم كتباً قديمة عن تاريخ دوف بوند، سمعت صوتاً يناديها من بين الصفحات المرتعشة التي يكسوها الغبار.

اقرئيني.

تردّد صدى هذه الكلمة داخل رأسها، لكن من دون أن تسمع صوتاً حقيقياً. حماستها الشديدة جعلت سارة تتوقّف في الممر، ونظرت نحو الخزانة الزجاجية.

كتاب صغير يقبع في وسط الواجهة الزجاجية بدأ يصدر حفيفاً بنفاد صبر. اقرئيني الآن.

وضعت سارة حقيبة ظهرها على الأرض وسارت نحو الخزانة الزجاجية. وضعت يديها على الزجاج الناعم البارد وحدّقت بالكتاب، كتاب يوميات له غلاف جلدي قديم مليء بالشقوق يقبع بين أشياء يدوية قديمة أخرى وكتب تحكي عن نشوء دوف بوند.

كانت سارة تعرف هذا الكتاب، مع أنها لم تره خارج الخزانة الزجاجية، كتبته شارلوت دوف في سنة ١٧٠٢، الابنة السابعة للعائلة المؤسّسة لعائلة دوف بوند وإحدى أسلاف سارة. وبمناسبة عيد المؤسسين، كانت تعاد طباعة أجزاء من هذا الكتاب. كانت سارة تحفظ الفقرات التي تتكرّر كثيراً، خصوصاً الفقرات القليلة التي تصف فيها شارلوت دوف ذات الأربعة عشر ربيعاً بتفصيل مدهش اللحظة التي وصل فيها أفراد عائلة دوف إلى قمة جبل بلاك ماونتن في نورث كارولاينا،

ونظروا إلى الوادي الأخضر في الأسفل ورأوا بركة تتلألأ تحت أشعة شمس الصباح كأنها ياقوتة تزيّن سريراً من المخمل الموشّى بالزمرّد، فقرّرت العائلة أن تمكث هنا.

وهكذا ولدت دوف بوند.

توجد تفاصيل أخرى في القصّة، قال لها الكتاب.

«مثل ماذا؟» سألته سارة.

ستعرفين عندما تقرئينني.

فكّرت سارة بذلك. وبما أنه كان يُسمح لها أن تستعير كتابين فقط من المكتبة في وقت واحد لمدة أسبوع، كان عليها أن تكون دقيقة في اختيارها، قالت: «أنت صغير جداً».

لديّ سبع وثمانون صفحة.

ليست كثيرة، خصوصاً أنها مكتوبة باليد، ويمكنها أن تقرأها خلال بضع ساعات. هل توجد تنانين؟»

لا. كان انزعاج الكتاب واضحاً حتى من وراء الزجاج السميك.

رفعت سارة يدها عن الواجهة الزجاجية، وقالت: «أريد كتاباً فيه تنانين».

صفق الكتاب بصفحاته غاضباً. اقرئيني، كرّر بحدّة. يجب أن تقرئيني.

إن كان هناك شيء لا تحبّه سارة دوف، فهو أن يأمرها أحد ماذا تفعل. وكان ذلك يحدث لها كثيراً مع ستّ أخوات يكبرنها في السن. فقالت للكتاب: «لا، شكراً»، واستدارت لتغادر المكان.

كان هناك صبي تعرفه من المدرسة يقف على مسافة قريبة منها، يحدّق بها.

إنه بليك ماك إينتير الذي يكبر سارة بسنة واحدة. عندما تكون أخواتها مع أخيه كارتر الذي كان في السنة الأخيرة في المدرسة الثانوية، فإنهن يضحكن بصوت عال ويتصرفن تصرفات غريبة، الأمر الذي كان يزعج سارة كثيراً، فكانت تُفرغ غضبها على بليك عندما تراه أمامها. كان من المفروض أن تنفسّ عن غضبها على كارتر، لكنّه لم يكن يقترب منها، أما بليك فكانت تراه في الحافلة في كلّ يوم، وكانت تحاول استفزازه.

نظر بليك إلى الخزانة الزجاجية، ثم نظر إليها وسألها «مع من تتكلّمين؟» كانت نبرة صوته وقحة، ووجهه أحمر.

«أكلّم نفسي. هل ترى هناك أحداً غيري؟»

استند إلى قدمه الأخرى، وحقيبته الثقيلة تتدلّى من كتفه. بعد لحظة صمت، قال بنبرة فظة: «أنا لا أكلّم نفسي أبداً».

فهزّت كتفيها وقالت: «لأنك لا تتصت».

فتجهم وجهه وقال: «إنك لا تعرفين».

ابتسمت ابتسامة ساخرة، تلك الابتسامة التي تعلّمتها من أختها الأكبر منها، ماديسون، التي كانت تعرف كيف يمكن أن تصدّ شخصاً بسرعة، وقالت: «أليس كذلك؟».

امتقع وجهه، ثم دمدم شيئاً تحت أنفاسه، وألقى نظرة مرتبكة أخيرة على الخزانة الزجاجية، ثم نظر إليها، وذهب.

ما إن غادر حتى همس لها الكتاب، افتحي الخزانة الزجاجية. إنها ليست مقفلة.

فقالت: «لا، لن أفعل ذلك». والتقطت حقيبتها وقالت: «أريد كتاباً فيه تنانين».

ستعودين! همس الكتاب غاضباً. انتظري! إنك تحتاجين إليّ».

تجاهلته سارة وسارت نحو الطابق العلوي حيث قسم كتب الشباب الصغار. غمرتها السعادة عندما وصلت إلى هذا القسم الذي توجد فيه الكتب التي تحبّها كثيراً، الكتب التي لا تكلّمها والتي توجد فيها قصص تحكي عن تنانين وسيوف وفتيات يجعلن الأشياء تحدث.

طوال الشهر التالي، ظلّ الكتاب يكلّم سارة كلّما رآها في المكتبة. في البداية كان يطلب منها أن تقرأه بأدب، ثمّ يرجوها، وعندما لا يجدي ذلك نفعاً، يبدأ يرغي ويزبد. وعندما ملّت من إلحاح الكتاب، غيّرت سارة طريقها فأصبحت تصعد الدرج إلى ذلك القسم لكي لا تمرّ أمام الخزانة الزجاجية.

بعد عدة أسابيع، أدركت سارة أن بإمكانها سماع كتب أخرى، مع أن أصواتها كانت أكثر نعومة وتهمس بأصوات تكاد تكون مسموعة، ولم تكن تطلب منها كما كان يطلب منها ذلك الكتاب، وإنما كانت تحاول إغراءها واستمالتها.

سوف تستمتعين بقراءتي، قال لها كتاب جميل ذو غلاف أحمر ذات يوم سبت.

فكّرت قليلاً ثم سألته: «هل توجد تنانين؟»

لا، لكن يوجد وحيد القرن في الصفحة ١٤٢.

كانت تحبّ وحيد القرن، لكن ليس بنفس قدر حبّها للتنانين. قالت سارة ذلك للكتاب، وبما أنه كان أكثر تهذيباً من كتاب «صحيفة اليوميات»، تنهد الكتاب بأسف وقال: إذاً في مرة أخرى، عندما تملّين من التنانين.

هذا لن يحدث أبداً. لكن سارة قالت له بتهذيب «طبعاً» وواصلت طريقها بين رفوف الكتب.

في مساء ذلك اليوم، عندما كانت سارة جالسة في المقعد الخلفي في سيارة أمها وحقيبة كتبها في حضنها، سألت أختها أفا الأقرب إلى عمر سارة، هل تكلّمها الكتب.

فأجابتها أفا بفظاظة: «لا، لكنّي أتمنّى أن تكلّمني النباتات». كانت أفا تحبّ أن تزرع شيئاً، وقد ملأت حديقة بيتهن بالأزهار. وكانت أمّهن تقول دائماً «إن لدى أفا إبهاماً أخضر»، وهذا صحيح

لأنه توجد على إبهام أفا، وعلى أطراف أصابع يديها مسحة خضراء. كانت أفا تقول «إنها مبقعة من العشب لأنها لا تتوقف عن العمل في الحديقة، لكن سارة لم تكن تصدّقها. فهما من أسرة واحدة.

نظرت إلى أفا وتساءلت كيف سيبدو الأمر لو كانت الأزهار تتكلّم أيضاً. وبعد أن فكّرت بذلك قليلاً (تذكّرت أنّ لبعض النباتات أشواكاً قد تسبّب طفحاً يجعلها تحكّ جسدها)، قالت سارة لنفسها إنها تفضّل أن تكلّمها الكتب فقط. حسناً، كلّ الكتب باستثناء كتاب واحد.

عندما وصلن إلى البيت، انتظرت سارة أخواتها حتى نزلن من السيارة. وعندما سمعت صوت باب الغربال يغلق وراء أخواتها المزعجات وضعت حقيبتها على كتفها واتجهت نحو الشرفة في فناء البيت. كانت تعرف أن أحداً لن يفتقدها حتى يحين موعد العشاء، وكانت متلهفة لقراءة الكتب التي استعارتها من المكتبة.

عندما تجاوزت الأرجوحة الصدئة، ألقت نظرة على البيت المجاور الذي يقيم فيه ترافيس باركر. كانت هي وتراف في نفس الصفّ منذ أن كانا في روضة الأطفال، وكان من أعزّ أصدقائها. لكنه لم يكن في البيت خلال هذا الصيف لأنه سافر إلى أتلانتا لزيارة مزرعة جدّه. كانت تأمل أن يكون تراف هنا لتحكي له عن الكتاب الذي كلّمها وعن صفاقته. ربما كان سيسخر منها، لكنها لم تكن تهتم بذلك لأنها كانت تسخر منه أيضاً في بعض الأحيان، وهكذا يكونان متعادلين.

وقفت وركلت حذاءها من قدمها، وشعرت بسعادة كبيرة عندما غاصت أصابع قدميها في العشب الناعم البارد. ثم دسّت حذاءها في حقيبتها وسارت بسرعة بجانب صفوف الأزهار التي كانت أفا قد زرعتها على جانبي الدرب المفضي إلى شجرة الصفصاف الضخمة التي تغطي أغصانها الوارفة باحة البيت الخلفية.

كانت الشجرة التي يبلغ عمرها مئات السنين، ترتفع إلى السماء وتنحني أغصانها المورقة فوق جدول الماء الضحل الذي يجري في الزاوية الخلفية من باحة البيت. كانت سارة تحبّ هذه الشجرة كثيراً وكانت متيقنة بأن الشجرة تحبّها أيضاً.

ألقت سارة نظرة سريعة على البيت لتتأكد من أن أخواتها لا يراقبنها، ثم انسلّت وراء الشجرة إلى مكانها المعتاد. كانت صاعقة قد أصابت جذع الشجرة منذ زمن بعيد وجوّفتها. وخلال تلك السنوات اهترأ خشب الجذع من المطر والريح فأصبح بإمكانها أن تجلس في ذلك التجويف وتسند ظهرها إلى الجذع من دون أن يراها أحد.

فتحت سارة حقيبتها ومدّت يدها إلى داخلها لتخرج كتاباً..لكنها سرعان ما لوت وجهها عندما وجدت أن تمسك بيدها «صحيفة اليوميات» الغريبة ذات الغلاف الجلدي السميك المتشقق القاسي تحت ملمس أصابعها. «كيف جئت إلى هنا؟»

هل هذا يهمّ؟ بما أنني هنا، فاقرئيني إذاً.

نبرة الرضا في صوته أغضبت سارة، فقالت: «لا»، ووضعته جانباً وراحت تفتش في حقيبتها عن الكتابين اللذين استعارتهما من المكتبة واللذين يتحدثان عن التنانين والأحد عشر محارباً. ثم نظرت إلى الكتاب وسألته، «أين هما؟»

ليسا هنا. فاقرئيني إذاً.

خطر ببال سارة لوهلة أن ترمي الكتاب القديم في جدول الماء سويت كريك، لكن نظرة واحدة إلى الغلاف الجلدي المتشقق والصفحات الصفراء جعلتها تحجم عن ذلك. فقد كان كتاباً قديماً، قديماً جداً، يزيد عمره على ثلاثمائة سنة، وهو شديد الأهمية لسكان البلدة، لذلك، فهو معروض في الخزانة الزجاجية في المكتبة. ربما لهذا السبب كان نزقاً، حادّ الطبع. لأنه كتاب قديم منسيّ، وسيجعلني أنا كذلك.

أطلقت سارة تنهيدة عميقة، وأخذت الكتاب ووضعته في حضنها، وبسطت كفها فوق غلافه الجلدي. كانت تريد أن تتحسس الجلد المتشقق فقط، لكن لدهشتها حلّقت الكلمات والصور في رأسها. فرأت يداً مهيبة، مبقعة بالحبر تكتب الكلمات في الكتاب بواسطة ريشة مبللة بالحبر، ورأت الشمس تغرب وتشرق ورحلة طويلة في عربة ينبعث منها صرير، ثم رأت وميض بحيرة فضّية في وسط واد أخضر، وشجرة تسقط وترتطم بأرض الغابة استحالت إلى ألواح خشبية تكسو أرضية أحد البيوت، ثم رأت صبياً ذا عينين زرقاوين لون شعره مثل لون شعرها يلتفت إلى الوراء ويبتسم، وعدداً من الرجال يشدّون حبالاً مربوطة إلى جدار يرفعون الألواح الخشبية ويثبتونها في مبنى أدركت أنه مبنى الكنسية المعمدانية الأولى.

رأت كلّ ذلك وأكثر من ذلك بسرعة كبيرة، وبدأت يدها تزداد دفئاً عندما بدأت الصور تصبح أكثر حيوية، حقيقية أكثر. وبدأت تتوارد بسرعة كبيرة حتى بدأ رأسها يؤلمها، فسحبت يدها من كتاب عائلة دوفر وحدّقت في راحة يدها المحترقة.

همس الكتاب معتذراً على مضض.

ثنت أصابعها فوق راحة يدها وعرفت أن الكتاب على صواب. «يجب أن أقرأك».

نعمممممممممممم

جلست سارة وأسندت ظهرها إلى الشجرة، وفتحت الكتاب، وسرعان ما استغرقت في الكلمات المخربشة. وعندما بدأت تقرأ، تجلّت بلدتها أمامها وأصبحت تراها كما رأتها شارلوت دوف في عام ١٧٠٢. رأت سارة بلدة دوف بوند وهي تولد ثم وهي تنمو ويظهر فيها بناء تلو الآخر. رأت الأشخاص الذين جاؤوا ومكثوا، والأشخاص الذين أحبّوا وتزوّجوا وأنجبوا أطفالاً كبروا ثم ماتوا. رأت كلّ لحظة مرت على دوف بوند، حتى ما وراء صفحات الكتاب، وبينما كانت تقرأ، أدركت أنّها تعيش في مكان لا يشبهه أي مكان آخر.

أُغرمت سارة ماي دوف الجالسة تحت شجرة الصفاف الباكية بجانب جدول الماء سويت كريك، غارقة في صفحات الكتاب الذي كتبته إحدى قريباتها، بالبلدة التي ولدت.

عندما كبرت وتذكرت ذلك، أدركت أن هذا ما كان الكتاب يريد أن تعرفه. لكنها آنذاك، كانت منهمكة في تلك الأحداث التي صبتّها شارلوت دوف في صفحات تلك اليوميات، وجمال الأشخاص الذين صورتهم وجعلت دوف بوند تضج بالحيوية.

بعد قليل، فَتح باب الغربال بقوة، وسمعت صوت أختها ماديسون تناديها «سسسسارة». كانت ماديسون تحبّ أن تصدر لها أوامر، وكانت طويلة القامة مثل ساقيها الطويلتين، ثم صاحت «العشششاء».

فركت سارة عينيها. منذ متى تقرأ؟ لا يمكن أن يكون قد مضى عليها وقت طويل لأن الكتاب لا يزيد على سبع وثمانين صفحة، ولم تغب الشمس أكثر مما كانت غائبة عندما جلست وبدأت تقرأ.

«سسسساررررة» صاحت ماديسون مرة أخرى، هذه المرة بصوت أقوى. سمعت سارة أمّها تقول شيئاً من داخل البيت، ثم ساد صمت، واختفت ماديسون وأغلقت باب الغربال وراءها. لكن سارة كانت تعرف أنها ستعود لأن ماديسون ليست من الأشخاص الذين يستسلمون بسهولة.

أغلقت سارة الكتاب وضمته إلى صدرها. لم تكن الكلمات مرئية لكنها مفعمة بالحيوية، مشرّبة حتى الغلاف. لو أغمضت عينيها لرأت القصّة مرة أخرى، كما لو كانت لا تزال تقرأها.

هبّت نسمة من الهواء، فصدر حفيف من الأعشاب وهبت رائحة هواء المساء الرطب، وبدأت اليراعات تتراقص عبر الباحة، كما لو كانت تريد أن تقودها إلى البيت.

اقرأي باقي الصفحات، طلب منها الكتاب.

«سأقرأها»، قالت سارة، «لكن بعد العشاء عندما لا يزعجني أحد». التقطت حقيبة كتبها، ودست الكتاب فيها، ثم نهضت واقفة، ساقاها متشنجتان، «أعدك بذلك».

لم يعد بإمكانها أن تتوقّف عن القراءة الآن، وكانت تعرف هي والكتاب ذلك. فبعد أن يخلد الجميع إلى النوم، ستغوص تحت غطاء سريرها وتقرأ على نور مصباحها الكاشف حتى منتصف الليل، تلتهم كلّ كلمة في الكتاب كما يلتهم شخص جائع وجبة طعام، يتذّوق كلّ لقمة ويُلحقها بشراسة باللقمة التالية.

حملت حقيبتها وعلقتها على كتفها وخرجت من مكانها السري إلى هواء المساء البارد. وبينما كان الكتاب يدمدم منزعجاً من داخل حقيبتها، راحت تتبع خطّ اليراعات عبر الباحة ثم دخلت إلى البيت.

غرايس

ويتلو، نورث كارولينا

نفس اليوم

«أنا فتاة جيدة. أنا فتاة جيدة. أنا فتاة جيدة». كررت غرايس ميشيل ويلر هذه الكلمات همساً من المكان الذي تجلس فيه بجانب أختها في المقعد الخلفي من سيارة موظفة الرعاية الاجتماعية. كانت غرايس تردد هذه العبارة كثيراً، بأمل أن تتحقّق، لكنها لم تتحقق قط بشكل ما.

لو كانت غرايس فتاة جيدة حقاً، لما تركتها أمّها هي وأختها هانا على درج الكنيسة وهربت مع روب، الرجل ذو الشعر الدهني الذي كان يعمل في مخزن «فاست مارت» والذي تفوح منه رائحة تشبه رائحة «بوريتو» قديمة.

لو كانت غرايس فتاة جيدة، لما كانت هي وأختها هانا هنا الآن، تجلسان في المقعد الخلفي في سيارة موظفة الرعاية الاجتماعية في طريقهن إلى بيت رعاية آخر.

لو كانت غرايس فتاة طيبة، لما قلقتا على توفر الطعام كي تأكلا، أو مكان تعيشان فيه.

التقت عينا غرايس بنظرة الآنسة واندا في مرآة السيارة الخلفية. كان وجه موظفة الرعاية الاجتماعية المستدير الرطب محبطاً. «لقد كبرت على ممارسة هذا السلوك. ستصبحين في الصفّ الخامس عندما تفتح المدرسة».

دفعت غرايس ذقنها إلى الأمام وقالت: «أنا لست آسفة».

احمرّ وجه موظفة الرعاية الاجتماعية، وقالت: «يجب أن تكوني! يجب أن تتصرفي بشكل أفضل. يجب أن تفعلي ذلك».

كانت غرايس تعرف أنه يجب أن تحسّن سلوكها، لكنها مهما فعلت، ومهما حاولت أن تتصرف بشكل جيد، كانت الأشياء تحدث بعكس ما تريد، أشياء لم يكن باستطاعتها التحكم بها.

ففي بيت الرعاية الأخير، تعاركت بالأيدي مع مارك، ابن عائلة هندرسون. لو كان قد سخر منها هي لتجاهلته لأنها تعوّدت على ذلك، أما هذه المرة، فقد عامل أختها هانا بحقارة، فاستشاطت غرايس غضباً واحمرّ وجهها.

كانت غرايس سريعة الغضب وعندما تغضب كان وجهها يحمرّ أحياناً لكنها لا تشعر بأنه حار كما كانت تتخيّل أن الغضب يجب أن يكون، وإنما تشعر بأنه بارد ومتجمّد، هبّة قوية من الهواء البارد تهبط على رأسها ويجعله يتجمّد. وعندما كان يحدث ذلك، عندما يحمرّ وجهها وينذر بأنها ستقع في الفخ، كانت تقاتل، تلوّح بقبضتيها وتركل بقدميها بكلّ ما أوتيت من قوّة. هذه المرة، هشمّت أنف مارك السمين وسال الدم منه، فراح يبكي فجرى والداه وخلّصاه من بين يديها.

من خلال السديم الرقيق البارد، سمعت صوت مارك ينكر أنّه أخطأ. وبما أن تاريخ غرايس مليء بالمشاكل والشجار، لم تقل كلمة واحدة لتدافع عن نفسها لأنها تعرف أن ذلك لن يجديها نفعاً، بالإضافة إلى أنها لا تستطيع أن تلوم والدي مارك لأنهما سيصدّقان ما يقوله ابنهما ولن يصدّقا ما تقوله هي. إنهما يفعلان ما يُفترض أن يفعله الآباء الحقيقيون. ولم تفاجأ عندما اتصلا بالآنسة واندا وطلبا منها أن تنقل غرايس إلى بيت آخر، وأرادا أن تبقى هانا معهما.

كان الجميع يريدون أن تبقى هانا الحلوة ذات العينين الزرقاوين والشعر الأشقر، ولم يكن أحد يريد غرايس ذات العينين البنيتين والشعر البني المنفلت. عندما أوضحت الآنسة واندا بأن غرايس وهانا أختان ويجب أن تبقيا معاً، تركتهما أسرة هندرسون، وأصبحتا ثانية بلا مأوى.

تسارعت الأميال خارج نافذة السيارة، وضغطت غرايس قبضتها على بطنها التي بدأت تؤلمها. كانت تعرف ما الذي ينتظرهما. إذ ستذهبان إلى بيت آخر فيه قواعد مختلفة عن البيت الآخر، قواعد يتعين عليها هي وهانا أن تلتزما بها، وستنتقلان إلى مدرسة أخرى تتهامس فيها الفتيات عليهما وفتيان يسخرون من قصة شعرهما وثيابهما الرخيصة، وسيمتعض المعلمون من رؤية هاتين الفتاتين اللتين جاءتا إلى مدرستهم في نهاية السنة، وسيهزّون رؤوسهم أيضاً عندما يدركون مدى تخلفهما عن المنهاج. هذا هو الثمن الذي يدفعه التلميذ عندما ينتقل من مدرسة إلى أخرى: فإما أن يكون متخلفاً وإما متقدّماً جداً. دائما إما هذا وإما ذاك. كان عدم قبولهما الثمن الذي تدفعانه لأنهما لا تنتميان إلى أسرة، ولا يوجد حلّ لهذه المشكلة. هكذا هو الحال وسيظل هكذا دائماً.

شعرت غرايس بالتعب فجأة، فأسندت رأسها إلى النافذة ورأت أن الآنسة واندا تنظر إلى هانا في مرآة السيارة. لان وجه موظفة الرعاية الاجتماعية حتى إنه ذكّر غرايس برغيف خبز طازج.

تلين وجوه الناس دائماً عندما ينظرون إلى هانا. كانت غرايس صعبة المراس، شعرها مفتول، غير مرتب وقبضتاها مشدودتان على الدوام، أما هانا فكانت تطوف فوق سحابة فضّية، لا تلوّث قدميها بالطين أبداً، شعرها حريري ناعم مثل ابتسامتها، ولم تكن تدع كلمات الآخرين القاسية تؤثر فيها. كانت غرايس فخورة بأن أختها الصغيرة قادرة على ألّا تدع مصاعب حياتهما تؤثر في ابتساماتها.

كانت هانا كلّ شيء بالنسبة إلى غرايس. وطالما كانت هانا تحبّها، كانت غرايس تجد القوّة لمعالجة الأمور الأخرى التي يتعين عليهما التعايش معها. كانتا تعتبران أنفسيهما أسرة واحدة، ولم يكن باستطاعة أحد أن يغيّر هذه الحقيقة. قالت غرايس لنفسها إنها عندما تكبر ستعتني بنفسها وبأختها، وستحصل على عمل، عمل فيه طاولة مكتب وملفات وأوراق ملاحظات، وستوفر لكليهما قدراً كافياً من الطعام وسترتديان أفضل الثياب وستشتري بيتاً من النقود التي تكسبها من عملها وتعيشان معاً ولا تفترقان.

انعطفت الآنسة واندا بسيارتها الهوندا الصدئة إلى درب ضيّق مترب طويل. راحت السيارة تعلو وتهبط في الدرب المليء بالحفر، باعثة غباراً يكفي لحجب شمس الصباح. عندما وصلت السيارة إلى نهاية الطريق وتوقفت، همد الغبار من حولهن، وكست السيارة طبقة حمراء من التراب.

مدّت غرايس رقبتها لتنظر من النافذة. رأت بيتاً مهلهلاً، مطلياً بطلاء أبيض، ينتصب وسط باحة مليئة بأزهار من كلّ نوع ولون، يحيط به سياج خشبي أبيض مدبّب مائل، ورأت ثلاثة كلاب تضغط بأنوفها عبر شقوق السياج، ألسنتها تتدلّى وتلهث بقوة.

فتحت الآنسة واندا الباب من جانبهما ثم سارت إلى صندوق السيارة لتُنزل حقائبهما المصنوعة من القماش الخشن. عندما ساعدت غرايس وهانا على فكّ حزام مقعديهما، نزلتا من السيارة لتستنشقا الهواء الرطب.

أمسكت غرايس بيد هانا الدافئة والدبقة قليلاً من أقراص النعناع التي كانت قد أعطتها لهما الآنسة واندا عندما جاءت لتأخذهما.

«يا إلهي»، همهمت الآنسة واندا وهي تُخرج حقيبتهما من صندوق السيارة، وقالت: «غرايس، ماذا يوجد في حقيبتك؟ إنها تزن طناً».

لم تجبها غرايس. في السنة الماضية، كان كلّ ما تملكه لا يكفي لملء ثلث حقيبتها، أما الآن فقد ملأتها بأشياء تعتبرها مهمة جمعتها إلى أن يصبح لديها هي وهانا بيت. لم تكن تلك الأشياء جديدة، لكن غرايس ستستبدلها عندما تعمل وتحصل على أول راتب لها. أما الآن فيوجد في الحقيبة كوبان مبقعان كانت قد أخرجتهما من صندوق القمامة في المدرسة، وشوكتان وملعقتان أخذتهما أثناء حفل عشاء في الكنيسة عندما تأكدت من أن أحداً لا ينظر إليهما، وإبريق مثقوب عثرت عليه بين الأعشاب وراء باحة وقوف السيارات عندما كانتا تنتظران خروج السيدة هيندرسون من اجتماعها. وكانت في الحقيبة أشياء أخرى أيضاً: منشفة وجدتها في صندوق متعفّن في مرأب بيت أسرة هندرسون، وعلبة بسكويت للكلاب، وأشياء أخرى، ستستعملها عندما تصبح هي وهانا عندما تكبران وتنطلقان في حياتهما. كانت غرايس تأمل أنّ يحدث ذلك الآن.

احمّر وجه الآنسة من ثقل الحقيبة التي وضعتها بجانب السيارة وأخذت نفساً عميقاً. «لقد أنزلنا الحقائب»، قالت وابتسمت ابتسامة متكلفة أخرى، ثم أضافت، «تنشقّا هذا الهواء النقي؟ أليس الطقس هنا أفضل من المدينة بكثير؟ أنا متأكدة من أنكما ستحبّان العيش مع السيدة جيانو».

نظرت غرايس إلى البيت الذي كان يبدو متداعياً، أحرقته الشمس، وباحته المليئة بالأزهار غير المتناسقة، وقالت: «هذا ليس بيتاً، إنه كوخ».

تضرّج وجه الآنسة واندا، وقالت: «غرايس ويلر، أغلقي فمك! قد لا تكون السّيدة جيانو امرأة غنية مثل بعض أسر الرعاية الاجتماعية الأخرى، لكنها ميسورة الحال وهي امرأة طيبة جداً تعامل الأطفال الذين ترعاهم بطيبة شديدة». تردّدت موظفة الرعاية الاجتماعية ثم أضافت بنبرة دفاعية، «أعرف السّيدة جيانو منذ أنا كنت فتاة صغيرة. في الحقيقة، أنا التي أقنعتها في أن تقبل رعاية الأطفال. لقد نشأنا في نفس البلدة، ومع أنها قد تبدو امرأة مختلفة قليلاً، فهي امرأة لطيفة وذكية». بينما كانت الآنسة واندا تقول ذلك، انتقلت نظرتها إلى البيت، ثم دمدمت، كما لو أنها تكلّم نفسها، «إنها امرأة خاصة؟»

نظرت غرايس بدون ارتياح إلى الباحة المليئة بالزهور التي كان يبدو أنها تحاول أن تزحف إلى البيت الصغير. ورأت دالية تسلقت ووجدت لنفسها مكاناً فوق قشرة طلاء على الجدار الخشبي وبدا لغرايس أنها تريد أن تنقر على النافذة. وكانت الكلاب تلهث بصوت مسموع في وسط ذلك السكون، تراقبهن من بين الشقوق في سياج الخشب الباهت، وكانت أذيالها التي تهتزّ تحرّك الزهور معها.

كان كلّ شيء غريباً وجديداً. لقد ملّت غرايس من كلّ شيء جديد. كانت تريد شيئاً مألوفاً ومريحاً مع أنها لم تستطع أن تفكّر بأيّ شيء الآن. الرغبة في أن تهرب جعلت جسدها يرتعش. «لا. لا نريد أن نبقى هنا».

«نريد؟ يا إلهي، أيتها الطفلة، ستكونين محظوظة إذا سُمح لك بأن تبقي هنا. السّيدة جيانو امرأة صعبة الإرضاء ولا تقبل أحداً بسهولة».

«هل عليها أن تختار؟»

رمقت الآنسة واندا غرايس بنظرة حادة، وقالت لها: «كلّهم يختارون. السّيدة جيانو لا تقبل إلا بضعة أطفال، وهي لم تأخذ أطفالاً منذ سنة». نظرت موظفة الرعاية الاجتماعية إلى النافذة المفتوحة قبل أن تضيف بصوت منخفض، «يجب أن نذهب إلى الشرفة لكي تراكما السيدة جيانو».

شعرت غرايس بصدرها يحترق. كانت تعرف ما الذي ستراه السّيدة جيانو، ولن يكون ذلك جيداً، على الأقل بالنسبة إلى غرايس. حام الصقيع الأحمر فوق رأسها. الشعور بالحيرة زاد الأمر سوءاً. كانت تشعر بأن دمها يتجمّد عندما تغضب. سرت في جسدها جداول من الصقيع. «لا يهمني إن كانت ستنظر إلينا»، رفعت غرايس صوتها، «وأنا أيضاً سأنظر إليها، وقد لا تعجبني، لذلك....»

«غرايس»، همست موظفة الرعاية الاجتماعية، «توقّفي! إذا لم يتم ذلك الآن، عندها...» وألقت الآنسة واندا نظرة ذات مغزى على هانا.

تلعثم العالم حتى وقف فجأة، حُبس في مكان مثل صورة. قالت غرايس التي كانت لا تزال متشبثة بيد هانا، بصوت مخنوق «لا».

رقة حقيقية ومضت في وجه الآنسة واندا الممتلئ. كانت الدموع المترقرقة في عينيها مخيفة أكثر من أيّ شيء قالته، ثم أضافت: «أنا آسفة يا غرايس، لكن الأمور تسير هكذا. وهذا خطأك. هذا هو ثالث مكان تذهبين إليه في أقل من سنة. لقد توسلت إلى المسؤولة لأن تدعنا نحاول هذه المرة. إنها فرصتك الأخيرة».

نظرت هانا إلى غرايس وسألتها، «ماذا تقصد؟»

سننفصل. سأذهب أنا إلى دار الأيتام، وستذهبين أنت لتعيشي مع أسرة، ولن ترى إحدانا الأخرى إلّا في أثناء العطل، هذا إذا سمحوا لنا بذلك. وستكبرين بدوني ولن نعود نشعر بأننا

أختان، مع أننا كذلك. كان هذا ما يجب أن تقوله غرايس لأختها. فهي لم تكذب على هانا قط، لأنك لا تكذب على الذين يحبونك. لكن الخوف من أن تفقد هانا جمّد لسان غرايس ولم يعد بإمكانها أن تجيب ولا حتى أن تفكّر.

لا بدّ أن الخوف ارتسم على وجهها لأن تعابير هانا استرخت وتحولت إلى نظرة ساهمة بعيدة كما لو أنها ذهبت إلى مكان أفضل. استدارت هانا ونظرت بعيداً، وراحت تدمدم بصوت منخفض، ثم انسلّت أصابعها من أصابع غرايس.

شعور بالوحدة غمر غرايس، فأمسكت بيد أختها بقوة أكثر، وقالت بشيء من اليأس: «ستكون الأمور على ما يرام».

عادت هانا ونظرت إليها. كان الشكّ يغلّف عينيها الصافيتين.

«أعدك يا هانا»، مهما حدث فلن أتخلّى عن هانا. أبداً. سأكون فتاة جيدة. سأكون فتاة جيدة. سأكون فتاة جيدة. ثقل هائل جثم فوق صدرها. كانت الغيمة الحمراء الباردة تحوم فوق رأسها حتى أصبحت ترفرف فوقها. اعتراها شعور شديد بالألم. ثم نظرت في عينيْ الآنسة واندا، وقالت لها: «سنجعل أنا وهانا السّيدة جيانو تحبنا».

بدا الارتياح على وجه موظفة الرعاية الاجتماعية الذي أصبح يشبه قطعة عجينة. «جيد، هذا ما يجب أن يحدث. سأبذل كلّ ما بوسعي، لكن الأمر كله يتوقف عليك»، لانت نظرتها، ثم أضافت، «إنه بيت جميل، مع أنّك ستغيّرين المدرسة ويمكنك أن تتّخذي أصدقاء جدداً، أليس كذلك؟»

لم يكن ذلك سؤالاً، فلم تجب غرايس. لم يكن عندها صديقات، لأنه لم يكن عندها أشياء مشتركة تجمعها بالفتيات الأخريات في صفّها اللاتي تتكون عوالمهن من أشياء لا تعرفها غرايس، أشياء مثل قالب كيك عيد الميلاد، وبيوت لا يُرغمن على مغادرتها، وآباء يحبّونهن. ولم يكنّ يعرفن أو يفهمن عالمها، ماذا يعني أن تكوني جائعة وأن تبقي وحدك لأيام طويلة بانتظار إرسالك إلى بيت تابع للرعاية الاجتماعية، يقاذفونك مثل كرة في لعبة. لم تكن تعبأ بذلك لأن هانا أختها وأعزّ صديقاتها معها، وهذا كلّ ما كانت تحتاج إليه. هانا فقط.

«هيا لنذهب يا بنات»، قالت الآنسة واندا وابتسمت ابتسامتها المشرقة والتقطت الحقائب القماشية، ولوت وجهها مرة أخرى من ثقلها. رفعت الآنسة واندا حقيبة هانا الأخف وزناً ووضعتها على كتفها وسارت بتثاقل نحو البوابة، وراحت تجرّ الحقيبة الأخرى التي كانت ترتطم بساقها. رفعت المزلاج وفتحت البوابة، وقالت لهما: «ادخلا».

اندفعت الكلاب وبدأت تهزّ أذيالها عندما تقدمت الآنسة واندا كلاً من غرايس وهانا ودخلت إلى باحة البيت الصغيرة. أغلقت الآنسة واندا البوابة وسارت أمام الفتاتين على الممر الاسمنتي المليء بالشقوق المؤدي إلى الشرفة، وهي تحدثهما لاهثة عن طهي السيدة جيانو اللذيذ، وحبّها للحيوانات الأليفة.

أفلتت هانا يدها من يد غرايس، وجرت نحو الكلاب وانحنت إليها مرحبة بقبلاتها الندية. كانت هانا تحبّ الحيوانات كثيراً إلى درجة أن غرايس كانت تتساءل أحياناً إن كانت أختها تحبّ

الحيوانات أكثر مما تحبّ الناس، وإذا كان الأمر كذلك، فإن غرايس لا تلومها على ذلك.

صعدن جميعهن الدرجات المؤدية إلى الشرفة. كانت الشرفة تهتز تحت أقدامهن، لكن أحداً حاول أن يجعلها جميلة. فقد طُليت أرضيتها الخشبية بلون أزرق بلون المحيط، وفيها كرسيان أبيضان من الخيزران عليهما وسادات ملوّنة، وتتوسط الكرسيين طاولة معدنية صغيرة عليها كتابان اصفّرت صفحاتهما مع الزمن.

بينما كانت هانا تداعب الكلاب، اتجهت غرايس نحو الكتابين. لم تكن تحبّ القراءة، لكن بما أنها كانت تكتب بعض الفقرات عندما كانت تُحتجز بعد الدوام في مكتبة المدرسة، تذكّرت أنها قرأت عنوان هذا الكتاب من قبل. كان عنوانه «جيمس والخوخة العملاقة»، أما الكتاب الثاني فكان أسمك ومرعباً أكثر، كُتب على غلافه بحروف ذهبية «نساء صغيرات». وتساءلت غرايس كم هنّ صغيرات: هل هنّ قصيرات القامة فقط، أم أنهن بحجم الجنيّات؟ وتمنّت أن يكنّ بحجم الجنيّات.

وضعت الآنسة واندا الحقائب على أرضية الشرفة الخشبية وبدأت تلوّح بيدها على وجهها الذي ازداد حمرة. «يا إلهي يا غرايس، كأن حقيبتك مليئة بالأحجار. أنا...» فاحت في الهواء رائحة فأشرق وجهها على الفور. «لحم خنزير مقدد! لا بد أن السّيدة جيانو تعدّ طعام الفطور الآن».

قرقرت معدة غرايس، لكنّها تجاهلتها والتقطت الكتاب السميك وفتحته. فوجئت عندما وجدت أن رائحة الكتاب تشبه رائحة الكيك. اعترتها رغبة في أن تجلس على أحد هذين الكرسيين وتقرأ عن...

فُتح باب الغربال بقوة وخرجت السّيدة جيانو تتبعها قطّة برتقالية اللون سمينة.

كانت السّيدة جيانو امرأة ضئيلة الحجم، ومع أنها لم تكن شابة، فقد كانت نشيطة، حركاتها سريعة مثل طائر النمنمة الصغير. كانت ترتدي ثوباً موشّى بأزهار كثيرة إلى حدّ أن غرايس قالت لنفسها إنه إذا تناثرت هذه الأزهار في باحة بيتها، فلن يعثر عليها أحد بين الأزهار الكثيفة التي تملأ باحة البيت.

«صباح الخير»، أخذت الآنسة واندا الكتاب من يد غرايس وأعادته إلى الطاولة، ثمّ سحبت هانا ودفعت الفتاتين أمامها. كانت يداها ثقيلتين على كتفيهما مثل أكياس الرمل. «هاتان هما الفتاتان اللتان أخبرتك عنهما. يا بنات، هذه هي السّيدة جيانو».

تقدّمت المرأة نحوهن، وهبّت معها رائحة الفطائر واللحم المقدد. كانت قصيرة القامة، شعرها أسود يلمع لا يمكن أن يكون حقيقياً، وعيناها ثاقبتان غامقتان كأنهما تريان كلّ شيء فوراً. وسارت قطّتها معها، متجاهلة الكلاب التي أقعت الآن ولم تعد تنظر نحوها، كما لو كانت قطّة البيت السمينة أسداً متنكراً في هيئة قطّ.

«صباح الخير». كان صوت السّيدة جيانو ملوَّنا مثل ثوبها، بطيئاً كالشراب، وفخماً. وقفت أمامهما. يداها مثنيتان على صدرها، أحد حاجبيها مقوس إلى الأعلى، من دون أن تظهر ابتسامة على وجهها المستدق. وما هو اسمكما؟»

«هذه غرايس. لقد بلغت العاشرة من عمرها للتو، وهذه...» - ودفعت الآنسة واندا هانا قليلاً إلى الأمام، «هانا وعمرها سبع سنوات».

رمقت السّيدة جيانو هانا للحظة طويلة، وانتظرت غرايس تدفق الحرارة الذي سيغمرها.

لكن السّيدة جيانو شبكت ذراعيها على صدرها الضيّق ولم تقل شيئاً.

خفّت ابتسامة الآنسة واندا وقالت بصوت متقائل: «هانا طفلة رائعة. الجميع يقولون ذلك. إنها لا تسبب أي مشكلات وسلوكها جيد».

انحنت السّيدة جيانو لتدقق النظر في هانا.

بادلتها هانا النظرة بتلك الابتسامة الشاردة التي لا تفارقها أبداً. انتصبت السّيدة جيانو في وقفتها وقالت: «يا إلهي، لكني أرى أنك فتاة مثيرة للمشاكل، أليس كذلك؟»

اتسعت عينا الآنسة واندا.

لكن ابتسامة هانا ازدادت، وسألتها «ما اسم قطّتك؟»

«ثيو».

«أريد أن أربت عليها»، قالت هانا ومدّت يدها نحوها.

قوّس القطّ ظهره، وأصدر هسهسة.

لم تُفاجأ السّيدة جيانو، وقالت: «ربما في وقت آخر». فهزّت هانا كتفيها بلا مبالاة والتفتت نحو الكلاب. رمشت الآنسة واندا بعينيها بسرعة، وقالت: «السّيدة جيانو، هانا لم تسبب أي مشاكل، إنها غرايس التي...» وسرعان ما أمسكت لسانها، «لكنها تعد الآن بأن تكون جيدة، أليس كذلك يا غرايس؟»

انتقلت نظرة السّيدة جيانو المتفحصة إلى غرايس.

رفعت غرايس ذقنها وحدّقت بها، تحاول باستماتة أن تقول شيئاً ذكياً أو مضحكاً يجعل هذه المرأة تحبّها وتسمح لهما البقاء معها. لكن كلما أرادت غرايس أن تفعل ذلك، ازداد غضبها اشتعالاً.

لقد كرهت ذلك.

أصبحت تكره أن تتوسل لأحد من أجل الطعام ومكان تأويان إليه.

أصبحت تكره أن تتوسل لكي تعيش.

لا بل حتى تتنفّس.

كلما حدّقت بالسّيدة جيانو وحدّقت السّيدة جيانو بها، ازدادت غرايس جنوناً، وهبط الصقيع الأحمر فوقها.

«توقّفي عن التحديق»، همست الآنسة واندا، وضغطت بيدها بقوة أكثر على كتف غرايس.

لكن غرايس لم تستطع أن تفعل ذلك. كانت في معركة، ولم تستطع أن تستسلم.

عندما شعرت بشيء حريري يلتفّ حول كاحلها، نظرت إلى الأسفل، متفاجئة.

رمش القطّ بعينيه ونظر إليها كما لو أنه أدرك مدى قلقها وغضبها، وأنها كانت مرتبكة.

دفع القطّ رأسه على كاحل قدم كرايس وخرخر بصوت عال.

«حسناً، حسناً». ابتسمت السّيدة جيانو، وقالت، «لقد أحبّك القطّ».

لم تعرف غرايس ماذا تقول. نظرت إلى القطّ الذي ظل يدور حول ساقها، لكنها خافت أن تربّت عليه فيصدر هسيساً كما فعل لهانا.

«السّيدة جيانو، أرجوك»، قالت الآنسة واندا بنبرة مستميتة، لاهثة: «امنحيهما فرصة. أعدك بأنّهما فتاتان جيدتان. غرايس بحاجة إلى حياة منزلية مستقرة، وسوف...»

«هس. يمكنني أن أرى الفتاة بنفسي». ثم انتقلت نظرة السّيدة جيانو المحدّقة من غرايس إلى الطاولة الصغيرة التي يوجد عليها الكتابان، وقالت: «لقد رأيتكِ تحملين الكتاب. إذاً فأنت تحبين القراءة، أليس كذلك؟»

للحظة، فكّرت غرايس -التي كانت تريد أن تقبلهما باستماتة - أن تكذب، لكن نظرة السّيدة جيانو إليها لم تعد نظرة تشي بالتحدي، فقالت: «أنا لا أحبّ القراءة. لا أجيد القراءة كثيراً».

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه السّيدة جيانو الضيّق، وقالت: «ستصبحين أفضل بالممارسة. أعدك بذلك».

أعدك، قالت المرأة. هذا يعني أن غرايس ستبقى هنا لأكثر من عشر دقائق. نَبَتَ بصيص من الأمل في قلبها، لكن السديم المتجمّد فوق رأسها حذرها بصرامة. فقد أملت كثيراً في الماضي ولم يحدث شيء. كانت تعرف من تجربتها بأن التمنّي خطر ومؤلم.

لا تستلمي، ذكّرت نفسها. ضغطت على فكّها وقالت بنبرة حادّة، «قد لا أحبّ القراءة أبداً حتى لو مارستها». أصدرت الآنسة واندا ضجيجاً صامتاً قلقاً.

ضيّقت السّيدة جيانو عينيها وحوّلت نظرتها ببطء من وجه غرايس إلى الصقيع الأحمر الذي يخيّم فوق رأسها. لانت قسمات وجه المرأة، وقالت: «ليس هذا شيئاً جيداً بالنسبة لفتاة صغيرة في عمرك، أليس كذلك؟»

لم تعرف غرايس كيف تجيب. لم يكن أحد يرى الغيمة الباردة التي تحوم فوقها، وبالتأكيد لم يكن أحد يكترث بذلك، فقالت: «لا أظن أنه سيذهب».

هزّت السّيدة جيانو رأسها ببطء، وقالت: «يحتاج ذلك إلى بعض الجهد، لكنّنا سنجعله يذهب».

تجهّم وجه الآنسة واندا، وبدا الارتباك واضحاً على وجهها، وقالت: «السّيدة جيانو، ماذا...»

«سآخذهما».

ارتاح صدر غرايس عندما اندفع الهواء إليه.

ماء القطّ بصوت مرتفع، كما لو كان يردّد صدى صاحبته.

سألت الآنسة واندا بنبرة حذرة، «كلتاهما؟»

ألقت السّيدة جيانو نظرة حادة على موظفة الرعاية الاجتماعية، وقالت لها بنبرة برمة: «طبعاً، كلتاهما». ثم التفتت إلى غرايس وهانا، وقالت: «نادياني ماما جي. إنه أسهل من جيانو: هيا ادخلن الآن لنتناول الفطور. لقد أعددت قليلاً من البيض المخفوق، ولحم الخنزير المقدد والبسكويت. يجب أن نأكل كلّنا ما عدا «، وأشارت بإصبعها إلى أحد الكلاب وقالت: «أنت. لقد سرقتَ قطعة من اللحم من فوق الطاولة، لذلك ستكون آخر من يأكل».

لم يُفاجأ الكلب الهجين المرقّط ذو الأذن المشقوقة لحرمانه من تناول الطعام معهن. حتى إن غرايس ظنت أنه بدا محرجاً، فتهدلت أذناه، وهزّ ذيله وذهب وأقعى في زاوية مشمسة في الشرفة كما لو كان قد استسلم لقدره.

في داخل البيت، رن جرس. «آه. أصبح البسكويت جاهزاً».

ما إن قالت ماما جيانو كلمة «بسكويت» حتى امتلأ الهواء مرة أخرى برائحة شهية، كما لو كان ينتظر دوره.

«يجب أن أُخرجه من الفرن الآن قبل أن يحترق. هيا ادخلن»، وصفقت باب الغربال وراءها واختفت في عتمة بيتها.

عاد القطّ يدور حول ساقيْ غرايس مثبتًّا عينيه الخضراوين على وجهها، بينما راحت تحدّق باتجاه الباب، قلبها يؤلمها بطريقة جديدة غريبة. كانت تريد أن تصدّق كلّ ما رأته حتى الآن: إن هذا المكان مختلف حقاً. لقد وجدت هي وأختها هانا أخيراً مكاناً تمكثان فيه لأكثر من بضعة أشهر.

علّمت الحياة غرايس أن هذا أمر بعيد الاحتمال، لا بل مستحيل، لكن عظامها كانت تريد أن تعرف هل أن كلّ ما يجري حولها حقيقي.

تنفست الآنسة واندا الصعداء، وقالت: «لقد حدث أكثر مما كنت آمل، مع أنني...» وتوجهت نظرتها إلى هانا، وبدا أنها تريد أن تقول شيئاً، لكنها هزّت رأسها وأبدت ابتسامة متكلفة، وقالت: «سأجلب حقيبة هانا. غرايس، يمكنك أن تحملي حقيبتك بنفسك».

تركت غرايس القطّ وذهبت لتجلب حقيبتها التي راحت تجرّها بجانبها. كان القِدر في داخل الحقيبة يُصدر رنيناً وهو يرتطم بالكؤوس. تحرّكت غرايس ببطء حتى أصبحت تسير وراء الآنسة واندا وهانا.

عندما أغلق باب الغربال وراءهن، وضعت غرايس الحقيبة على الأرض ونظرت حولها. أشار الكرسيان المليئان بالوسائد إليها بينما أخذت الأزهار تتمايل مع هبات النسيم. رائحة اللحم المقدد والبسكويت جعلت معدتها تؤلمها بطريقة تختلف عن ألمها من الحزن.

راح القطّ يدور حول الكلب الذي غفا الآن، ثم جاءت وجلست بجانب غرايس. مالت إليها، دافئة ومنتفشة، فرائها البرتقالي الحريري الناعم يلامس ساقها. اختلاجة ذيلها البطيئة والمواء العميق المنبعث من صدرها جعل اللحظة جميلة جداً.

أغمضت غرايس عينيها ورفعت وجهها نحو نور الشمس المنسكب من تحت سقف الشرفة، وهمست «سنكون على ما يرام».

لأول مرة، لم تقلها لتشعر بأنها هي أو هانا أصبحتا في حال أفضل. هذه المرة كانت تعنيها تماماً.

غمر غرايس هدوء غير مألوف ونادر، لكنه كان دافئاً ومريحاً مثل منشفة أُخرجت للتو من المجففة. التفّت حولها، وأراحت قلبها وهدأت من حدّة غضبها.

ستمضي سنوات قبل أن تدرك ماهية ذاك الشعور اللذيذ، لكنها ستتذكّره بوضوح شديد في كلّ يوم بعد ذلك كما لو كان لا يزال هناك. لأنه كان هناك في تلك اللحظة، في شرفة ماما جي، في ذلك البيت الخشبي الذي شوته أشعة شمس الصباح الصيفية، القطّ السمين الذي كان يتمسّح بساقها، عندما اكتشفت غرايس ماذا يعني أن تشعر بأنك قد أصبحت في بيتك الحقيقي.

الفصل (١)

غرايس

دوف بوند، نورث كارولينا

١٦ أيار (مايو) ٢٠١٩

«هل وصلنا؟» سألت ديزي.

«لا»، قالت غرايس للمرّة الثامنة، عيناها مثبتتان على شاحنة النقل التي تسير ببطء أمام سيارتها الهوندا. وقد كُتبت على جانبي الشاحنة القديمة عبارة: إذا أردت أن تنتقل، فإن شركة مكليرن المحدودة يمكنها أن تفعل لك ذلك.

نظرت ماما جي الجالسة في المقعد الأمامي بجانب غرايس إلى ديزي الجالسة في المقعد الخلفي. «لقد اجتزنا اللافتة المكتوب عليها «دوف بوند ترحب بكم، فلم تبق أمامنا مسافة طويلة».

«إننا نسير منذ الأزل»، قالت ديزي، وهي تلّف خصلات شعرها في شكل ذيل حصان بأصابعها القلقة، وهي عادة اكتسبتها في الشهور الصعبة القليلة الماضية.

كانت ديزي طفلة نضجت في وقت مبكّر، ابنة هانا وفتى غير معروف في مدرستها الثانوية. كانت ديزي تُعتبر في هذه السن المبكرة، في الثامنة، طفلة أكبر من سنّها، تقول كلّ ما يخطر ببالها مهما كان جريئاً أو طائشاً. كانت فتاة ذكية أيضاً، لا بل شديدة الذكاء، وذلك بحسب الدرجات التي كانت تحصل عليها في المدرسة، وكانت تقرأ بمستوى يفوق مستواها بكثير، وكانت تلتهم كتبها كما يلتهم معظم الأطفال الذين في عمرها أفلام الرسوم المتحركة. لكنها بدأت تحصل مؤخراً على درجات متوسطة لأنها أصبحت تشرد كثيراً، وأصبح عقلها قلقاً، وخفّت قدرتها على التركيز. كانت تشبه أمّها.

نظرت غرايس إلى ديزي في مرآة السيارة، ورأت الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين البلّوريتين. هانا، يجب أن تكوني فخورة جداً بها. لكن حنجرة غرايس أطبقت فراحت تركّز على الشاحنة التي تسير أمام سيارتها.

رفعت ماما جي عينيها عن القفازات التي تحيكها لتتأمل بإعجاب أشجار القيقب وأشجار الدردار الكبيرة التي تحفّ جانبي الشارع، «كم أحبّ هذه الأشجار»، تنهّدت بسعادة، ثمّ عادت لتركّز انتباهها على القفازات التي تحيكها.

بعد أن جاءت غرايس وهانا لتعيشا مع ماما جي بفترة قصيرة، بدأت تمارس الحياكة لأنها، كما كانت تقول «تهدّئ الأعصاب». كانت غرايس تجد أن هذا شيئاً غريباً، لأن أحداً لا يتحلّى بروح

هادئة أكثر من ماما جي. وخلال تلك السنوات صنعت مئات الأوشحة والقفازات انتهى معظمها في غرفة غرايس، لأن هانا لم تكن تحبّها.

نظرت غرايس إلى ماما جي التي ملأت يديها اللتين كانتا جميلتين بقع الكبد وأصبحتا متغضنتين، لكنّهما لم تتوقّفا عن الحركة. كانت حركة حياكة ماما جي الإيقاعية ترسل فيضاً من الهدوء في نفس غرايس، أما اليوم فلم يعد يحدث ذلك.

أصبح كلّ شيء يبدو الآن تافهاً، فارغاً، محطماً.

ابتلعت غرايس الكتلة التي تشكلت في حنجرتها وضغطت على الفرامل عندما خففت شاحنة النقل التي تسير أمامها من سرعتها، ثم قالت: «سننعطف إلى شارع إلم بعد قليل؟»

كما لو أنه استُجيب لصلواتها، أعطت الشاحنة إشارة وانعطفت ببطء.

«سنصل قريباً». أُعجبت غرايس بأشجار الدردار المصطفة على طول الطريق، وقالت: «بيتنا الجديد يقع في نهاية هذا الشارع». وكلمة جديد هنا تعني «أنه مُستأجر حديثاً». بصمت راحت تستعرض قائمة الأشياء التي يجب أن تقوم بها: تفريغ الحقائب، تسجيل ديزي في المدرسة، البحث عن مشرفة لرعاية ماما جي. بدت القائمة طويلة جداً، وأجفلت عندما تذكرت أن حسابها المصرفي قد انخفض كثيراً. فقد قضت الأحداث التي جرت خلال الشهور القليلة الماضية على مدّخراتها. لكن استناداً إلى حسابات غرايس المتأنية، فقد يبقى لديها دفعة أوليّة تكفي للإنفاق على بيت صغير في شارلوت، إذا اقتصدن خلال السنة القادمة.

مجرد التفكير بالعودة إلى شارلوت هدّأ من غضب غرايس. ففي السنوات الخمس الماضية، كانت تعمل في شركة مالية كبيرة في أحد أحياء المدينة العصريّة. كانت سعيدة جداً في عملها هناك، ولم يخطر لها أن تترك العمل حتى حصل ذلك الجنون في الشهور القليلة الماضية.

لكنّها ستعود، وستأخذ معها هذه المرة ماما جي وديزي. تعرف أن الأمر لن يكون سهلاً، لكنّها ستفعل ذلك.

ألصقت ديزي الجالسة في المقعد الخلفي وجهها بالنافذة وراحت تحدّق في البيوت التي تمرّ بجانبها. كان الشارع طويلاً وعريضاً، تظلّل أرصفته أشجار باسقة. إن نوعية البيوت الممتدة على جانبي الطريق أعطت غرايس أملاً. كانت بيوتاً ضخمة ومزخرفة، تبدو مثل لوحات فيها تشكيلة متنوعة من ألوان الباستيل. كانت النوافذ تلمع في أشعة شمس بعد الظهر، تحدّق إحداها في الأخرى، نوافذ ناعسة، وشرفات بيضاء عريضة جميلة.

يبدو أنه حيّ آمن، وهذه البيوت «يا إلهي! ربما سيكون كلّ ذلك جيداً. الأمل يتبرعم، حاولت غرايس - الحذرة دائماً» ألّا تتفاءل كثيراً، تعانق قلقها كدرع يقيها.

«أحببت هذه البيوت»، قالت ديزي، «أراهن أن فيها أشباحاً. إنها تبدو من ذلك النوع الذي تسكنه أشباح».

نظرت غرايس إلى ديزي في مرآة السيارة الخلفية ورأت ابنة أختها تضغط بأنفها على زجاج النافذة، وقالت: «لا يوجد شيء فيه أشباح».

زمّت ديزي فمها، وقالت بنبرة غاضبة، «كيف عرفتِ ذلك؟»

كان على غرايس أن تمسك نفسها ولا تردّ عليها بحدّة. ففي الأسبوع الماضي، حذّرت ماما جي غرايس بألّا تدخل في معارك مع ديزي، وهذا الموضوع لا يستحق أن تجادل ديزي به الآن.

لكن ذلك أزعجها لأن غرايس لم تكن تريد أن تتخلّى عن جزء من سلطتها ولا توبّخ ديزي حول أمور تتعلق بنبرة صوتها أو زوغان عينيها. لا أعرف شيئاً عن تربية الأطفال. لا شيء. وها أنا الآن أواجه هذه المشكلة.

منذ شهرين كانت مكانة غرايس في حياة ديزي «الخالة المحبوبة». وكانت غرايس تحبّ أن تكون تلك الخالة المحبوبة التي تهبّ بنسماتها على البلدة مثل ميري بوبينز، التي يحبها الجميع عندما توزع هداياه عليهما وتأخذ ماما جي وديزي في رحلات ممتعة. أسفي على تلك الأيام، قالت لنفسها بحزن. أما الآن، فقد تغيرت أمورها كثيراً. لقد تغيّر كلّ شيء.

همهمت ديزي لنفسها، «أحبّ الأشباح».

أحكمت غرايس قبضتها على المقود. رأت أن من السخافة أن تجادل ديزي حول شيء تافه مثل الأشباح، لكنّها لم تكن تريد ديزي أن تخاف وتستيقظ من نومها عندما تسمع خبطة أو صرير في هذا البيت القديم. فعلى الرغم من أن ديزي شجاعة، فهي طفلة ذات أحاسيس مرهفة ومخيلة جامحة.

«قد تكون الأشباح لطيفة جداً»، قالت ماما جي، ثم أضافت، «على الأقل الأشباح التي رأيتها».

مالت ديزي إلى المقعد الأمامي بقدر ما يتيح لها حزام المقعد، وسألتها، «هل رأيتِ أشباحاً؟ هل كانت...»

«طبعاً إنها تمزح»، قاطعتها غرايس. كانت ترجو ألّا تشجع ماما جي شطحات ديزي الخيالية.

«ماما جي، قولي لخالتي غرايس إنكِ لا تمزحين»، قالت ديزي بنبرة قوية، «قولي لها إنك رأيتِ أشباحاً».

ابتلعت غرايس تنهيدة، وقالت لنفسها لم أكن أعرف أن التربية صعبة هكذا، فإذا لم تواجهي الأمر مباشرة ستجدين نفسك أمام تحدٍّ. وكان جزء من المشكلة يكمن في أنها ليست أمّ ديزي الحقيقية، فإنها ستفقد مكانتها باعتبارها الخالة المحبوبة. ولم تعد تعرف تماماً ما هي مكانتها إزاء ديزي.

غمر غرايس شعور بالوحدة، وتسرّب إلى روحها مثل ماء متجمّد. فعلى الرغم من كل المصاعب التي واجهتاها في حياتهما، فقد ظلتا معاً، وعاشت إحداهما من أجل الأخرى. وحتّى عندما هربت هانا المتمردة وهي في السابعة عشرة من عمرها، وتركت ديزي ذات الأربعة شهور

مع ماما جي، ظلت تتواصل مع غرايس التي كانت تدرس في الجامعة، غارقة حتى رأسها في الامتحانات تبذل كلّ ما بوسعها لتصبح في قائمة المتفوقين في الجامعة، لكنّها كانت تشعر بامتنان شديد للرسائل النصّية التي كانت هانا ترسلها ومكالماتها الهاتفية على الرغم من ندرتها، مع أنّها كانت تطلب في معظمها نقوداً. وعلى الرغم من قلة تلك الاتصالات كانت غرايس لا تزال تشعر بأنها هي وهانا تشكلان أسرة واحدة. وكانت غرايس تتظاهر بأن كلّ شيء لا يزال على ما يرام، وأن هانا بخير، مع أنها لم تكن كذلك.

منذ شهرين وأحد عشر يوماً، ماتت هانا، احترقت حياتها بسبب روحها الحرة. وعلى الرغم من ذلك، ظلت غرايس تتظاهر بأن الأمور تسير على ما يرام، ولم تكن مستعدة لأن تقبل الواقع. لقد أصبح في حياتها الآن ثقب، ثقب لا تعرف كيف تسدّه. وبفقدان أختها، فقدت، بشكل ما، كلّ الآمال التي كانت تحدوها وهي أنه، مع الوقت والحبّ، ستتوقّف هانا عن الطواف في العالم مثل روح تائهة، وتكفّ عن الجريان وراء رجال خطرين، والخوض في مغامرات أخطر. في ذلك اليوم، عادت إلى البيت، وأدركت كم أنها مشتاقة لغرايس ولماما جي، وكم كانت ديزي فتاة خاصّة، ورحّبن كلّهن بعودتها إلى حياتها، وخيّل إليهن أنّهن سيصبحن أخيراً تلك الأسرة التي طالما تاقت إليها غرايس.

ملأ موت هانا غرايس بمشاعر الألم والغضب والخواء. لكنّ الأمر كان أصعب على ديزي بكثير. فقد كانت الفتاة الصغيرة تحبّ أمّها الجميلة لكن البعيدة ذات العواطف العنيدة. وبعد انتهاء مراسم الجنازة ببضعة أسابيع، رفضت ديزي أن تعود إلى المدرسة، ولم تعد تأوي إلى الفراش إلّا إذا أرغمت على ذلك، وبدأت تجادل الجميع في كلّ شيء، واستنفدت ماما جي كلّ تأثيرها في إقناع ديزي بأن تعود إلى المدرسة. وعندما عادت إلى المدرسة أخيراً، أصبحت عابسة وصامتة على الدوام، تتجاهل صديقاتها وأساتذتها، وتهمل واجباتها المدرسية، وكانت تملأ ورقة الامتحان برسوم تنانين عنيفة تقذف لهباً من فمها بدلاً من الإجابة على أسئلة الامتحان. ولم تعد تحصل على درجات عالية كما في الماضي، ولو لم يتفهم أساتذتها حالتها لرسبت في صفّها.

المستشارة في المدرسة حذّرت غرايس بأنّ الشهور القليلة القادمة، وربما لفترة أطول، ستكون صعبة على ديزي، وأن هذا شيئاً طبيعياً. وبدأت نوبات غضب ديزي المفاجئة تزداد، وأصبحت ترفض بعناد قبول غرايس كأمّ لها.

لكن غرايس كانت تفهم الغضب أكثر من أي شخص آخر. وكانت الصعوبة تكمن في رؤية الألم المطلق القابع وراء كلّ كلمة حادّة تسقط من فم ديزي ولا تستطيع أن تفعل شيئاً لمساعدتها.

أحكمت غرايس قبضتها على مقود السيارة، ممزّقة بين غضبها المتزايد من إهمال هانا لنفسها الذي يكلّف الآخرين كثيراً، وبين رغبتها المستميتة في أن تعبّر لها عن مدى حبّها لها. الكلّ يحبونّك يا هانا. الكلّ إلّا أنت.

« كما تعرفين فإن الأشباح ليست سيئة دائماً»، قالت ماما جي بصوت مرتفع عندما سحبت خيطاً طويلاً من سلة حياكتها.

«ماما جي، أرجوك. لا...».

هزّت ماما جي رأسها، وقالت: «أعرف بمَ تفكرين، لكن الأشباح ليست ذلك الشيء الغبي الذي يصوّرونه في أفلام الرعب. الأشباح ليست مخيفة على الإطلاق. إنها مجرد خيوط رفيعة من حياة ولّت. ظلال، حقاً».

«كيف تبدو؟» سألت ديزي قبل أن تتمكن غرايس من تغيير الموضوع.

توقّفت ماما جي عن الحياكة وزمّت شفتيها، وقالت: «في بعض الأحيان تبدو في شكل باهت، وفي أحيان أخرى، تكون مجرد ذكرى ترفرف عند زاوية عينك».

«سألتقي بواحدة منها»، قالت ديزي، «وأعرف كيف ماتت لأساعدها على العثور على الشخص الذي قتلها».

«معظم الأشباح لم تُقتل»، قالت ماما جي بهدوء، وهي تسحب خيطاً آخر من سلتها، «مات معظم هذه الأشباح عندما كانت نائمة».

كانت غرايس تعرف ما الذي سيحدث الآن. وبما أنه يمكن استثارة ديزي بسرعة، فلن تستطيع أن تنام، وستضطر غرايس، لا ماما جي، إلى أن تعتني بالأمر. «الأشباح غير موجودة»، كرّرت غرايس بحزم، «على الإطلاق». كانت ترجو أن تجد شاحنة النقل التي تسير أمامهن البيت بسرعة. فهي تكاد تسير زحفاً، ولم تكن ترغب في مواصلة هذا الحديث.

لم ترفع ماما جي عينيها عن حياكتها، لكنها همهمت، «حسناً، حسناً. هناك مفاجأة لأحد ما».

«لن أكون أنا»، قالت غرايس، «ماما جي، يمكن» آه، لقد وصلنا! «الحمد لله. وارتسمت ابتسامة على وجهها وكانت ستقول شيئاً سخيفاً مثل «أهلا بكم في بيتكم الجديد»، عندما لاح البيت.

لكن توقعات غرايس خابت على الفور.

مع أن تصميم البيت من الخارج كان جميلاً وأنيقاً مثل البيوت المجاورة، كان يقع في نهاية الزقاق ويبدو مثل ظلّ باهت بالمقارنة مع البيوت الأخرى. فقد استحال لون اللافندر الخفيف الذي يكسوه إلى لون رمادي، وكانت الشرفة العريضة مائلة، ولم تكن معظم الأشياء الجميلة التي رأتها غرايس في البيوت المجاورة الأخرى موجودة، وكان الطلاء متقشراً تتساقط رقاقات منه. وتذكّرت غرايس امرأة مسنّة متعبة في معطف حائل اللون، تبدي ابتسامتها المنهكة فماً خالياً من الأسنان.

«أراهن أنه توجد أشباح في هذا البيت»، قالت ديزي.

«أنا متيقنة من وجود أكثر من شبح واحد»، قالت ماما جي موافقة وهي تعيد أدوات الحياكة إلى سلتها.

إلهي العزيز، أرجوك لا تجعلني أصرخ. تجاوزت غرايس بسيارتها الشاحنة البطيئة، وأوقفت سيارتها بجانب مقطور «أر - في» صدئة مركونة في آخر الزقاق الضيق بجانب مرأب له بابه مُثلّم. ركنت غرايس سيارتها. عندما حدّقت في البيت، رأت طحالب سميكة تعلو السطح.

ربتت ماما جي على يد غرايس المرخية على المقود، وقالت: «لم تطفئي المحرك بعد».

«أعرف». تساءلت ماذا سيحدث لو بقين حيث يجلسن بأمان. لم تكن السيارة واسعة، لكنّها تتسع لهن إذا خفضن المقاعد وأحضرن وسادات وبطانيات ونمن فيها...

«انظرا»، فتحت ديزي الباب من جانبها وصاحت، «هناك أرجوحة من عجلة سيارة معلّقة على الشجرة في باحة البيت الأمامية».

هزتّ ماما جي رأسها وقالت: «لقد رأيتها. يجب أن تجرّبيها وتعرفي إلى أي مدى يمكنك أن تتأرجحي فيها».

«ديزي، انتظري»، مالت غرايس إلى الأمام وحاولت أن ترى الأرجوحة، ثم أضافت، «لا تصعدي إليها الآن. أريد أن أتأكّد أولاً إن كانت سليمة قبل أن...»

لكن ديزي كانت قد قفزت من السيارة وجرت نحو الأرجوحة.

«سأذهب وراءها»، قالت ماما جي ونزلت من السيارة وجرت وراء ديزي ثم توقّفت. انحنت قليلاً لتنظر إلى غرايس التي ظلت ملتصقة بمقعدها. «تعالي، ادخلي. إنه يحتاج إلى تصليحات بسيطة، لكنّه بيت جميل».

«إنه خرابة»، قالت غرايس بحدّة.

ابتسمت ماما جي مع أن ذلك كان جهداً متعباً بالنسبة لها، وقالت: «غرايس، أعرف أن هذا صعب عليك...»

«علينا جميعاً».

استرخت نظرة ماما جي وقالت: «لم تكن الحياة عادلة لأيّ واحدة منّا. نحن الثلاث غاضبات من الحياة، من كلّ هذا التغيير - وربما حتى من هانا».

أطبقت حنجرة غرايس.

عادت ماما جي إلى السيارة وجلست بجانبها ووضعت يدها على يد غرايس. «يجب أن تدعي الأمر جانباً. كلّه - غضبك، قلقك، مخاوفك. ديزي تعتمد عليك، وبقدر ما أكره أن أضيف إلى مشكلاتك، وأنا كذلك».

أمسكت غرايس يد ماما جي وضغطت عليها، وقالت: «أدين لك بألف سنة».

ابتسامة حزينة ارتسمت على وجه ماما جي، وقالت: «لسوء الحظ، أظن أنك ستسددينها كلّها دفعة واحدة. لكن يجب أن نتقدّم إلى الأمام، حبيبتي. ولن نستطيع أن نفعل ذلك إذا تشبّثنا بالماضي».

«إني لا أتشبّث بشيء».

«لعلك لا تقصدين ذلك، لكنّك تفعلينه بطرق أخرى. وكذلك أنا، وديزي أيضاً. يصعب على المرء أن يتخلّى عن شيء يظن أنه كان يملكه، وهكذا كانت هانا -ربما كانت كذلك. ربما. كانت تعرف كيف تجعل الناس يأملون بأنّها كانت أكثر مما كانت مستعّدة لأن تكون».

لم يخطر ببال غرايس أنّها ستسمع وصفاً أفضل عن هانا. هكذا كانت هانا، وستظل هكذا دائماً. أحرقت الدموع عيني غرايس. «مع أنها لم تكن تأتي لزيارتنا وقلما كانت تتصل بنا، فإني أشتاق إليها كثيراً. هذا غريب جداً. إنها...»، وسالت الدموع من عينيها.

«أعرف». قالت ماما جي وربتت على يد غرايس، «كلّ شيء سيكون على ما يرام».

«آمل أن أصدّق ذلك».

ضحكت ماما جي، وقالت: «الشكّاكة دائماً، أليس كذلك؟ حتّى عندما كنتِ طفلة. لكن انظري. لقد جئنا إلى دوف بوند لنبدأ حياة جديدة. إذا أردنا، فإننا سنجد السعادة هنا. أعرف أنّنا سنجدها. هذه البلدة... حسناً، إنها مختلفة. وهنا حيث يُفترض أن نكون. أنا متيقنة من ذلك».

ضاقت حنجرة غرايس فلم تستطع أن تجيب، وهزّت رأسها قليلاً، راجية بأن يكون كلّ شيء على ما يرام.

تنهدت ماما جي وسحبت يدها من يد غرايس، وقالت: «لندخل عندما تصبحين جاهزة». نزلت من السيارة، واعتدلت في وقفتها، ثمّ بدا عليها التردد.

غاص قلب غرايس مرة أخرى في صدرها عندما رأت مسحة التردد على وجه ماما جي الذي يشي عادة بالطمأنينة والهدوء. بذلت كلّ ما بوسعها كي لا يتحشرج صوتها عندما قالت لها بهدوء: «كنتِ ذاهبة لتلقي نظرة على ديزي التي ذهبت إلى الأرجوحة».

فصفا وجه ماما جي، وقالت: «نعم. ديزي». هزّت رأسها كما لو كان هذا كلّ ما تحتاج إلى سماعه، لكن وجهها أصبح ورديا من الحرج. همهمت بضع كلمات، وسارت، وظلّ باب السيارة مفتوحاً.

مالت غرايس فوق المقود وفركت صدغيها اللذين كانا يؤلمانها. لقد بدأت ذاكرة ماما جي تزداد سوءاً. فقد رأتها غرايس منذ شهر واقفة في منتصف الشارع أمام بيتها، ونسيت الرسائل التي تحملها في يدها وراحت تتطلع حولها، مشوّشة، غير مدركة أنها لا تبعد عن باب بيتها أكثر من أربعين قدماً.

هبّت نسمات هواء صيفية رطبة دافئة عبر باب السيارة المفتوح. أغمضت غرايس عينيها، وتذكّرت الحياة الجميلة التي كانت تعيشها منذ بضعة أشهر عندما كان يخيّل إليها بغباء أنّها فهمت أن الحياة ليست سوى نجاح وسعادة - كلّ شيء. إلّا أن كلّ ذلك تغيّر بمكالمة هاتفية واحدة من ماما جي عندما اتصلت بها وهي تبكي وتذكر كلمة «هانا» بين كلمة وأخرى.

عادت غرايس إلى بيت ماما جي ونظمتّا مراسم الجنازة وبذلتا كلّ ما بوسعهما لحلّ الفوضى التي سببتها هانا. وشيئاً فشيئاً أدركت غرايس أنّ ماما جي لم تعد كما كانت، فقد بدأت تنسى كثيراً

وبدأت تضع الأشياء في غير أماكنها، وبدأت تنسى مواعيد زيارة الطبيب. عندما رأت غرايس ماما جي تقف مشوشة أمام بيتها، أخذتها إلى الطبيبة التي أكّد لها أنه بدأت تظهر على ماما جي، التي كانت قوية دائماً، غير المتردّدة، أعراض مرض النسيان.

أضاف ذلك إلى حزن غرايس على موت هانا. ماما جي الصخرة التي بنت غرايس حياتها عليها. والآن، فجأة، جاء دور غرايس لتتولى الأمور، وأصبح عليها ألّا تعتني بماما جي فحسب، وإنما بديزي العنيدة أيضاً. كانت غرايس تأمل في أن تكون قوية بما يكفي لتتمكن من أداء هذه المهمة على أكمل وجه.

في البداية، خطر لها أن تأخذهما إلى شارلوت معها، لكنّها أدركت أنها لا تستطيع أن تعمل ثمانين ساعة في الأسبوع كمحلّلة مالية، وتربي ديزي العنيدة والغاضبة، وتعتني بماما جي في الوقت نفسه. ومهما فكّرت في الأمر، كانت تجد الحقيقة كئيبة، لكنها شديدة الوضوح.

بانكسار شديد تخلّت غرايس عن عملها الذي طالما حلمت به، وحصلت على تعويضاتها وسددت الإيجار، وعادت إلى البيت لتعتني بما تبقّى من أسرتها الصغيرة المتهالكة.

بالطبع أصبحت بحاجة إلى عمل جديد، عمل يمتاز بمرونة أكبر مما كان يتيحه لها عملها السابق. وخلال بحثها عن عمل جديد، اتصلت بها إحدى قريبات ماما جي، امرأة سليطة اللسان تدعى السّيدة فيلوميدرا فيلبس، وعرضت عليها وظيفة في بلدية دوف بوند، في نورث كارولاينا، مسقط رأس ماما جي. ومع أن هذه الوظيفة أدنى بكثير من كفاءات غرايس، فإنها تمنحها مرونة في ساعات العمل التي تحتاج إليها. وبالإضافة إلى تلك الوظيفة عرضت عليها السّيدة فيلبس أن تؤجرها بيتها بمبلغ زهيد لأنها ستنتقل إلى فلوريدا.

لم ترغب غرايس الانتقال إلى هناك لأن الراتب الذي ستتقاضاه ضئيل. إلا أنه بعد يومين من اتصال السّيدة فيلبس، هبّت عاصفة شديدة على ويتلو وظهرت في أساسات بيت ماما جي القديم شقوق وتصدعات كثيرة، وبدأت المياه تتسرب من تلك الشقوق، فوضعن كلّ الأواني في البيت لتتجمع فيها المياه المتسربة من الإفريز وكان الطلاء يتقشّر في السقف، وبدأت تسقط كتل طينية رطبة على الأثاث والسجاجيد في بيت ماما جي. وعندما جاء الفني ليقيّم الأضرار الناجمة عن ذلك، قال الرجل الضخم الجثة لغرايس إنه لا يمكن إصلاح البيت القديم الكبير المبني من ألواح خشبية.

بعد يوم من سماع هذا الخبر الكئيب، أبدت الطبيبة التي كانت فحصت ماما جي تعليقاً عابراً أعاد غرايس إلى العرض الذي قدمته لها السّيدة فيلبس. فعندما كانت غرايس تبحث خيارات العلاج مع الطبيبة، حكت لها كيف أنها أعادت أمّها إلى مسقط رأسها عندما ظهرت عليها أعراض مرض النسيان وقالت لها إنه ربما ساهم ذلك في التخفيف من حدّة تدهور صحتها، وإن كان قليلاً.

لم تقل الطبيبة ذلك باعتباره علاجاً، ولم تأت على ذكره ثانية، لكن هذه الكلمات لفتت انتباه غرايس. وبعد ليلة طويلة مؤرقة، اتصلت غرايس بالسّيدة فيلبس وقالت لها إنها قبلت عرضها.

لقد انتقلن الآن من بيت ماما جي المتهالك إلى بيت متداع آخر في بلدة دوف بوند الجميلة.

أملت غرايس للمرة الألف أن يكون كلّ ذلك مجرد حلم وأن تجد عندما تستيقظ كلّ شيء كما كان سابقاً، وأن هانا لا تزال على قيد الحياة، وأن ديزي فتاة هادئة، وأن ذاكرة ماما جي سليمة كما كانت دائماً ولم تتقشّر كما يتقشّر طلاء قديم، و...

سمعت نقراً على زجاج نافذتها. كان هناك رجلان ينظران إليها من خلف الزجاج. الرجل الضخم الذي يرتدي بدلة عمل رمادية، ذو الشعر البني الممشط إلى أحد الجانبين كما لو أنّ مشطه لا يعمل إلّا باتجاه واحد، اسمه ريكي بوب مكليرن المكتوب على الرقعة الكبيرة المخاطة على قميصه، وإلى جانبه يقف مساعده، وهو رجل قصير، مربوع القامة، ملتح، يدعى تومي كما هو مكتوب على الرقعة الأصغر على سترته.

أشار ريكي بوب إلى الشاحنة، ثمّ إلى البيت، ثم عاد وأشار إلى الشاحنة.

كما لو كان تومي يساعد رئيسه، قلّد الحركات نفسها، لكن بطريقة مبالغ بها.

أنزلت غرايس زجاج النافذة، وقالت: «نعم؟»

مدّ ريكي بوب يده، وقال: «نريد مفاتيح البيت».

«لا بد أن السّيدة فيلبس لا تزال في البيت»، قالت غرايس وأطفأت محرك السيارة ونزلت منها. «سأبحث عنها. إنها...»

«أنتِ هناك»، سمعت صوتاً سريعاً حادًّا، أعقبه صوت قعقعة بدت لغرايس أشبه برؤى مارلي سكروج. دارت امرأة بدينة في شعرها لفائف، ترتدي قميصاً موشّى بأزهار وبنطال كاكي قصيراً، من وراء شاحنة النقل. كانت تميل في مشيتها إلى أحد الجانبين، وهي تحمل حقيبة قماشية مليئة بقناني مرغريتا ميكس وتاكيلا، تصدر رنيناً مع كلّ خطوة تخطوها. عبست المرأة العجوز في وجه غرايس، وقالت: «قلتِ إنّك ستكونين هنا في الساعة الثالثة».

«قلتُ سنصل قرابة الساعة الثالثة»، ردّت غرايس وأضافت ابتسامة لتجعل كلماتها غير فظة، «لم تبلغ الساعة الثالثة والنصف بعد».

«هذا يعني تأخير لمدة ثلاثين دقيقة. عندي جدول مواعيد يجب أن ألتزم به». تجاوزت المرأة التي تحمل حقيبة القناني غرايس بجانب الممر الاسمنتي المتشقق.

وقف ريكي بوب وتومي جانباً ليفسحا لها الطريق، وابتعدا عنها كما يبتعد الدجاج عندما يرى ثعلباً.

ابتلعت غرايس ردًّا حادًّا. ثم قالت: «عاملا النقل يريدان مفاتيح البيت».

حركت السّيدة فيلبس عينيها وقالت: «الأبواب مفتوحة».

«شكراً»، همهم الرجلان وابتعدا بسرعة.

نظرت غرايس إليهما وهما يدخلان إلى البيت، وابتهجت عندما رأت ماما جي وديزي تبتعدان عن الأرجوحة وتتبعانهما إلى الداخل. أحسّت غرايس بأمان أكثر عندما دخلتا إلى البيت.

سارت السّيدة فيلبس نحو مقطورتها القديمة، وقالت: «لا أقفل الأبواب أبداً، ويعرف ريكي بوب ذلك، لكنه رجل أحمق». وضعت حقيبتها على الأرض بجانب باب مقطورتها الصدئة، ومضت تقول: «كان أذكى بكثير عندما كان في الخامسة عشرة من عمره، إن كنتِ تصدقين ذلك. أما الآن فلم يعد كذلك. كان يلعب كرة القدم كثيراً، وأصيب برضوض في رأسه أكثر مما يصاب معظم الناس بنزلة برد».

«قيل لي إنه جيد في نقل الأثاث».

«إنه أفضل من كثيرين، شريطة أن تكون تعليماتك له بسيطة». تفحصت السّيدة فيلبس غرايس من قمة رأسها حتى قدميها، وقالت: «يا إلهي، انظري إلى نفسك. إلى أين تظنين نفسك ذاهبة حتى تتأنّقين هكذا؟»

نظرت غرايس إلى ثوبها الصيفي وإلى صندلها، وأيقنت أن ارتداءهما في مايرز بارك في شارلوت أفضل بكثير من ارتدائهما في بلدة دوف بوند الصغيرة، وقالت: «إنها جزء من خطتي لأن أربح العالم. كما تعرفين -ثوب من أجل الحياة التي ترغبين فيها، لا من أجل الحياة التي تعيشينها».

«إذا ارتديتِ ثوباً كهذا في دار البلدية، فإن أحداً لن يراه غيرك، لأن رئيس البلدية يأتي بضع ساعات فقط في اليوم، إذا كان هذا ما ترمين إليه. وباستثناء موسم دفع الضرائب، ستكونين وحدك تقريباً». فتحت السّيدة فيلبس باب عربتها ووضعت فيها حقيبتها القماشية وأغلقت الباب بقوة، ثم قالت: «يجب أن أذهب الآن. لقد تأخرت عن موعد وصولي إلى الاستراحة على الطريق الذي حددته في الساعة السّابعة، حيث أكون قد اقتربت من أتلانتا، ولا أظن أنك تريدين أن أتأخر».

حاولت غرايس الإبقاء على ابتسامتها، لكن قليلاً. «أنتِ امرأة منظّمة جداً، وهذا يبشّر بالخير لأنني سآخذ عملك القديم. أريد أن أتحدّث معك عن ذلك، لأن توصيف الوظيفة لم يكن واضحاً تماماً. صدقاً، لا أعرف بالتحديد ما هو عملي في البلدية».

«كلّ شيء لعين»، قالت السّيدة فيلبس بصراحة. سارت حول مقدمة عربتها واتجهت إلى باب السائق، تبعتها غرايس. «ستقومين بتجهيز رخص العمل، وسجلات الناخبين، وإشعارات الرسوم والضرائب. ستعرفين كلّ ذلك لاحقاً».

كانت غرايس تأمل في أن تكون المرأة المسنّة صادقة في كلامها. «سأتصل بك إذا كانت عندي أسئلة أخرى. لكن قبل أن تذهبي، البيت. إنه... ليس في حالة جيدة. إنه أسوأ مما كنت من أتوقّع».

توقّفت السّيدة فيلبس عند باب السائق، وقالت: «إنه بيت متين. كلّ شيء فيه جيد. كما تحدّثنا على الهاتف، تركت بعض قطع الأثاث الكبيرة لك، وقد وضعت ما تبقى في الكراج، وإذا أردتِ أن تستخدميها فلا تترددي. على الرحب والسعة».

«شكراً لك. لكني لست مرتاحة من أجل الشرفة. يبدو أنها مائلة».

ثبتت السّيدة فيلبس نظرتها الحادة الباردة على غرايس وقوست حاجبيها السميكين، وقالت: «هذه الشرفة مائلة هكذا منذ أن بدأت أتنفّس، ولم تقع. إذا لم تضعي فوقها مائة شخص بدين أو أكثر، فإنها ستبقى ثابتة لمائة وخمسين سنة أخرى». ثم نظرت السّيدة فيلبس إلى غرايس بارتياب، وأضافت، «لا أظن أنك ستفعلين ذلك. أن تملئيها بأشخاص بدينين؟ عندما تحدّثنا على الهاتف، قلت إنك لستِ أمًّا».

«أنا لستُ أمًّا، ولن أضع على الشرفة أشخاصاً بدينين. أنا...» وابتلعت غرايس باقي جملتها وأخذت نفساً عميقاً، «أريد أن أجلب أحداً ليفحصها».

بدا أن السّيدة فيلبس تريد أن تجادلها، لكن نظرة سريعة إلى ساعة يدها جعلتها ترد بتردد، «حسناً! توجد في درج المطبخ بجانب الموقد بطاقة باسم الأخوين كالاهان. عندهما ورشة ويمكنهما تصليح أيّ شيء. اتصلي بهما واطلبي منهما أن يأتيا ويفحصانها. وإذا رأيا أنها بحاجة إلى أي شيء، فإنهما يعرفان إلى من يرسلان الفاتورة».

«عظيم. شكراً».

عندما فتحت السّيدة فيلبس باب العربة من طرف السائق، ظهر كرسي جلدي متشقق. قفزت إلى داخل العربة، وجلست على المقعد، وصفقت الباب وراءها بقوة قبل أن تقول لغرايس من النافذة المفتوحة: «كما قلت لك على الهاتف، كلّ شيء متضمن في الإيجار ما عدا تكاليف الاعتناء بباحة البيت الخلفية. من الأفضل أن تهتمي بها. فإذا لم تعتني بها جيداً، ستأتي إليك إحدى أخوات دوف ولن تفارق مؤخرتك ولا أظن أنك تريدين ذلك».

«أخوات دوف؟»

«إنهن يعشن هناك». أومأت السّيدة فيلبس برأسها إلى الشارع.

التفتت غرايس. رأت بعد بيتن من بيتها بيتاً لا بدّ أنه أكبر بيت في دوف بوند كلّها. كان مطلياً بلون بنفسجي غامق ومزخرف بزخارف بيضاء كثيرة، يطلّ على بيوت الجيران الصغيرة المجاورة، لكن حديقة البيت هي التي سرقت كلّ المجد، فقد كانت مكسوة بعشب أخضر مخملي مثل ملعب غولف، تحفّه مئات - لا بل آلاف - الأزهار المتبرعمة في أصص صُفّت بعناية حول البيت، وأسفل الممر، وحول كلّ شجرة، وعلى امتداد الشارع. «إنه يشبه مشهداً في السينما»، دمدمت غرايس.

«إنهن يولين هذا المكان عناية كبيرة»، قالت السّيدة فيلبس بنبرة مليئة بالحسد، «لكن لسوء الحظ، فهنّ فضوليات وسيلاحظن إذا طال العشب في حديقة بيتك».

تخيّلت غرايس عجائز شمطاوات بشعر أبيض، وأنوف معقوفة يصرخن من فوق السور ويطلبن من الآخرين أن يلتقطوا مخلفات حيواناتهم الأليفة. عظيم. «لا أستطيع احتمال الوقاحة».

«إنهن لسن وقحات. قد يقتلنك من شدة لطفهن ودماثتهن، وهذا يثير حنقي أكثر من الوقاحة بكثير. إنهن يراقبن الآخرين دائماً». نظرت السّيدة فيلبس إلى البيت البنفسجي بكراهية واضحة، وقالت: «لا أرى أحداً منهما الآن. ربما كانتا في العمل. الأخت الكبيرة لا تأتي إلى البيت لأن لديها عمل الخاص بها. أما الأخت الأصغر، سارة، فهي أمينة مكتبة البلدة، وتقف دائماً عند السياج الذي يفصل بين بيتها والبيت المجاور وتتكلّم مع ترافيس باركر الذي يعيش هناك». أومأت السّيدة فيلبس إلى البيت الأصفر الأنيق الأصغر حجماً الذي يشكل حاجزاً بين بيتها وبيت عائلة دوف.

«أرجو أن يكون جاراً جيداً».

«إنه ليس سيئاً»، قالت السّيدة فيلبس، مع أنّها لم تكن تبدو سعيدة بذلك. «مع أنّني لا أحتمل سماع صوت دراجته النارية اللعينة التي يقودها كأنه خفاش خارج من الجحيم. شعره طويل وتملأ الأوشام ذراعيه، لكنّه كان جندياً سابقاً، وأظن أن هذا شيئاً جيداً. كان البيت لأبيه الذي مات منذ قرابة سنة. ويعيش تراف وحده غالباً وهذا أمر جيد».

حسناً، لا يبدو هذا شيئاً سيئاً باستثناء الدراجة النارية. كانت تأمل ألّا تكون صاخبة جداً.

«اللعنة، انظري إلى الوقت. يجب أن أذهب الآن». شغّلت السّيدة فيلبس مقطورتها وأطلقت هبّة من الدخان الأسود قبل أن تعود وتستقر إلى صوت همهمة، وقالت لغرايس: «اتصلي بي إذا كانت لديك أسئلة أخرى. رقمي موجود عندك».

«سأفعل ذلك. هل ودعتِّ ماما جي؟ كانت في باحة البيت الأمامية عندما خرجتِ».

استرخى وجه السّيدة فيلبس، وقالت: «لقد تحدّثنا. كانت تبدو على ما يرام في البداية. تحدّثنا عن البيت وعن ذكرياتها عنه، وعندما سألتها عن سبب انتقالكن إلى هنا، لم تتذكّر، كما لو أن شيئاً كبيراً انسلّ من عقلها».

«أصبح هذا يحدث لها كثيراً».

« كانت لانا أذكى فتاة بيننا. يصعب أن أراها وهي في هذه الحالة. كانت تُضحكني كثيراً عندما أشعر بالاكتئاب وبأن العالم على وشك أن ينتهي». التمعت عينا السّيدة فيلبس الزرقاوين وراحت تفتش في جيبها عن منديل ورقي، ثم أضافت، «لا تشعرين بذلك عندما تتحدثين معها على الهاتف، أما شخصياً...اللعنة». جففت عينيها ومخطت قبل أن تقول بصوت أجشّ، «ستعتنين بها، أليس كذلك؟»

«طبعاً. يجب أن أجد شخصاً يستطيع أن يرعاها عندما أكون في عملي».

«ليندا روبنسون». ألقت السّيدة فيلبس المنديل الورقي في منفضة السجائر الفارغة، وأضافت، «إنها امرأة جيدة. زوجها، مارك، يعمل في مكتب البريد، اذهبي إلى هناك واسألي عنه، وهو سيوصلك بها».

هزّت غرايس رأسها. حاولت أن تفكّر بشيء آخر لتسأل السّيدة فيلبس، لكن لم يخطر ببالها شيء الآن.

هذا كلّ شيء إذاً. ومع ذلك لم تشأ غرايس أن تترك المرأة العجوز تذهب، لأنها عندما ستذهب ستشعر غرايس أن الانتقال إلى دوف بوند أصبح رسمياً.

نهائياً.

دائماً.

لا، ليس دائماً، قالت غرايس لنفسها بسرعة. عندي خطة، وإذا سار كلّ شيء على ما يرام، فإننا سننتقل إلى شارلوت بعد سنة ونبدأ بداية جديدة.

أخذت نفساً عميقاً. شعرت بالارتياح لأنها رسمت في عقلها هدف للمستقبل. على الرغم من أنها ترى الماضي والوقائع القاسية والكئيبة الحالية، فإنها تفكّر بمستقبل أفضل وأكثر إشراقاً. لم تكن قدماها قد ابتعدتا عن المقطورة كثيراً عندما قالت لها مودعة: «أتمنى لك حظًّا سعيداً في فلوريدا».

«شكراً. نظرت السّيدة فيلبس إلى أسفل الشارع الذي تحفّه الأشجار، ثم قالت: «سأشتاق إلى هذا البيت كثيراً. أحبّ أن أبقى هنا، لكن أولادي سافروا، لذلك...»

عدّلت كتفيها كما لو أنها تدفع عن نفسها أرطالاً من الأسف، وقالت: «لا يمكنني أن أدلل أحفادي إذا لم أكن موجودة معهم. حماة ابنتي انتقلت إلى هناك للتو، وهي تفعل ذلك منذ زمن».

«هل ستمنعينها من ذلك».

«أوقفها؟ لا أبداً! سأنضم إليها. جدّتان أفضل من جدّة واحدة. إيفيلن امرأة رائعة أيضاً. نخطّط لأن ننضم إلى صفّ لتعليم الرقص معاً، بل ربما سنتدرب على الرقص الشرقي». ضحكت السّيدة فيلبس، وأضافت، «لن تعرف ابنتي ما الذي سيجري لها؟»

«أنا متأكّدة بأنها ستكون سعيدة بوجودك هناك».

«طبعاً. لقد كلّفني هذا الانتقال كثيراً». شغّلت السّيدة فيلبس محرّك مقطورتها ورفعت ذراعها من النافذة، وقالت: «استمتعن بإقامتكن في دوف بوند».

رجعت غرايس خطوة إلى الوراء وقالت: «سنفعل ذلك. سنعتني بـ...»

لكنّها وجدت نفسها تكلّم جانب المقطورة عندما بدأت السّيدة فيلبس تتحرّك. ناورت المرأة العجوز بمقطورتها القديمة حول سيارة غرايس الهوندا ثم حول شاحنة النقل، ثم -بسرعة لا تتوافق مع ضخامتها - انطلقت المقطورة بتثاقل أسفل الشارع.

لم تشعر غرايس بغيرة من مقطورة قديمة صدئة في حياتها. ماذا يمكنها أن تعطي حتى تبتعد بسرعة عن هذا البيت المتهالك والسنة الكئيبة القادمة. لو لم يكن ذلك من أجل ديزي وماما جي، لدفعتُ لأحد حتى يأخذ مكاني، أو أنني سأبذل قصارى جهدي لأفعل ذلك.

لكنّها لم تستطع أن تفعل ذلك، وها هن هنا الآن، هي وماما جي وديزي، جُرفن ثلاثتهن إلى الشاطئ ضحايا سفينة غارقة بعد موت هانا المدمر. أوه، هانا، لماذا...

«غرايس؟» ظهرت ماما جي من وراء شاحنة النقل، حاجبها مقوّس قلقاً، وقالت: «يسأل عاملا النقل أين يجب أن يضعا الأثاث، ولا أعرف ماذا أقول لهما».

أخذت غرايس نفساً عميقاً وافتعلت ابتسامة. «لنذهب ونر ما الذي يحتاجان إليه». وضعت ذراعها حول كتفي ماما جي النحيفتين وعادتا إلى البيت.

عندما دخلتا إلى البيت، طلبت من ماما جي أن تجلس مع سلة حياكتها على الأريكة التي بلون الخوخ في غرفة الجلوس ثم ذهبت لتكلّم العاملين.

راحت غرايس تتنقل بين الغرف، تستكشف بيتهن الجديد. لم يكن داخل البيت يتطابق مع خارجه -كلاهما قديمان بهت لونهما - يدّلان على عظمة قديمة. كانت الأرضية المكسوة بألواح خشبية عريضة من شجر الصنوبر قد محيت من دوس النعال المطاطية والجلدية لأكثر من ألف قدم. لا بد أن الجدران المطلية بالجص كانت ذهبية اللون ذات يوم، لكن بعد كلّ هذه السنوات، ظهرت بقع صفراء شاحبة في الأماكن التي تضربها الشمس. وكانت تمديدات الإنارة القديمة المصنوعة من الحديد الملفوف تعود إلى زمن مضى وهي تحتاج إلى صيانة شاملة. ويبرز من الردهة درج عريض له درابزين مزخرف يصعد إلى الطابق الثاني، وكان بإمكان غرايس أن تسمع وقع أقدام ديزي السريعة في الطابق العلوي وهي تنتقل من غرفة إلى أخرى. وكانت تتناثر هنا وهناك قطع أثاث مزخرفة جميلة تركتها السّيدة فيلبس في البيت - الأريكة الطويلة التي بلون الخوخ التي تجلس عليها ماما جي الآن، وكرسيان منجدان بقماش مخملي أخضر زاه كأنهما من مشهد سينمائي، وخزانة تملأ إحدى زاويا غرفة الجلوس تصل حتى السقف الذي يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام.

انضمت غرايس إلى الرجلين الواقفين بجانب شرنقة من الأشرطة والبطانيات التي تغطي طاولة غرفة الطعام.

«لن تسع هنا» قال ريكي بوب، «على الأقل في وجود هذه»، وأومأ إلى بوفيه ضخمة من خشب الجوز تركتها السّيدة فيلبس. كانت البوفيه الضخمة تملأ الجدار وكان يبدو أنها تناسب قلعة أكثر مما تناسب هذا المكان.

«نستطيع أن نضع الطاولة هنا بجانب الجدار الآخر»، قال تومي وهو يحكّ فكّه، «لكن مكانها ضيّق هناك».

نزع ريكي بوب الشريط الذي يربط البطانيات ووضعه على سطح الطاولة ثم طوى مع مساعده الأغطية القطنية ووضعاها جانباً. «أظن أنّنا نستطيع أن ننقل هذه البوفيه إلى الغرفة الأخرى، إذا أردتِ».

رفعت غرايس البطانيات، وقالت: «إنها ضخمة، ولا أظن أنها يمكن أن تسع في مكان آخر. اتركها في مكانها. ستكون الطاولة مناسبة بجانب الحائط».

«إذا أردت أن تبيعي هذه البطانيات؟ أنا مستعد لأن أدفع خمسة دولارات لقاء كلّ بطانية وسيساعدك ذلك على تعويض المبلغ الذي دفعته».

ضمت غرايس البطانيات إليها، وقالت: «لا، شكراً. سأحتاج إليها عندما ننتقل ثانية. لن نبقى هنا أكثر من سنة».

دُهش ريكي بوب عندما سمع ذلك، لكنه سرعان ما عاد مع تومي إلى الشاحنة وخبأت غرايس البطانيات في الخزانة في جدار غرفة الجلوس. ثم عادت إلى حيث توجد الطاولة التي يلمع خشبها الماهوغوني من أشعة شمس الغروب. مررت أصابعها فوق السطح الحريري، وشعرت بالسعادة لأنها لم تصب بأي خدش.

كان أثاث غرفة الطعام أول ما اشترته غرايس بعد أن حصلت على العمل الذي طالما حلمت به. كان ذلك أشبه بورقة يانصيب بالنسبة لها، مع أن ريكي بوب كان محقًّا -فهي كبيرة جداً في هذه الغرفة - أرخت راحة يدها على السطح المطلي بالشمع اللمّاع، وأحست بدفء الخشب على أصابعها. كان من الأفضل أن تبيع هذه الطاولة وتشتري بثمنها طاولة أصغر، لكنّها لا تستطيع أن تتخلّى عنها. فقد تخلّت عن أشياء كثيرة. أشياء كثيرة جداً.

ومض بريق أحمر في زاويتي عينيها، وصرّت أسنانها. مضت سنوات عدة منذ أن كان عليها أن تحارب شياطينها. فقد ساهم حبّ ماما جي وهدوؤها، وسلسلة النجاحات التي حققتها في إبعاد الغضب الأحمر الذي كان يحوم فوق رأسها لكن موت هانا أعاد شيئاً من غضب غرايس، وقد كرهت ذلك.

هبطت ديزي الدرج وهي تجري، حذاؤها الرياضي يثب في كلّ درجة تهبطها. تركت غرايس الطاولة ودخلت إلى غرفة الجلوس، وشعرت بالسعادة عندما رأت ابنة أختها تدور حول نفسها أسفل الدرج، وقد أصبح مزاجها أفضل من ذي قبل.

من الأريكة الجالسة عليها، كانت ماما جي تنقر بقدمها كما لو كانت تسمع موسيقى لا يسمعها أحد غيرها، ثم قالت: «يا إلهي، يا طفلتي، إنك تحبّين الرقص».

تشجعت ديزي وبدأت ترقص بسرعة أكبر. كانت تشبه أمّها كثيراً. شقراء وهادئة. ومع أن نظرة هانا كانت تشي بالوحدة والبرودة، كانت نظرة ديزي شخصية ومباشرة، حتى عندما تصبح حانقة على العالم.

ثم جلست ديزي على الأرضية أمام ماما جي تلهث من الرقص. أحنت الفتاة الصغيرة رأسها وهي لا تزال تتنفس بصعوبة، ومدّت يدها لتلامس شعاع الشمس المتسلل من إحدى النوافذ الأمامية، كما لو كانت تحاول إمساك ذرات الغبار الذهبية التي تدور حول الضوء.

ابتسمت غرايس في هذا الهدوء غير المتوقّع لوهلة. كانت ديزي محاربة، هذه الطفلة السيئة الحظ التي أنكرها أبوها والتي لم تستطع أمّها أن تفعل لها شيئاً أكثر من أن تعانقها وتتركها، حتى استُنزفن جميعهن. لكن هانا انفصلت عن ألمها ولم يتبق شيء يمكنها أن تقدمه إلى ابنتها أو إلى أي شخص آخر.

كان ريكي بوب وتومي يجوبان أرجاء البيت، يتجادلان طوال الوقت. كانا قد نقلا المناضد الجانبية، وخزانة الملابس الكبيرة، وصناديق كتب ديزي، وأخيراً الكنبة الزرقاء الكبيرة التي

يتعارض لونها مع لون الكراسي الخضراء الزاهية التي تركتها السّيدة فيلبس. «أرجوك ضعها هنا». أشارت غرايس إلى مكان فارغ بجانب الموقد. عندما أصبحت الكنبة في مكانها الملائم، ربتت غرايس على مسند الكرسي، وقالت: «انظري، ماما جي، هذا هو كرسيك المفضّل».

لم تكن ماما جي بحاجة إلى دعوتين اثنتين. «في هذه الأريكة كتل كأنها كتل خشبية»، وانتقلت إلى الكرسي. عندما جلست على الكرسي تنهدت بارتياح، وابتسمت لغرايس، عيناها تلمعان وقالت: «بكلّ هذه الحشوة تحت مؤخرتي، أظن أنني لست بحاجة إلى كل هذه الوسائد، يا إلهي، إنه مريح جداً».

ضحكت ديزي وأحضرت لماما جي سلة الحياكة.

حتى غرايس ضحكت، وقالت: «نستحقّ كلّنا كراسٍ مريحة».

ابتسمت ماما جي ابتسامة متسامحة. لكن بينما كانت غرايس تنظر إليها، تلاشت ابتسامة المرأة العجوز، وراحت تنظر حولها في الغرفة كما لو كانت تبحث عن ذكرى انسلّت منها وابتعدت عن بصرها. «إننا...». بدأ صوتها، الذي كان عادة هشًّا وثابتاً، يرتعش كثيراً مثل يديها، «كنت أعرف هذا البيت.

ربتت غرايس على كتف ماما جي، وقالت لها: «إننا الآن في دوف بوند في بيت فيلوميدرا فيلبس. لقد غادرت منذ قليل. أتذكرين؟»

رمشت ماما جي بعينيها وقالت: «نعم»، ومسحت الغرفة بعينيها كأنها تراها للمرة الأولى، وأضافت، «أرجو أن تطبخ لنا سباغيتي. لا أستطيع أن أعدّ صلصة كما تفعلها، مع أن الصلصة التي أصنعها جيدة».

«الصلصة التي تعدّينها أكثر من جيدة»، قالت ديزي، «إنها لذيذة».

أثار هدير الدراجة النارية في الخارج انتباه غرايس. فركت ماما جي وديزي تتحدّثان عن صلصة السباغيتي وتوجهت إلى النافذة الأمامية.

أزاحت غرايس الستارة المخرّمة. كانت أشعة الشمس تضيء الباحة الأمامية، تلمع من خلال الأشجار وتنشر بقعاً ذهبية فوق العشب الأخضر. اقترب صوت الهدير، ولمع بريق شريط أحمر وفضّي في أسفل الشارع. ثم خفّت سرعة الدرّاجة وانعطفت إلى ممر البيت المجاور. لا بد أن هذا هو ترافيس باركر.

انحنت غرايس إلى الأمام لتمكن من رؤيته أكثر. كان الرجل ذو الكتفين العريضين والبنية القوية التي تشبه بنية مصارع، يرتدي تيشيرت أبيض وبنطال جينز. ركن درّاجته النارية بجانب ممرّ بيته، وركل بقدمه مسند الدراجة، ثم خلع خوذته وتهدل شعره الطويل الأسود حتى كاد يصل إلى كتفيه، في تضاد غريب مع خطوط وجهه القاسية. يا إلهي، من بين جميع الجيران في العالم، يأتيني كال دروغو[1].

مرّر يده خلال شعره، وعلّق خوذته على درّاجته، ثم سار نحو بيته. عندما اقترب من الباب توقّف والتفت وراح يحدّق عبر باحة بيته، كما لو كان يبحث عن شيء. لمعت أشعة الشمس على وجهه فرأت ندبة حمراء سميكة تمتد حتى رقبته ثم اختفت تحت ظلّ شمس الساعة الخامسة على أحد خدّيه.

أتساءل ما الذي حدث؟ لا بد أنها ناجمة عن حادثة وقعت له على الدراجة النارية.

كوّر يديه حول فمه وصاح، «كيلر».

كيلر؟ نظرت غرايس برعب إلى الاتجاه الذي ينظر إليه لترى الكلب المتوحش الذي يحمل هذا الاسم.

صاح الرجل مرة أخرى، هذه المرة بصوت أعلى. لكن لم يحدث شيء، وبعد لحظة، هزّ كتفيه بلا مبالاة ودخل إلى البيت.

هذا هو جارها إذاً. وكيلر أيضاً. لو اقترب هذا الكلب من ديزي، سيكون لنا كلام معه. كانت السّيدة فيلبس قد قالت إن ترافيس باركر رجل منطوٍ على نفسه، وكان كلّ ما تأمله غرايس هو أن تكون المرأة العجوز مصيبة في كلامها. ومن الخطوط العميقة على وجهه، لا يبدو أنه يمكن وصف كال بأنه «دمث الأخلاق».

كانت على وشك أن تبتعد عن النافذة عندما توقفت شاحنة صغيرة زرقاء عند الممر المؤدي إلى بيت عائلة دوف. بدافع الفضول، أزاحت غرايس الستارة أكثر وفوجئت عندما رأت أن المرأة التي خرجت من الشاحنة لم تكن عجوزاً شمطاء كما تصورت، وإنما كانت في عمر غرايس أو ربما أصغر منها. كان للمرأة شعر أشقر غامق مربوط في ضفيرة غير مرتبة تتدلى على كتفها، وترتدي فستاناً شفافاً فضفاضاً وتنتعل صندلاً.

مدّت يدها إلى المقعد الخلفي وسحبت كومة من الكتب، ثم أغلقت باب الشاحنة بكتفها. عندما بدأت تسير نحو بيتها توقّفت فجأة وراحت تنظر إلى كومة الكتب وبدأت توبخها كما لو كانت أحياء.

رمشت غرايس بعينيها. يا إلهي. أنا محاطة بأناس مجانين. بيت سائق الدرّاجة كال دروغو المجاور والهيبية هيرميون غرانجر[2] في البيت المجاور لبيتها.

ربتت المرأة على الكتاب في أعلى كدسة الكتب وبدأت تسير في الممشى الذي تحفّه الأزهار حتى وصلت إلى باب بيتها. وما إن وصلت إلى الدرج، حتى استدارت فجأة ونظرت إلى غرايس مباشرة. ارتسمت ابتسامة سعيدة على وجهها، ولوّحت لها بيدها.

قفزت غرايس إلى الوراء جافلة وأغلقت الستارة، واحمرّ وجهها. عندما التفتت، وجدت ماما جي تنظر إليها.

«هل رأيتِ شيئاً غريباً؟»

«لا»، قالت غرايس، كاذبة.

«يجب أن تذهبي وتسلّمي عليها». عندما هزّت غرايس رأسها، قالت لها ماما جي: «التغيير لا يؤذي أحداً أبداً يا ابنتي. أنت تعرفين ذلك. الذين لا يستطيعون أن يتغيّروا أو الذين لن يتغيّروا فهم الخاسرون».

«أنا جائعة». وضعت ديزي كرة الصوف التي كانت تلفّها لماما جي ونهضت واقفة. ثم قالت: «أعرف ما الذي أريد أن أتناوله على العشاء».

شعرت غرايس بالارتياح لأن مزاج ديزي أصبح أفضل، ثم قالت: «دعيني أحزر».

ابتسمت ديزي. للحظة عادت ديزي إلى نفسها السابقة مما أدخل البهجة إلى قلب غرايس. فقالت ديزي: «حسناً، احزري».

«سبانخ؟»

«لا»، هزّت ديزي رأسها ثم دارت في دائرة بينما عادت إبر حياكة ماما جي تصدر صوت نقراتها المعهودة. «احزري مرة أخرى».

تظاهرت غرايس بأنها تفكّر، مستمتعة بهذه اللحظة بهدوء ديزي، ثم قالت: «بيض مسلوق؟»

«لا، لا، لا»، ودارت ديزي أسرع قليلاً. «احزري ثانية».

«كبدة وبصل؟»

«لا، لا، لا، لا». مالت ديزي إلى جانبها، دائخة الآن ولم تستطع أن تقف فوقعت عندي قدميْ ماما جي، وراحت تلهث بقوة. «بيتززززاااا».

رفعت ماما جي عينيها إلى الأعلى وقالت: «بيتزا؟»

«أنت تحبّين البيتزا»، أكدت لها ديزي.

تلاشت ابتسامة ماما جي، وقالت بحدّة: «أعرف أنّني أحبّ البيتزا. كانت ماما تصنع أفضل الفطائر. في الواقع...» نظرت ماما جي حولها في الغرفة، وأضافت، «كانت تصنع هي وخالتي بينيلوب فطائر لذيذة في هذا البيت ليلة كلّ يوم أحد، وكنت أنا وفيلوميدرا نعدّ المائدة وندعو الجيران، ويكون هناك نبيذ و - أوه، كان شيئاً رائعاً».

انتعش قلب غرايس. لعل العودة إلى مسقط رأس ماما جي سيجعل صحتها تتحسن. هنا، بعيداً عن مشاكل حياتهن القديمة، قد يجدن حياة جديدة، حياة أفضل، حياة لم يشطرها العالم إلى شطرين بواسطة ثقب أسود حيث كانت هانا.

«بيتزا، ههه؟» ألقت غرايس يديها كما لو أنها تستسلم لانتصار الآخرين. «حسناً. لتكن بيتزا». على وجهها ابتسامة، ذهبت لتسأل عامليْ النقل عن أفضل مكان يمكنها أن تطلب بيتزا. فبعد كل

المتاعب التي واجهتها ماما جي وديزي، فهما تستحقان أفضل بيتزا يمكن أن تقدّمها بلدة بوند دوف.

لم يكن ذلك كثيراً، لكنه البداية.

الفصل (٢)

سارة

أخرجت سارة حلقة المفاتيح الضخمة من جيبها وفتحت باب صندوق إعادة الكتب في مكتبة دوف بوند. خفضت اللوحة المعدنية الكبيرة، ودغدغت رائحة الفانيلا المنبعثة من الكتاب القديم أنفها وذكّرتها بالكعك والكيك والساعات التي أمضتها تحت شجرة الصفصاف في باحة بيتها الخلفية، وهي تقرأ حتى غابت الشمس عن الأنظار.

تنهّدت بسعادة، وأخرجت الكتب، وكدستها على الحافة. كان عليها أن تنحني كثيراً حتى تصل إلى آخر كتاب في الأسفل، وما إن أطبقت أصابعها على الغلاف، حتى تكلّم الكتاب.

كيم برومير، قال الكتاب كما لو أنّ الاسم قد خطر له للتو.

كانت كيم ذات السنوات التسع، ابنة ميريام برومير، مديرة مدرسة سويت كريك الابتدائية، قارئة شرهة. نظرت سارة إلى الكتاب الذي رُسمت على غلافه صورة حصان وعنوانه صديقتي فليكا المطبوع في أعلى الغلاف. دمدمت سارة، «لقد قرأتك عندما كنت في المدرسة الابتدائية. هل تظن أن كيم ستستمتع بقراءتك؟»

نعم، أجاب الكتاب. فهي تحبّ الخيول.

«كلّنا نحبّها في ذلك العمر»، قالت سارة بجفاف وهي تعيد الكتاب إلى أعلى كومة الكتب، «يجب أن تعيد كتابين بعد ظهر اليوم، لذلك يجب أن أراها اليوم، وسأطلب منها أن تأخذك».

أصدر الكتاب حفيفاً يشكرها.

ربتت سارة بأصابعها على الكتاب. كانت تحبّ أنها أصبحت أمينة مكتبة البلدة. كانت تظن أنها تزاول أسوأ عمل في العالم منذ بضع سنوات، تبيع إعلانات للناخبين في دوف بوند، ولم يكن يدرّ عليها راتباً جيداً ولا يضمن لها مستقبلاً واعداً، خصوصاً بالنسبة لشخص يخجل أن يطلب نقوداً من أحد، لأنها لم تُخلق لهذا النوع من العمل. أما الكتب؟ يا إلهي، نعم. فقد خُلقت من أجل الكتب، ومع أنّها كانت تعرف ذلك منذ زمن بعيد، فقد استغرقت بعض الوقت حتى عرفت ما هو العمل المناسب لها.

منذ أربع سنوات، خرجت نيبي فارمر، أمينة مكتبة دوف بوند السابقة، البالغة من العمر تسعة وثمانين عاماً، من بيتها دون أن ترتدي الثياب التي اعتادت على ارتدائها منذ زمن طويل عندما كانت أمينة المكتبة، وسارت بخطوات وئيدة في الشارع الرئيسي لتحضر أكبر حفل تقاعد شهدته البلدة في تاريخها أقامه لها رئيس البلدية مور ونادي دوف بوند الاجتماعي. وغمرت نيبي سعادة

كبيرة عندما رأت هذا العدد الكبير من الأشخاص الذين حضروا لتوديعها، وبكت بسعادة عندما عانقوها، وتناولوا قطع الحلوى، وتبادلوا فيما بينهم القصص «هل تتذكّرون عندما كانت نيبي...». التي لم تكن كثيرة.

بعد الحفلة، أوصلت ابنة نيبي أمّها إلى بلدة غلوري القريبة، وأصبحت أمينة المكتبة المتقاعدة أحدث نزيلة في مركز غلوري لرعاية المسنين، وانضمت نيبي في الأسبوع الأول إلى ما لا يقل عن سبعة نواد وتعرفت على صديقتين جديدتين كانتا تستمتعان كثيراً بوجودهما في هذا المكان الجميل مثلها.

بعد مضي أسبوع على تقاعد نيبي، أعلن رئيس البلدية مور عن وظيفة أمينة المكتبة في دوف بوند، فتقدّمت سارة التي كانت واثقة بأنها لن تبقى في عملها السابق بأي شكل من الأشكال، وتقدمت بطلب لشغل هذه الوظيفة بتردد لأنها لم تكن واثقة بأنها يمكن أن تحصل على هذه الوظيفة، لأنها لا تملك المؤهلات المطلوبة: فلم تكن لديها خبرة في هذا العمل لاسيما أن درست الشعر في الجامعة ولم تتخصص في إدارة المكتبات. لكن لدهشتها، قُبلت في الوظيفة بعد أن أجرت مقابلة سريعة. وفي أحد الأيام، سمعت رئيس البلدية مور الذي كان ثملاً أثناء الاحتفال بعيد الاستقلال في الرابع من تموز (يوليه)، يقول في زلة لسان إنها كانت الشخص الوحيد الذي تقدم لشغل هذه الوظيفة.

لم تبال سارة بما سمعته لأنها حصلت على هذه الوظيفة التي تحبّ كلّ شيء فيها – رائحة الكتب التي تشير إليها، رفوف الكتب الأنيقة، همسات ألف صديق يعرفونها أكثر مما تعرفها أسرتها. حتى القبو المظلم البارد المليء بالكنوز الذي لا يمكن الدخول إليه إلّا بواسطة مفتاحين خاصّين، حيث يقبع تاريخ دوف بوند المترب. عندما لمست سارة الوثيقة الأولى القديمة التي هي امتياز ملكية أرض مؤرخ في عام ١٧٠٨، قديم ومتشقق، عرفت أن هذا هو مكانها الملائم.

ها هي الآن، بعد أربع سنوات، تستعدّ لفتح أبواب المكتبة ليوم مثير آخر. بينما كانت جاثية تغلق باب صندوق إعادة الكتب المعدني وتقفله، اقترب منها قطّ أسود سمين وحكّ جسمه بكاحلها، فتأرجحت للحظة وكادت أن تقع.

«سيغفريد»، قالت وأسندت يدها على أرض الرصيف لتحافظ على توازنها، «يجب أن تحذّرني أولاً».

قوّس سيغفريد ظهره ثم راح يدور بعكس عقرب الساعة.

واحد.

اثنان.

ثلاثة.

ثم أقعى وراح يموء بنبرة حزينة.

تلاشت ابتسامة سارة واستوت واقفة، وحدّقت في القطّ. لليوم السادس على التوالي رأت القطّ سيغفريد يدور حول نفسه بعكس عقرب الساعة. لم يفعل ذلك أمام باب المكتبة فقط، وإنما أمام جميع أبواب المحلات في الشارع الرئيسي.

رفع القطّ عينيه ونظر إليها وراح يموء بصوت مرتفع.

«لا بد أنك تشعر بذلك أيضاً؟ هناك شيء ما سيحدث». كانت تأمل بأن يكون شيئاً جيداً.

هذا ما كانت تأمله.

على الرغم من الوعود التي همست بها صحيفة يوميات شارلوت دوف منذ زمن بعيد عندما كانت جالسة تحت شجرة الصفصاف التي تنبّأت بأن حظاً سعيداً سيتحقّق مع ولادة سارة، فإن الواقع يقول عكس ذلك عندما ترى عدد المحلات التجارية التي أُغلقت في الشارع الرئيسي.

عندما تذكرت ذلك أرادت أن تبكي. فهي ترى بلدتها المحبوبة تموت أمام عينيها ولا تعرف ما الذي يجب أن تفعله لتوقف هذه الكارثة. عندما نظرت إلى الشارع، لاحظت أن لون المظلات أمام المحلات التي كانت تعج بالنشاط، قد تحوّل من الأحمر الفاقع إلى الوردي الباهت، وذبلت الأزهار التي تملأ الأحواض الإسمنتية الكبيرة، وعُلِّقت على باب كلّ ثالث باب محل لافتات «للإيجار». حتى لون الرصيف تحوّل من اللون الأبيض البراق إلى رمادي باهت.

إن دوف بوند بحاجة إلى سحر عائلة دوف أكثر من أي وقت مضى. وبالرغم من ذلك، لم يفعل أحد شيئاً لإنقاذ البلدة. لا شيء على الإطلاق، ومع كلّ يوم يمضي، كانت سارة تشعر بالإخفاق. حتى التوقّعات، بما فيها الأشياء الموروثة، يمكن أن تثقل كاهلي المرء كأنها أكياس إسمنتية إذا لم تتحقق. كانت سارة تشعر بألم في ظهرها بسبب ذلك.

ماء القطّ مرة أخرى، بصوت أعلى هذه المرة. نقلت سارة كومة الكتب إلى وركها الآخر كي تتوازن، ثمّ انحنت لتربّت على المخلوق المسكين، وقالت له «أنا قلقة مثلك أيضاً يا سيغفريد».

«هذا القطّ مزعج جداً».

عندما رفعت سارة بصرها رأت السّيدة جو هاملتون تقترب منها، قبعتها العريضة ذات الحواف ترفرف مع كلّ خطوة تخطوها. كانت السّيدة جو هاملتون أرملة، جسدها عريض بقدر ما هو طويل، وهي أقرب إلى التسعين مما هي إلى الثمانين، تُعرف بخزانة ثيابها ذات الألوان المتعددة وبآرائها الصريحة، ترتدي عادة بدلة فلامينغو وردية اللون تُبرز بشرتها الأبنوسية وتتدلى من رسغها حقيبة يد زرقاء لامعة، وتحمل عكازاً خشبياً مزخرفاً، وتجثم فوق شعرها المصبوغ باللون الأسود قبعة صيفية جميلة ضخمة، تجرّ وراءها كلبها البولدوغ السمين بزمام أحمر، يسير ببطء شديد، تطلق عليه اسم «فطيرة القمر» وتضع حول رقبته عادة شريطاً بلون مختلف، أما اليوم فقد وضعت حول عنقه قوساً أرجواني اللون.

وقف الكلب وراء العمّة جو، يلهث، متحاشياً النظر مباشرة إلى القطّ سيغفريد.

«العمّة جو»، قالت لها سارة. كانت السّيدة جو هاملتون أكبر امرأة سناً في دوف بوند وهي صديقة قديمة لعائلة بوند. لم يكن بوسع أحد في البلدة ألّا يبادلها ابتسامتها الجميلة، وهي أكثر شخص تحبّه سارة في هذا العالم. «أرى أن الجميع يرتدون ثياباً أنيقة هذا الصباح. هل توجد مناسبة؟» كانت سارة تأمل بأن يكون لديها قبعات بعدد القبعات التي تقتنيها العمّة جو والتي تزيّنها بمجموعة من الأزهار الحريرية والأشرطة الملوّنة. كانت القبعات تذكّر سارة دائماً بحفلات الشاي الأنيقة، وبسباق كنتاكي دربي.

«أنا ذاهبة إلى الكنيسة. لقد أصبحت الشَمَّاسة وسأحضر أول اجتماع رسمي لي».

«مبروك! متى حدث ذلك؟»

«ليلة يوم الأحد. لكن لا تندهشي كثيراً. لن يفعل ذلك أحد غيري. أنا فرس النهر البطيء وراعي كنيستنا الجديد فهد ملعون. إذا ترددتِ قليلاً، فإنك تخسرين كل شيء».

لقد سمع الجميع عن القسّ تومسون الذي جاء مؤخراً إلى الكنسية المعمدانية الأولى، ومع أنه لم يمض على قدومه أقل من شهرين، فقد أحدث ثورة. «سمعت أنّه شخص غير تقليدي».

«لو كنتِ تعرفين. فهو لا يقدّر تاريخ كنيستنا أبداً. إنه يريد أن يطلي مبنى الكنيسة بلون أزرق براق حتى يلاحظه الناس. هل تتخيّلين ذلك؟» ثم قالت غير مصدقة، «كيف لا يمكنهم أن يلاحظوا كنيستنا؟ ففيها جرس».

نبح الكلب كأنه يعبّر عن موافقته على ما قالته، وبدا أنه تعب من هذا الجهد الصغير الذي بذله، فاستلقى على الرصيف الدافئ، وراح يلهث.

«الأزرق لوني المفضّل»، قالت سارة.

«أنا لا أتحدّث عن اللون الأزرق الناعم الجميل، وإنما أتحدّث عن اللون الأزرق البراق القبيح الذي يشبه لون بركة المسبح في المدرسة الثانوية».

«أُفّ»

«أليس كذلك؟ يمكنني أتخيّل لون أزرق لطيفاً، فاتحاً، مبهجاً. وقد أؤيد اللون الأصفر الباهت أيضاً، لا بل يمكنني أن أقبل اللون الأخضر إذا كان الظلّ فيه جيداً، أما اللون الأزرق الذي يشبه لون بركة المسبح في المدرسة الثانوية، فلا».

«لا يمكنني أن أتخيّل ذلك». الكنيسة المعمدانية الأولي والكنيسة الميثودية الأولى هما الكنيستان الوحيدتان الموجودتان في بلدة دوف بوند، وتحاول كلّ كنيسة منهما أن تسرق رعايا الكنيسة الأخرى، ويشجع القسيسان على ذلك بحماسة زائدة، وقد أصبحا عدوين بعد أن بدأ عدد سكان البلدة يتدنى. «أتعرفين يا عمّة جو، إذا كنت حزينة – ويمكنني أن أعرف سبب حزنك «توجد كنيسة رائعة أخرى في البلدة، ويسعدنا أن تنضمي إلينا».

«اسكتي. أنا أذهب إلى الكنيسة المعمدانية الأولى قبل أن تولدي، وقد تعمّدت فيها وتزوّجت، وتعمّد فيها جميع أبنائي وتزوجوا، وأريد أن تقام مراسم جنازتي فيها أيضاً».

«حتى لو كانت مطلية باللون الأزرق مثل بركة المسبح في المدرسة الثانوية؟»

«حتى لو كانت مطلية بهذا اللون الشنيع، ويمكنني أن أطلب من الآخرين أن يدخلوا إلى الكنيسة من الباب الخلفي، لأن الأشجار ستغطّي على معظم ذلك اللون الأزرق القبيح».

ضحكت سارة وقالت: «أرجو ألّا يستخدم قسيس كنيستك هذا اللون».

«وأنا أيضاً. بدأت أشكّ بأن القسّ تومسون مصاب بعمى الألوان لأنه يحبّ هذا اللون الشنيع. لكن هناك أمور أخرى تجعل المرء يتحمّله. فهو وسيم جداً. وتقول زوي بيل إنه يشبه شقيق إدريس إلبا الأصغر».

«هل تعرف زوي رجالاً».

«نعم. وهي تعرف أيضاً أننا فزنا بقسّنا الجديد، لذلك سأبقى في هذه الكنيسة حتى لو طلى الكنيسة بلون أسود تتخلله ألسنة لهب برتقالية. فالمواعظ تنتهي بسرعة إذا كان يقف أمامي واعظ جميل».

«في هذا الأمر يتفوق قسيس كنيستكم على قسيس كنيستنا. فمع أنني أحبّ القسّ لويس، إلّا أنه شخص لا يمكنني أن أقول إنه متعة للنظر». فالقسّ لويس بدين، أصلع، ثيابه في حالة فوضى باستمرار. وقالت سارة لنفسها إنها لم تره قط دون أن يكون قميصه مبقعاً بالخردل.

ماء القطّ سيغفريد بصوت عال، فزمجر الكلب «فطيرة القمر» كأنه خائف.

نظرت العمّة جو إلى القطّ نظرة مليئة بالاستياء، وقالت: «ما مشكلة هذا القطّ؟ إنه يموء كما لو كان سيلد دزينة قطط برية».

«إنه على غير ما يرام، وأنا كذلك»، تردّدت سارة ثم قالت، «العمّة جو، أظن أن شيئاً سيحدث».

«سيحدث؟»

«هنا. في دوف بوند».

لمعت عينا العمّة جو الدافئتين البنيتين، وقالت: «حظّ عائلة دوف السعيد؟ هل الأمر يتعلق بذلك؟»

«أرجو ذلك. لقد رأيت بعض الإشارات. لست متأكّدة بعد، لكن...»

«لقد حان الوقت لحدوث ذلك».

«لا أعرف»، قالت سارة. كانت تأمل بأن تكون مخطئة. فهي من عائلة دوف، وتنبّأت صحيفة اليوميات بأنه سيكون لها دور محوري في إنقاذ بلدتهم. أين هو ذلك الحظّ السعيد الموعود؟ إنها تنتظره منذ زمن، وبدأت تخشى أن يسألها أصدقاؤها وجيرانها عن تلك المعرفة التي توجد لدى عائلة بوند.

انتظرت طوال تلك الفترة، وكان كلّ يوم يزيد من قلقها بعد أن ازدادت الأمور تعقيداً في البلدة.

«حدّثيني عن هذه الإشارات»، قالت العمّة جو. عندما تردّدت سارة، ضربت السيدة المسنّة عكازها على أرض الرصيف، وقالت: «هيا قولي. فأنا على مشارف التسعين، وفي عمري هذا لا أحتمل حدوث مفاجآت».

ضحكت سارة، وقالت: «إذاً من الأفضل أن أقولها بسرعة، لأنني لا أريد أن يلومني القسّ تومسون لأنني جعلت أفضل شمّاسة لديه تتأخر عن الذهاب إلى الكنيسة».

«سيعرف قريباً أنه توجد عنده أفضل شمّاسة»، قالت العمّة جو، ثم اقتربت منها قليلاً، «لكن يكفي الحديث عن الكنيسة. حدّثيني الآن عن الإشارات التي رأيتها».

«لكن يجب أن تعرفي أنّني قد أكون مخطئة، وآمل ألّا أكون مخطئة». نظرت سارة حولها لتتأكد من أن أحداً لا يسمعهما، «الإشارة الأولى جاءت من سيغفريد».

تجهّم وجه العمّة جو، وقالت: «هذا القطّ الأجرب أحد الإشارات التي رأيتها؟»

عطس الكلب، وبدا أنه يحاول أن يمسك نفسه عن الضحك.

فقالت سارة بجديّة: «نعم. فمنذ أسبوع تقريباً يتوقّف أمام باب كلّ محل في الشارع الرئيسي ويدور ثلاث مرات بعكس عقرب الساعة».

«كلّ يوم؟»

«وأمام باب كلّ محل».

«حسناً. هذا شيء مهم». ارتسمت الدهشة على وجه العمّة جو، «حتى بالنسبة إلى قطّ».

«وهناك أشياء أخرى»، قالت سارة، «تتغيّر ألوان الأزهار في أحواض الحدائق في البلدة».

اتسعت عينا العمّة جو، وسألتها، «كلّها؟»

«لا، الأزهار المزروعة في الأحواض في هذا الجانب من البلدة فقط، وهذا شيء غريب».

نظرت العمّة جو إلى الأزهار في الجانب المقابل من الشارع أمام مبنى البلدية ثم نظرت إلى الأزهار في الأحواض في أسفل الشارع الرئيسي، وقالت: «كلّها أرجوانية اللون».

«هكذا هي الآن، لكن لون هذه الأزهار على الطرف المقابل من الشارع يصبح أحياناً أزرق أو ورديا أو لوناً آخر. وبعد بضع ساعات تعود إلى لونها الأصلي».

«ليساعدنا الرب، إنك تثيرين خوفي». نظرت العمّة جو إلى سارة، وقالت: «وماذا أيضاً؟»

«هناك شيء آخر. لقد اشتغلت نافورة البلدة البارحة بعد الظهر مرة أخرى».

بدأت العمّة جو تلهث، وقالت: «لم تعمل هذه النافورة منذ خمسين سنة تقريباً».

«لا أستطيع أن أصدّق عيني أيضاً. فقد انطلقت من تلقاء نفسها. أعرف لأنني قلت ذلك لرئيس البلدية مور الذي لم يكن يعرف ذلك».

«الحمد لله. كنت أعرف أن هذا سيحدث إن عاجلاً أم آجلاً». احتوى صوت العمّة جو كلّ الأمل الوجل الذي تشعر به سارة، ثم قالت: «سارة دوف، إننا نرى بداية الحظّ السعيد لعائلة دوف الشهيرة. ستكون أمك فخورة جداً بك».

«أرجو ألّا أكون مخطئة لكن هذا ما حدث فعلاً»، قالت سارة بحماسة، «يجب أن يحدث شيء جيد لهذه البلدة. يبدو كما لو أنه يتلاشى أمام عينيّ».

«أعرف. فقد قلّت النقود كثيراً في البلدة، وأُغلقت محلات تجارية عدة، وهرب الناس كما تهرب الجرذان من سفينة تغرق». هزّت العمّة جو رأسها، وتمايلت قبعتها، وأضافت: «كلّهم جبناء».

«لا يوجد أمامهم خيار آخر. فلا يمكنهم البقاء هنا بدون عمل، خصوصاً إذا كان عندهم أطفال».

«أعرف، أعرف. فبرنامج الشباب في كنيستنا يدعو إلى الشفقة. قد لا يتجاوز عدد الأزواج الشبان الذين يمكنهم أن ينجبوا أطفالاً ثلاثة، ويبدو أنهم لا يبذلون أي محاولة. اقترحت أن نقيم حفل عشاء نقدم فيه المحار يوم الأحد، لندفع الأمور قليلاً، لكن القس تومسون قال إنه لا يريد أن تفوح رائحة المحار في الكنيسة».

«معه حقّ. فليس من السهل الحصول على محار طازج في هذه البلدة غير الساحلية إلّا إذا كان عندك مطعم ولديك صلات».

تنهّدت العمّة جو، وقالت: «إنه شيء يدعو إلى الخجل، فلم يبق أحد في البلدة الآن».

«غادرت أخواتي أيضاً». فلم يبق أحد من العائلة هنا إلّا سارة وآفا. فبعد أن تخرجت أخواتها في الجامعة، تناثرت أخواتها الأكبر مع الريح، وجرين وراء وظائف أفضل وأصدقاء جدد خارج دوف بوند. وعندما قالت، «يجب أن يعدن لأن عائلتنا تنتمي إلى هذه البلدة» همهمت الكتب التي تحملها معبّرة عن موافقتها، وتساءلت سارة عما إذا كانت هذه الكتب تعرف أكثر مما تعرفه هي، أم أنها توافق على ما قالته فقط.

«أرجو ذلك، أنا – أوه». لوّحت العمّة جو إلى سيارة الشرطة التي مرّت. «إنه رئيس الشرطة ماك إينتير. لقد عاد منذ فترة قصيرة من المؤتمر الذي عُقد في أتلانتا».

خفق قلب سارة، لكنّها لم تنظر، وسألتها، «هل كان خارج البلدة؟» حاولت ألّا تبدو من صوتها بأنه مهتمة بذلك، ولو قليلاً.

«نعم، كان خارج البلدة، وأنا متأكّدة بأنك تعرفين». ربطت العمّة جو زمام الكلب على مقبض صندوق إعادة الكتب واقتربت منها أكثر. «لقد دفع تكاليف التدريب والرحلة بنفسه أيضاً. أعرف ذلك، لأن أمّه تتباهى بذلك، وتقول إنّه الموظف الحكومي المثالي الذي يجب أن يرشّح نفسه لمنصب رئيس البلدية».

لم تجب سارة، وماء القطّ الذي أحسّ بالإهانة لأن الزمام الأحمر تدلّى بجانب رأسه، وابتعد متذمراً يهزّ ذيله، ثم توقّف ودار ثلاث دورات عند مدخل محل بيع المقتنيات الأثرية قبل أن ينتقل إلى المحل المجاور.

نظرت العمّة جو إلى سارة نظرة ماكرة، وقالت: «لم أكن أتوقّع أن يصبح أغنى شاب عازب في البلدة مديراً للشرطة فيها، لكن بالطبع، لعلك تعرفين منذ زمن أن بليك كان يريد أن يلتحق بكلية الشرطة، لأنكما كنتما صديقين».

«مضى على ذلك زمن طويل، ولا أسمي ذلك صداقة»، قالت سارة وهزّت كتفيها بلا مبالاة، «لم نتكلّم معاً منذ تلك الفترة».

إن ما قالته صحيح، على الأقل في معظمه. فمنذ ذلك اليوم، منذ تلك السنوات، عندما رآها بليك تكلّم صحيفة يوميات شارلوت دوف، بدأ أحدهما يتجنب الآخر، وظلا كذلك حتى المدرسة المتوسّطة.

وعندما انتقلا إلى المدرسة الثانوية، بدأ بليك يلاطفها ولفت انتباه الجميع، لكن سارة رفضت محاولاته في التقرب منها وانهمكت في كتبها وتجاهلته تماماً حتى أن أصدقاءه بدأوا يطلقون عليه اسم «بليك اللا مرئي».

لكن ذلك تغيّر في بداية سنتها الأولى. فعندما عادت إلى المدرسة في خريف تلك السنة، اكتشفت أن طول بليك قد ازداد خلال الصيف ثلاث بوصات، وأصبح كتفاه أعرض، وبدأ شعره البني الفاتح يلمع تحت أشعة الشمس بطريقة سحرية، وأصبحت ابتسامته – التي كانت دائماً أجمل سماته – أجمل بكثير، ولدهشتها، وجدت سارة نفسها مغرمة به.

لكن الضرر كان قد وقع للتو. فردّ على تجاهلها له لسنوات عشرة صاعين فلم يكلّمها ولا حتى ينظر إليها.

كانت سارة وحيدة، غارقة في عواطفها ولم تستطع أن تتخذ قراراً صائباً، وكلما رفض بليك أن يكلّمها، ازدادت جنوناً. الجنون هي الكلمة المناسبة أيضاً. «هورمونات المراهقة الفظيعة» تمتمت لنفسها.

«ماذا؟» سألتها العمّة جو، عيناها مركزتان على وجه سارة.

«لا شيء. تذكّرت الآن إنني يجب أن أحضر اجتماعاً بعد ظهر اليوم، هذا كلّ ما في الأمر». كانت سارة ترى أن ما جرى بينها وبين بليك كان خطأ شنيعاً انتهى في ليلة ترفض أن تتذكرها.

فقد مات الماضي، ولا فائدة من تذكّره ثانية. عندما همهمت الكتب التي تسندها إلى وركها بقلق، ربتت سارة بشرود على أعلى كتاب.

سألتها العمّة جو. «أرجو أن تكلّمي هذا الشاب. على الأقل حاولي أن تصبحا صديقين».

فقالت سارة: «إننا نكلّم بعضنا. إننا لسنا أعداء. إننا...» يا إلهي، ماذا كانا إذاً؟ لم يكونا شيئاً. هكذا أفضل، «لقد مضت سنوات على ذلك، يا عمّة جو. لا يوجد بيننا شيء».

«أظن ذلك»، قالت المرأة العجوز، وقد بدا عليها شيء من الانزعاج. «كنت أنا وأمك نفكّر دائماً...» وتحوّلت نظرتها إلى شيء في الطرف المقابل من الشارع، وسألتها، «هل هذه أمينة سجل البلدية الجديدة؟»

التفتت سارة. كانت غرايس واقفة بجانب باب مبنى البلدية، تحدّق في حوض الأزهار كأنها تراها لأول مرة. كانت ترتدي بدلة رمادية أنيقة وتنتعل حذاء بنيًّا بكعب عال، وتحمل حقيبة يد عصرية تركوازية اللون، وشعرها الأسود معقوص في هيئة كعكة جميلة. كانت غرايس تشبه ممثلة تؤدي دور محامية أنيقة في مدينة نيويورك أكثر من أن تكون مجرد أمينة سجل في بلدية صغيرة.

بدلتها جميلة، ماعدا اللون»، قالت العمّة جو وجعدّت أنفها، «إنه لون ممل. ستتعلم أكثر لو أنها شاهدت بضع حلقات من برنامج «مشروع رانواي للأزياء».

«لكن هذا الحذاء»، نظرت سارة إلى صندلها الضخم الذي يظهر من تحت حاشية ثوبها الطويل البنفسجي الفاتح اللون.

«أموت لو حاولت أن أنتعل حذاء بكعب عال مثلها» قالت العمّة جو بتنهيدة، «سمعت أنّها تعيد تنظيم كلّ شيء في البلدية، حتى أنها بدأت تُدخل جميع البيانات في الكمبيوتر».

«يجب أن تفعل ذلك. فعندما دفعت الضريبة العقارية الشهر الماضي، أعطتني السّيدة فيلبس نسخة كربون عن الإيصال».

فقالت العمّة جو، «لعلي شارفت على التسعين من عمري، لكنني لا أزال أعرف أشياء من خمسينات القرن الماضي. كنت أحبّ فيلوميدرا كثيراً لأنها تضحكني دائماً. إن بلدتنا بحاجة إلى أمينة سجل جديدة».

«حسناً، أصبح لدينا أمينة سجل جديدة الآن، ويبدو أنها تهتم كثيراً بالتفاصيل، أو هذا ما سمعته».

ألقت العمّة جو نظرة مفاجئة على سارة، وقالت: «ألم تتكلمي معها بعد؟ إنها تسكن على بعد بيتين فقط من بيتك».

«أعرف، أعرف». لم تكلّمها سارة لا لأنها لم تحاول. فقد زارت بيت جيرانها الجدد ثلاث مرات، وكلّما استقبلتها عند الباب السّيدة جيانو اللطيفة، لكن المضطربة، كانت تقول لها دائماً نفس

الشيء وهو أنّ غرايس غير موجودة في البيت، مع أنها رأت سيارتها مركونة أمام البيت في تلك إحدى المرات.

أدركت سارة أن غرايس تتفاداها لسبب ما. وحزنت لأنها كانت تريد حقاً أن يكون لديها جيران جدّد. وذكّرت السّيدة جيانو العجوز قريبة السّيدة فيلبس، سارة بجنيّ حكيم صغير، كتلك الجان التي كانت تراها في كتبها المفضلة، أما ديزي، بوجهها الذي في شكل قلب، وفمها المقوّس مثل قوس إله الحب، كيوبيد، وهالة شعرها الأشقر، فقد كانت تشبه جنيّة متجهمة الوجه، عندما لا تتأرجح بالأرجوحة المصنوعة من عجلة سيارة المعلقة من غصن الشجرة في باحة البيت الأمامية، وتقف تحدّق من فوق السياج في دراجة تراف كأنها تريد أن تأخذ جولة عليها. وقد تبادلت سارة الحديث مع السّيدة جيانو وديزي على شرفتهما الأمامية لمدة نصف ساعة وأحضرت لهما فطيرة الجوز بمناسبة قدومهن إلى الحيّ.

لكن بقدر ما كانت دمثتين، كانت غرايس على عكسهما تماماً. فقد كانت تخرج من بيتها وهي تسير بخطوات سريعة تحدّق أمامها كأنها تخشى أن يحدّثها أحد مثل سارة التي لوّحت لها بيدها عدة مرات حتى شعرت بأن يدها ستسقط من كتفها، ولم تتلق منها أي إيماءة ردًّا على تحيتها.

وقفت غرايس الآن في الجانب المقابل من الشارع، تحدّق في حوض الأزهار أمام مبنى البلدية كأنها تتساءل أين يمكنها أن تشتري واحدة منها.

نكزت العمّة جو سارة بمرفقها وقال: «اذهبي إليها وكلّميها».

«إنها لا تريد أن تكلّمني – أو تكلّم أي شخص آخر».

«لا يعرف بعض الناس ما الذي يفيدهم. هيا اذهبي وكلّميها. أريد أن تعرفي عنها كلّ شيء، ثم أخبريني أنا وفطيرة القمر ماذا أخبرتك. نريد أن نعرف من هي، من أين جاءت، وهل تذهب إلى الكنيسة. لا أحب الثرثرة، لكن هذا الكلب – حسناً، تعرفين كيف يسلك».

ضحكت سارة ونظرت إلى الكلب النائم على الرصيف لسانه يتدلّى من جانب فمه المفتوح، وقالت: «حسناً. سأكلّمها ثم سأتصل بفطيرة القمر وأحكي له كلّ شيء».

«سيشكرك عندما يستيقظ. لكنّ يجب أن تذهبي بسرعة. فقد تدخل إلى المبنى في أيّ لحظة وستضطرين إلى أن تكلّميها من وراء زجاج مكتبها وهذا سيمنعها من أن تحكي لك تلك الحكايات المثيرة».

«صحيح. يجب أن أذهب. شكراً يا عمّة جو». متشجّعة، لوّحت سارة لها تودعها ثم عبرت الشارع بسرعة.

عندما وصلت إلى الرصيف المقابل أدركت أنّها لا تزال تحمل كومة الكتب. فقررت أن تأخذها معها، لأنها لا تستطيع أن تدع هذه الفرصة تنسلّ من بين أصابعها.

سارت بخطوات سريعة على الرصيف لتلحق بغرايس التي كانت لا تزال واقفة تنظر إلى الزهور الصفراء في الحوض –

صفراء؟

وقفت سارة ونظرت إلى الشارع الرئيسي. كانت الأزهار الأخرى أرجوانية اللون، ولم يتغيّر إلّا لون الأزهار الموجودة على جانب مبنى البلدية.

ما الفرق بين هذا الجانب من الشارع والجانب الآخر؟ لم تستطع أن تفكّر بسبب واحد –

غرايس.

ارتعشت الكتب التي تسندها سارة إلى وركها.

يا إلهي، إنها هنا. لقد تشكّلت الفكرة التي تدفقت إلى عقل سارة الآن وأصبحت واضحة تماماً كما لو كانت تقرأها ولم تخطر لها لأول مرّة. إن غرايس ويلر الأنيقة والجادة امرأة شديدة الأهمية بالنسبة لبلدة دوف بوند.

لكنها كيف ستكون هامة؟ ولمن؟

أبدت الكتب موافقتها، بصوت مسموع فاجأ سارة بأنها سمعتها. لم تتوقف الكتب عن الثرثرة، تقدّم اقتراحات متفائلة وتتناقش فيما بينها حتى تمكنت سارة من فهم بضع كلمات متناثرة... مساعدة... ربّما... بلدة... هي... تستطيع –

هسس! أسكتت سارة الكتب بعد أن شعرت بألم في صدغيها من هذا الضجيج، لكنها لم تكن غاضبة، وإنما أحسّت بارتياح كبير.

بدأ ذلك يحدث أخيراً.

إنها ستُنقذ دوف بوند – والأهم من ذلك – إن القدر الرائع، السخي، أرسل أحداً ليساعد سارة.

كان على سارة أن تمسك نفسها عن رغبتها في أن ترفع قبضتها في الهواء وترقص في الشارع. وأصدرت الكتب المتحمسة حفيفاً، وحاولت ألّا تقع منها، فثبتتها على وركها عندما رأت غرايس تلتفت وتبتعد عن حوض الأزهار وتسير باتجاه بوابة مبنى البلدية.

«انتظري»، نادت سارة وركضت الياردات العشر الأخيرة إلى حيث تقف غرايس.

التفتت غرايس. كانت قسمات وجهها باردة، وساهمة، وقالت: «نعم؟»

ابتسمت سارة، وقالت: «مرحباً، أنا سارة دوف، أمينة مكتبة البلدة. أسكن بعد بيتين من بيتك في شارع إيلم. البيت المطلي باللون البنفسجي؟»

«نعم. يسرني أن ألتقي بك».

فترت حماسة سارة من البرودة التي لمستها في صوت غرايس. نقلت الكتب إلى وركها الآخر، وقالت: «لقد ورثت أنا وأخواتي من أمّنا البيت الذي نعيش فيه أنا وأختي أفا، لأن أخواتي الأخريات انتقلن إلى أماكن أخرى بعد أن تخرجن في الجامعة».

ابتسامة جافة لامست فم غرايس، لتدمدم بطريقة مهذبة، «نعم»، ولم تضف أيّ شيء يمكن تفسيره بأنه تشجيع على مواصلة حديثهما.

لكن سارة لم تستسلم، فقالت: «أختي أفا تعمل في تجارة الشاي ذي النكهات الخاصة، وتصمم أيضاً الحدائق، فإذا أردت أن يقوم أحد بتصميم حديقة بيتك، فأنا واثقة بأنها ستكون سعيدة لعمل ذلك. شقيقتاي الأكبر تستدعيان أفا والفريق الذي يعمل معها إلى ريلاي في ربيع كلّ سنة لتصمم حدائق بيوتهما هناك لأنه لا يوجد أحد يستطيع أن يفعل ذلك مثل أفا».

«سأتصل بها إذا احتجت إلى مساعدتها».

«إنها ممتازة. أختي الكبيرة، ماديسون، صعبة الإرضاء، فلذلك إذا أحبّت شيئاً، فلا بد أن يكون جيداً. إنها طبيبة. أختي الأخرى أليكس طبيبة بيطرية. وعلى الرغم من أنهما تعيشان بجانب بعضهما فإن أحداهما لا تكلّم الأخرى منذ قرابة خمس سنوات. كان هناك رجل – حسناً، تعرفين كيف تسير الأمور».

نظرت غرايس إلى ساعتها.

كان على سارة أن تتوقّف عن الكلام. كانت تعرف ذلك، لكنها لم تستطع أن تسكت، ثم سمعت نفسها تضيف لاهثة، «أختي الأخرى إيلا درست فن الطهي في باريس، ولديها حالياً مخبزٌ لصنع الفطائر، وتأتي في أعياد الميلاد وتعدّ لنا عشاء لذيذاً. ومع أنني أطبخ، لكنني لا أستطيع مجاراتها. وأختي كارا تجيد العمل على الكمبيوتر ولديها موقع للتعارف على الانترنت جعلها غنية، وأختي تاي تدرّس اللغة الإنكليزية وهي متخصّصة في المخطوطات القديمة و...». عندما لاحظت أنّ غرايس بدأت تبتعد عنها ببطء، سكتت سارة ولم تكمل جملتها، وقالت: «أنا آسفة. كنت أهذر، لم أكن أقصد أن...»

«لا، لا. لا بأس».

سادت لحظة حرجة، وحلّ الصمت الذي كانت سارة تحاول ألّا يحدث بينهما مثل حدّ نصل مقصلة.

يا إلهي، إني أحرج نفسي. كان عليّ أن أغادر. سأقول لها إنني شربت كمية كبيرة من القهوة. وهذا يجب أن...

«عندك أخوات كثيرات».

كان ثمة شيء في نبرة غرايس – تلميح بسيط جداً إلى إحساس بالحزن.

«نحن سبع أخوات. أمضيت معظم طفولتي في الانتظار في طابور أمام الحمّام».

هذه المرة، حملت ابتسامة غرايس شيئاً من الدفء، وقالت: «مع أننا كنّا اثنتين فقط كانت تحدث معركة صباحية من أجل استخدام مرآة الحمّام. لا أستطيع أن أتخيّل كم كان ذلك جنوناً بينكن السبعة».

«لا تريدين أن تعرفي»، قالت سارة بجديّة. بادلتها الابتسامة، وقالت: «أنا سعيدة لأننا التقينا أخيراً. تقول السّيدة جيانو إنّك تعملين لساعات طويلة».

اختفت ابتسامة غرايس، وقالت: «متى تحدّثت مع ماما جي؟

هذه طريقة غير معتادة تخاطبي بها أمّك. «لقد مررت ببيتك مرات عدة، لكنّك لم تكوني في البيت، مع أن...»

«مع أن ماذا؟»

« في إحدى المرات كانت سيارتك واقفة في الممر. قلت لنفسي لأنني لا أريد أن أزعجك. قالت ماما جي إنك لست في البيت، مع أنني...»، هزت سارة كتفيها.

«لم أعرف أنّك جئتِ لزيارتنا. ماما جي... لا تتذكّر الأشياء دائماً».

«كانت لطيفة جداً، وابنتك أيضاً».

«ديزي ابنة أختي، ليست ابنتي».

«أوه. هل هي ابنة أختك، إذاً، الأخت التي كنت تتشاجرين معها من أجل مرآة الحمّام؟ أم لديك إخوة أيضاً؟»

«كنّا أنا وهانا فقط». أظلمت عينا غرايس، وأشاحت بوجهها. تغيرت تعابير وجهها فجأة.

يا إلهي. لا بد أن شيئاً حدث هنا. أسرعت سارة لتغيّر الموضوع، فقالت: «رأيتكِ تنظرين إلى الأزهار الآن».

عادت نظرة غرايس إلى حوض الأزهار وتقوّس حاجبيها. «أليس شيئاً غريباً. أستطيع أن أقسم بأن لونها كان أرجوانياً، لكن...»، وضحكت ضحكة مضطربة، «لا بد أنني فقدت صوابي».

«لا. كان لونها أرجوانياً هذا الصباح. لقد رأيتها».

«أنا سعيدة جداً لأنك لاحظت ذلك أيضاً. ظننت أنني أفقد صوابي». مدّت يدها ولمست إحدى الزهور الصفراء، ثم أضافت، «أي نوع من الأزهار يتغيّر بهذه السرعة؟ سأسأل ليني عندما أراه في المرة القادمة. لا بد أنه يعرف اسمها».

كان ليني سميث يشغل منصب مدير الأشغال العامة، لكنه يعمل أيضاً مصمماً للحدائق وحرفياً في البلدة. وعلى الرغم من موهبة ليني في زراعة الحدائق، فقد كانت سارة تعرف أنه لم يزرع قط أزهاراً يتغيّر لونها. لا بد أن هذا هو سحر بلدة دوف بوند.

وافقت الكتب على ما قالته، وتحركت قليلاً كي لا يسقط الكتاب في الأعلى من كومة الكتب.

«يبدو أن هذه الكتب ثقيلة»، قالت غرايس.

«نعم»، قالت سارة عابسة، «كنت أفرغ علبة الكتب المستعارة عندما رأيتك ونسيت أنّني لا أزال أحملها».

«يجب أن تعيديها إلى المكتبة، ويجب أن أذهب أيضاً. لديّ ساعات طويلة من العمل لإدخال البيانات في الكمبيوتر، لذلك...»

«لا تذهبي الآن»، قالت سارة بشيء من الاحتجاج. وفي حماستها، رفعت صوتها قليلاً.

هذا كثير. تحرّكت غرايس قليلاً. لم تخطو خطوة كاملة، لكنها كافية لتعرف أن سارة فتاة ملحاحة، كثيرة الطلبات.

دمدمت الكتب تحذيراً فابتعلت سارة الكلمات التي كانت ستقولها، بأنها تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر منذ أن كانت في السابعة من عمرها، وعن صحيفة اليوميات القديمة التي ترى أن على سارة أن تنقذ البلدة وأنها ستقود الطريق إلى إنقاذها، والإشارات المختلفة التي رأتها الأسبوع الماضي التي توحي بأن شيئاً هاماً سيحدث، مع شرح مسهب لتاريخ عائلة دوف.

الكتب على صواب. الآن ليس الوقت المناسب.

روّضت سارة ابتسامتها العريضة وحوّلتها إلى ابتسامة هادئة، وقالت: «كنت أقصد أن من الجيد رؤية شخص جديد في البلدة. أعرف أنك انتقلت إلى هنا منذ فترة قصيرة، وأظن أنك ستحبين الحياة هنا. إن دوف بوند مكان خاصّ».

نظرت غرايس إلى الشارع وراء سارة، وشاب صوتها مسحة من الندم عندما قالت: «إنها بلدة جميلة».

تبعت سارة نظرة غرايس. كان اليوم في بداية الصيف الدافئ، وهذا يعني أنه ليس يوماً حاراً جداً ولا بارداً جداً، وأضفت أشعة الشمس دفئاً على الأرصفة، بينما كانت المظلات المهترئة قليلاً أمام واجهات المحلات تهتز مع هبات الهواء. كان يوماً جميلاً، وكانت دوف بوند تُظهر أفضل ما لديها، حتى لو كانت الألوان باهتة جداً. «إنها رائعة، أليس كذلك؟»

«كثيراً. لكنني لا أنوي البقاء هنا طويلاً. سنة على الأكثر، لكنّي واثقة بأنني سأستمتع بالإقامة خلال هذه الفترة».

ماذا؟ هزّت سارة رأسها، «ستمكثين هنا أكثر من سنة».

رمقت غرايس سارة بقسوة، وقالت بحدّة، «لا، لن أبقى».

عندما همهمت الكتب عدم موافقتها، ابتلعت سارة جواباً حادّا واكتفت بالقول: «حسناً..سنرى، أليس كذلك؟»

حدّقت سارة وغرايس في بعضهما، لا تريد إحداهما أن تستسلم للأخرى.

هبّت نسمات عليلة بينهما، كما لو أنها تبحث عن وسيلة لسدّ الهوة الآخذة بالاتساع بينهما. بدأ ثوب سارة الليلكي الطويل يخفق حول ساقيها، بينما لم تتحرك البدلة التي ترتديها غرايس.

إني أفاقم الأمور سوءاً، قالت سارة لنفسها، أنا ولساني المنفلت. سأظل ألاحقها حتى تقبل أن تبقى هنا. أخذت سارة نفساً عميقاً وقالت: «انظري، أنا آسفة. طبعاً يمكن أن تبقي هنا كما تريدين. أنا لست إلّا...» ثم ضحكت، «أنا سعيدة برؤية أسرة جديدة في بلدتنا».

ظلت تعابير وجه غرايس جامدة.

ثم أضافت سارة، «عندما يتوفر لديك وقت، سآخذك في جولة في أرجاء البلدة».

نظرت غرايس إلى الشارع الرئيسي، وقالت: «أنا متيقنة بأنني رأيتها كلّها».

«لا أقصد المباني. أقصد أن أعرّفك على أهالي البلدة. فالناس هم الذين يشكلّون دوف بوند، الناس وقصصهم».

«قصصهم؟»

«لدى كلّ شخص قصّة. وهذا ما يجعلنا من نحن». ثم أشارت سارة إلى ساحة البلدة، «هل ترين ذلك التمثال وراء النافورة؟ إنه تمثال الكابتن جون ب. داي. كان بطلاً في الحرب العالمية الثانية، أو هكذا ظنّ سكان البلدة في سنة ألف وتسعة مائة وخمسة وخمسين، عندما أقاموا التمثال».

ألقت غرايس نظرة فضولية على سارة، «كان أهالي البلدة يظنّون أنه كان بطلاً في الحرب؟»

«نعم. ثم تبيّن أن قدمه لم تطأ الجبهة قط، وإنما كان مسؤولاً عن الطعام في معسكر مكليلان فورت في ألاباما. وعندما عاد إلى البلدة، كان يعرف الكثير من قصص الحرب التي سمعها من الجنود الذين كانوا يتدفقون إلى المعسكر. إن الأيام تروي قصصاً عظيمة، كلّ يوم، وبما أن الكابتن جون لم يذكر قط إنه بطل هذه القصص، فقد ظنّ الناس أن هذا مجرد تواضع منه».

«ألم يسأله أحد مباشرة؟»

«لا، وإذا سمعت داي وهو يحكي قصّة، فإنك ستعرفين السبب. تستطيع الأيام أن تغزل خيوطاً تبدو حقيقية تماماً إلى درجة أنه إذا حكى لك أحدهم حكاية عن عاصفة ثلجية، فإنك تشعرين بقرصة برد حتى لو كنت تقفين في مطبخك في أشدّ أيام السنة حرارة».

ضحكت غرايس وقالت: «هذا شيء مثير للاهتمام. لكن هذا التمثال... بعد أن اكتشفت البلدة الحقيقة، لماذا أبقته؟»

«أقنعت الأيام المجلس البلدي بأن الطعام جزء رئيسي في المجهود الحربي. قالوا إن البسكويت جيد جداً، جداً، جداً. بالإضافة إلى أن عائلته طلب أن تسدد تكاليف إقامة التمثال، لذلك لم يدفع أحد من سكان البلدة شيئاً.

نظرت غرايس إلى التمثال، وقالت: «كان رجلاً وسيماً».

«نعم»، ابتسمت سارة، «هكذا هي الحياة في بلدة صغيرة كهذه».

لأول مرة، ابتسمت غرايس رداً على ابتسامة سارة، وقالت: «هكذا يبدو».

متشجّعة، أضافت سارة، «سجلات البلدة القديمة محفوظة في قبو المكتبة، لذلك فأنا أعرف عن دوف بوند أكثر مما يعرفه الآخرون. يجب أن تأتي و – أوه! ها هي كات كارتر خارجة من مكتب البريد الآن».

تبعت نظرة غرايس إيماءة سارة، ورأت امرأة سمراء طويلة القامة تغطي عينيها بنظارات شمسية ضخمة وترتدي ثوباً ضيِّقا جداً أحمر تسير نحو سيارة أودي بيضاء واطئة جداً.

أدركت سارة أن غرايس بدأت تبدي اهتماماً بذلك، لأنها اقتربت منها أكثر، وقالت: «إن كات وكيلة عقارات وعضوة في نادي دوف بوند الاجتماعي»، ثم أضافت، «وتتمتع بموهبة عائلة كارتر».

«موهبة؟»

«بإمكان نساء عائلة كارتر أن يتشممن الرجل الثري من مسافة بعيدة».

بدا الاهتمام على وجه غرايس، وقالت: «إنها موهبة مفيدة».

«جداً. الرجال يقعون في حبّ نساء كارتر أيضاً. كما لو أنهم لا يستطيعون تفادي ذلك. لقد تزوّجت والدة كات أربع مرات، جميعها برجال أغنياء».

«إذاً، فالقدرة على أن تجعلي الرجال الأغنياء يغرمون بك ويتزوّجونك لا تعني القدرة على أن تظلي متزوّجة».

«تغيّر إيلا، والدة كات، الأزواج بنفس السرعة التي أغيّر فيها الأريكة في غرفة الجلوس في بيتي، لا بل ربما أسرع. وأنا أتساءل دائماً هل إن كانت موهبة كارتر نقمة أم نعمة».

نظرت غرايس إلى كات وهي تصعد إلى سيارتها. كانت كلّ حركة فيها حسّية بشكل ما. «إذا كانت الموهبة شيئاً حقيقياً، فلماذا تحتفظ كات باسمها الأصلي؟»

«لدى كات هذه الموهبة أيضاً، لكنّها ترفض أن تستغلها. فقد وجدت رجلها الغني وهو مغرم بها، لكنّها ترفض أن تتزوجه»

«مسكين».

«أعرف. اسمه مارك ماكلين. يمتلك عشر محطات بنزين، وسبعة مطاعم من سلسلة مطاعم Chick-fil-A وقرابة عشر بنايات سكنية راقية، كلّها موجودة في شارلوت»

«ألا يعيش هنا؟»

«لم يعد يعيش هنا. لكنه يأتي للزيارة كثيراً. وهو يطلب يد كات للزواج كلّ عيد الميلاد، وفي كلّ مرّة يفعل ذلك بطريقة مختلفة أيضاً، لكنّها ترفض باستمرار. تقول إن الزواج ينطوي على مسؤوليات كثيرة وهي ليست مستعدّة لتحمل تلك المسؤوليات».

«منذ متى يحدث ذلك؟»

«منذ أن كانا في المدرسة الثانوية، منذ سبع عشرة سنة تقريباً».

«يا إلهي. أنا متفاجئة بأنه لا يزال ينتظر».

«لا أظن أن لديه خيار. فهي تنتمي إلى عائلة كارتر و...»

هدير دراجة نارية غطّى على صوت سارة عندما مرّ تراف على دراجته «هارلي». لاحظت سارة تجهم وجه غرايس.

عندما سُمع هدير الدراجة مرة أخرى، سألتها سارة، «هل قابلت ترافيس؟»

«لا».

زمّت غرايس شفتيها الأمر الذي أثار قلق سارة. «أعرف أن تراف يبدو فظاً قليلاً، لكنّه ليس كذلك. إنه رجل لطيف جداً، لكنه لا يتكلّم كثيراً».

«ابنة أختي مولعة به، مع أنّني حذّرتها بألّا تزعجه».

كانت سارة قد رأت ديزي وهي تنظر من وراء السياج الذي يفصل بين بيتهما وعرفت أن الفتاة الصغيرة تحبّ أن تراقب تراف وهو يعمل على دراجته، قالت: «يعيش تراف وحده الآن ويقول إنّه يحبّ ذلك كثيراً، لكنني... أتساءل عما إذا كان هذا صحيحاً في بعض الأحيان. فقد توفي أبوه السنة الماضية من مضاعفات الزهايمر».

حدّقت غرايس في عينيْ سارة، وقالت: «الزهايمر؟»

«نعم، وقام تراف برعاية أبيه حتى آخر لحظة أيضاً. إنه – أوه... هناك». أمالت سارة رأسها باتجاه مخزن الخردوات، وقالت: «انظري إلى ذلك الرجل، المربوع القامة ذي الشعر الأحمر الأجعد؟»

«الرجل الذي يرتدي بدلة بنيّة غير مكوية؟»

«إنه ويلمر سبانكل. عائلة سبانكل وعائلة جيبسون عدّوتان منذ أن اشتريتا بيوتاً بجانب بعضهما منذ القرن التاسع عشر. لا أحد يتذكّر لماذا نشأ الخلاف بينهما، ولا حتى أفراد العائلتين، لكنّك لن تعرفي ذلك إلّا عندما ترينهم يتشاجرون فيما بينهم الآن. وفي كلّ جيل أيضاً. هذه البلدة لا تكون حقيقية إذا لم تنشب معركة بين عائلتيْ سبانكل وجيبسون في باحة وقوف السيارات عند الكنيسة».

ارتعشت شفتا غرايس، وقالت: «أظن أنّني كنت مخطئة. هناك أماكن كثيرة في دوف بوند يجب رؤيتها».

«أكثر مما تتصورين»، قالت سارة بحماسة.

«يبدو الأمر هكذا. أخبريني، من هي تلك المرأة التي تحدّق بنا من وراء واجهة المقهى الزجاجية؟ إنها تراقبنا طوال الوقت».

نظرت سارة، وشعرت بانقباض في معدتها. من بين كلّ الناس في دوف بوند، هناك شخصان تبذل جهدها لتفادهما، وكانت تنجح في ذلك في معظم الأيام، لكن يبدو أن اليوم لم يكن واحداً من تلك الأيام.

لاحظت غرايس تعابير وجه سارة فانتابها الفضول وسألتها: «أتعرفينها؟»

كانت سارة تأمل ألّا يحمرّ وجهها وقالت: «إنها السّيدة إميل مك إينتير، وهذه العائلة واحدة من أغنى سكان دوف بوند. ابنها الأكبر طبيب بيطري يعيش في ريلاي، وابنها الأصغر مدير الشرطة في بلدتنا».

« مك إينتير...» ضيّقت غرايس عينيها، «رأيت لوحة على نافورة البلدة عليها هذا الاسم».

«توجد عدة لوحات في البلدة تحمل هذا الاسم: في بهو المدرسة الثانوية، عند الطرف الجنوبي من الحديقة العامة، في الشارع فوق الهضبة، وعند النافورة أيضاً».

«لا بد أن السّيدة مك إينتير تحبّ دوف بوند كثيراً.»

كان بوسع سارة أن تقول لغرايس إن إيميلي مك إينتير لا تحبّ إلّا ما تملكه، لكن ليس الآن الوقت لذكر السلبيات، فقالت: «الحديقة جميلة. يجب أن نتناول الغداء فيها معاً ذات يوم».

لكن نظرة غرايس ظلت مركّزة على إيميلي وقالت: «إذا كانت تلك النظرة تعني شيئاً، فقد تعني أن السّيدة مك إينتير تحبّ البلدة كثيراً، لكنّها لا تحبّك كثيراً».

أبدت سارة ابتسامة متكلفة، وقالت: «إنك مراقبة جيدة للحالة الإنسانية. سأحكي لك عن ذلك ذات يوم عندما نحتسي كأساً من النبيذ. إنها قصّة طويلة و...»

توقفت سيارة شرطة البلدة في مكان قريب جداً منهما. وبدأ الباب يُفتح.

«يجب أن أعود إلى العمل. يجب أن أعيد هذه الكتب إلى المكتبة حتى...» تجمّدت الكلمات في حنجرتها عندما ترجّل بليك من سيارة الشرطة.

بدا الاضطراب على وجه غرايس. «ما المشكلة؟»

فرغت رئتا سارة من الهواء ولم تستطع أن تجيب.

كان بليك يبدو كما كان منذ المدرسة الثانوية – طويل القامة، عريض الكتفين، شعره البني الفاتح أشد أناقة مثل بدلته. ألقى نظرة خاطفة نحوها، طويلة بما يكفي ليستقر ألم الرغبة في ساقيْ سارة اللتين بدأتا ترتعشان فجأة.

كان عليها أن تظل واقفة في مكانها وتتظاهر بأنها ليست مبالية. كانت تعرف أن هذا ما يجب أن تفعله، تعرفه بيقين كما تعرف أن السماء زرقاء وأن عيني بليك خضراوان مغريتان. كانت تعرف ذلك بوضوح نور الشمس المنعكس على نافذة المقهى حيث تجلس أمّه تراقبهما، وقد ارتسمت على فمها المصبوغ بأحمر شفاه فاقع ابتسامة ساخرة خفيفة.

كانت رغبتها في أن تهرب تزداد في كلّ ثانية، فوجدت سارة نفسها تتراجع، وتشدّ الكتب إلى وركها قبل أن تنزلق من قبضتها.

تجهّم وجه غرايس وسألتها، «هل أنتِ على ما يرام؟»

«يجب أن أعود إلى العمل. إذا كان عندك وقت، ربّما نتناول الغداء غداً...».

صعد بليك إلى الرصيف. ولمس ظلّه سارة.

دارت على كعبها وسارت بخطى سريعة عبر الشّارع، والكتب لا تزال ملتصقة على وركها.

عندما اقتربت سارة من المكتبة، راحت تسير بخطوات سريعة نحو الباب حتى كادت قدمها تزّل. عندما فتحت باب المكتبة، كانت سارة لا تزال تشعر بنظرات السّيدة إيميلي المشحونة بالكراهية تُحدث ثقباً بين لوحيْ كتفيها.

أُغلق باب المكتبة وراء سارة بقوة واستقبلتها رائحة الكتب القديمة وهمهمة المجلدات المختلفة التي هدأت من روعها. كان قلبها لا يزال يخفق بقوة. أغمضت عينيها واستندت إلى الحائط وخففت برودة المكيّف من حرارة خديها.

إنسهم جميعاً. ركزّي تفكيرك على لقاء غرايس أخيراً. هذا هو المهم – غرايس ودوف بوند. بعد لحظة، تمالكت سارة نفسها. وفكّرت بأهمية غرايس ويلر لإنقاذ بلدة دوف بوند. كان ذلك واضحاً. لكن كيف؟

يجب الإجابة على هذا السؤال. لحسن الحظ، تعرف سارة من أين تبدأ. في بعض الأحيان، تكون الوسيلة الوحيدة لبدء أي رحلة إلى المستقبل بدفعة خفيفة من الماضي.

ابتعدت عن الحائط ووضعت الكتب على عربة الكتب المستعادة، ثمّ أخرجت مفاتيحها وهبطت الدرج إلى القبو حيث توجد جميع سجلات دوف بوند وحيث تغفو صحيفة يوميات شارلوت دوف في الخزانة الزجاجية، بعيداً عن أشعة الشمس.

مع مضي السنوات شاخ كتاب اليوميات وأصبح يغفو أكثر ويتكلّم أقل. في الحقيقة، لم تبادله تحية ناعسة منذ أكثر من سنة.

فتحت باب القبو، وأشعلت الضوء ودخلت. صفوف من الرفوف والخزائن تملأ القبو، بقايا تاريخ دوف بوند الطويل. سارت بجانب الصناديق المليئة بالكتب وتوجهت إلى الزاوية حيث تغفو صحيفة اليوميات فوق وسادة خالية من أي مادة حامضة كانت قد اشترتها منذ أول يوم بدأت عملها في المكتبة.

نقرت على الخزانة برفق، لكن الكتاب ظل نائماً.

انتظرت لحظة، ثم عادت ونقرت على الزجاج بقوة.

تحرّك الكتاب متململاً لأنها أيقظته.

«مرحباً أيها النؤوم» قالت له سارة، «هل استيقظت؟»

ماذا تريدين؟

ولّت تلك الأيام عندما كانت صحيفة اليوميات تلّح على سارة أن تقرأها. وعلى الرغم من معرفة السيدة نيبي فانير، أمينة المكتبة السابقة، بنظام ديوي العشري، فإنها لم تكن تعرف كيف تعتني بالكتب القديمة، فتركت الصحيفة بجانب نافذة تتسلل من خلالها أشعة الشمس، مع أن الخزانة الزجاجية تضخّم الأشعة الضارّة ولا تقلل منها. بالإضافة إلى ذلك، وضعت السيدة نيبي الكتاب المسكين فوق ورق ملوّن أدى إلى إتلاف الصمغ اللاصق فيه مع مرور الأيام. وهكذا تركت سنوات الإهمال غير المتعمد آثارها عليها فأصبحت صفحاتها رقيقة جداً هشة، وتشقق الغلاف الجلدي وأصبح مهلهلاً وبدأ يتفتت.

عقدت سارة ذراعيها واستندت إلى الخزانة، ونظرت إلى الصحيفة من خلال الضوء الخافت، وقالت: «أنا آسفة لأنني أزعجتك، لكني أريد أن أسألك سؤالاً».

همهم الكتاب متذمِّرا، لكنّها لم تفهم الكلمات التي قالها، فتابعت كلامها، «وصلت امرأة جديدة إلى البلدة وأظن أنها إشارة على أن دوف بوند ستُنقذ».

همهم الكتاب شيئاً.

«ماذا؟» سألت سارة.

أنا لست عرّافك الشخصي، قال الكتاب متذمِّرا.

«انظر، أريد فقط أن أعرف كيف يمكنها أن تساعدنا: هذه مهمتك، أليس كذلك؟ أن تقول لي كيف سأواجه قدري؟ كيف يمكنني أن أنقذ بلدتنا؟»

عندما لم يجب الكتاب، نقرت سارة بإصبعها على الزجاج مرة أخرى.

اهتزّ الكتاب كما لو أنه صحا مرة أخرى.

«اسمها غرايس ويلر»

قال الكتاب بنبرة حادّة، اسألي كتاباً آخر. أنا نائم.

كانت سارة تريد أن تسمع منه شيئاً. «هيا»، قالت متوسلة، «الأمر يتعلق بدوف بوند، وهذه مهمتك. لا يوجد كتاب آخر هنا يعرف».

هذا صحيح، قال الكتاب مشاكساً. تنهّد ثم أصدر حفيفاً كأنه يبحث عن جواب.

حاولت سارة احتواء حماستها. دسّت خصلة شعر فالتة وراء أذنها، وعندما طالت الدقائق، هزّت قدمها بنفاذ صبر تحت الخزانة.

أخيراً، لم تعد تحتمل. لكن عندما فتحت فمها لتكرر سؤالها، تكلّم الكتاب.

إنها هي.

نعم. تأكيد أخيراً. «كنت أعرف أنها ستكون هامة لإنقاذ بلدتنا، لكن ماذا ستفعل؟ أعرف أنّها جاءت إلى هنا لتساعدني، لكن كيف؟»

ستعرفين.

أبدت نبرة الكتاب الواضحة أن هذه هي المساعدة التي يستطيع أن يقدمها لها. تمالكت نفسها لكي لا تطلق تنهيدة محبطة وقالت: «هيا. اشرح لي ماذا تقصد وسأتركك وشأنك».

لا.

قالت لنفسها إنّها محظوظة لأنه تنازل وأخبرها بما يعرفه. «حسناً. من الجيد أن يساعدني أحد لأنني كنت أظن دائماً أنّني سأفعل ذلك وحدي، لكن اسمع، لم يسبق لي أن رفضت مساعدة من أحد، إذاً – نعم، سيكون ذلك عظيماً. لكن آمل أن تفعل الشيء الذي يجب أن تفعله، لأنها تقول إنها لن تبقى في البلدة مدة طويلة».

ركّز الكتاب الذي عاد ليغفو بينما كانت سارة لا تزال تتكلّم، انتباهه عليها فجأة. ماذا؟

«تحدّثت معها منذ أقل من خمس دقائق، وقالت إنها لن تبقى هنا لأكثر من سنة».

يجب أن تبقى.

«عليها أن تفعل ذلك؟ مثل... دائماً؟»

نعم، دائماً: لم يعد يبدو أن الكتاب منزعجاً.

«لكن لماذا؟ أقصد بعد أن تساعد البلدة، يمكنها أن تغادر، لأنني سأبقى هنا».

يجب أن تبقى دائماً.

ضحكت سارة ضحكة تشي بالقلق. «أرجو ذلك، لأنني متيقنة بأنك ستجد أنها فتاة لطيفة عندما تتعرّف عليها، لكنني لا أستطيع أن أفرض على أحد أن يبقى في دوف بوند وهو لا يريد البقاء فيها. حتى إنني لم أستطع أن أفرض على أخواتي أن يبقين، مع أنني أعرف...»

يجب. عليها. أن تبقى. هسهس الكتاب كلّ كلمة، مركزاً عليها كما لو كان يفعل ذلك بمطرقة.

قطبّت سارة جبينها. «لن يكون ذلك سهلاً».

لم يجب الكتاب لكنه تمتم شيئاً عن «أشخاص سخيفين» وعاد ليغفو على وسادته. بعد قليل كان الصوت الوحيد المنبعث منه صوت شخير ضعيف، فعرفت سارة أن ذلك انتهى.

«أظن ذلك». اعتدلت في وقفتها، وراحت تحدّق بشرود في الكتاب القديم. بطبيعة الحال كانت سعيدة لأن الأشياء ستسير لصالح دوف بوند. كان هذا أفضل خبر تسمعه حتى لو لم تكن تعرف كيف ستنقذ البلدة. وعلى الرغم من حديثها مع الكتاب، ظلت لا تعرف لماذا كانت غرايس هامة للبلدة وحتى كيف وكان ذلك أمراً محبطاً، في أقل تقدير.

لكن التقدّم تقدّم ولم تشأ سارة أن تعتبر هذا التطور الجديد شيئاً سلبياً لأنها لم تكن تتخيل أن الأمور ستسير بهذا الشكل. ومن ناحية أخرى، ماذا فعلت في الحياة؟ يجب أن تكون سعيدة لأن أحداً آخر سيساعدها، حتى لو كان مكرهاً. يجب أن تقنعها بأن تبقى في البلدة».

ثم سمعت سارة وقع خطوات وصدى خفيفاً لطفل يضحك في الطابق العلوي. نظرت إلى الساعة وأدركت أن موعد «ساعة قراءة الأطفال» قد حان.

غمر سارة شعور بالتفاؤل لم تشعر به منذ زمن طويل، وربتت على الخزانة الزجاجية للمرّة الأخيرة وغادرت القبو الذي يضم أرشيف البلدة، وأوصدت الباب وراءها. ثم وجدت نفسها منهمكة في العمل ولم تعد تفكّر بما جرى هذا الصباح، مع أنها كانت تتوقف عن عملها بين الحين والآخر وتبتسم، وتقول لنفسها سيحدث هذا أخيراً. دوف بوند ستُنقذ.

الفصل (٣)

تراف

كان ترافيس باركر يعيش حياته لحظة بلحظة. ولم يكن يفعل ذلك لأنه يؤمن بأشياء غريبة، ويتأمّل مثل معلّم روحي طريقة غريبة في الحياة، وإنما كان يفعل ذلك لأنه يجد سلاماً في البساطة. وكما قال له الطبيب دون الذي يعالجه بأنها طريقة جيدة للعيش، خصوصاً الآن، بعد معركته الطويلة للشفاء من اضطراب ما بعد الصدمة، وبدأ يعود إلى وضعه الطبيعي أكثر فأكثر.

عندما بدأت الشمس تميل إلى الغروب في بداية المساء، كان تراف يطوف بدراجته النارية في شوارع البلدة. وكان هدير دراجته يهزّ المباني المشيّدة بالآجر الأحمر، وكان يشعر بذلك الاهتزاز في صدره. ومع أن بعض الناس كانوا يرون أن درّاجته تصدر صوتاً صاخباً، فقد كان يشعر بأن هذا الهدير يدخل السكينة إلى نفسه. وعندما كان يزيد من سرعة المحرّك، كان الهدير المكتوم ينعشه أكثر كما لو أنه يغطس في نهر متجمّد.

انعطف من الشارع نحو البيت. كانت الشمس التي تلقي بظلالها من خلال الأشجار المورقة تختلف كثيراً عن الذكريات الرملية الكئيبة التي كان يراها في أفغانستان والتي لم يكن يفتقدها، وإنما يفتقد الرجال الذين كانوا معه في سريته في الجيش. ومع أنه ظل يتواصل مع رفاقه الذين عادوا إلى الوطن، فإن صداقتهم لم تعد كما كانت في الماضي. فقد أصبح لكلّ واحد منهم حياته وأسرته، كما أصبحت له حياته الخاصة هو أيضاً.

ومن حسن حظه، كان عنده أصدقاء مخلصون أصبحوا بالنسبة إليه الأسرة التي يحتاج إليها. نظر تراف إلى ساعته وقطّب جبينه. فمع أن الوقت كان متأخّرا، كان عليه أن يعود إلى البيت ويغيّر ثيابه ويذهب إلى الورشة ليمضي ساعة أخرى ليصلح سيارة جو بالدوين الرياضية الحمراء الشيفروليه كورفيت اللماعة لأنه وعده بأنه ينهيها اليوم.

كان تراف يكره أن يعمل في ورشة أبيه لتصليح السيارات. وإذا كان هناك شيء لا يحب أن يفعله شاب مراهق، فإنه لا يستطيع أن يتنبأ بما سيفعله في المستقبل. فمع أنه كان يعمل في ورشة أبيه عندما كان في المدرسة الثانوية، لم يخطر ببال تراف قطّ أن يصبح ميكانيكياً، وإنما كان يطمح إلى أن يصبح نجماً في عالمه الصغير، لاعباً مرموقاً في فريق مدرسته وطالباً متفوّقا. كان من الطبيعي أن يطمح إلى شيء أكبر، شيء لا توجد فيه بصمات أبيه. فذهب تراف إلى الجامعة وتخصص في الهندسة الميكانيكية، وتخيّل أنه سيقوم بتطوير الطائرة المقاتلة التالية أو أن يعمل في مشروع هام آخر، ثم التحق بالجيش لأنه كان يبحث عن حياة مليئة بالمغامرة.

أما الآن فقد كان آخر ما يطمح إليه هو الإثارة. كان العمل في الورشة يمنحه السكينة، وأصبح يجد جمالاً بسيطاً خاصاً داخل تلك الجدران الخرسانية الباردة حيث يصلح فيها السيارات المعطلة مع مساعديه الذين يعودون إلى بيوتهم في آخر اليوم، ولم يكن عمله هذا ينطوي على ألم أو عواطف قوية أو خوف أو دم أو رمل أو أيّ شيء قبيح رآه هناك. فلا توجد هنا إلّا سيارات وشاحنات وسلام. كان يعمل في الورشة خمسة أيام ونصف اليوم في الأسبوع مع عدة عمال دائمين ومدير للورشة ومحاسب غير متفرغ. وبما أن تراف أصبح صاحب الورشة الآن، فقد كان يستمتع بمزيج رائع من الإحساس بالقيادة والتحدي.

لقد أفاده هذا الشعور كثيراً وجعله يشعر بالتوازن. فقد ولّت تلك الأيام التي كانت يجعله يستلقي على الأرض كلّما سمع صوتاً عالياً، وتلك اللحظات التي كان يشعر فيها بالغضب لأن أحداً تجاوزه على الطريق السريع أو وقف أمامه في الطابور في مخزن البقالة. كم يتمنى الآن أن يجد وسيلة تجعله ينام نوماً هادئاً، ويعود إلى حالته الطبيعية كما كان في الماضي. يا إلهي، النوم. كم هو شيء رائع.

انعطف تراف بدراجته إلى الشارع الذي يسكن فيه. عندما مرّ أمام بيت دوف لاحظ أنّ سيارة سارة ليست واقفة عند المدخل. لا بد أنها لا تزال في المكتبة، ولم يكن هذا شيئاً مفاجئاً بالنسبة له. فهي أمينة مكتبة البلدة، الوظيفة المثالية لها، لأنه لا يوجد أحد يحبّ الكتب كما تحبها، وقد يكون هذا مفيداً لنا جميعاً.

دخل تراف إلى مدخل بيته وركن درّاجته رأى القطّ كيلر يقعي بين الشجيرات. كان كيلر قطّ أبيه المدلل وكان ينام عند قدميه لسنوات عديدة. وعندما مات أبوه، حاول القطّ أن ينام عند قدمي تراف، لكن تراف كان يتقلّب كثيراً في نومه فهرب القطّ وعاد لينام في سرير أبيه الفارغ.

وأصبح القطّ يقعي هنا عندما يكون تراف خارج البيت الذي لم يعد يريد أن يبقى هذا الحيوان المجنون داخل البيت في غيابه.

أسند تراف درّاجته على حامل الدراجة. عندما خلع خوذته، تدلّى شعره الطويل المتشابك.

تمتم شيئاً وهو يمسّد شعره. كان يعرف أنه يجب أن يقصّ شعره، لكن الجلوس في كرسي الحلاق كان يجعله يشعر بأنه مقيّد، والصدرية الملتفة حول رقبته تشبه حبل مشنقة، بينما يقف وراءه شخص لا يعرفه يحمل بيده مقصاً أو شفرة. لا، شكراً. يمكنه أن يقصّ بنفسه ويبقيه طويلاً حتى كتفيه، على الأقل. سيأتي يوم يجد فيه تراف راحة البال التي يحتاج إليها ليجلس على ذلك الكرسي اللعين ويسمح لحلاق أن يقصّ شعره. لكن ليس اليوم.

وضع تراف خوذته على مقعد الدراجة، ونظر حوله يبحث عن القطّ، لكنه لم يره في أي مكان.

عندما استدار ليدخل إلى البيت وقعت عينه على بيت فيلبس المجاور. كان يوماً هادئاً على نحو غير معتاد. ففي معظم الأيام، عندما يعود إلى البيت، كان يجد تلك الفتاة الصغيرة التي تعيش في ذلك البيت واقفة وراء السياج تحدّق بدرّاجته كما لو أنه يخيّل إليها أن الدراجة ستنهض وتصبح مارداً. لكنه لم يرها واقفة اليوم.

جيد. آمل أن تبقى بعيدة هكذا دائماً. فلا يوجد عنده وقت للفتيات الصغيرات اللاتي يحدّقن به، أو لأمهاتهن النزقات اللاتي ينظرن بطرف عيونهن كما لو أنهن يعتبرنه قاتل نساء متسلسل. أخذ مفاتيحه وخرج إلى الشرفة متجهماً. وفجأة تناهى إلى سمعه صوت ارتطام من الكراج تلاه صوت همسات مكتومة.

بدأ قلبه يخفق بقوة ووقف متحفزاً، ومدّ يديه إلى جانبيه، مستعداً للمعركة الوشيكة. وتذكّر مفتاح فكّ البراغي الضخم في صندوق العدّة وتساءل إن كان عليه أن يجلبه. كان على وشك أن يجري نحو درّاجته ليجلبه عندما سمع ضحكة طفلة.

يا إلهي. استوى واقفاً، قلبه لا يزال يخفق بين أضلاعه بقوة، وتبللت راحتا يداه. أخذ نفساً عميقاً واقترب من باب الكراج وفتحه.

كانت الفتاة الصغيرة التي تسكن في البيت المجاور تقف في وسط الكراج. صغيرة، نحيفة تمسك بيدها مكنسة وأمامها كومة من الأوساخ. كانت ترتدي قميصاً قطنياً طُبعت على صدره صورة حصان وردي، وكان رباط حذائها الرياضي المتسخ محلولاً. وتقف وراءها جدتها الضئيلة الجسم، الهشّة المظهر، وهي تنظّف إحدى النوافذ.

حدّقت المرأة العجوز به كما لو أنها تحاول أن تتذكّر اسمه. «ماذا تفعلان هنا؟» تردد صدى صوته الذي كان لا يزال قاسياً من الخوف الذي تملكه.

أجفلت المرأة العجوز كما لو أنه ضربها، فتراجع على الفور لأنه لم يكن ينوي إخافتها.

لكن ديزي قُدّت من مادة أقوى. أشارت إلى مكنستها وقالت: «ماذا ترى أننا نفعل؟ إننا ننظّف».

لم تقل له «أيها الغبي» لكنّ الكلمة كانت واضحة في نبرة صوتها.

لم يتصوّر تراف أن يسمع هذا القدر من التهكّم من فتاة صغيرة في عمرها، لكنه تمالك نفسه وابتسم ابتسامة عريضة بدّدت الشعور بأنه فوجئ، وقال: «أرى أنّك تنظّفين، أيتها العفريتة. من أدخلكما إلى بيتي؟»

لم يكن يتوقّع أن المرأة المسنّة تتكلّم، ودون أن تتبس بكلمة واحدة، عادت إلى النافذة التي كانت تنظفها.

قالت ديزي: «يجب أن تسأل ماما جي. فقد وجدتها هنا». مع أن هذه الفتاة صغيرة السنّ، فقد كانت تبدو أكبر من عمرها بكثير: شعرها الأشقر منفوش يكاد نصفه يخرج من الشريط المطاطي الوردي، كما لو كانت هي التي رفعته ولم تمشّطه.

اقترب منها وقال: «بغض النظر عن الطريقة التي دخلتما فيها إلى هنا، يجب أن تعودا إلى بيتكما».

«ألا تريد أن يصبح كراجك نظيفاً؟»

«لا، شكراً. عودي إلى بيتكم يا ديزي».

كانت ابتسامتها أكثر من ابتسامة متكلفة، وقالت: «إنك تعرف اسمي».

«لقد سمعت أمّك تناديك أكثر من مائة مرة».

تلاشت ابتسامة ديزي، وقالت: «الخالة غرايس ليست أمّي». كانت كلماتها حادّة، مقتضبة، ذات مغزى.

هزّ تراف كتفيه بلا مبالاة، غير قادر على الغوص في أعماق مشاعر طفلة صغيرة، وبذل جهداً كبيراً ليتمالك نفسه، ثم قال: «أرجو أن تأخذي جدتك واخرجا من هنا. أنا... «

«روبرت باركر؟ هل هذا أنت؟» نظرت إليه المرأة العجوز، عيناها الداكنتان تلمعان، «لم أرك منذ زمن بعيد».

كان روبرت هو اسم والد تراف. «أنا آسف، لكني لست...»

«ألا تتذكّرني؟ أنا إينا فيلبس جيانو». كانت لا تزال تحمل الخرقة الرطبة التي تنظف بها النافذة، وسارت نحوه، تتأرجح بين الأشياء الثقيلة التي تملأ الكراج.

عندما تحرّكت، غاصت روح تراف. كانت تمشي بخطى قصيرة وبطيئة أكثر مما كانت تمشي، كما لو كانت غير واثقة أين يمكنها أن تضع قدميها. كان يعرف طريقة المشي هذه. كان أبوه قد بدأ يمشي هكذا في السنة الأخيرة من حياته، قبل أن يخطفه مرض الزهايمر. أوه، يا أبي. كنت تستحق من الحياة أكثر من ذلك بكثير.

كان لا يزال يتألم بعد مضي سنة على وفاة أبيه -يتألم حتى أكثر من الحرق الذي سببّه الانفجار في ذاته السابقة. إن الزهايمر مرض لا يرحم، مرض يسلب الأمل ويحطم الكبرياء، وأحزنه كثيراً عندما رأى هذه السيدة العجوز الضئيلة الجسم التي تشبه جنيّة صغيرة، لكنها تبدو في غاية اللطف.

شعّت ابتسامتها له الآن، كما لو أنها ترى أن باستطاعته أن يسير فوق الماء. «يا إلهي، كم كان الوقت ممتعاً عندنا كنت أرعاك عندما كنتَ صبياً صغيراً».

تجهّم وجه ديزي وقالت: «ماما جي، لا يمكن أن تكوني قد رعيته عندما كان صبياً صغيراً».

«لكنّي كنت أفعل ذلك. كان طوله هكذا آنذاك»، ووضعت يدها على مستوى كتفها، لا تزال نظرتها المبتسمة مركّزة على تراف، «ألا تتذكّرني؟»

مرّر تراف يده عبر شعره. اللعنة، لكنّه لا يستطيع أن يخذل هذه المرأة المسكينة. بعد صمت محرج، قال «نعم».

حدّقت به ديزي، لكنّه تجاهلها.

ضحكت السّيدة جيانو، وقالت: «لو تعرفين يا ديزي! كم كنّا نمضي وقتاً ممتعاً أنا وروبرت وشقيقه. كنت آتي إلى بيتهم بعد المدرسة وأرعاهما وكنّا نلعب الورق ونركب الدراجات وأشياء أخرى». حدّقت به كما لو كان ملاكاً، ثم أضافت، «كنت صبياً جيداً، ولم تكن مؤذياً مثل أخيك».

لم يكن الناس ينظرون إلى تراف كما كانت تنظر إليه، مطمئناً وسعيداً، خصوصاً بعد أن عاد من الحرب بتلك الندب الحمراء الغاضبة التي شوهت خدّه ورقبته.

«الله يحبّك، كان لديك روح مرحة». ضحكت السّيدة جيانو بصوت واطئ، «ألا تتذكّر تلك البقرة؟»

بالطبع لم يتذكّرها، لكنّه لم يرغب في أن يجادلها، فقال: «نعم، البقرة».

«كنتَ أنت وأخوك تفعلان أشياء مضحكة. ديزي، كم أتمنّى أن تكوني موجودة عندما سرقا بقرة القسّ لاندون وجعلاها تصعد درج الكنيسة. كان ذلك أثناء الصلاة أيضاً، وعندما رأت البقرة كلّ هؤلاء الناس يضحكون أجفلت وراحت تجري بين صفوف المصلين، ثم صعدت الدرج إلى غرفة الجوقة العلوية، حتى تمكن ثمانية أشخاص من إنزالها من هناك وإخراجها من الكنيسة».

نظرت ديزي إلى تراف نظرة فيها احترام جديد، وقالت: «جيد».

بعد قليل قال: «ليس في الحقيقة».

ربتت السّيدة جيانو على ذراع تراف وقالت: «كنّا قلقين كلّنا وظننا أنّك لن تنضج أبداً وتتوقف عن ممارسة تلك التصرفات الطائشة، لكن انظر إلى نفسك الآن، مع أن...» تجهّم وجهها ولامست أصابعها خدّه، وسألته «ما الذي جرى لك هنا؟»

ابتعد فجأة، وقال: «لا شيء».

لكنّها ليست لا شيء، ولاحظ ديزي تحدّق في ندبته حيث اختفت تحت قميصه، الفضول يرفرف على وجهها. كان بإمكان تراف أن يسمع الأسئلة - ماذا حدث؟ هل تؤلمك؟ كم عمق ندبتك؟

كان أبوه قد سأل كلّ تلك الأسئلة وأكثر عندما عاد تراف من مستشفى الحروق في تكساس، لكن تراف -الذي كان لا يزال يشعر بالمرارة والألم من أكثر من إصاباته الجسدية - رفض أن يتحدّث عنها. ندم الآن لأنه لم يُعلم والده حتى بالأشياء الأساسية. كانت تلك أسئلة كثيرة يمكن سؤالها.

يا إلهي، اعترته مشاعر الندم، مئات المشاعر، ربما كان أهمها أنه لم يمض وقتاً كافياً مع أبيه. كان تراف يتمنّى للمرة المليون أن يكون قد بقي في البيت بعد أن تخرج في الجامعة لفترة من الوقت قبل أن يلتحق بالجيش. لكن مثل معظم الشبان، كان متحمساً جداً لإثبات وجوده. كان يبحث عن تحدٍ حقيقي، وهذا ما حققه.

عندما أنهى التدريب الأساسي وتخرّج في كلية الضباط، أُرسل إلى أفغانستان وأصبح قائد سرية لصيانة وإصلاح الشبكة الكهربائية التي دمرتها الحرب. كانت مهمة قاسية وشاقة، لكنّه كان يؤديها بحماسة. وعندما استدعي للخدمة ثانية ذهب بدون تردد.

ربما كان عليه أن يفكّر أكثر قبل أن يذهب في المرة الثانية. فبعد عشرة شهور، وفي الأسبوع الذي أعقب عيد الميلاد، عندما كان عائداً مع أفراد سريته إلى القاعدة بعد أن قاموا بمدّ خطوط الكهرباء إلى بعض المناطق، تعرضوا إلى هجوم مباغت. فبينما كان عائداً إلى خيمة الضباط مع

سريته، منهكين وسعيدين لأنهم عادوا بسلام إلى القاعدة، سُمعت أصوات صياح وإطلاق نار، أعقبها انفجار جعل تراف ورجاله يطيرون في الهواء. ثم، كان كلّ ما يتذكّره تراف هو الحرق العميق من الألم والخسارة.

راودته هذه الذكريات في أقلّ الأوقات توقّعا - عندما لم يكن يتمنّى أن يتذكّرها. ومع أنه يقف الآن في كراج البيت الجميل الذي نشأ وكبر فيه، كانت أشعة شمس الصيف تتسلل عبر الأغصان وترسم أشكالاً متعددة على الأرض الخرسانية. كان عقله يثب مثل كرة محطمة من ذاكرة دامية إلى ذاكرة دامية أخرى. صرّ على أسنانه وحاول أن يوقف تدفق سيل أفكاره.

إنك تفعل ذلك بشكل جيد، تعيش في الحاضر، دقيقة بدقيقة، قال له ذلك الدكتور دون الذي يعالجه منذ أقل من نصف ساعة. بدأت تتماثل إلى الشفاء، فلا تستعجل الأمور. عندما يحين الوقت لتتقدّم إلى الأمام، فإنك ستفعل ذلك تلقائياً. كان تراف يؤمن بذلك، فهو يثق بطبيبه دون الذي فهمه أكثر من الآخرين والذي فقد كلتا ساقيه في العراق.

«من أين جاءت هذه الندوب؟» أخرجه صوت ديزي عن صمته.

«ديزي! هذا ليس سؤالاً مهذباً»، قالت السّيدة جيانو، وقد أضاءت عينيها بومضة دفء. دنت منه وأبعدت الشعر عن جبينه كما لو كان طفلاً. «قد لا تكون قادراً على معالجة هذه الندبة، لكن بوسعك أن تقصّ هذه الكتلة من الشعر».

«أحبّ شعره»، قالت ديزي، «عندما تراه خالتي غرايس تسميه كال دروغو. أظن أنها على صواب. فهو يشبهه كثيراً». ألقت ديزي نظرة سريعة على جدتها، وقالت: «أقصد مما رأيته من الصور، فأنا لم أشاهد هذا المسلسل قط».

كان تراف يعرف الكذبة عندما يسمعها، لكنّه لم يقل شيئاً. ففي جميع الأحوال، هي ليست ابنته، وإذا شاهدت سراً برنامجاً يحظر على الأطفال مشاهدته، فمن هو ليمنعها؟

«كانت إفيلن كيلغور تصفف شعري». تركت السّيدة جيانو شعره ولمست ضفائر شعرها البيضاء غير المرتبة، وقالت: «كانت سيدة لطيفة جداً وحزنتُ عليها كثيراً عندما ماتت، مع أنّها كانت مريضة منذ فترة طويلة. أنا...» توجهت نظرة السّيدة جيانو إلى الخرقة التي تمسكها في يدها وبهتت الكلمات. عقدت حاجبيها وتساءلت، «لماذا أحمل هذه الخرقة؟ هل كنت... ماذا كنت أفعل؟» نظرت حولها كما لو أنها أصبحت فجأة غير متأكدة من هي أو أين هي.

أدرك تراف هذه العلامات وقال بهدوء: «كنتِ تنظّفين النافذة».

التقت عيناها بعينيه، كما لو كانت تبحث عن مرساة، وسألته، «هل كنت أفعل ذلك؟»

«وكنت تقومين بعمل جيد أيضاً».

أشارت ديزي إلى خلف الكراج، وقالت: «قلتِ إن النوافذ وسخة وإنك لن تعودي إلى البيت إلّا بعد أن تنظفيها».

نظرت السّيدة جيانو إلى النافذة التي تركتها للتو، الآن بعد أن أصبح عندها هدف، بهت الشعور بالاضطراب، وقالت: «إذاً من الأفضل أن أنهيها، أليس كذلك؟»

استدارت وعادت إلى النافذة، ونسيت شعر تراف الطويل وندوبه البشعة.

«هل ركبتَ حقاً بقرة وأخذتها إلى الكنيسة؟» سألته ديزي.

رمقها بنظرة بَرِمَة، وقال: «لا، لكن يبدو أن أبي هو الذي فعل ذلك. اسمه -كان روبرت - وهو الذي تظن السّيدة جِيانو إنه أنا».

«أوه»، نظرت ديزي إلى السّيدة جيانو التي كانت تدندن وهي تنظّف النافذة، قبل أن تلتفت إلى تراف، وتقول: «إذا لم يكن اسمك روبرت، فما هو إذاً؟»

«تراف. انظري، يجب أن تعودا إلى بيت خالتك».

تقوّس حاجبا الفتاة الصغيرة، وفجأة أصبح خطّ فمها حادًّا. أشفق عليها وعلى كلّ ما تمرّ به، لكن لم تكن لديه القدرة على مواصلة ذلك.

بعد قليل قالت ديزي: «لا تزال الخالة غرايس في عملها».

«إذاً من يعتني بكما؟»

«السيّدة جين تعتني بنا هذا الأسبوع. إنها تفعل ذلك مؤقتاً وستحلّ السيدة ليندا محلها يوم الإثنين».

«ليندا روبنسون؟» عندما هزّت ديزي رأسها، أضاف، «إنها امرأة لطيفة؟» لم يكن يعرف السيدة جين، أما ليندا فهي مشرفة محترفة وقد ساعدت والده في الشهور الأخيرة من حياته، ثم قال: «أراهن بأن السيدة جين تبحث عنكما الآن في كل مكان».

«لا. إنها تتجادل على الهاتف الآن مع أختها على الشرفة».

تراجع تراف خطوة إلى الوراء ونظر من النافذة فرأى امرأة مسنّة عرف أنها جين لويس، عازفة الأرغن في الكنيسة الميثودية، تسير على الشرفة ذهاباً وإياباً وتتحدّث على الهاتف وتهزّ رأسها بقوة. «يبدو أنهما تتشاجران»، قال لنفسه.

«لقد تناولت أختها لويزا كلّ ما تبقى من الطعام الذي كانت جين تريد أن تحضره إلى هنا للغداء، لكن في وقت متأخر من الليلة الماضية، تسللت لويزا إلى ثلاجتهما وأكلت الطعام كله. لقد جنّ جنون جين لأنها لم تُبق لها شيئاً، مع أن لويزا تتبع حمية؟»

تكلّمت ديزي بتلك الطريقة الغريبة التي يتكلّم بها عادة الكبار. ومع ذلك، ومع أنها كانت تتكلّم كما يتكلّم البالغون، كانت تبدو صغيرة جداً حتى تقف هنا في كراج بيته من دون أن ترافقها أمّ قديرة.

مرّر تراف يده في شعره، وقال: «يجب أن أغيّر ثيابي وأذهب إلى العمل. هل يمكنك أن تأخذي السّيدة جيانو إلى البيت؟»

«لا»، قالت بحدّة.

«لم لا؟»

رمقته ديزي بنظرة برمة، وقالت: «إذا قلت لماما جي إننا يجب أن نذهب قبل أن تنهي عملها، فإن ذلك سيزعجها كثيراً وستبكي، وأنا لا أستطيع أن أتحمّل رؤيتها وهي تبكي».

نظر تراف إلى السّيدة جيانو التي كانت تنظف لوح زجاج متسخ. كانت هناك أربع نوافذ، نظّفت نافذتين منها للتو، وكانت على وشك أن تنهي إحدى النافذتين المتبقيتين. «يبدو أنها لن تترك لي نافذة لأنظفها؟» لكنه كان يعرف أنه لا يستطيع أن يقول لها ذلك، لأنه إذا كان مرض السّيدة جيانو مثل مرض أبيه، فإنها ستزداد عناداً مع الأيام. فقد كان والده يتصرف هكذا، وأصبح يتشبّث بآرائه عندما لم يعد بإمكانه أن يتمسك بذكرياته.

تنهّد تراف. فمع أنه لا يعرف السّيدة جيانو، لم يشأ أن يراها تبكي. «أظن أنّنا يجب أن ننتظر حتى تُنهي عملها. في جميع الأحوال يجب أن أغيّر ثيابي، وعندما أعود، سأساعدك على أن تأخذيها إلى البيت».

هزّت ديزي كتفيها بلا مبالاة وقالت: «حسناً».

لكنه توقّف عند الباب، وسألها، «لماذا تنظّفان كراج بيتي؟»

«لا أعرف. كانت تفعل ذلك عندما جئت إلى هنا». اتكأت ديزي على مكنستها، وبدت متماسكة بشكل يفوق عمرها، «جئت لأساعدها لأنني ظننت أن ذلك سيخرجها من هنا بسرعة».

كان رأي الطفلة صائباً. «أنت فتاة ذكية، أليس كذلك؟»

رمقته عندما قال أكثر الأشياء غرابة في العالم. ثمّ أشارت إلى وراءه، وقالت: «هناك مكنسة أخرى بجانب الباب، لا تتردد في مشاركتنا».

كان عليه أن يكبت الرغبة في أن يذكّرها بأن هذا بيته، وأنه يعرف أين توجد المكانس، وقال: «لقد تأخرت على الذهاب إلى العمل، افعلا ذلك وحدكما. أرجو أن تنهيا عملكما بأسرع ما يمكنكما، اتفقنا؟»

«حسناً». عادت نظرة ديزي إلى جدتها، ثم قالت: «كما تعرف، فهي ليست على ما يرام. إنها مريضة، وهذا يجعلها مشوّشة أحياناً».

لم يعرف بمَ يجيبها. «كان أبي مصاباً بنفس المرض». نظرت إليه الفتاة الصغيرة بعينيها الزرقاوين، البريئة مثل قطة صغير، وسألته، «أين هو والدك الآن؟»

حكّ تراف رقبته في مكان الندبة. اللعنة، لهذا السبب كان يكره أن يتحدّث مع أشخاص آخرين، لأنهم يريدون عندئذ أن يحصلوا على أشياء أخرى - أجوبة، أفكار، مساعدة، شيء ما - وهو لا يستطيع أن يقدّم أياً من هذه الأشياء. ظنّ أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله هو أن يقول لها الحقيقة. بعد صمت طويل، قال لها تراف باختصار، «لقد مات».

هزّت ديزي رأسها وقالت: «ماما جي لن تموت من هذا المرض. إنها ستشفى».

لم تكن هذه حربه لكي يخوضها، فهزّ تراف كتفيه راجياً أن ذلك لن يجعله يشعر بالذنب. ثم قال: «سأعود حالاً. إذا انتهت قبل ذلك، فلا تترددا بأن تغادرا البيت. سأقفل الباب».

عادت ديزي تكنس، وقالت: «لن نبقى هنا طويلاً. بقي لديها نافذة واحدة».

دمدم موافقاً ودخل إلى البيت. غيّر ثيابه بسرعة وارتدى أفرول وحذاء العمل. عندما انتهى سار في البهو نحو الكراج، لكنه وجد نفسه يقف أمام باب غرفة نوم أبيه.

على الرغم من مضي أكثر من سنة على وفاة والده، لم يدخل تراف إلى غرفة نوم أبيه ولم يلمس أي شيء فيها منذ ذلك الحين. كان عليه أن يجعلها غرفته لأنها غرفة النوم الرئيسية في البيت وفيها حمّام كبير، أفضل بكثير الغرفة القديمة الصغيرة التي ينام فيها ويستخدم الحمّام في نهاية البهو. لكنه كان يرى أنه ليس من اللائق أن يستعمل أغراض أبيه الشخصية. يجب ألّا أفعل ذلك الآن. سأنتظر حتى يأتي الوقت المناسب.

لكن الإحساس بالذنب ظل يلاحقه، لأن والده كان يحرص على النظافة حرصاً شديداً، وقد حفر عاداته هذه في رأس تراف وجعلته يلتحق بالجيش. وكان أبوه يحافظ على نظافة ورشته كما يحافظ على نظافة بيته - كان نظيفاً ومرتباً إلى درجة أن العمال كانوا يمزحون ويقولون إنهم يستطيعون أن يتناولوا طعامهم على أرض الورشة الأسمنتية اللامعة. لكن كلّ ذلك تغيّر بعد أن أصيب بالمرض.

بعد ذلك الانفجار الذي سبب له تلك الحروق، نُقل تراف إلى مستشفى في تكساس لمعالجة الحروق، ثم غادره بعد ثمانية شهور طويلة، وعاد إلى البيت مثل صدفة مجوّفة، لا يكاد يستطيع أن يقف منتصب القامة، وتغضن جلد ظهره وكتفه وكان يؤلمه كما لو كان لا يزال يحترق، وكانت أدوية تسكين الألم تخدّره فلا يستطيع أن يتصل بأحد. لكن بالرغم من كلّ تلك الأشياء التي جعلته منطوياً على نفسه، أصيب بالصدمة عندما رأى الحالة التي آلت إليها الأمور في بيت أبيه، حيث لم تعد الصحون نظيفة، ولم تعد الأسرّة مرتبة كما من قبل، وتكدست الرسائل المنسية فوق الطاولات والكراسي، لكن قصاصات الملاحظات هي التي أثارت دهشة تراف أكثر.

فقد كانت هناك عشرات القصاصات.

قصاصات وردية وزرقاء وصفراء اللون متناثرة في أرجاء البيت، كُتب فيها كلّ شيء: الطعام الذي في الثلاجة، وأزرار إطلاق جهاز التحكم عن بعد في مواعيد تناول الدواء. حتى أن والده دوّن ملاحظات لتذكّره بمواعيد إطعام القطّ. كانت هناك قصاصات ملونة مُلصقة على مرآة الحمّام وعلى باب الثلاجة وعلى إطار الباب، وبجانب علاّقة المفاتيح، وفي أماكن أخرى عديدة.

كانت المادة اللاصقة قد جفّت في بعض تلك القصاصات وسقطت على الأرض وتُركت هناك دون أن يلتقطها أحد: تحت الكراسي والمناضد وفي الزوايا، وحال لونها وتجمّع فوقها الغبار، ونُسيت الواجبات المدّونة عليها. وبالإضافة إلى تلك القصاصات، كان وعاء ماء القطّ لا يزال فارغاً، وتعفّن الطعام في الثلاجة، وظلت علب أدوية أبيه كما هي في خزانة الأدوية في الحمّام من دون أن يلمسها أحد.

وتغيّرت أمور عديدة أخرى أيضاً - فلم يعد أبوه يمشي بثبات كما كان، كما تفعل السّيدة جيانو الآن. فقد أصبح يتحرك ببطء، كما لو كان عمره ألف سنة وليس ستّة وخمسين سنة.

لكن تراف لم يدرك مدى عمق مرض والده إلّا بعد أن ذهبا في صباح أحد الأيام المنعشة إلى الورشة. فقد كان تراف يأمل بأن تتحسن صحته هناك، وظن أن والده ربما كان مصاباً بالاكتئاب لأنه يبقى وحيداً في البيت. لكن اكتشف أن الوضع كان أسوأ في الورشة. فلم يعد يأتيها زبائن، وكانت الخرق والدلاء المليئة بالزيت الوسخ تملأ زوايا الورشة التي كانت شديدة النظافة في الماضي، وكانت الأوراق غير المصنفة والفواتير غير المسدّدة مكدّسة فوق طاولة مكتبه، وأصبحت الرفوف في مستودع قطع التبديل فارغة، وغادر جميع العمال في الورشة ولم يبق إلّا آرني غونزاليز، مدير الورشة، لأن والده بدأ ينسى أن يدفع لهم أجورهم. وكما قال آرني، فقد بدأ معظم زبائن والده المهمين يأخذون سياراتهم لإصلاحها في ورشة أخرى تبعد ثلاثين دقيقة في سوانانوا.

استمرت هذه الحالة مدة أسبوعين تقريباً، ثم تمكّن تراف أخيراً من إقناع والده بأن يرى طبيبه، الدكتور بولتون. ولن ينسى تراف أبداً تلك اللحظة عندما نطق الطبيب كلمة «الزهايمر»، ولا يزال يتذكّر نظرة الحزن الحقيقية التي ارتسمت على وجه الطبيب المتعب، والنكران العنيد في والده. كان ذلك اليوم فظيعاً، واحداً من أيام فظيعة أخرى تلت ذلك.

فرك تراف وجهه وابتعد عن غرفة نوم أبيه، محاولاً أن يُسكت الشعور الفظيع بالوحدة الذي تركته الغرفة معه. يوم واحد فقط من حين لآخر، قال لنفسه. يوم مزعج بين الحين والآخر.

عندما عاد إلى المطبخ سمع صوت جلبة في غرفة الجلوس. قطّب جبينه، واتجه إلى الغرفة.

كانت السّيدة جيانو واقفة أمام الرفّ بجانب التلفزيون، تمسك خرقة لمسح الغبار بيد، وبالبيد الأخرى تحمل إحدى ميداليات والده.

رفعت عينيها عندما دخل تراف إلى الغرفة. «هذا أنت. كنت أنظر إلى الجوائز التي حصلت عليها. إذن أنت لاعب بولينغ».

«إنها لأبي».

«لأبيك؟»

«روبرت باركر. كان أبي». انتظر تراف، راجياً لو أنه يعرفها جيداً ليعرف متى كان عقلها سليماً. «كان يعيش هنا، هل تذكرين؟ كنت ترعينه عندما كان طفلاً».

ارتسمت على وجهها نظرة خائفة ورمقته من الأعلى إلى الأسفل، ثم نظرت إلى الميدالية التي بيدها. «كان روبرت والدك»، همهمت، كما لو كانت تحاول أن تفهم تلك الحقيقة. ثم عادت ونظرت إليه بابتسامة محرجة خفيفة. «حسناً، إذاً، لم أكن أعرف أن والدك كان لاعب بولينغ».

شعر بارتياح كبير عندما أدرك أنّها فهمته. «بدأ أبي لعب البولينغ بعد أن ذهبتُ إلى الجامعة، لكن لا بدّ أنه كان لاعباً ممتازاً لأنه شارك في مباريات الدوري الرئيسي».

أعادت الميدالية إلى مكانها وراحت تنظر إلى الجوائز الأخرى، ثم سألته، «هل توجد أيّ من هذه الجوائز لك؟»

«لا».

«حسناً»، أنهت مسح غبار الرفوف. وقالت: «إنك تستحقّ بعض الجوائز أيضاً. يجب أن تجد وسيلة لتحصل على بعضها».

مع أنه كان سعيداً لأنها أصبحت أفضل الآن، فقد كان يأمل بأن تغادر الآن لأنه اعتاد على أن يكون وحيداً في البيت، وأدرك الآن مدى أهمية خصوصيته. فرك رقبته في مكان الندبة، وأحسّ بالتعب فجأة. «انظري، سّيدة جيانو، أنا أقدّر مساعدتك لكن...»

مدّت ديزي رأسها من الباب الأمامي. نظرت إلى السّيدة جيانو ثم إليه، ثم عادت ونظرت إليها، وقالت: «ما الذي يجري؟»

«كنت أقول للسّيدة جيانو إنها يجب أن تغادر لأنني يجب أن أذهب إلى العمل».

دخلت ديزي وأغلقت الباب وراءها، وراحت تنظر حولها.

«أظن أنكما يجب أن تعودا إلى بيتكما؟» قال بنفاذ صبر.

أبعدت عينيها عن صوره وهو طفل التي صفّها والده على الرفّ وقالت: «طبعاً»، وذهبت إلى حيث تقف السّيدة جيانو ولمست إحدى الجوائز، وسألته، «هل تلعب البولينغ؟»

تأكد بأن ديزي، العفريتة، لن تساعده، فقال: «لا. كنت أودّ أن تبقيا هنا، لكن يجب أن أذهب إلى عملي».

فقالت السّيدة جيانو، «اذهب وسنغلق الباب عندما نغادر - يا إلهي. هذه المرآة مليئة بالبقع». دخلت إلى الردهة حيث توجد مرآة معلّقة على الجدار أمام منضدة صغيرة كان أبوه يضع عليها محفظته ومفاتيحه عندما يعود إلى البيت.

«عندما ننهي عملنا سنذهب»، قالت ديزي.

التفت تراف ليجدها جالسة على الكرسي الجلدي الكبير. «لا تجلسي هنا. كان يجلس أبي على هذا الكرسي».

«وماذا يعني ذلك؟»

«هيا انهضي»، صاح بها.

بعينيها المتقدتين حدّقت ديزي في عينيه وضغطت على الزر ورفعت مسند القدم.

«اللعنة - لا تفعلي ذلك»، وتوجه إلى الكرسي وأنزل مسند القدم، وقال لها بحدّة، «انهضي».

حدّقت به الفتاة الصغيرة، ثم نهضت مكرهة، وقالت له: «أنت شخص مزعج».

«إنك لا تعرفينني جيداً بعد»، قال ووضع يده على كتفها وقادها نحو الباب، «هيا اذهبي وخذي جدتك معك. ستفتقدكما خالتك ولا أريدها أن تأتي إلى هنا وتظن أنني اختطفتكما أو تأخذها ظنون أسوأ من ذلك».

بدا الاهتمام على وجه ديزي وقالت: «أتظن إنها ستفعل ذلك؟»

«نعم، وأنا لا ألومها. لن يصدّق أحد أنكما أتيتما لتنظفا بيتاً نظيفاً في الأصل».

«كانت النوافذ في الكراج...»

«أعرف، أعرف. كان الكراج وسخاً، أوافق على ذلك. لكن البيت نظيف».

«إنه أنظف من بيتنا»، اعترفت ديزي، وأمالت رأسها إلى جانبها وسألته، «هل تخاف من خالتي غرايس؟»

«لا».

«يجب أن تخاف منها. فقد تكون شرسة. إنها تصرخ أحياناً».

«وأنا أصرخ أيضاً. أكثر مما تتصورين».

استندت ديزي إلى الكرسي، وقالت: «ألا يوجد عندك أصدقاء؟»

تجهّم وجهه، وقال: «طبعاً عندي أصدقاء».

فقالت: «أعرف أن لديك صديقة، فمنذ أن سكنّا بجانبك هنا لم أرك تكلّم أحداً إلّا سارة دوف».

«لم يمض على مجيئكن أسبوعان»، قال، لكنه سرعان ما أدرك أن من الحماقة أن يدخل معها في حديث كهذا، لكنه لم يتمالك نفسه، فأضاف، «ألتقي بمعظم أصدقائي خارج البيت في مقهى بو دانكس الذي لا يسمحون فيه بدخول الأطفال». لم يكن ذلك صحيحاً تماماً، مع أنّه لم ير فيه أطفالاً. «لا يمكنك أن تكون وحدك إذا كنت تعيش في دوف بوند، فإذا عطست في الصباح، فإن ما لا يقل عن سبعة أشخاص سيقولون لك عند الغداء إنك كنت مصاباً بالزكام».

ابتسمت وقالت: «هذا شيء مزعج».

«ربما». أدرك أن ديزي تراقبه، فسألها، «كيف صادف أنه لا يوجد عندك أصدقاء؟»

«لن نبقى هنا طويلاً، فلماذا أهتم بذلك؟ تقول خالتي غرايس إننا سننتقل إلى شارلوت التي كانت تعيش فيها عندما نستطيع، و...»

سمع صوت نقرات متقطعة على الباب.

أحس تراف بالغضب مع كلّ ضربة على الباب. «لا بد أنها خالتك».

«إنها دقة غاضبة»، قالت ديزي.

«عظيم.»

لم تتحرك ديزي من مكانها الذي تتكئ فيه على الكرسي الذي منعها من الجلوس عليه، وقالت: «من الأفضل أن تدعها تدخل وإلّا فإنها ستصرخ».

طبعاً ستفعل ذلك، وذهب ليفتح الباب.

وقفت غرايس عند مدخل الباب، وخلفها تقف جين بخجل.

كان تراف قد رأى غرايس قبل الآن وهي خارجة من بيتها أو عائدة إليه. كانت قصيرة، نحيفة مثل أمّها وابنة أختها، لكنّها عوّضت عن قصر قامتها بطريقة مشيتها كما لو كانت تسير في مقدمة جيش ضخم.

حتى أنها لم تكلّف نفسها عناء إلقاء تحية عليه، وقالت بسرعة، «هل رأيت»، واتجهت نظرتها إلى خلفه ووقعت عيناها على ديزي. «أنتِ هناك»، ارتسمت على وجه غرايس تعابير تشي بالارتياح والانزعاج في آن معاً. «ماذا تفعلين هنا؟»

«ماما جي جاءت إلى هنا، ظننت أن من الأفضل أن أراقبها».

«لا أصدّقك»، توقّفت غرايس ونظرت إلى تراف، وقالت: «أعذرني، لكن هل تسمح بأن تبتعد عن طريقي؟ فأنا لا أستطيع أن أكلّمها وأنت واقف بيننا».

«بالتأكيد. هذا بيتي، لكن - نعم. افعلي ما تشائين»، قال تراف ورجع إلى الوراء، «يمكنك أن تدخلي. فقد دخلت الأخريات»

من دون أن تنظر إليه مرة أخرى، مرّت غرايس بجانبه وسألت ديزي «أين ماما جي؟»

«في الردهة»، قالت الفتاة الصغيرة بحدّة.

«الحمد لله إنكما بخير. لماذا جاءت إلى هنا؟»

«قالت إن نوافذ الكراج متسخة وقد ضايقها ذلك كثيراً فجاءت لتنظفّها».

«للإنصاف» قال تراف، «بذلت السّيدة جيانو جهداً عظيماً في تنظيف النوافذ».

كوفئ تراف بنظرة احتقار من الآنسة غرايس. لسبب ما، أسعده ذلك، فبادلها بابتسامة عريضة. عندما سمعت السّيدة جيانو اسمها، مدّت رأسها من غرفة الجلوس، وقالت: «غرايس! لقد عدتِ في

وقت مبكر». «لا، لم أعد في وقت مبكّر. لماذا غادرت البيت من دون أن تقولي للسيدة جين إلى أين ذهبت؟ قلقنا عليك كثيرا». لوّحت جين التي ظلت واقفة على الشرفة لتراف، وقالت: «أنا آسفة على ما حدث. لقد خرجت بضع دقائق فقط، وعندما عدت لم أرهما».

بدا كأنها ستبكي، فقال لها تراف: «كنت أنتظر حتى تنهيا ما كانتا تظنان أنه يجب عليهما أن تفعلاه. في المرة القادمة سآتي وأناديك».

طوت السّيدة جيانو خرقة مسح الغبار في شكل مربع أنيق ووضعتها على المنضدة الصغيرة، وقالت «أظن أننا انتهينا الآن».

«ماما جي، لماذا...»، أمسكت غرايس نفسها عن الكلام وأخذت نفساً عميقاً. عندما تكلّمت ثانية، كان صوتها ناعماً وحريرياً، لا أثر فيه أي توتر، «حان الوقت لنعود إلى البيت. سيكون العشاء جاهزاً بعد قليل».

«أرجو أن يكون عندنا بسكويت». عندما تجاوزت السّيدة جيانو تراف، توقّفت ونظرت إليه، وأضافت، «سأترك ما تبقى من التنظيف لك».

«سأفعل ذلك».

«نظّف هذه أولاً»، ووضعت يدها على قلبه. كانت يدها دافئة من فوق الأفرول.

حدّق فيها، لا يعرف ماذا يقول. كان طوله ستّة أقدام وثلاث بوصات، ولم يكد طول السّيدة جيانو يبلغ خمسة أقدام، وكان وزنه يزيد بسهولة ضعفي وزنها، إن لم يكن أكثر. لكنه في تلك اللحظة شعر بأنه طفل لا يتجاوز الثالثة من عمره، وهي امرأة ضخمة بعينين داكنتين تستطيعان النفاذ إلى داخل روحه. «أنا بحاجة لأن أنظّف قلبي؟»

«فيه قدر كبير من القلق. إنه يجعلك لا ترى أشياء كثيرة»، ضحكت، «يجب عليك أحياناً أن تزيل الحماقة فيك وتسمح للشمس أن تدخل إليه».

«الحياة ليست بهذه البساطة».

«أليس كذلك؟» ربتت على صدره، «فكّر بذلك، لكن ليس كثيراً».

«ماما جي»، قالت غرايس، في صوتها نبرة إحراج واضحة.

شبكت جين ذراعها بذراع ماما جي وسارت معها إلى الشرفة وقالت: «حان وقت الذهاب إلى البيت».

بابتسامة أخيرة إلى تراف، تركت السّيدة جيانو جين تقودها إلى البيت.

حكّت ديزي أنفها وهي تنظر إلى خالتها، ثم قالت: «أنا في ورطة، أليس كذلك؟»

«تعرفين ذلك. لم يكن عليك أن تغادري البيت من دون أن تخبري السيدة جين إلى أين ستذهبين».

«لم يكن عندي وقت. بالإضافة إلى ذلك، كانت تتكلّم على الهاتف و...»

«ديزي»، تصدّع صوت غرايس بحدّة. ألقت نظرة خجولة على تراف ثم قالت بحدّة: «سنتحدّث عن ذلك في البيت. هيا بنا نذهب».

«لكن...»

«الآن».

أحنت ديزي كتفيها وقالت: «حسناً. لكنّي لن أقول آسفة. كنت أساعدها فقط»، وخرجت من الباب تتبع ماما جي.

التفتت غرايس إلى تراف وقالت بحدّة: «أنا آسفة لهذا التطفّل».

«لا توجد مشكلة»، قال كاذباً.

«أنا متأكّدة من ذلك. لا أعرف ما الذي خطر ببال ماما جي. فهي لا تخرج عادة وأنا...» تهدج صوتها، وعلقت شهقة في حلقها.

طارت نظرتها إليه وفهم جميع الأحاسيس التي لمعت في عينيها البنيتين -خوف وحزن وإحراج - لأنّها تركت مشاعرها تظهر إلى العلن. إنه يعرف هذه الأحاسيس والمشاعر كلها.

هذه المرأة التي يبدو أنها قاسية ليست باردة كالثلج كما تحاول أن تُظهر نفسها. لسبب ما، وجد ذلك مطمئناً. حكّ رقبته في مكان الندبة، وقال: «كان أبي يعاني مما تعانيه ماما جي، أو شيئاً من هذا القبيل».

رمشت بعينيها، تورّد خداها، وقالت: «آسفة لسماع ذلك».

«لم يكن ذلك سهلاً. انظري، أنا لا أعرفك ولا أعرف السّيدة جيانو أو ديزي، لكني أعرف أن الأمر صعب الآن، لكنّها ستتحسن وستجدين طريقة لمعالجة الأمر: على الأقل بعضه». تمنّى أن يستطيع أن يقول لها شيئاً يريحها أكثر مما قاله الآن، لكنّه لم يستطع أن يكذب. ليس من الجيد أن يعد بأن الأشياء ستتحسن كثيراً، لكن هذا ما كان باستطاعته أن يقوله.

هزّت رأسها ثم عدّلت كتفيها، وتلاشت بسرعة النعومة التي كان قد لمحها فيها. «شكراً»، قالت بنبرة باردة، «أقدّر لك رعايتك لأسرتي. سأحرص على ألّا تزعجانك مرة أخرى».

«لم يحدث شيء»، كرّر.

ابتسمت له ابتسامتها المهذبة ثم استدارت وغادرت، وسارت بأسرع ما يمكنها لكن دون أن تركض.

وقف تراف عند المدخل وراح يراقبها وهي تبتعد، راجياً أن يكون قد عرف ماذا يقول لها، لكن لم يخطر بباله شيء. لا شيء البتة.

ذهب ضيوفه الآن وأصبح بإمكانه أن يذهب إلى عمله، لكنه لم يبرح مكانه وراح ينظر إليهن حتى دخلن بأمان إلى بيتهن.

الفصل (٤)

غرايس

كانت غرايس تحمل كوب قهوتها بحذر عندما فتحت باب الردهة. أصدر الباب الخشبي القديم ذو الألواح الزجاجية المتآكلة صريراً، وتركته يغلق وراءها ثم وضعت كوب القهوة فوق جهاز تبريد الماء لتقلب اللوحة المكتوب عليها «ذهبنا لتناول طعام الغداء. سنعود في الساعة—» إلى عبارة «مفتوح»، ثم أخذت كوبها واتجهت إلى طاولة مكتبها. كان مبنى بلدية دوف بوند قد بُني في منتصف القرن التاسع عشر -وبحسب علمها - فهو لم يرمم قط. كان سطح طاولة الاستقبال ناعماً، مصقولاً، من خشب البلوط المعمّر، وتغطي نافذتا أمين الصندوق قضبان من الحديد المطاوع المزخرف كما كان دارجاً في العصر الفيكتوري، وتكسو الأرضية ألواح عريضة من خشب الصنوبر أصبحت ذهبية اللون من كثرة المشي عليها. ذكّر ذلك غرايس بالبنوك التي كانت تشاهدها في أفلام الكاوبوي القديمة.

نظرت إلى طاولة مكتبها القبيحة التي تعود إلى سبعينات القرن الماضي المصنوعة من خشب اصطناعي تحيط بها من الجانبين خزائن ملفّات ثقيلة، يمتد معظمها على طول الجدار خلف طاولة مكتبها، وتملأ القبو أيضاً، عشرات الخزائن. وأزعجها كثيراً أن بلدية دوف بوند لم تدخل عصر الكمبيوتر بعد، لذلك كان المكتب يغصّ بالأوراق والملفات. وقالت لنفسها إنها إذا ذهبت لإجراء مقابلة لوظيفة أخرى، فإن أول سؤال سيسألونه لها، «هل أنت ضدّ التكنولوجيا؟» و»هل كلمة كمبيوتر تثير فزعك؟»

وضعت مقدمة حذائها على قبضة دُرج طاولتها السفلى، وسحبته وألقت محفظتها فيه ثمّ أغلقته.

لا بد أن صوت إغلاق الدرج العالي أيقظ السيد مور من سباته فخرج من مكتبه يمشي بتثاقل، ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة ناعسة، وقال لها: «آه... الآنسة ويلر! أرى أنك عدت من فترة الغداء». اختفت بدلته غير المتناسقة وربطة عنقه الطويلة جداً وحلّ محلهما قميص قطني عريض وبنطلون جينز أزرق فضفاض. كان السيّد مور رجلاً مربوع القامة، كثيف العظم، شعره أشيب خفيف، يخيّم حاجباه السميكان فوق عينيه الزرقاوين الشاحبتين اللامعتين دائماً.

عندما رأى كوب القهوة في يدها ابتسم، وقال: «أرى أنّك ذهبت إلى مقهى موون لايت. إنهم يصنعون أفضل قهوة على هذا الجانب من شارع ماسون دكسون».

على الرغم من أن الابتسامة لم تكن تفارق وجه رئيس غرايس الجديد، فقد كان ذلك يزعجها كثيراً. فلم تر في حياتها شخصاً يتهرّب من أداء عمله هكذا. واكتشفت أن عمله الحقيقي يكمن في

الحرص على ألّا يؤدي العمل الذي يجب أن يقوم به. نظرت غرايس إلى قميصه القطني، وقالت: «ألا تظن أن هذا القميص غير مناسب لإلقاء كلمة في الاجتماع؟»

«لن أذهب إلى اجتماع جميعة كيوانيس. فقد أخبرت رئيسها مارك روبنسون بأن طارئاً حدث لي، وقال إنه يتفهم ذلك».

«التقيت بمارك ذات يوم، وتقوم زوجته ليندا برعاية أمّي وابنة أختي». كان مجيء ليندا أحد أفضل الأشياء التي اقترحتها السّيدة فيلبس، وهي أفضل بكثير من جين العجوز غير الكفؤة التي -مع أنها سيدة رقيقة ولطيفة - لا تمتلك الشخصية اللازمة لتفرض على ماما جي وديزي أن تبقيا في البيت.

لن تنسى غرايس أبداً تلك اللحظة التي رأت فيها جين تقف في الشرفة وحدها مذعورة، وهي تركن سيارتها أمام مدخل البيت ف الأسبوع الماضي. كانت الدقائق القليلة التي استغرقتها حتى تدرك أين ماما جي وديزي أطول دقائق في حياتها. عندما رأت باب كراج بيت السّيد باركر المفتوح وتذكرت تعليق جين العابر بأنه يبدو أن ديزي مفتونة بدراجة جارهن، هرعت غرايس إلى باب بيت جارها.

قالت لنفسها كم كانت سخيفة عندما قالت إنه شخص لا يمكن الوثوق به لأن شعره طويل ويقود دراجة نارية، على الرغم من أنه عامل ماما جي وديزي بمودة حقيقية عندما ذهبتا إلى بيته، ورأت غرايس بأمّ عينها أن بيته نظيف ومرتب، وأنه ليس شخصاً همجياً كما خيّل إليها.

نظرت غرايس إلى الدُرج الذي وضعت فيه محفظتها وهاتفها الخلوي، وقاومت الرغبة في أن ترسل إلى ليندا رسالة نصيّة لتتأكد من أنها موجودة في البيت، لكنها قالت لنفسها إن ذلك يمكن أن يجعلها تبدو أنها لا تثق بليندا خصوصاً أنه لم يمض على مغادرتها البيت ساعات قليلة.

أدركت غرايس الآن أن الأمومة ورعاية الأطفال أصعب بكثير مما كانت تتصوّر. فلم يقل لها أحد إنها ستكون دائمة القلق، وأن مخيلتها ستصوّر لها أسوأ السيناريوهات فيها تفاصيل فظيعة مكن أن تكون مصدر إلهام للروائي ستيفن كينغ.

«أنتِ محظوظة بليندا»، قال السيد مور، «إنها ملاك، وزوجها مارك رجل طيب أيضاً. عندما قلت له إني أرغب في أن أحضر اجتماع جمعية كيوانيس الشهر القادم بدلاً من اليوم لأن الطقس سيكون عندئذ دافئاً وصيد السمك أفضل بكثير، تفهم الأمر. وبما أنه صيّاد هو نفسه، لديه معرفة ممتازة بالفصول. سيكون الشهر القادم أفضل موسم للصيد وسيكون السمك بانتظاري».

وضعت كوب قهوتها على طرف طاولة مكتبها، وقالت: «أرجو ألّا تعتبر ما أقوله لك انتقاداً، لكن ألا تدين لسكان هذه البلدة بأن تعمل ما لا يقل عن أربعين ساعة في الأسبوع؟»

«لقد عملتُ حتى ساعة متأخرة الليلة الماضية لأحضرّ لاجتماع البلدية، وأنا الآن أرتاح قليلاً»، ضحك، ثم أضاف، «اجتماع البلدية الذي لا يحضره أحد إلّا أنا والسّيد كرامر الذي يأتي دائماً ليشتكي من الطنين الذي ينبعث من أضواء الشارع خارج بيته».

«ألا يمكن إصلاحها؟»

«إنها لا تصدر طنيناً. إنه مجرد عذر حتى يأتي، وبعد الاجتماع نذهب معاً ونتناول القهوة والبوظة. إنه يحبّ ذلك كثيراً». ابتسم السيد مور وأضاف، «إن كرامر رجل طيب مع أنه مجنون بعض الشيء. وكلّما جرت الانتخابات، فهو يعمل كالساعة، ويمكنني الاعتماد عليه في تعليق مئات اللافتات لدعم حملتي الانتخابية. يمكنه أن يملأ البلدة كلها باللافتات إذا تركته يفعل ذلك».

«يبدو أن اجتماعات البلدية ليست مثمرة كثيراً».

«ألست موجوداً هنا لهذا السبب؟ فإذا حضر أناس كثيرون هذه الاجتماعات، فهذا يعني أنني أرتكب أخطاء، وإذا لم يأت أحد، فهذا يعني أنني أمارس عملي بشكل جيد»، وغمز بعينه، واتجه نحو خزانة لوازم المكتب.

تبعته غرايس، ثم قالت: «لم أكن أعرف أن لدينا تعويض عن وقت العمل».

«للأسف، لكن لا يمكنك الاستفادة منه، وإنما يمكنك الحصول على تعويض عن الوقت الإضافي وهذا جيد». وقف بجانب الخزانة وابتسم كما لو أنه نقل لها أفضل خبر في العالم.

كان على غرايس أن تقاوم الرغبة في أن تزيل تلك الابتسامة عن وجهه. فعندما التقت به لأول مرة، خيّل إليها أن روحه المرحة صادقة، لكنّها سرعان ما أدركت أنه واحد من أولئك الأشخاص الذين ينظرون في عينيك مباشرة وينقلون لك أسوأ خبر ممكن -أنك مطرود من العمل، أو أن أمّك ماتت - وهو لا يزال يبتسم. «أنا سعيدة لأنني عرفت أن هناك تعويض عن الوقت الإضافي. أمامي ما لا يقل عن ستّة شهور من العمل المتواصل كي أدخل جميع البيانات في الكمبيوتر، وربما أكثر. يمكنني أن آتي أيام السبت وأبدأ...»

«مهلاً. يوجد وقت إضافي، لكنّك لا تستطيعين الاستفادة منه».

«ماذا؟»

«لا يمنح الوقت الإضافي إلا في حالات الطوارئ كالأعاصير أو الزلازل».

«لكن يوجد تراكم كبير في العمل الورقي، وأحتاج إلى...»

«يا إلهي، انظري إلى الوقت. السمك ينتظرني، أما أنت...» ازدادت ابتسامته عمقاً، «إذا لم تسرعي فستتأخرين».

«على ماذا؟»

فقال: «على اجتماع نادي دوف بوند الاجتماعي. أنا متأكد بأنني دوّنت ذلك في برنامجك؟»

«لم أر شيئاً في برنامجي اليوم».

فأجابها مرحاً، «أنا آسف، لكن من الأفضل أن تسرعي لأنهم سيعقدون اجتماعهم في غرفة الاجتماعات في المكتبة بعد خمس دقائق. أنا واثق بأنك ستستمتعين بالعمل مع أعضاء النادي. إن

العمل معهم متعة حقيقية».

«متعة أم لا، لا يوجد عندي وقت للنادي الاجتماعي. عليّ أن أرسل إشعارات الضرائب. هناك فواتير كثيرة يجب أن أرسلها بعد ظهر اليوم، وأحاول أن أجهّز مخالفات ركن السيارات منذ ستة شهور...»

«آنسة ويلر، إن العمل في النادي الاجتماعي ليس ممتعاً فقط. إنهم يخطّطون لإقامة مهرجانات، أو بمعنى أدّق ستقومين أنت بوضع خطط لتنظيم مهرجانات بمساعدتهم».

لم يكن بوسعها أن تفعل شيئاً سوى أن تحدّق به، وقالت مندهشة: «مهرجانات؟»

«نقيم في البلدة مهرجانين اثنين»، قال متباهياً. عدّهما على أصابع يده السميكة التي تشبه المقانق، «مهرجان التفاح ومهرجان الربيع. من المحزن أنك لم تحضري مهرجان الربيع، أما مهرجان التفاح فهو يصادف أول عطلة نهاية الأسبوع في تشرين الأول (أكتوبر) وهو ينتظر لمساتك الخاصة».

«لا توجد عندي لمسات خاصّة عندما يتعلق الأمر بالتخطيط لمثل هذه المناسبات، خصوصاً المهرجانات. لا أظن أنني حضرت مهرجاناً في حياتي».

«إنها مناسبات رائعة تجري فيها مواكب وتقام أكشاك لبيع المواد الحرفية والأطعمة وأشياء أخرى. ستجدين متعة كبيرة ف التخطيط لها. كانت هذه إحدى واجبات السّيدة فيلبس المفضّلة، لا بد أنها ذكرتها لك؟»

«لم تذكر لي شيئاً عن ذلك».

«أستغرب أنها لم تحدّثك عنه».

أليس كذلك؟ فكلّ يوم جديد أسمع قائمة من الأشياء التي لم تذكرها لي السّيدة فيلبس. «لا أعرف شيئاً عن تنظيم المهرجانات. يجب أن تجد شخصاً آخر ليعمل مع أعضاء هذا النادي».

«لا تقلقي. يوجد ملف فيه كلّ المعلومات والملاحظات، بالإضافة إلى أن أعضاء النادي يعرفون كلّ شيء تريدين معرفته». شعّت ابتسامته كما لو أنه حلّ جميع مشكلاتها، «إنهم فريق جيد، أفضل مما تتصورين. ستحبّين العمل معهم، وهم يحبّون، يحبّون، يحبّون هذه المهرجانات».

وأضاف، «ثمّ اتركيهم يقومون بالعمل كله. لن أعترض على ذلك».

ضحك رئيس البلدية كأنه قال لها نكتة مضحكة، ثم أضاف: «ستكونين رائعة. السّيدة فيلبس تظن ذلك. عندما رشحتّك للوظيفة، قالت إنّك ستجعلين المهرجانات أفضل بكثير مما كانت، وإذا كان هناك شيء أثق به، فهو قدرة السّيدة فيلبس على اكتشاف المواهب. إنها موهوبة في ذلك».

سخرت غرايس من تعليقه هذا. فهي لم تتحدث مع السّيدة فيلبس إلّا بضع مرات ومن المستحيل أن تعرف شيئاً عن غرايس سوى رغبتها المستميتة في الحصول على عمل.

طقطق السيد مور أصابعه، وقال: «تذكرت، لم أعطك ملفّ المهرجانات لأنك ستحتاجين إليه في الاجتماع»، وعاد إلى مكتبه.

تبعته إلى مكتبه ووقفت عند الباب تراقبه وهو يبحث في أكوام الملفّات المكدسة فوق طاولة مكتبه الضخمة، وسألته، «ما الذي يجري تماماً في هذه المهرجانات؟»

أزاح كومة الملفات الرمادية وراح يبحث بين الملفات الزرق في الأسفل. «كما تعرفين، الأشياء التي تجري في المهرجانات عادة: مواكب بالعربات، أكشاك للطعام والحرف اليدوية، غزل البنات، حلوى التفاح بالكراميل، وربما إقامة مسابقة للمواهب أو مسابقة جمال أو أشياء من هذا القبيل، تختلف من سنة إلى أخرى».

فكّرت في الفرق الهائل الذي حدث لها خلال بضعة أشهر. فبدلاً من أن تترأس اجتماعات تُتخذ فيها قرارات مالية هامة بقيمة ملايين الدولارات، أصبحت الآن موظفة عادية تسجّل مخالفات المرور، وترسل إشعارات الضرائب، وتخطّط لحفلات راقصة مملّة للبلدة. لديها إمكانيات أكثر من ذلك بكثير.

«أين هو الملفّ؟ لا أعرف أين يمكن أن يكون قد ذهب. آه، ها هو». رفع السيد مور ملفًّا سميكاً من أسفل كومة عند زاوية طاولته وأعطاه لها. «إنه عمل مهم، أهم بكثير مما تظنين. تعتمد المحلات التجارية في البلدة على المهرجانات التي نقيمها كثيراً لأنها تعوضها عن شهور الكساد، ومؤخراً...» ولوّح بيده كما لو أنه ينشّ عنه ذبابة.

«ماذا يعني ذلك؟» ولوّحت بيدها تقلّد حركته.

تجمّدت ابتسامته، لكن لثانية واحدة فقط قبل أن تعود كما كانت، وقال: «لا شيء. لقد انخفض عدد الأشخاص الذين يحضرون المهرجان قليلاً».

أمسكت الملف الذي حال لونه، وقالت له: «أرجو أن توضح أكثر».

«اثنان وأربعون في المائة تقريباً».

دمدم تلك الكلمات القليلة الأخيرة، لكنّها سمعتها. «يا إلهي. هذا يعني النصف تقريباً».

«لذلك أنا سعيد بأنك ستعملين على إيجاد حلّ لهذه المشكلة. إننا بحاجة إلى دم جديد. كنت أتمنى لو أنك رأيت المهرجانات في الماضي عندما كان عشرات آلاف الأشخاص يجوبون شوارعنا». هنا بدأت تعابير وجهه تصبح حالمة، «يأكلون طعامنا ويشربون شرابنا ويشترون الأعلام والمصنوعات المحلية -ويا إلهي - كلّ شيء تقريباً. كانوا مثل الجراد، وعندما يغادرون، لا يتركون قطعة نقانق واحدة وتمتلئ الصناديق بالنقود. كان الناس ينفقون نقودهم كأنهم يشربون الماء».

«أسمع الكثير عن الزمن الماضي في كلماتك. منذ كم سنة بدأ ارتياد المهرجانات ينخفض؟»

«منذ آخر عشر سنوات أو قرابة ذلك. ربما أكثر».

فقالت بحدة، «دعني أفهم ما تقوله جيداً: تريد أن أغيّر مسار عشر سنوات في سنة واحدة».

«يمكن أن يأخذ ذلك سنتين منك. فأنا لا أتوقّع حدوث معجزات، لكنني متيقن بأنه إذا كان بإمكان أحد أن يفعل ذلك فهو أنت. كما قلت لك فالسّيدة فيلبس لا تخطئ في نظرتها عن الأشخاص أبداً».

صحيييييح. لم تقل له غرايس إنها لن تبقى في هذه البلدة أكثر من سنة - لكن هذا لا يهم. لا يستطيع أحد أن يغيّر اتجاه عشر سنوات في سنة واحدة إذا لم تكن هناك مواهب جديدة وأموال كثيرة وهي أشياء لم تلاحظ شيئاً منها في هذا المكتب، وحتى تتأكد أكثر، سألته، «أظن أنّك ستخصص ميزانية جديدة؟»

«إذا كان بإمكاني أن أفعل ذلك. لكن لا توجد ميزانية إضافية هذه السنة». اتسعت ابتسامة السيد مور، وقال بنبرة مرحة مصطنعة، «لكنّي على ثقة بأنك لن تخيّبي أملنا. آتي لنا بأفكار جديدة، واطلبي من لجنة التخطيط في اللجنة أن تنفذّها. بهذه الطريقة لن تضطري لأن تفعلي كلّ شيء بنفسك».

كما لو كان الأمر بهذه السهولة، لكنّها أدركت أنها لا تملك خياراً آخر. بماذا ورطت نفسي؟ «من هم أعضاء اللجنة؟»

«النادي الاجتماعي»، قال مصحِّحا وخرج من مكتبه وعاد إلى خزانة اللوازم المكتبية.

ألقت الملف السميك على طاولتها وتبعته.

«هناك ثمانية - انتظري - لنقل سبعة أشخاص بالإضافة إليك، جميع المسؤولين عن البلدة». وقف بجانب الخزانة، ثم أضاف، «السّيدة هوبر لم تعد عضوة. فقد استقالت العام الماضي لأنها لم تستطع أن تفرض فكرتها حول مسألة الموكب. كانت تريد أن تطلق على موكب مهرجان التفاح اسم «موكب سانتا البدين».

«سانتا في الخريف؟»

«تماماً. كما أن عبارة ‹البدين› تبدو مخجلة أيضاً. فلا يريد أحد أن يلاحقه الغوغائيون في وسائل التواصل الاجتماعي. لذلك رفض أعضاء النادي اقتراح السّيدة هوبر فاستقالت. إنها تحب سانتا كثيراً، وإذا صادف أن ذهبت إلى بيتها، فإنك ستعرفين ماذا أقصد. هناك مئات صور وتماثيل سانتا في غرفة الجلوس فقط».

«طوال السنة؟»

«نعم. إنها تقيم في مابل ستريت، ويمكنك أن تعرفي بيتها بسهولة من زينة عيد الميلاد المضاءة طوال السنة». أخرج صنارة صيد سمك من الخزانة واتجه إلى خزانة الملفّات الكبيرة في إحدى زاويا مكتبها، وفتح أعلى درج فيها وأخرج صندوقاً، وقال: «تجدين كلّ المعلومات التي تحتاجين إليها في هذا الملف: جميع المشتريات، جميع المواكب، جميع الضيوف الخاصين الذين حضروا المهرجان. كانت السّيدة فيلبس تسجل كلّ شيء بدقة»، ثم فتح الصندوق، وأخرج قبعة مرنة مزدانة

بمجموعة من صنارات صيد السمك، ووضعها على رأسه، ثم أغلق الغطاء، وحمل الصنارة والصندوق واتجه نحو الباب.

تبعته. «السيد مور، لا تستطيع أن تذهب الآن. عندي أسئلة كثيرة أريد أن أسألك إياها... أنا لا أعرف...»

«لا تقلقي. سأعود في الساعة الخامسة لأوقّع شيكات الرواتب الأسبوعية. لا يمكنني أن أنسى ذلك؟»

«السيد مور، أنا...»

لكنّه كان قد ذهب، وكان الباب يتأرجح وراءه.

«اللعنة!» قالت غرايس مخاطبة الباب. أرادت أن تركل شيئاً، لكن حذاءها غالي الثمن ولا تستطيع أن تشتري حذاء آخر.

تهالكت على كرسيها وعقدت ذراعيها، وتساءلت هل إذا رمت شيئاً ثقيلاً من فوق طاولتها سيخفف من حدّة غضبها. لكن لا، فهذا تصرّف طفولي، ثم قالت لنفسها إنه مهما كان هذا العمل مزعجاً فهو الذي يجلب الطعام إلى المائدة ويوّفر لها ولأسرتها سقفاً فوق رؤوسهن. إنها بحاجة شديدة إلى هذا العمل.

إن الجلوس بين هذه الجدران المتداعية في هذه الوظيفة غير الهامة براتبها الضئيل، وتقدّم مرض ماما جي الذي بدأ يستفحل، ورفض ديزي المتواصل بأن تقبلها كأمّ لها، جعل غرايس تشعر بحزن شديد لم تشعر به من قبل. فلم تكن غرايس تعتبر ديزي وماما جي عبئاً عليها، فهي تحبّهما ولا يمكنها أن تفكّر هكذا أبداً، لكنها أصبحت مسؤولة عن حياتهما، وشعرت اليوم بعظم هذه المسؤولية. والأسوأ من ذلك، فقد بدأت تتساءل إن كان باستطاعتها أن تتحمّل هذه المسؤولية. فبعد أن جاءت غرايس إلى بيت ماما جي عندما كانت طفلة، تغيّرت حياتها كثيراً، ولم تفشل في تحقيق أيّ شيء إلّا شيئاً رئيسياً واحداً - وهو رعاية أختها هانا وعدم تمكنها من أن تجعلها تعيش في مكان آمن، لكن ذلك كان يفوق قدرات غرايس، وها هي الآن تحاول أن تعتني بشخصين اثنين لا بشخص واحد، لا يرحب أيّ منهما بالجهود التي تبذلها من أجلهما.

تنهّدت غرايس وفركت صدغيها. ألهذا السبب تخلّت هانا عن ديزي وتركتها في بيت ماما جي طوال تلك السنوات وهربت؟ لأنها أحسّت بأن كلّ شيء ستفعله، وكلّ قرار ستتخذه، سيؤثّر على حياة ديزي، بل وقد يدمرها؟ أه، يا هانا، كان عليك أن تطلبي المساعدة. كنّا هناك من أجلك. لكن أن ترميها هكذا وتغادري. كان ذلك يؤلمها. لا أزال أرى ذلك الألم في عينيها.

انقبضت حنجرة غرايس، وأحرقت لسعة عميقة من الغضب حنجرتها. وبشكل ما، فهمت الغضب الذي يعتري ديزي وأدركت أن معظمه موجّه إلى أمّها. صدقاً، فلدى كلّ واحدة منهن أسبابها لتكون غاضبة من هانا، لكن ليس بقدر الغضب الذي يعتمل في صدر ديزي.

عندما دقّت ساعة الحائط نظرت إليها غرايس نظرة متبرمة. نهضت واقفة وتنهدت. لعل هانا لم تكن قادرة على تحمل مسؤولياتها، أما غرايس فهي تستطيع أن تتحمل المسؤولية وستفعل ذلك، لا بل إنها أكثر من قادرة. والآن يجب أن تقوم بتنظيم هذا المهرجان السخيف.

لملمت أغراضها، مدركة بشيء من الكوميديا السوداء أنّها تأخرت على حضور اجتماع لا تريد أن تحضره، ويفترض أن تضع خطة لمهرجان لا تريد أن تراه، وتتعامل برقة مع أشخاص لا تريد أن تعرفهم. أشخاص مثل سارة دوف.

تجهّم وجه غرايس عندما خطرت لها هذه الأفكار. فقد جاءت سارة لزيارتها في بيتها عدّة مرات منذ أن تحدّثتا أمام مبنى البلدية الأسبوع الماضي، لكن غرايس لم تشجّعها كثيراً بطريقتها المهذبة. وكان من الواضح أن سارة اللطيفة تريد أن تصادقها، لكن لا يوجد لدى غرايس الآن وقت يمكنها أن تمضيه مع أحد غير ماما جي وديزي اللتين كانتا مركز اهتمامها الوحيد.

عندما بدأت دقات الساعة تعلو أكثر، سحبت غرايس أفكارها من ظلام ماضيها، وحملت كوب قهوتها، ورفعت الملفّ السمين من فوق طاولة مكتبها، وتمتمت لنفسها شيئاً عن الرؤساء الذين لا يفعلون شيئاً، ووضعت اللوحة على الباب، وحرّكت اليد البلاستيكية لتشير بأنها ستعود بعد ساعة.

عندما سارت بضع خطوات توقّفت وحدّقت في اللوحة. من المؤكد أنها لن تستغرق ساعة كاملة. «كلّفيهم بالعمل، قال»، تمتمت بصوت مسموع. «سأكلّفهم بالعمل كلّه إن استطعت».

عندما وقفت في مكانها للحظة طويلة، تحدّق بعماء في اللوحة، خطرت لها فكرة فريدة حقاً.

هل تستطيع أن تفعل ذلك؟

لم لا؟

ابتسمت. الشيء الرئيسي هو أن تكلّفهم بالعمل.

حرّكت غرايس مؤشر اللوحة بأنها لن تغيب أكثر من خمس عشرة دقيقة، وقالت لنفسها: «هذا أفضل»، وأقفلت الباب وراءها وغادرت.

الفصل (٥)

سارة

أخذت سارة تراقب غرايس وهي تعبر الشارع، تضم دفتر ملاحظاتها إلى صدرها كأنه درع، وكعب حذائها ينقر على الإسفلت بقوة وقالت لنفسها إنه لو كانت الشمس أشدّ حرارة، لترك حذاءها آثاراً على الإسفلت.

يا لها من فوضى.

هذه رابع مرة، أو ربما خامس مرة، يخطر ذلك لسارة في الدقائق الخمس الأخيرة. وكلّ ذلك بسبب هذه المرأة المنضبطة التي تهرب الآن من مكان المجزرة التي أحدثتها.

حسناً... للإنصاف، فإن كلمة «مجزرة» قاسية بعض الشيء. لا بل عبارة «خيبة الأمل» أدقّ و»الإحباط» أيضاً، لا بل «إحباط عميق» أفضل بكثير.

خرجت زوي بيل ونيت ستيفينس من المكتبة وانضما إلى سارة الواقفة عند أعلى الدرج. كان نيت زميل أكبر أخوات سارة في المدرسة، ماديسون، وكان صديقها لفترة قصيرة في المدرسة الثانوية، ويمكن القول إنه كان أجمل فتى صادقته في المدرسة. فقد كان طويل القامة، وسيماً، شعره كستنائي اللون، بشرته ضاربة إلى السمرة قليلاً. وبما أنه كان صاحب محل «آس هاردوير» لبيع الخردوات، فقد كان يصنع معظم اللافتات الكبيرة في البلدة، وأصبح عضو مهماً في نادي دوف بوند الاجتماعي والجمعيات الأخرى في البلدة.

بدأوا يراقبون غرايس وهي تمشي على الرصيف الآخر كما لو كانت تمتلك المكان.

عندما أُغلق الباب وراء غرايس، نظرت زوي من فوق نظاراتها الشمسية. كانت زوي، نائب رئيس بنك فيرست بيبل، امرأة أنيقة المظهر، تشبه بشعرها الأسود الممثلة أودري هيبورن التي كانت تحاول أن تقلدها في كلّ شيء. وكانت زوي ترتدي ثياباً أنيقة غالية الثمن، وتقدّر سارة أنه يوجد لديها ما لا يقل عن مائة نظارة شمسية من نوع «عين القطّة».

نقلت زوي الملف إلى يدها الأخرى ورفعت نظاراتها الشمسية فاستقرت على رأسها وقالت: «يجب أن أقول الحقيقة. إنها فتاة ذكية».

«مدمّرة بكفاءة»، قالت سارة بمرارة، «يجب أن يقول لها أحد إن ما تفعله ليس شيئاً جيداً».

فقال نيت: «لن أفعل ذلك».

«إنها امرأة قوية»، قالت زوي، «في إحدى اللحظات كان عليّ أن أقاوم الرغبة في أن أحييها».

«لقد فعلنا ذلك جميعاً»، قال نيت موافقاً، عيناه الزرقاوان تلمعان.

فقالت سارة: «مهما كان الأمر، لا يمكننا أن ندع ما جرى في الاجتماع يمرّ بهذه البساطة».

«لا تنظرا إليّ هكذا»، هبط نيت الدرجات القليلة إلى الرصيف، ثم أضاف، «سأؤيد أي شيء تقرّرانه، لكنّي لن أقف في وجه قوة الطبيعة هذه».

حدّقت زوي به وقالت: «حقا؟ إنك ستؤيد أي قرار سنتخذه، ومن دون أي سؤال؟»

«نعم، لأنني أعرف أنني أدع هذه المعركة بين أيد قديرة». تراجع قليلاً وهو يتكلّم، ثم أضاف، «يجب أن أعود الآن إلى عملي».

«خائف؟» سألت زوي، وابتسمت عندما قالت له ذلك.

«مرعوب»، اعترف، «فقط أخبريني متى سيعقد الاجتماع التالي، وسآتي».

هزّت سارة رأسها شاردة، وقالت: «سنرسل رسالة بالإيميل».

«جيد. أراكما لاحقاً»، أومأ لهما إيماءة ودّية وسار في الشارع نحو مخزنه.

هبطت زوي درجة لتتمكن من رؤيته وهو يمشي. عندما ابتعد، همهمت، «إنه يعرف كيف يرتدي هذا الجينز، أليس كذلك؟»

ألقت سارة نظرة محبطة على زوي، وقالت: «إنك لم تتغيّري منذ أن كنّا في المدرسة الثانوية».

هزّت زوي كتفيها بلا مبالاة وقالت: «لدى كلّ واحد منا هواياته».

أشاحت سارة بعينيها، مع أنها لم تنزعج لأنها تحبّ زوي. أو أنها بدأت تحبّها الآن. فعندما كانتا في المدرسة الثانوية، لم تكن سارة تستمتع بنكات زوي اللاذعة، لكنها بدأت تستمتع بها الآن. «لا أريد أن أقف في طريق هوايتك، لكن لدينا عمل هام يجب أن ننجزه. ماذا يجب أن نفعل؟»

لم ترفع زوي عينيها عن نيت وهو يسير مبتعداً، وقالت: «لست متأكّدة بعد، لكنني أفكّر».

«فكّري بسرعة»، قالت لها سارة.

فُتح باب المكتبة وخرج إد مايهيو، وأغمض عينيه من بريق شمس بعد الظهر وبدا مشوشاً قليلاً، وسأل، «هل هذا أنا، أم أننا رأينا مائة وخمسين سنة من التقاليد تُلقى أمامنا في أقل من خمس دقائق؟»

«مائة وسبع وخمسون سنة»، قالت سارة مصحّحة. كان إد وزوجته ماغي قد انتقلا إلى دوف بوند من أشفيل منذ ثماني سنوات وفتحا مخزن «باو برينز»، أفضل مخزن (لا بل المخزن الوحيد) لبيع الحيوانات الأليفة ولوازمها في البلدة. كانا شخصان اجتماعيين وسرعان ما أصبحا

من أكثر سكان دوف بوند نشاطاً. كان إد قصير القامة، له كرش، بشرت بيضاء، يذكّر سارة بكلبه الألماني العجوز الذي يُدعى بيجي ماي. ولحسن الحظ، فإن مزاج إد أفضل بكثير من مزاج بيجي ماي الذي عضّ أو حاول أن يعضّ جميع سكان البلدة.

«يا له من اجتماع» مرّر إد يده في شعره المزيج بين اللونين الأبيض والأسود، وترك جزءاً منه منتصباً، «كانت ماغي تريد أن تعرف كيف ستنظم أمينة سجل البلدية الجديدة المهرجان. كلّنا نأمل ذلك. لكن...» وهزّ كتيفيه باستهجان، وأضاف، «يا إلهي، حتى أنني لا أعرف ماذا يمكن أن أسمي ذلك».

«كان ذلك مؤلماً»، قالت زوي.

فقال إد: «كأن المرء تلقى ركلة على أسنانه»، ثم تنهّد وأضاف، «أظن أنني يجب أن أعود إلى المخزن، لكنّي سأقول لكما شيئاً - لن أقول كلمة واحدة عما جرى لماغي، لأنها ستبكي إذا سمعت ذلك، ولا أحتمل رؤيتها وهي تبكي».

فقالت سارة: «يجب أن نحتفظ بذلك لأنفسنا. سأطلب من إرما أن تضيف ذلك إلى المحضر بالإيميل. لن نتكلّم عمّا جرى لأن آخر شيء نريده هو أن تنتشر شائعات في البلدة. وفي هذه الأثناء، سنجد أنا وزوي طريقة لحلّ المشكلة».

«أرجو ذلك»، قال وهو يهزّ رأسه، «عمليات شراء غير معقولة وأسرار سوداء. لقد تحوّلنا إلى شيء أشبه بمسلسل ربّات البيوت الحقيقيات في دوف بوند. اتصلا بي عندما تتوصلان إلى حلّ».

«بالتأكيد»، قالت زوي.

«أراكما في الاجتماع القادم إذن»، قطّب حاجبيه وأضاف، «أظن أنه سيكون هناك اجتماع آخر، أليس كذلك؟»

«طبعاً»، قالت زوي بحدّة.

«وفي وقت قريب»، أضافت سارة.

«إذاً سأكون هناك». هزّ رأسه مودعاً وسار باتجاه الشّارع.

نظرت سارة إليه، ولاحظت أنّه يمشي بجانب حوض الأزهار أمام مبنى البلدية لكنه لم ينظر إليه. يبدو أنها هي الوحيدة التي لاحظت أن الأزهار الأرجوانية أصبحت خضراء شاحبة عندما كانت غرايس تسير بجانبها.

بدأ الأمر يتضح أكثر بأن وجود غرايس في بلدتهم يعني شيئاً عظيماً، لكن يبدو أن أحداً غيرها لم يدرك ذلك بعد. كان كلّ ما يمكن أن تفعله سارة هو ألّا تعلن عن ذلك على الملأ، لكنّها عرفت من خبرتها الطويلة أنه من الأفضل أن تدع الناس يكتشفون الأشياء بأنفسهم. كما أن إعلاناً كهذا سيثير أسئلة كثيرة لا تمتلك سارة إجابات عليها. ليس الآن في جميع الأحوال.

«هذا هراء»، قالت إرما عندما وصلت إلى الباب. كانت إرما امرأة قصيرة القامة، مربوعة، سمراء البشرة، تكوي شعرها الأشيب كما كانت تفعل منذ أن تخرّجت في ثانوية دوف بوند منذ اثنتين وأربعين سنة. «سأكلّم رئيس البلدية مور في هذا الأمر. أنا متأكدة بأن لديه شيئاً يقوله عن القرار الذي اتخذته الآنسة ويلر بالتخلّي عن مسؤولياتها».

«حظًّا سعيداً إذا وجدته»، قالت سارة.

ثم أضافت زوي، «لا بد أنه خرج إلى الصيد الآن، بالإضافة إلى أنه لن يفعل شيئاً. تعرفين كم يكره المواجهة».

«حسناً، يجب أن نفعل شيئاً»، قالت إرما، «لم أر في حياتي شيئاً كهذا. جاءت فقط للتأكد من أننا حاضرون جميعاً، وقالت إننا نحتاج إلى رئيس جديد، ثم دعت للتصويت على أول شخص رشّح نفسه. ثمّ ألقت ملفّها على الطاولة وغادرت. لم تمض في تلك الغرفة سوى...»، ونظرت إرما إلى الملاحظات التي دوّنتها، «ثلاث دقائق».

«هذا فظيع»، قالت زوي موافقة، وهي تسوّي بشرود حافة الملف السميك بيدها.

«وأنتِ»، قالت إرما ونخزت ذراع زوي، «رفعت يدك فوراً عندما سألت من يريد أن يرشّح نفسه لرئاسة النادي».

«ندمت بعد أن رفعت يدي مباشرة». عندما حدّقت بها إرما غير مصدّقة، أشاحت زوي بعينيها، وأضافت، «لا يمكنك أن تظني أنّني أريد أن أصبح رئيسة النادي. حتى أنني لا أحبّ أن أحضر هذه الاجتماعات. أنت تعرفين ذلك».

كان على سارة أن تعترف بأن ما تقوله صحيحاً، فقالت لإرما: «إنها تشتكي من ذلك دائماً».

«أترين؟» قالت زوي، «لكنني لا أستطيع أن أرفض أي فرصة لقيادة أي شيء. لقد لوّحت أمامي بمنصب الرئاسة كما لو كانت تلّوح بعلم أحمر أمامي».

«وهكذا تلقفتِ الطعم»، قالت إرما، باشمئزاز.

«أنا ضعيفة. كلّ ذلك بسبب التدريب السيء الذي حصلت عليه. فقد كان أبي يقول لي دائماً ‹زوي، إنك تنتمين إلى عائلة بيل، ويجب أن تتصرّفي هكذا› و ‹زوي، لا ترفضي أي فرصة تعرض عليك أبداً› و ‹زوي، كوني في المقدمة دائماً، مهما كلفك ذلك›».

فقالت إرما متبرمة: «لا أعرف لماذا تنصتين له. ويظن والدك أيضاً أن هناك فرصاً جيدة بأن العالم يديره أيضاً رجال تشبه السحالي. اسمي مدرج في قائمة الرسائل الإلكترونية التي يرسلها والدك منذ أن تقاعد، ولا يزال يرسل حتى الآن فيديوهات مصوّرة في قبو بيت بآلة تصوير فيديو قديمة».

«لديه الآن وقت فراغ كثير، لكننا نعرف جميعاً أنّه هو الذي جعل البنك يصبح كما هو اليوم»، عبست زوي وقالت: «لا أعرف ما هي اهتماماته الآن. لكن توجد أشياء متأصلة فيه، مثل أن

الذهاب إلى الكنيسة. أعرف أنّني لن أذهب إلى جهنم إذا لم أذهب إلى الكنيسة في يوم الأحد، لكن عندما أتذكر وجه أبي إذا رأى مقعدي خالياً فإن ذلك يزعجني كثيراً، ويتملكني الشعور نفسه إذا رفضت أي فرصة قيادة تُعرض عليّ».

فُتح الباب وراءهما وخرجت كات كارتر تتبعها أفا، أخت سارة. لا يمكن أن تكون هناك امرأتان مختلفتان أكثر منهما. فقد كانت كات امرأة رشيقة، طويلة القامة، ذات شعر أسود، من ذلك النوع من النساء التي تبدو، حتى لو كانت ترتدي بنطال جينز، بأنها ستسافر بطائرة خاصّة إلى باريس. أما أفا فكانت قصيرة القامة، لا تضع أي مسحة من المكياج، وتعقص شعرها الأشقر دائماً إلى الخلف في شكل ذيل حصان. وترتدي نفس الأفرول دائماً، وكما تقول سارة، فإن أفا لم تنتعل حذاء بكعب عال منذ حفلة تخرجها في المدرسة الثانوية. وعلى الرغم من التباين بينهما، فإن أفا وكات صديقتان منذ أن كانتا في الصف الخامس.

وقفت أفا بجانب سارة، وسألتها، «هل هذا هو الاجتماع الذي يلي الاجتماع الرئيسي؟»

«لماذا لم نُدع إليه؟» سألت كات، ثم قالت بصوت واطئ لأفا، «الجميع يريدون أن يحضروا هذا الاجتماع».

فقالت سارة ساخرة: «الأطفال الجيدون فقط هم الذين يُسمح لهم بحضور هذا الاجتماع، وقد خرجتما الآن».

ارتسمت على وجه أفا ابتسامة عريضة، حوّلتها من بستانية تنظّم الحدائق إلى امرأة ساحرة خلال ثانية.

بادلتها سارة الابتسامة. لقد نشأت هي وأفا معاً، ولم تكن سارة تحلم بأخت أفضل منها.

نظرت أفا إلى سارة وسألتها، «هل لديك أفكار كيف يمكننا أن نواصل عملنا؟» كان اسم شركة أفا، «شركة أفا لتصميم الحدائق وزراعة أنواع الشاي الخاصة» مخاط بأحرف ملوّنة موشّاة بأزهار على جيب أفرولها التي ترتديه دائماً. لم يكن هذا الاسم أكثر الأسماء إبداعاً، لكن كما كان يحلو لأفا أن تقول إنها توظّف كلّ إبداعها في زراعة الأزهار وأصناف الشاي أكثر من الكلمات المخاطة على جيبها.

كانت سارة فخورة بنجاح أختها أفا في تصميم الحدائق، وكانت ترة أن أي شيء تلمسه آفا يزهر. كانت هكذا منذ طفولتها، وقد بدأ الطلب على خدماتها في ازدياد مضطرد بالإضافة إلى نشاطها الجانبي بتزويد المحلات العصرية في وسط مدينة أشفيل بأصناف شاي مميّزة تزرعها في البيوت الزجاجية، ومع أنهما لم تتحدّثا قط عن الأرقام، كانت سارة متأكّدة بأن أختها تحقق أرباحاً جيدة.

«وأنتِ»، نظرت أفا إلى زوي بنظرة تشي بالاتهام، «كدت تقفزين من مقعدك عندما سألت غرايس من يريد أن يحلّ مكانها في رئاسة النادي».

«أعرف، أعرف»، لوت زوي وجهها، «لقد جبنت، لكني سأتدبر الأمر، حتى لو بذلت المستحيل. أعدكم بأن غرايس ويلر ستصبح رئيسة نادينا».

«إننا بحاجة إليها»، قالت سارة.

«كثيراً» قالت زوي موافقة.

«لا أعرف»، قالت إرما بنبرة فيها شك، «هل نريد حقاً أن تصبح غرايس مسؤولة عن مهرجاننا إذا لم تكن تريد أن تفعل ذلك؟»

«نعم»، قالت سارة بحزم.

نظرت أفا في عينيْ سارة، وقالت: «إنك تعرفين شيئاً».

هزّت سارة رأسها، لأنها لا تستطيع أن تخفي شيئاً عن أختها، وقالت: «إنها الشخص المناسب لهذ المنصب. أنا متيقنة من ذلك».

رفعت إرما يديها، وقالت: «حسناً. إذاً اطلبي منها أن تعود. إننا بحاجة إلى رئيس للنادي، وإذا لم تكن زوي تريد هذا المنصب...»

«لا، لا أريد» أكدت زوي.

«إذن الآنسة ويلر»، ركّزت إرما نظرتها على زوي، وقالت: «أظن أن لديك خطة للقيام بذلك».

«ربما. لو لم يكن السيد مور شخصاً يمكن التحكم به بسهولة، لكنت...» نظرت زوي إلى باب مبنى البلدية المغلق، وزمّت شفتيها.

«أوه»، قالت أفا، «إنها تفكّر».

انحنت كات نحو أفا وهمست، «لقد رأيت هذه النظرة من قبل. زوي في وضعية صيد الآن».

كان بإمكان سارة أن ترى التروس البراقة التي تدور في دماغ زوي المشوش.

فجأة، ابتسمت زوي ابتسامة هادئة، محسوبة، ولمعت عيناها البندقيتان، وقالت: «اطمئنوا، أيتها الزميلات أعضاء النادي، ففي مثل هذا الوقت من الأسبوع القادم، ستعود غرايس ويلر لتصبح رئيسة نادينا».

«بإرادتها؟» سألتها كات.

«لا، لكنّها ستفعل ذلك بحماسة»، قالت زوي ثم صححت نفسها بسرعة، «حسناً، لا أستطيع أن أعد بحدوث معجزات، لكنّها ستفعل ذلك».

«هذا جيد»، نظرت إرما إلى زوي بنظرة مليئة بالتقدير، «إنك تشبهين أمّك عندما تتحدثين هكذا».

ارتسمت ابتسامة على وجه زوي وقالت: «شكراً. كانت أمّي صلبة كالمسامير».

قوّست أفا حاجبها في زوي، وقالت: «هل تحتاجين إلى أيّ مساعدة منّا؟»

«ليس الآن. أستطيع أن أنفذ الجزء الأول من هذا المشروع وحدي. سيأتي السيد مور إلى البنك بعد ظهر اليوم لتسديد قسط قرضه العقاري. سأراه هناك».

ذوى الأمل الذي كان يملأ سارة عندما ذكرت زوي اسم رئيس البلدية، وقالت: «إذا كنت تتوقّعين أن يحلّ السيد مور هذه المسألة، فإن أملك سيخيب لأنه لن يفعل شيئاً. إنك تعرفينه جيداً».

لم تفتر ابتسامة زوي، «أعرفه تماماً. لننتظر ونرى».

«حسناً»، لم تستطع سارة أن تزيل نبرة الشكّ في صوتها.

فقالت إرما: «عندما تقول زوي إن ذلك سيحدث، فإنه سيحدث. لكن مهما كان الشيء الذي ستفعلينه، افعليه بسرعة. يجب أن تبدأ الآنسة ويلر بأداء واجباتها بأسرع ما يمكن، وإلا فإننا سنتأخر».

«سأفعل ذلك. من الأفضل أن أعود إلى العمل. سأراكن لاحقاً». استدارت زوي لتهبط الدرج.

«انتظري»، صاحت سارة، «كدت أنسى»، وجرت إلى داخل المكتبة، وأخذت كتاباً وخرجت به.

«أوه إنها مسلّحة»، قالت أفا.

تجاهلت سارة أختها ودفعت الكتاب بين يدي زوي. نظرت زوي إليه. «تعلّم أسس اللغة الإيطالية في عشرة أسابيع سهلة». قطبّت زوي حاجبيها، وقالت: «لست بحاجة إلى هذا الكتاب».

نظرت إرما من فوق كتف زوي إلى غلاف الكتاب، وقالت: «من الأفضل أن تأخذيه. أعطتني في الأسبوع الماضي دليلاً ضخماً لتصليح سيارتي وقد أفادني كثيراً ليلة البارحة».

«هل تعطلّت سيارتك؟» سألتها أفا.

«نعم. أشكر الله أن الكتاب كان معي».

«عظيم». بدا أن زوي قد أُعجبت بذلك، وسألتها، «وهل أصلحتها بنفسك».

«يا إلهي، لا. فقد وضعت السيارة في وضعية التوقف ولو لم يكن معي هذا الكتاب لأضعه تحت العجلة لتدحرجت السيارة اللعينة إلى جانب الطريق بينما كنت أنتظر سيارة الجرّ».

«يا إلهي»، قالتها زوي بنبرة نزقة، «إذاً لم تستخدمي الكتاب للقراءة. كان من الأجدر بها أن تعطيك قطعة خشبية».

«لكنه كان مفيداً جداً، وكنت سعيدة لأنه كان معي. هذا كلّ ما أعرفه». نظرت إرما إلى ساعة يدها، وقالت: «يجب أن أذهب الآن. ميسي روبنسون تشرف على المحل الآن، ويجب أن تذهب

بعد خمس عشرة دقيقة لتتدرب على آلة الكلارينت. خذي الكتاب يا زوي، ستندمين إذا لم تأخذيه». لوّحت إرما بيدها وغادرت.

«يجب أن أذهب أنا أيضاً»، قالت أفا، «يجب أن ألتقي بمستأجر». فمنذ قرابة خمس سنوات، عندما بدأ عمل أفا يزدهر، اشترت كوخاً صغيراً في أرض تبلغ مساحتها هكتارين، واستخدمت الكوخ مكتباً لها وبنت خلفه بيتين زجاجيين ذاتيّي السقاية. وعندما حققت قفزات كبيرة في عملها اشترت عشرين هكتاراً أخرى عند أطراف البلدة فيها بيت ريفي كبير وحظيرة ضخمة أيضاً، ونقلت أفا مكتبها إلى البيت الريفي وأجرّت الكوخ بمبلغ كبير، واحتفظت بحقها باستخدام البيتين الزجاجيين، حيث تزرع أفضل أصناف الشاي التي تبيعها.

«هل ستؤجرّينه لشخص نعرفه؟ «سألتها كات بفضول.

«لا. اسمها صوفيا رودريغز وجاءت إلى المنطقة مؤخراً. آمل أن تعمل معي».

«يمكنك أن تطلبي مساعدتها»، قالت كات، «إن كنت ستذهبين الآن، سآتي معك. لقد ركنت سيارتي بجانب شاحنتك»، ثم نظرت كات إلى سارة، وقالت: «سأقابل إلين جيمسون التي تعرض بيتها للبيع. لقد حصلت على عمل في شارلوت وستضطر إلى السفر في أحيان كثيرة».

أجفلت سارة، وقالت: «لقد عاشت هنا طوال حياتها».

«إنها لا تحب أن تغادر، لكن لا يوجد عندها خيار. فقد تقاعد الدكتور لين وأغلق عيادته، ولم تعد هناك أعمال أخرى للرعاية في هذه المنطقة. حاولت أن تحصل على عمل في أشفيل، لكنّها تريد أن تعمل أثناء النهار من أجل أطفالها، لكنها لم تجد وعليها الآن أن تذهب إلى شارلوت».

لم تكن زوي سعيدة»، وقالت: لم أحبّ أن أسمع ذلك».

فقالت كات: «وأنا أيضاً، لكن هكذا تسير الأمور. سأراكن في الاجتماع القادم»، ولوّحت بيدها وغادرت مع أفا، باتجاه باحة وقوف السيارات عند المكتبة.

لم تنتظرهما زوي حتى تغيبا عن نظرها عندما مدّت يدها بالكتاب، وقالت: «لن آخذ هذا الكتاب الغبي. لا أحد في دوف بوند يتكلّم الإيطالية ولن أذهب إلى إيطاليا.»

هزّت سارة كتفيها بلا مبالاة لكنها لم تبد أي حركة لتأخذ الكتاب.

هزّت زوي الكتاب، وقالت: «هيا».

«لا».

«خذيه. لن أقرأه».

هزّت سارة رأسها.

«يا إلهي، أتعرفين أنك عنيدة».

«نعم. وأنا فخورة بهذه الحقيقة».

وضعت زوي الكتاب فوق الملف السميك، ودمدمت، «إنك غريبة الأطوار كما كنت في المدرسة الثانوية».

ابتسمت سارة ابتسامة عريضة، وقالت: «شكراً».

ثم قالت زوي وهي لا تكاد تنظر إلى سارة، «أخبريني شيئاً. يبدو أنكِ عازمة على أن تري غرايس ويلر تقود نادينا الصغير، أكثر منّا جميعاً. ماذا تعرفين ما لا نعرفه نحن؟»

خطرت لسارة فكرة أن تحكي لزوي عن الإشارات التي رأتها بأن غرايس ستساعد على إنقاذ بلدة دوف بوند، لكنها أحجمت عن ذلك، لأن زوي ليست من ذلك النوع الذي لا يصدّق الأشياء إلّا إذا لمستها بيدها، فهزّت سارة كتفيها وقالت: «بلدتنا تحتاج إليها. إننا نحتاج إليها. أنت تعرفين كم ساءت الأمور في البلدة. وأنت، من بين كلّ الناس، يمكنك أن تري أنّ بلدتنا آخذة في الانحدار».

قطبّت زوي جبينها، وقالت: «وهل تظنين أن المبلغ الذي سيدرّه المهرجان سيملأ هذه الفجوة؟»

«لا، لكن...» لكن كيف يمكن أن تقولها؟ «أظن أن غرايس تستطيع أن تعيد الأمور كما كانت في دوف بوند، وليس بإقامة المهرجانات فقط».

«كيف؟ سمعت أنها كانت تعمل في شركة لإدارة الأموال قبل أن تأتي إلى هنا. وإذا كان هناك شيء لا تملكه دوف بوند فهو المال».

«لا أعرف إن كان ذلك سينجح. أعرف فقط أنها يمكن أن تفعل ذلك».

نخرت زوي وقالت: «أنت طير غريب، يا سارة دوف».

فقالت سارة بلا مبالاة: «شكراً».

استدارت زوي وبدأت تهبط الدرج، وعندما وصلت إلى الرصيف توقّفت وقالت: «سآتي غداً وسأعلمك بما جرى، لكن يجب أن أدرس الأمر أولاً لأعرف ماذا سنفعل».

«لا أستطيع أن أنتظر حتى أعرف ماذا حدث معك، مع أنّني واثقة بأنها ستنجح. الشخص الوحيد الأكثر عناداً مني في هذه البلدة هو أنت».

ابتسامة مترددة لامست فم زوي الواسع، وقالت: «هذا أصدق شيء قلته اليوم. الآن، يجب أن تعذريني، عندي موعد مع رئيس البلدية وهو لا يعرف ذلك».

«اذهبي. يجب أن أحضرّ لساعة قراءة الأطفال ولم أختر الكتب بعد».

لوّحت زوي بيدها وسرعان ما اجتازت الشارع في طريقها إلى البنك. عندما أصبحت بجانب حوض الأزهار أمام مبنى البلدية، سارت بخطى بطيئة كما لو أنها فوجئت بشيء، ثم هزّت كتفيها بلا مبالاة وتابعت طريقها.

ألقت سارة نظرة إلى الأزهار المبقعة الآن التي أصبح لونها يتراوح بين الأخضر الكاشف والأرجواني الداكن السابق، كلّ جزء فيها مشوّش كما هم أعضاء النادي الاجتماعي. لا تقلقي، قالت لنفسها، سيعود كل شيء كما كان.

أو هكذا كانت سارة تتمنى. الطريقة التي دخلت فيها غرايس إلى الاجتماع، وتخلّت عن مسؤولياتها بهذه السرعة. حتى لو استطاعت زوي أن تقنع رئيس البلدية بإعادة غرايس لتصبح مسؤولة عن التخطيط للمهرجانات، يجب أن يقوم أحد بإفهامها بأهمية جهودهم من دون ذكر الخطر الذي تتعرض له بلدتهم الصغيرة.

لكنّ المسألة أكبر من ذلك. فقد ذكرت صحيفة اليوميات أن غرايس يجب أن تبقى في دوف بوند دائماً. ولكي يحدث ذلك، عليها أن تهتمّ بالبلدة وبسكانها، ويجب أن تصبح جزءاً فعلياً من دوف بوند.

لا بد أن هذه هي مهمة سارة، وهي لا تعرف كيف يمكن أن تفعل ذلك.

ليس بعد، في جميع الأحوال. «لكني سأجد طريقة»، تمتمت لنفسها وهو تسير عائدة إلى هدوء المكتبة الرائع، «يجب أن أفعل ذلك».

الفصل (٦)

غرايس

ركنت غرايس سيارتها بجانب الشاحنة الصغيرة الخضراء عند مدخل بيتها، وحملت حقيبتها ومحفظتها، وسارت في الممشى. كان يوماً سيئاً، فقد كانت تأمل أن تنفق جزءاً من صباحها في مراجعة الميزانية السنوية التي وجدتها في ملف يعلوه الغبار كُتب عليه «مواد»، لكن لم تتح لها الفرصة لأن تفعل ذلك. ونسي رئيس البلدية أن يخبرها حتى هذا الصباح أن تقرير ضرائب الولاية هامة جداً ويجب أن يكون جاهزاً في الساعة الخامسة مساء. وكان قد زارها لا يقل عن اثني عشر شخصاً وسألوها أسئلة عديدة، ولم تستطع أن تجيب عن الأسئلة المتعلقة بالحصول على رخص العمل الجديدة التي فرضتها المقاطعة، ولم يتوقف هاتفها عن الرنين. لذلك كان عليها أن تتخلّى عن رئاسة النادي الاجتماعي في الأسبوع الماضي، لأنه لا يوجد عندها وقت لوضع خطط لحفلات أو مهرجانات أو مهما أو مهما كان الاسم الذي يريدون أن يطلقوه عليها.

لكن الشعور بالذنب لم يفارق غرايس لأنها تخلّت عن هذه المسؤولية، حتى لو كانت مسؤولية ضئيلة مثل إدارة نادي دوف بوند الاجتماعي.

عندما وضعت قدمها على أول درجة لتصعد إلى الشرفة، خرجت ليندا، وصفقت وراءها باب الغربال. كانت ليندا روبنسون، ذات العظام الثقيلة والكتفين العريضين وكذلك خصرها، تشبه لاعب الدفاع في فريق كرة القدم أكثر مما تبدو مقدّمة رعاية منزلية. ابتسمت لها غرايس التي لم تكن تحلم بأن تحصل على مشرفة أفضل منها. «مرحباً، ليندا. آسفة لقد تأخرت».

«لا بأس»، قالت ليندا ذات الشعر البني، السميك، المجعّد الذي يؤطّر وجهها المستدير المكسو بالنمش مثل هالة. «عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة لن تقتلني، وكنت لطيفة للغاية لأنك اتصلت بي سلفاً وأخبرتني، وهذا كلّ ما أطلبه».

«لا أزال أشعر بأنني لست على ما يرام. حاولت أن أخرج من المكتب، لكن إشعارات الضرائب التي أُرسلت بالبريد منذ بضعة أيام، وتلقيت طنًّا من المكالمات الهاتفية».

نقرت ليندا بلسانها تعاطفاً، وقالت: «لا يحبّ أحد أن يدفع ضرائب».

«وأنا أيضاً، لكنّي أحبّ أن تكون المدارس العامة جيدة، والطرق ممتازة، وقسم الإطفاء أهم بكثير من وضع تقويم سنوي».

فقالت ليندا: «لا أعرف، لكن التقويم جميل جداً. فقد اشترت ابنتي ميسي ستّة منه، واحد لها وخمسة لصديقاتها، لكن إدارة المدرسة لم تسمح لهن بأن يلصقن صور رجال عراة الصدر على

الخزائن المخصصة لهن، فقامت هي وصديقاتها بخياطة أزياء صغيرة لتغطية صدور الرجال. أظن أنهن وجدن متعة في ذلك أكبر بكثير من التقويم نفسه».

ضحكت غرايس، وقالت: «إذا كانت ميسي تحبّ التقويم، فلا بد أنه جيد. سأطلب واحداً».

«يجب أن تسرعي لأنه بدأ ينفد بسرعة. بالمناسبة، تناولت أمك طعام العشاء منذ نصف ساعة، لكن ديزي رفضت أن تأكل. إنها في الفناء الخلفي الآن، تبحث عن سرطان النهر في جدول الماء»

«سأطلب منها أن تتناول طعامها لأنها تجوع بسرعة».

«وأنا أيضاً، لذلك يجب أن أعود إلى البيت الآن. إن مارك يطبخ مثل ملاك. اتصل بي منذ دقائق وقال إنه أعدّ شواء تعلّمه من برنامج للطهي في التلفزيون. لم أفهم ما الذي قاله بعد ذلك لأن معدتي قرقرت بصوت عال فلم أسمعه».

«أتمنّى أن يكون هناك أحد يطبخ لي».

«لكن لديك. لقد تركت بعض الحساء على الموقد للعشاء».

«شكراً. هذا لطف كبير منك».

«لكن هذا ليس كما لو كان هناك شخص خاصّ يعدّ الطعام لك باستمرار. فعندما تعرّفنا على بعض، صنع لي مارك تورتة بالشوكولاتة كادت تجعلني أشعر بالرعشة. في تلك اللحظة عرفت أنّني يجب أن أتزوّجه، وقلت لنفسي إنني لن أدع رجلاً يستطيع أن يطبخ بهذا الشكل يفلت مني».

«أشعر بالرغبة في أن ألاحق رجلاً كهذا أيضاً. كانت ماما جي هي التي تطبخ دائماً، لكنّي بدأت أفعل ذلك معظم الأحيان الآن مع أنني لا أجيد الطهي كثيراً». آلمها أن تعترف بأنها لا تجيد شيئاً، لكن هذه هي الحقيقة. «إني أتعلّم. أو على الأقل أحاول».

«أنا واثقة بأنك تجيدين الطهي. هل عندك مانع لمرافقتي إلى السيارة؟ أريد أن أحدّثك عن شيء؟»

كان كلّ ما تريد غرايس أن تفعله هو أن تدخل إلى البيت، وتلقي بنفسها على الكرسي وترفع قدميها. لكن القلق الذي بدا في عيني ليندا جعل غرايس تضع حقيبتها ومحفظتها في الشرفة بسرعة وتلحق بها. «ماذا في الأمر؟ أرجو أنك لا تريدين أن تتركي العمل هنا؟»

«حتى أنني لا أعرف ماذا تعني كلمة «أترك». لا، أنا قلقة فقط حول شيء معين ولا أريد أن تسمعنا الآذان الصغيرة». نظرت ليندا إلى غرايس التي لانت قسمات وجهها. «أعرف أن الشهور القليلة الماضية كانت قاسية عليكن جميعاً. يمكنني أن أرى ذلك في وجوهكن. لكن الحقيقة هي أن صحة ماما جي لن تتحسّن. وستزداد رعايتها صعوبة».

«أعرف، لكنّها أصبحت أكثر هدوءاً هنا مما كانت في بيتها في ويتلو. لديها ذكريات كثيرة في هذا البيت ولم تعد غاضبة كما كانت هناك».

«حبيبتي، أنا لست قلقة على ماما جي». وقفت ليندا بجانب سيارتها والتفتت نحو غرايس، وأضافت: «أنا قلقة عليك».

«عليّ؟»

«نعم عليكِ. انظري، لا أريد أن أتطفّل، لكن أن تصبحي أمًّا جديدة، حتى لطفلة بعمر ديزي، يعني أن تبذلي الكثير من الجهد والتوتر. بالإضافة إلى أنك تبذلين جهداً كبيراً في رعاية ماما جي، وعندك عمل جديد - حبيبتي، لديك صحون أكثر مما لديك أذرع لحملها. ألا توجد لديك عائلة أو أصدقاء في مكان قريب؟ شخص يمكن الاعتماد عليه من حين لآخر؟»

خطر ببال غرايس أن تقول لها إنها تستطيع أن حمل كلّ «صحونها»، لكن القلق الحقيقي الذي بدا على وجه ليندا جعلها تحجم عن قول ذلك.

كانت ليندا تقول ما تفكّر به غرايس - بأنه أصبح لديها حمل أكبر من طاقتها. «لم يعد هناك أحد. فقد كانت السيدة فيلبس آخر قريبات ماما جي التي كانت تعيش هنا وأختي، هانا...» لا يزال القول إنها ماتت يؤلمها كثيراً، كأنها إذا قالتها، فإن غيابها سيصبح نهائياً بالنسبة لغرايس. إنه نهائي بما يكفي الآن. ثم قالت: «لا يوجد الآن إلّا أنا وماما جي وديزي. لكن ثقي تماماً، مهما حدث، فإني سأعتني بهما».

«أعرف أنّك ستفعلين ذلك، لكنّك بحاجة إلى أحد يدعمك. أقصد دعماً عاطفياً».

«أستطيع أن أتدبر أمري. أنا متأكدة من ذلك».

رفعت ليندا حاجبيها المنتوفين المزججين الرفيعين مثل قلم رصاص، وقالت: «أعرف أنك تظنين أنك تستطيعين أن تفعلي ذلك. لكن هل تدركين ماذا ستواجهين؟ ستغوصين في مياه عميقة، عميقة، لم تري مثلها من قبل، ومما عرفته لا يوجد أحد يجدّف في مركبك إلّا أنت».

«أنا مجدّفة جيدة».

«أنا على يقين من ذلك، لكنّنا نتحدث هنا عن أمواج أضخم منك. إنك بحاجة إلى عدد أكبر من الأيدي لتحريك تلك المجاذيف. صدقيني أن الأمور ستصبح قاسية جداً قريباً».

غاصت معدة غرايس، وقالت: «ما تقولينه شيء مرعب».

«لأن الأمر كذلك حقاً. انظري، أنا لا أريد أن أخيفك، لكنّي أمارس هذا العمل منذ حوالي عشرين سنة، واعتنيت بعدد كبير من الأمهات والآباء الذين خاضوا المعركة التي تخوضها حالياً ماما جي، وأعرف أن الأمر قاس جداً على تلك الأرواح المسكينة، وهو أقسى بكثير على أبنائهم ومن يحيطون بهم. فمن المؤلم أن تري والديك يذويان أمامك. قال لي أحدهم إن ذلك كما لو أنك تحاولين أن تمسكي الرمل بين أصابعك، فمهما أحكمت قبضتك، فلن يكون بإمكانك أن تبقيه في مكانه».

يذويان. هذا هو الشعور بدقة. تنحنحت غرايس قبل أن تتمكن من أن تضيف، «هذا ليس بالأمر السهل، لكنني واجهت أمواجاً قاسية من قبل. أكثر مما واجهه معظم الناس، لذلك أعرف أنّنا سنجد طريقاً في وسط كلّ ذلك». عليها أن تجد طريقاً. وستجد طريقاً. كانت دائماً تجد طريقاً ولن تشعر باليأس الآن.

كانت تحوم وراء أفكارها سحابة براقة، ملونة بالرعب، ترفض أن تتفحصها بدقة. ماذا سأفعل عندما لن تعود ماما جي تعرفني؟ سأصبح عندئذ وحيدة. وحيدة تماماً.

بالطبع ستكون ديزي معها، لكنّهما إحداهما لا تزال جديدة على الأخرى بشكل مؤلم، وتحاول كلّ منهما أن تتقبل دور الوالدة والطفلة، وتبذل كلتاهما جهداً كبيراً لتوضيح ذلك. وحتى لو استطاعتا أن تشكّلا أسرة حقيقية، فإن ذلك لن يغيّر الحقيقة الجلية حول ماما جي التي أصبح وقتها معهما محدوداً.

اغرورقت عينا غرايس بالدموع، وأحكمت قبضتها وتمنت لو أن أمامها كيس ملاكمة يمكن أن توجّه إليه لكماتها. كيس حقيقي، كيس تستطيع أن تفرغ فيه شحنات غضبها. الزمن كلمة قصيرة جداً، ويصغر أكثر إذا اختزله إلى ساعات يمكن حسابها، ثم إلى دقائق متسارعة، وأخيراً إلى ثوان صغيرة للغاية. وفي النهاية، لا يعود هناك شيء. هذا ما يحدث لماما جي الآن التي بدأت تُقطّع إلى شرائح، ذاكرة تلو الأخرى، ما أحزن غرايس حتى أعماق روحها إلى درجة أنه كان بإمكانها أن تبصق مسامير من فمها.

وضعت ليندا يدها على كتف غرايس، وقالت مهدئة، «، أعرف أن الأمر صعب».

حاولت غرايس أن تبعد أفكارها السوداء من رأسها. وبقدر حبّها لليندا، فقد أحست غرايس بثقل وزن يدها على كتفها، وأحست أنها إذا بدأت تبكي، فقد لا تستطيع أن تتوقّف عن البكاء.

تحرّكت قليلاً، فأنزلت ليندا يدها إلى جانبها. استطاعت غرايس أن تحبس دموعها وألّا يتهدج صوتها وقالت: «إنه لطف كبير منك أن تقلقي، لكني سأتدبر الأمر».

بدا الألم في ابتسامة ليندا، لكنّها رفعت يديها وقالت: «حسناً إذن. كنت أتمنّى فقط أن يكون معك فريق يدعمك، هذا كلّ ما في الأمر»

قالت غرايس التي أرادت أن تغيّر الموضوع: «كيف كانت ماما جي اليوم؟»

«جيدة. أمضينا ساعة واحدة غير جيدة. عندما استيقظت من غفوتها انزعجت كثيراً لأننا لم نجد جهاز التحكم عن بعد للتلفزيون».

«وهل وجدته؟»

«نعم، كان مخبئاً في مغسلة الحمّام».

«إنها تضعه في الأماكن الأكثر غرابة».

«على الأغلب هي لا تتذكّر ما هي وظيفته ولا تريد أن تعترف بذلك، فتخفيه عن الأنظار. أعرف مرضى ينتابهم الذعر لأنهم يظنون أن الآخرين يحاولون أن يسرقوا أغراضهم أيضاً، لكن الحالة لا تبدو هكذا هنا». فتحت ليندا باب شاحنتها الصغيرة ووضعت حقيبتها على المقعد، وقالت: «إن ذاكرة ماما جي الآن أشبه بالمحيط، تأتي وتذهب، في مدّ وجزر، وفي كلّ مرة، فإن الشاطئ يتآكل أكثر قليلاً».

«أرى ذلك». كانت غرايس ترى ذلك مع أنّها كانت تأمل ألّا تراه.

«عندما تجدين أن جهاز التحكم عن بعد أو ملعقة أو فرشاة أسنان أو أي شيء موجود في غير مكانه الصحيح، فقد يكون ذلك دليل على أن الشخص بحاجة إلى مساعدة».

«سأنتبه إلى هذا الأمر».

«أعرف. إن ما تحتاج إليه الآن أكثر من أيّ شيء آخر هو أن تعرف أن صحتها ستتحسن وتصبح على ما يرام. إنها بحاجة إلى أن تسمع ذلك كلما تحدثت معها».

دسّت غرايس شعرها وراء أذنها، وقالت: «أحاول أن أفعل ذلك، لكنّي سأبذل جهداً أكبر».

«إنك تقومين بعمل عظيم. أرجو ألّا أكون قد أزعجتك بقول ذلك. فأنا لا أريد أن تحرقي نفسك. أنا - أوه. كدت أنسى. هناك أخبار جيدة».

«الحمد لله. يمكنني أن أسمع أخباراً جيدة الآن».

«لقد تركت سارة دوف كتاباً لك». نطقت ليندا هذه الكلمات بنبرة تقدير كبير كما لو أن أحداً يزّف إليك خبراً بأنك ربحت ورقة يانصيب، «لقد تركته في المطبخ».

منعت غرايس نفسها من القول «هذا ليس مهم»، وإنما قالت «هذا لطف كبير منها، لكن صدقاً، أظن أنني قرأت كلّ الكتب المتوفرة عن مرض الزهايمر. فعندما شُخّصت ماما جي بهذا المرض، اشتريت كلّ الكتب التي تتحدث عنه».

«إنه ليس عن مرض الزهايمر، إنه رواية». ابتسمت ليندا كما لو أنّ ما قالته جعل الأمر معقولاً أكثر. «عندما كنت في المدرسة المتوسّطة، استعرت نفس الكتاب من المكتبة. أعرف أنه نفس الكتاب لأنني كنت أشرب شوكولاتة ساخنة آنذاك وانسكب قليل منها على الكتاب دون قصد، وحاولت كثيراً أن أزيل البقعة لكني لم أستطع. ظننت أن السّيدة فارمر، أمينة المكتبة آنذاك ستقتلني عندما تراها، لكنّها لم تفعل شيئاً سوى أنها هزّت رأسها وأعادت الكتاب إلى مكانه».

عظيم. كتاب مبقع بالشوكولاتة لا يزال في المكتبة. يا له من شيء رائع. أتساءل لماذا أرسلت لي سارة هذا الكتاب، مع أنه لا يوجد عندي بطاقة مكتبة»

«لا تهتم سارة بذلك أبداً. فإذا كان هناك كتاب تظن أنك بحاجة إليه، فإنها ترسله إليك».

«حقا؟ كم كتاباً تفقد في السنة عندما تفعل ذلك؟»

«ولا كتاب. صدقيني، إنها تعرف أين توجد كتبها. والأكثر من ذلك، فإن الكتب تعرف أين هي». خفضت ليندا حاجبيها المدبّبين، وضيّقت عينيها، وقالت: «أظن أنك سمعت عن سارة وعن كتبها، أليس كذلك؟»

«إنها أمينة مكتبة البلدة. ماذا يجب أن أعرف أكثر؟»

ارتسمت علامات الدهشة على وجه ليندا، وقالت: «يا إلهي. مضى على إقامتك هنا حوالي ثلاثة أسابيع ولم يخبرك أحد عن عائلة دوف؟ ألم تخبرك السّيدة فيلبس عنها؟ ألم يخبرك رئيس البلدية؟ لا أحد؟»

« رئيس البلدية لا يخبرني بشيء إلّا أنه ذاهب لصيد السمك. قالت لي السّيدة فيلبس قبل أن تغادر إن واحدة من بنات عائلة دوف - أظن أن اسمها أفا - ستغضب كثيراً إن لم أحافظ على نظافة باحة البيت. هذا كلّ ما قالته». لا فقد قالت شيئاً آخر، شيئاً غريباً وغامضاً، لكن غرايس كانت تركّز آنذاك على أمور أخرى، كأن تحاول الحفاظ على سلامة عقلها.

فقالت ليندا: «عملياً أنت وسارة جارتان، بالإضافة إلى أنكما عضوتان في النادي الاجتماعي، وهذا يعني أنك ترينها طوال الوقت أيضاً، ومع ذلك لم يخبرك أحد عنها؟»

بدا لغرايس أن هذه هي الثرثرة الحمقاء التي تدور في دوف بوند. لكن يبدو أنهم نسوا أن يحكوا لها أيضاً بأن غرايس تركت النادي الاجتماعي، وأنها تريد ذلك. «كنت مشغولة جداً في العمل، فلم تتح لي الفرصة لأن أتحدّث إلى أناس كثيرين بمن فيهم سارة؟»

«حتى لو كنت تعملين مائة ساعة في الأسبوع - كان يجب أن تكلّميها. لو كنتُ مكانك، لظللت أكلّمها حتى تطلب مني أن أتوقف عن ذلك». صمتت ليندا كما لو كانت تستجمع أفكارها، ثم قالت: «يجب أن تعرفي أن عائلة دوف عائلة خاصّة».

«خاصّة»، كرّرت غرايس هذه الكلمة وهي تتساءل إلى أين سيقود هذا الحديث.

«نعم. فهم الذين أسّسوا هذه البلدة، والأهم من ذلك فهم الذين أبقوها تستمر حتى الآن. وهم... حسناً، إنها عائلة خاصّة. كلّ فرد فيها متميّز بطريقته الخاصة أيضاً».

«أليس معظم الناس متميزون، كلّ واحد بطريقته؟»

هزّت ليندا رأسها وقالت: «ليس بهذه الطريقة. إنهم يتميزون بخاصّية لا تستطيعين أن ترينها عادة. خذي سارة مثلاً». مالت نحوها ليندا وقالت بنبرة تشي باحترام كبير، «إن سارة دوف فاتنة الكتب».

«فاتنة.... الكتب؟»

«نعم، فهي تعرف الكتاب الذي يجب أن يقرأه كلّ شخص».

أليست هذه مهمة أمين المكتبة؟ حاولت غرايس أن تبقي تعابير وجهها محايدة عندما دمدمت بتهذيب، «هذا شيء مثير للاهتمام؟»

لوت ليندا وجها، وقالت: «لم تفهمي قصدي. انظري، افعلي لنفسك معروفاً، إذا أعطتك سارة دوف كتاباً، فخذيه. لأنك ستندمين إذا لم تأخذيه. في إحدى المرات حاولت أن تعطيني كتاباً عن ركوب الخيل، وكنت سأرفضه لأنني لم أركب حصاناً في حياتي ولا أريد أن أفعل ذلك أيضاً. لكن بعد شهر هبّت عاصفة ثلجية قوية وكست الثلوج كلّ الطرق وتعطلّت معظم أبراج الهواتف الخلوية والخطوط الكهربائية، وكان عليّ أن أذهب إلى العمل في ذلك اليوم لأنني كنت أشرف على السّيد بروكتون الذي لم يكن في صحة جيدة. لكن عندما خرجت من المدينة انزلقت السيارة وانحرفت عن الطريق وعلقت في حفرة بجانب مزرعة يوركس للألبان. بالمناسبة هل قابلت السيد يورك؟»

«لا أظن ذلك».

«لا بد أن ستلتقين به ذات يوم. لأن لديه مخالفات سير تحت تأثير الكحول أكثر من أعياد الميلاد، وعليه أن يسدد تلك المخالفات في مكتبك».

«يبدو أنه شخصية مميّزة».

«نعم. وبما أنه لا يستطيع أن يقود سيارته فهو يمتطي دائماً حصانه الذي يدعى ساندي فايس. عندما علقت سيارتي بجانب مزرعته، جاء على حصانه وكان معه حصان آخر اسمه ماي بيل الغاضب، وطلب مني أن أمتطيه حتى محطة البنزين لنجلب شاحنة لتجرّ سيارتي؟»

«وهل امتطيتِ الحصان؟»

«نعم، لأنني كنت قد قرأت الكتاب الذي أعطتني إياه سارة. كان مفيداً جيداً أيضاً لأن الحصان كان مزعجاً وكاد أن يلقي بي مرّتين، ثم اتجه نحو درب جانبي وكان كلّ ما بوسعي أن أفعله هو أن أستدير و...» في تلك اللحظة سُمع رنين هاتف، فأخرجت ليندا هاتفها من محفظتها وقالت: «يجب أن أذهب. هذا مارك. لقد عاد ميسي إلى البيت وأصبح العشاء جاهزاً».

«من الأفضل أن تسرعي كي لا يبرد الطعام». حاولت غرايس ألّا تبدو أنها تنفست الصعداء ولم تعد بحاجة لسماع تلك التفاهات عن سارة دوف، وأضافت، «أرجو أن يكون الشواء جيداً كما تتوقّعين، لا بل أفضل».

أعادت ليندا هاتفها إلى محفظتها وقالت: «أنا متأكّدة من أنه جيد. استمتعي بالحساء، ولا تنسي أن تقرئي ذلك الكتاب. إني لا أمزح»

«سأقرأه»، وعدتها غرايس، مع أنها لم تكن تنوي قراءته.

لوّحت لها ليندا بيدها وذهبت.

عادت غرايس إلى الشرفة وجمعت أغراضها، ونظرت عبر الشارع إلى البيت البنفسجي الضخم. يا إلهي، يبدو أن عائلة دوف عائلة غريبة، ويا لها من بلدة غريبة أيضاً تؤمن بسحرة الكتب وبكلّ هذا الهراء. ثم دخلت إلى البيت وهي تهزّ رأسها.

«جئتِ»، قالت ماما جي الجالسة في كرسيها المفضّل، منهمكة في حياكتها ويبدو أنها عادت إلى نفسها القديمة، فابتسمت غرايس.

«آسفة لأنني تأخرت». قالت غرايس ووضعت حقيبتها ومحفظتها على المنضدة الصغيرة بجانب الباب الأمامي، «كان يوماً محموما. مكالمات هاتفية من أشخاص يتذمرون بسبب إشعارات الضريبة، وأظن أن إدخال البيانات إلى الكمبيوتر سيستغرق سنوات».

فقالت لها ماما جي وهي تسحب خيوطاً من كرة الصوف التي في السلة، «هل لا تزال هناك شركة استثمارية لم تحدّث سجلاتها بعد؟ لو كنت مكانك لبحثت عن عمل آخر».

«إني لا أعمل من أجل....» عندما رأت غرايس نظرة ماما جي المترقبة ابتلعت باقي جملتها، وقالت: «أنت محقة. يجب أن أبحث عن عمل آخر، أترين ذلك؟»

«إنهم يجعلونك تعملين كثيراً»، سحبت ماما جي مزيداً من الخيوط وانهمكت في الحياكة.

جلست غرايس على حافة الكرسي الطويل الأخضر أمام ماما جي وراحت تراقب يدي المرأة العجوز، الإبر تنقر هامسة. كان الجلوس هنا مريحاً، أشعة الشمس تتسلل عبر النافذة ونقرات إبر ماما جي في تناغم مع لحن أغنية سبونغ بوب التي ينبعث صوتها من غرفة ديزي في الطابق العلوي.

نظرت غرايس إلى الدرج، وقالت: «هل جاءت ديزي؟ قالت ليندا إنها ذهبت لتصطاد جراد البحر».

«ديزي واقفة عند السياج تكلّم جارنا. تقول إنه ميكانيكي واسمه... «عبست ماما جي التي بدا أنها نسيت أنّها التقت بتراف باركر، وقالت: «لا أستطيع أن أتذكّر اسمه... هل كان توم؟ لا. إنه روبي. لا - أوه، إنه روبرت...» ابتسمت. «نعم. إنه روبرت، وروبرت ميكانيكي».

نهضت غرايس وتوجهت إلى النافذة. وكما هو متوقع، كانت ديزي تتدلّى من فوق السياج تراقب تراف الذي يصلح سيارة زرقاء. كان يبدو شاباً جموحاً بشعره الطويل وذراعيه المكسوتين بالعضلات والأوشام. عندما أنهى عمله وأغلق غطاء السيارة، أضأت الشمس جانب وجهه ولامست ندوبه. كانت سارة قد ذكرت لها أنه كان جندياً، وربما هذا هو سبب هذه الندوب.

«هل ترين ديزي؟» سألتها ماما جي.

«إنها واقفة عند السياج، كما قلتِ سأناديها لتدخل». فتحت غرايس النافذة وانحنت قليلاً ونادت، «ديزي، حبيبتي. يجب أن تدخلي الآن. حان وقت العشاء ولم تأكلي بعد».

«أنا مشغولة الآن»، قوّست ديزي كتفيها، وتفضّلت على غرايس بنظرة، «أنا هنا»، ثم عادت لتنظر من فوق السياج، ذراعاها تتشبثان بأعلى السياج كما لو كانت معلّقة عليه وليست واقفة.

من خلف غرايس، قالت ماما جي: «بدأت ترّد بوقاحة، أليس كذلك؟»

عادت غرايس إلى الداخل وسألت ماما جي، «هل كانت كذلك طوال اليوم؟»

« بعد الظهر فقط. كما تعرفين فهي تشعر بالملل. أرجو أن يصبح عندها أصدقاء».

وهذا ما تأمله غرايس. عادت ومالت من النافذة وقالت لديزي: «لقد تركت لنا ليندا حساء على الموقد. تعالي نتناوله وهو ساخن».

مسح ترافيس يديه في قطعة قماش، ولم يكلّف نفسه حتى أن يلقي نظرة واحدة على غرايس التي أزعجها ذلك. ثمة شيء غامض في هذا الرجل، قالت غرايس لنفسها، شيء قاس وعنيف. وأطلق ذلك كلّ أجراس الإنذار فيها.

التفتت غرايس القلقة إلى ديزي التي كانت تتجاهلها أكثر مما يمكن أن يفعل معظم المراهقين. لديها روح أمّها المتمردة. فبعد أن انتقلت غرايس وهانا إلى بيت ماما جي، استغرقت وقتاً طويلاً لتعليمهما «الأساسيات» كما كانت ماما جي تسميها، أشياء مثل عدم مقاطعة الآخرين وهم يتكلمون، والانتظار حتى يأتي دورك للدخول عبر الباب، وتناول الطعام وفمك مغلق، وقواعد اجتماعية قيّمة عديدة أخرى، آداب السلوك كما يحلو للبعض أن يسموها. ضرورة، كما كانت تقول ماما جي.

أدركت غرايس الآن الجهد الذي بذلته ماما جي كي تعلّمها هي وهانا كلّ هذه الأشياء. فابتسمت غرايس عندما قالت ماما جي إن ديزي إحدى أصعب مشاريعها، وعندما سألتها غرايس «هل هي أصعب منيّ؟» فكّرت ماما جي قليلاً ثم قالت بابتسامة، «تقريباً».

ضيّقت غرايس عينيها على ديزي وقالت لها: «لقد حان وقت العشاء. تعالي».

ظلت ديزي واقفة عند السياج. كانت مثل مُهرة، صعبة المراس، لكنها لطيفة، خرقاء، وجهها ملطخ دائماً. وقد دلقت اليوم عصيراً وردي اللون على بنطالها الجينز كما أنه مهترئ ووسخ من الخلف.

يجب أن أشتري لها بنطالاً جديداً. «ديزي؟» نادتها غرايس مرة أخرى، هذه المرة بصوت أحدّ.

قوّست ديزي كتفيها لكنها لم تعر غرايس أي اهتمام.

ألقى تراف على غرايس نظرة طويلة، باردة، كما لو كان يقيس ردّة فعلها. ابتلعت الرغبة في أن تقول شيئاً. فلا يوجد هناك شيء يمكن أن تكسبه إذا خاطبت جارها، وهي تعرف أنها إذا فقدت أعصابها فإن ذلك سيزيد ديزي عناداً.

عدّت غرايس بصمت حتى الرقم عشرة. إنها ليست أمًّا ومقدمة رعاية جيدة. كانت تشعر بأنها ترتدي سترة كبيرة جداً عليها، أكمامها تتدلى أسفل يديها ولا تستطيع أن تمسك بهما الأدوات اللازمة لتؤدي أي من هذين العملين بشكل صحيح.

ظنت غرايس أن مجيئهن إلى هذه البلدة الصغيرة قد يشكّل لهن بداية جديدة. لكن مع أنه طرأ تحسن طفيف على ماما جي، فإنه لم يطرأ أي تحسّن على ديزي التي ستبدأ قريباً الصفّ الثالث في

مدرسة سويت كريك الابتدائية، وهذا يعني أنه لا يزال أمام غرايس بضعة أشهر لتشجّع ديزي على تأدية واجباتها المدرسية وامتحاناتها بدلاً من النار التي تنفثها مثل التنين.

نظرت ديزي من وراء كتفها لترى إن كانت غرايس لا تزال تنتظرها. لم تكن تعابير الفتاة الصغيرة دافئة. في الظروف الطبيعية، فإن تربية الطفل عمل جبار، لكن الصعوبة تزداد كثيراً عندما تكون عندك طفلة وقحة، سليطة، متمردة، في الثامنة من عمرها، مليئة بالغضب من الحياة، طفلة تؤمن بالأشباح وبقصص الجن وبأشياء أخرى عن السحر تجعل الحياة الحقيقية مكاناً مثيراً للضجر، مزعجاً.

بسطت غرايس يديها على حافة النافذة ونادت، «ديزي». كان هذا كلّ ما قالته، وأملت أنها قالت ذلك بنفس النبرة الصارمة التي كانت ماما جي تخاطبها بها. عرفت غرايس الآن ماذا تعني «نبرة الأمّ»، التي تكمن القوة في ثباتها.

أو هكذا كانت غرايس تأمل.

لم تتغير تعابير ديزي ولو قليلاً.

اللعنة. حبست غرايس أنفاسها، رافضة أن تتراجع. لوهلة ظنت أنه قد ينشأ بينهما جدال، لكن المواجهة الصامتة انتهت عندما حمل تراف الدلو الذي يضع فيه أدواته ودخل إلى بيته. وصفق باب الكراج وراءه بقوة.

متجهّمة، لكن بدون أيّ سبب لأن تبقى حيث هي، تمتمت ديزي شيئاً، وابتعدت عن السياج، وسارت إلى جانب البيت نحو الباب الخلفي، وتنورتها القصيرة الرثّة تتقافز متمرّدة.

أف. أغلقت غرايس النافذة وأسدلت الستارة. فُتح باب المطبخ ثم صُفق. بعد لحظة ثقيلة، صاحت ديزي، «لقد كذبتِ عليّ. فالعشاء ليس جاهزاً».

رفعت ماما جي عينيها عن حياكتها، وقالت: «يبدو أنها مجنونة».

«قد تكون مجنونة. أرجو أن تترك جارنا وشأنه».

«لماذا؟» قالت ماما جي وواصلت حياكتها، «ديزي تراقبه. كلتانا تفعل ذلك».

كانت غرايس في طريقها إلى المطبخ، لكنها فوجئت عندما سمعت ذلك وتوقّفت عند المدخل، وسألت: «لماذا؟»

بدت ماما جي متفاجئة، «لأننا يجب أن نفعل ذلك».

لم تعرف غرايس ماذا تقول، ثم سألتها، «وهل تكلّمينه أنتِ أيضاً؟»

«لم أكلّمه مؤخراً»، قالت ماما جي وزال الهدوء من وجهها وتباطأت حركة إبرتها حتى توقّفت، «أو لعلي كلّمته منذ...» تجهم وجهها وازدادت الخطوط بين حاجبيها عمقاً.

تذكّرت غرايس ما قالته الطبيبة وليندا لها. لا تسألي أسئلة. لا تجادلي. فهذا يزعجها كثيراً. ظلي إيجابية معها. أدخلي الطمـأنينة إلى نفسها. إن ما تقصدانه هو أن اكذبي، اكذبي طوال الوقت وكلّ يوم، لأن ماما جي لم تعد تميّز الحقيقة.

احترقت عينا غرايس. الحقيقة شيء مضحك. في ظاهرها، تبدو جيدة، مقياس لشخصية الشخص. لكن الحقيقة تشكّل أحياناً عبئاً لإنقاذ شخص آخر، عبء تحمله عنهم ليتمكنوا من مواصلة حياتهم، بعيداً عن ألم الحقيقة.

تذكّرت فجأة كلّ الأكاذيب التي كانت هانا تكذبها عليهما طوال تلك السنوات. عشرات الأكاذيب، لا بل مئات الأكاذيب. هل كان ينتاب هانا نفس الشعور؟ هل كانت تكذب عليهما لتجعل غرايس وماما جي تبتسمان، وتشعران بالراحة، ولا تقلقان عليها؟ نعم كانت تلك الأكاذيب تمنحهما لحظات من السلام مع أن ثقتهما بها كانت قد تلاشت. يصعب على المرء أن يحبّ أحداً لا يثق به. هذا مستحيل، لذلك فإن الكذب على ماما جي، حتى في ظروف صعبة كهذه، جعلها تشعر بأنها تخونها خيانة كبيرة، خيانة تمزق نياط قلبها.

هزّت ماما جي رأسها وعادت إلى حياكتها، وسألتها، «ها تعدّين العشاء؟ يجب أن نأكل بعد قليل».

كانت ليندا قد قالت لها إنّ ماما جي تناولت طعامها، لكن لن يضرّها شيء إذا تناولت الطعام مرة أخرى. فقد بدأ جسمها يزداد نحافة. ابتسمت غرايس وقالت: «سأجلب لك صحن حساء».

«أحبّ الحساء. ولا تقلقي على ديزي، فهي فتاة جيدة، وروبرت باركر ذاك رجل طيب أيضاً. إنه شاب لطيف، عندما تتعرفين عليه».

لم تكن غرايس تعرف من هو «روبرت»، لكن تراف باركر لم يكن يبدو شخصاً «لطيفاً»

سحبت ماما جي خيطاً من الصوف وقالت: «شعر قطّة. إنها شعرة ثيو. كان شعره كثيفاً، ومن الغريب أن شيئاً منه بقي حتى الآن. كان كيساً من الشعر، ذلك القطّ».

ابتلعت غرايس تنهيدة. فقد مات القطّ منذ سنوات. كانت في الرابعة عشرة من عمرها آنذاك وظلت تبكي طوال أسبوع. لا تصحّحي لها ما قالته، ذكّرت غرايس نفسها، اقبلي ما تقوله فقط. لماذا يصعب عليّ أن أفعل ذلك؟ «سأجلب لك بعض الحساء».

«لا تحضريها إلى هنا»، قالت ماما جي ولم ترفع عينيها عن حياكتها وظلت تسحب شعر القطّ المتخيّل من بكرة الصوف، «سأنضم إليكما عندما أنتهي».

ذهبت غرايس إلى المطبخ وقلبها مليء بالألم. كانت رائحة الحساء الذي صنعته ليندا تملأ المطبخ وشكت غرايس بأن يكون مارك الطاهي الجيد الوحيد في أسرة روبنسون. «مممممم، أليست رائحته لذيذة؟»

وقفت ديزي متكئة إلى باب الشرفة، عاقدة ذراعيها على صدرها الصغير، وقالت: «قلت للسيدة ليندا إنّني لا أحبّ الحساء».

هذا كثير، قالت غرايس لنفسها، مجفلة. إنها تبحث عن مشكلة. «أتعرفين؟ إذا لم ترغبي في تناول الحساء، يمكنك أن تتناولي سندويشة زبدة الفستق مع المربى، لكن يجب أن تصنعيها بنفسك. وعليك أن تغسلي يديك أولاً». توجهت غرايس إلى القِدر على الموقد ورفعت الغطاء. كان صوت البقبقة مريحاً.

لم تتحرك ديزي من مكانها، عيناها الزرقاوان مثبتان على غرايس، لكن ذقنها لم تعد تميل نحو تلك الزاوية المضحكة. وبعد لحظة طويلة، سألتها، «لماذا لا تريدين أن أتكلّم مع السّيد تراف؟»

إنه السّيد تراف إذاً. على الأقل فهي تبدي تهذيباً عندما تقول ذلك. «لا أقول إنّني لا أريد أن تكلّميه، لكننا لا نعرفه جيداً بعد، ولا أريد أن تعرضي نفسك لأي خطر».

«إننا نعرفه. فهو جارنا، وعنده دراجة نارية وقطّ اسمه كيلر». عدّدت ديزي هذه الأشياء كما لو أنها كلّ الأشياء التي على المرء أن يعرفها عن ترافيس باركر، ثم أضافت، «وكيلر قطّ سمين».

«هل كيلر قطّ؟ ظننت أنه كلب».

«كنت أتمنّى أن يكون تنيناً»، قالت ديزي، «إنه ليس قطًّا سيئاً. إنه غريب الأطوار قليلاً ويأكل كثيراً، لكن هذا كلّ شيء».

هل إذا كان لدى رجل قطًّا يعني شيئاً؟ هل هذا يثبت أنّه شخص جيد، أم العكس؟ هل كان لدى ابن سام قطّ؟ هل كان لدى تيد بندي قط؟ لا أتذكّر.

أخرجت غرايس من الخزانة طبقين ووضعتهما بجانب الموقد. «عن أي شيء تتحدثين مع السّيد تراف؟»

«لا شيء». تركت ديزي الباب وفتحت خزانة بجانب الثلاجة. وقفت على أطراف أصابع قدميها وأخرجت كوباً وصبّت فيه قليلاً من الحليب، «قال لي إنه يحبّ الأشخاص الهادئين فقط، لذلك فإننا لا نتكلّم».

«إذاً. تراقبينه فقط وهو يعمل؟»

هزّت ديزي رأسها، وقالت: «قال لي إذا راقبته ولم أتكلّم فقد أتعلّم شيئاً. فإذا تعطلت سيارتك، أستطيع أن أصلحها لك».

لان قلب غرايس. هذا شيء لطيف من ديزي. ابتسمت ومدّت يدها وراحت تداعب شعر ديزي، وقالت: «أحب أن تفعلي ذلك».

خفّت حدة غضب ديزي، وبدت مسرورة بعض الشيء وهي تشرب الحليب. «عندما أكبر سأصبح ميكانيكية. أصبح السّيد تراف صديقي وقد يسمح لي أن أعمل في ورشته».

شعرت غرايس أن هذا كثير، فمع أنّها كانت سعيدة لتشارك ديزي لحظة إيجابية، لم تعجبها فكرة أن تصادق ابنة أختها الصغيرة رجلاً بالغاً. «حسناً... لا أدعوه صديقاً تماماً».

في جزء من الثانية، عادت تعابير ديزي إلى تعابير الغضب العنيد فخبطت كوبها بقوة على الطاولة وانتثر الحليب، وقالت: «على الأقل عندي صديق».

آخ. لقد فوجئت بردة الفعل السريعة لطفلة في الثامنة من عمرها. بدت كلمات ديزي صحيحة ومزعجة أكثر لأن ليندا روبنسون ألمحت، قبل عشر دقائق فقط، إلى نفس الشيء. يا إلهي، قال أحدهم اليوم «يجب أن تتخذ غرايس مزيداً من الأصدقاء؟» هذا شيء مزعج. «أنت محقّة. لا يوجد عندي أصدقاء لأنني مشغولة بالعمل كثيراً.

«يجب أن تكلّمي السّيد تراف أيضاً»، قالت ديزي، «قد يصبح صديقاً لك. فهو جارنا ولا يتعين عليك أن تذهبي بسيارتك لزيارته».

«إنها فكرة جيدة. سأدرس الأمر. اذهبي الآن واغسلي يديك وأعدّي سندويتشك. الحساء جاهز، وماما جي ستنضم إلينا الآن».

سارت ديزي نحو الباب، لكنها توقّفت فجأة، وقالت: «لقد أكلت».

«أظن أنها تريد أن تشاركنا الطعام».

نظرة ديزي لم تغادر وجه غرايس، وقالت: «إنها لا تتذكّر، أليس كذلك؟» فهزّت غرايس رأسها.

قطبّت ديزي جبينها وقالت: «متى ستبدأ تتذكّر ثانية؟»

فوجئت غرايس بسماع هذه الكلمات. أبداً، أجابت في عقلها، غير راغبة في أن تنطق الكلمة بصوت مسموع.

التقت نظرتها بنظرة ديزي الشفافة المتفائلة. الحقيقة ستحطم روح ديزي المكلومة أصلاً، ولا تستطيع غرايس أن تقولها.

فقالت: «نأمل أن يحدث الأفضل. هذا كلّ ما نستطيع أن نفعله. الآن، اذهبي واغسلي يديك. سأجلب لك زبدة الفستق والمربى».

بعد لحظة، قبلت ديزي ذلك وخرجت.

عندما أحست بالارتياح، أبعدت غرايس الأفكار المحزنة عن تفكيرها ووضعت ملعقة في الحساء، وصبّت الحساء في طبقين، وتصاعدت سحب البخار منهما.

عندما وضعت الطبقين على المائدة وفتحت الدرج لتُخرج ملعقتين وسكيناً لقطع الزبدة وقعت عيناها على الكتاب الذي تركته ليندا على الطاولة. كان بجانب الحائط، تكاد سلة الخبز تخفيه عن الأنظار.

قالت ليندا إن الكتاب الذي أرسلته سارة رواية لكنها لم تقل لها إنها رواية كلاسيكية أيضاً. غرايس تعرف هذا الكتاب. فقد رأته أول مرة على الطاولة في شرفة بيت ماما جي منذ تلك

السنوات.

كان كتاباً قديماً، اصفرّ لونه، يكاد يكون بلون الخردل، وفي الزاوية السفلى تحت العنوان توجد بقعة الشوكولاتة الحارة التي سكبتها عليها ليندا. تتبّعت غرايس العنوان بإصبعها: نساء صغيرات.

عندما فتحت الكتاب على إحدى الصفحات لا على التعيين، هبّت عليها رائحة الكتاب القديم المألوفة لها. فبعد أن انتقلت إلى بيت ماما جي، استغرقت غرايس سنتين لتتمكن من قراءة هذا الكتاب، وعندما قرأته أحبتّه كثيراً وأعادت قراءته مرات عدة، كما لو أنها لم تكن تشبع منه. كانت ميج وبيث وأيمي وجو - خصوصاً جو - أصدقاء غرايس أكثر من أي فتاة حقيقية في مدرستها.

تصفّحت غرايس الكتاب، وابتسمت عندما بدأت أسماء شخصيات الرواية تتدفق أمامها. كيف عرفت سارة دوف؟ بالطبع لا يمكنها أن تعرف. إنها مجرد صدفة. خبطة عشواء. ومن لم يقرأ هذا الكتاب؟ إنه عمل كلاسيكي.

لكن عبارة ليندا «إذا قدّمت لك سارة دوف كتاباً، فخذيه. ستندمين إذا لم تأخذينه» ظلت تتردد في رأسها.

تصرّفت ليندا كما لو أن قراءة الكتاب ستساعدها بطريقة ما، وهذا محض هراء. فهو مجرد كتاب. وعلى الرغم من أنه كتاب رائع بالنسبة لطفلة وحيدة كئيبة، فليس من الممكن أن يساعدها الآن. أغلقت الكتاب، وبعد لحظة من التفكير، وضعته في سلة الخبز.

فُتح باب المطبخ بقوة وعادت وديزي بعد أن غسلت يديها. وراحت تعدّ سندويتشها بينما خرجت غرايس لتحضر ماما جي لتتناول عشاءها الثاني هذه الليلة. ولم تمض ساعة، حتى نسيت الكتاب.

الفصل (٧)

تراف

أسوأ الليالي هي الليالي التي تصبح فيها ذكرياته دموية وعنيفة: تعصف في السواد، تُلقي بعه بعيداً عن الهدوء الذي هو في أمس الحاجة إليه وتقذفه، مبللاً بالعرق ومجمَّدا من الخوف، إلى وحدة الليل وبرودته. فمنذ أن عاد من أفغانستان، بدأت هذه الأحلام تحدّد شكل حياته، تذكّره بما يريد أن ينساه، تُرغمه على أن يعود ليعيش في تلك اللحظات التي يمقتها حتى يتذكر الحقيقة البسيطة بأنه كان عنيداً جداً عندما قرر أن يذهب إلى الحرب.

فرك وجهه، محاولاً أن يزيل تلك الذكريات عن رأسه. يا إلهي، كم يتوق إلى النوم، ذلك النوم العميق الذي يشبه الموت من دون أن يرى أحلاماً، ذلك النوم الذي يجعل المرء يشعر بالانتعاش والنشاط عندما يستيقظ، لا منهكاً. كان يتوق إلى النوم كما يتوق مدمن إلى الشفاء في مصحة. كان يهمس له، يشير إليه، ليصفعه بقوة عندما يقترب منه.

بدأ ترافيس يلعن ويشتم تحت أنفاسه، ثم ركل مبعداً لحافه، فلامس هواء الليل البارد جلده العاري المبلل بالعرق. لقد تغيّرت حياته منذ ٥٣١ يوماً - ٥٣١ يوماً لم ينم خلالها أكثر من ساعتين أو ربما ثلاث ساعات متواصلة في كلّ ليلة.

عندما دقّت الساعة في غرفة الجلوس معلنة الساعة الرابعة صباحاً، استوى جالساً، وشعر بالارتياح عندما سمع الصوت. كان قد استيقظ منذ أكثر من ساعتين، وراح يحدّق بالسقف يحصي عدد الخراف، وعندما لم يجدِ ذلك نفعاً، بدأ يخطّط ما الذي سيفعله في يومه - سيفعل أيّ شيء ما عدا التفكير بأحلامه. وعندما جافاه النوم، حاول أن يبقى في السرير حتى الساعة الرابعة على الأقل، لأن ذلك يمنحه الإحساس بأن لديه مخطط، حتّى لو لم يكن النوم جزءاً منه.

غادر السرير وغسل وجهه بالماء البارد، وارتدى شورتاً، ودسّ قدميه في حذائه الرياضي، وخرج إلى الكراج من باب المطبخ.

عندما أشعل الضوء، أصدر الضوء همهمة عالية كما لو أنه فوجئ بظهوره. تجاهله وواصل طريقه. عندما رفع باب الكراج إلى الظلام هبّت عليه نسمة باردة امتزجت برائحة الغازولين التي تملأ الكراج. بعد أن نظفت ماما جي وديزي كراج بيته، أمضى تراف وقتاً في تنظيم وترتيب الطاولات وتنظيف الصناديق التي تركها أبوه مكدّسة بجانب الجدار. وكانت الأرضية الأسمنتية لا تزال مبقعة بنقط الزيت، لكن المكان أصبح أنظف وأكثر ترتيباً بكثير مما كان في السابق.

تناول تراف منشفة يد من على الرفّ فوق الغسّالة وألقى بها على ذراع جهاز رياضة المشي.

كان الدكتور دون الذي يعالجه قد قال له إن الرياضة ستساعدك على النوم.

«كيف؟» سأله، غير مصدق.

«إذا كان جسدك متعب، فإنك ستنام مدة أطول وأعمق. وستفرز الإنزيمات اللازمة لتمكين جسمك من...»، ثم ابتسم وقال له: «لا تسألني. فقط جرّب ذلك. لن تخسر شيئاً».

جرّب لكنه لم يجد فائدة كبيرة. ومع أن نوعية نومه تحسنت قليلاً، فإن أحلامه ظلت تراوده. وجعلته رياضة رفع الأثقال يتباهى على أصدقائه عندما يلتقي بهم. ففي الليلة الماضية عيّر رفيقه بليك لأنه لم يستطع أن يرفع وزناً بوزن جسمه وهو مستلق. ثمة فوائد لعدم النوم، ومع أنها قليلة، فقد تكون مفيدة.

جرى على جهاز رياضة المشي ميلين بسرعة، التحمية المعتادة قبل أن يبدأ برفع الأثقال.

جاء القطّ وأقعى عند باب المطبخ وراح يراقب تراف. تراوحت تعابير وجه القط بين الإحساس بالضجر الشديد والاشمئزاز التام. ولسبب ما، أدرك القطّ الذي كان يظن أن الله منحه كلّ الحقّ في أن يجري ف أرجاء البيت كلّ ليلة بين الساعة الثانية والثالثة صباحاً، يوقع أشياء من فوق الطاولات ويحدث كلّ أنواع الضجيج، أن الساعة الرابعة صباحاً ليست وقتاً مقبولاً لممارسة الرياضة.

هزّ القطّ ذيله معلناً عن احتجاجه قبل أن يعود إلى سريره في الزاوية ويقعي ويحدّق في تراف بازدراء.

تجاهل تراف القط وأنهى تمارينه. ثم جفف العرق من وجهه بالمنشفة وعاد إلى مقعد الرياضة. عندما مرّ بجانب القطّ قال له: «لماذا لا تُجري جولتك في أنحاء البيت مثل ضبع مجنون في منتصف الليل وأنا أمارس رياضتي بدلاً من أن تنتظر قبل أن أنهض بساعة؟».

نهض القطّ ودار حول نفسه، ثم عاد ورقد في سريره، هذه المرة مولياً وجهه إلى الحائط، وظهره نحو تراف.

«شكراً»، قال تراف وأضاف أوزاناً أخرى وبدأ المجموعة الأولى من تمارينه.

لم يكن القطّ الوحيد الذي لم يكن يحبّ موعد ممارسة تراف للرياضة. فلم يكن أبوه يحبّ موعد رياضته أيضاً. ومع أنه لم يقل شيئاً عن ذلك، فقد كان تراف يرى القلق في عينيْ والده الذي لم يكن يستطيع أن يخفي مشاعره جيداً، وكان ذلك نعمة ونقمة في آن معاً عندما بدأ سقوطه الطويل، البطيء إلى مرض النسيان.

صرّ تراف أسنانه عندما بدأ يحمل أوزاناً أثقل، وقد بلل العرق جسمه، وبدأت عضلاته تؤلمه احتجاجاً على ما يفعله، لكنّه استمر، مركّزا على هنا، على الآن، على هذه اللحظة. دقيقة بدقيقة.

على الرغم من أن ذراعيه بدأتا ترتجفان، استمر في رفع مزيد من الأثقال، حتى أحسّ بالإرهاق ولم يعد باستطاعته مواصلة ذلك، فتوقف وترك عضلاته المرتجفة تستريح.

كانت الرياضة مفيدة له. فقد كانت تجعل عقله واضحاً وتذكّره بأن هناك أشياء لا يزال بإمكانه أن يفعلها وبشكل جيّد. جفّف العرق من وجهه ورقبته بمنشفة، ولامس قماش المنشفة القاسي حافات ندوبه الممتدة فوق رقبته ووراء ذراعه وكتفه. كانت تلك الندوب مؤلمة عندما كانت الأعصاب تحاول أن تعيد وصل تلك الندوب ببعضها كي تلتحم. في بعض الأيام كان يقرّب أسنانه من مكان الحرق عندما تنطلق النهايات العصبية المؤلمة مثل انفجارات قوية من اللهب تحت جلده. لكن بقدر ما كانت مؤلمة، فلم يعد ألمها كما في السابق. فقد كان يتألم كثيراً عندما يتقشّر الجلد القديم ويموت ويترك مكانه مستنقعاً متفحماً من الأعصاب الشديدة الحساسية المكشوفة بينما يزحف الجلد الجديد ببطء ليحلّ محله. أما الآن فقد أصبح الألم محتملاً، مع أنّه لم يكن كذلك في الحقيقة، لكن تراف بدأ يتقبّل ذلك. ففي السنوات القليلة الماضية، بدأ يتعلّم أن يتقبّل أشياء عديدة، خصوصاً بعد أن شُخِّص أبوه بهذا المرض.

كانت الشهور الأولى تلك صعبة جداً. وبالطبع، فقد قدّمت له سارة مساعدة كبيرة. ففي الليلة التي أعقبت اكتشاف مرض أبيه، ظهرت سارة عند باب بيت تراف وبيدها طبق حساء ساخن وشاي أعدّته أختها أفا من أجل أبيه، وكتاب عن مرض الزهايمر. كان الكثيرون في دوف بوند يعتقدون أنّ سارة وأخواتها يتمتعن بمقدرات خاصّة، لكن هذا هراء، وإنما كانت توجد لدى أخوات عائلة دوف قلوب أكبر من رؤوسهن، فقد كنّ يبدين اهتماماً بالآخرين، ربما، أكثر مما ينبغي، ومن هنا كان حدسهن أقوى من حدس الآخرين. هذا هو كلّ ما في الأمر.

ومع أنه لم يكن مهماً كيف عرفت سارة أنه بحاجة إلى هذا الكتاب، فقد أمضى معظم ساعات تلك الليلة في قراءته، ودوّن أثناء ذلك قائمة بالأشياء التي يجب أن يفعلها. وفي الصباح، نهض تراف شاعراً بأنه شفي بعض الشيء. ففي صباح في اليوم التالي، أصبح والداً لأبيه. وطلب من سيدة من الكنيسة، اسمها بيفيرلي تيرنبول، سيدة مرحة، بدينة تعرف والده منذ سنوات طويلة، أن تأتي مرة في الأسبوع لترتب البيت. وبما أن والده كان يعرفها، لم يأبه لوجودها في البيت، وعندما بدأ والده يشعر بالملل، بدأ تراف يأخذه معه إلى الورشة ليمضي اليوم فيها. كان والده يريد تراف أن يتولى إدارة الورشة، فكان سعيداً بذلك.

خلال الأسبوع الأول، بينما كان والده يجلس في المكتب ينقل الأوراق من كومة إلى أخرى، وضع تراف وآرني خطة لكي تقف الورشة على قدميها ثانية. وحتى ذلك اليوم، لم يكن تراف يفكّر بأن يستلم إدارة الورشة، لأنه كان يعتبر أن هذا عمل والده، لا عمله هو. لكن يجب أن يقوم أحد بالعمل، وكان تراف الشخص الوحيد الذي يمكنه القيام بهذه المهمة. ولدهشته، وجد تلك المتعة العميقة في إصلاح السيارات التي كان يجدها في صيانة وإصلاح المشاكل المعقّدة المتعلقة بشبكات الكهرباء والماء في أفغانستان، خصوصاً عندما شاع في البلدة الخبر بأن الورشة عادت إلى سابق عهدها عاد الزبائن القدامى لإصلاح سياراتهم وصيانتها.

مع مرور الوقت، لم يعد والده قادراً على العمل، فحلّ تراف محله في نهاية الأمر. كان ذلك أسهل وأصعب شيء يفعله في حياته. سهل لأنه كان يعرف بأن هناك ضرورة له، وصعب لأن تدهور صحة أبيه جعل هذه الضرورة مؤلمة.

أعاد تراف قضيب رفع الأثقال الثقيل إلى حامله، وبدأ هواء الصباح الخفيف يجفّف العرق الذي غطى رقبته وكتفيه. كان لا يزال يتوق إلى رؤية أبيه، كان يخيّل إليه أحياناً أنه إذا نظر إلى الوراء فإنه سيرى والده واقفاً هنا بقميصه القطني، حاملاً بيده صنارة صيد السمك.

نظر تراف إلى صنارات صيد السمك المصطفة في إحدى الزوايا، ثم انتقلت نظرته إلى المكنسة التي بجانبها، والتي ذكّرته باليوم الذي وجد فيه ديزي والسّيدة جيانو تنظّفان الكراج، فابتسم. كان قد بدأ يتعرّف على ديزي التي تمضي وقتاً طويلاً في مراقبته من وراء السياج الذي يفصل بين بيتيهما. لن يقول إنه أحبّها، لأنها طفلة، ولا يوجد مكان للأطفال في حياته، لا الآن ولا في المستقبل. لكن يجب أن يعترف بأنها فتاة ذكية، ورأى أن نظرتها إلى العالم مختلفة.

عاد تراف إلى مقعد الرياضة عندما سمع القطّ يموء بصوت عال ونهض وراح يحدّق من النافذة.

اقترب تراف ليرى ما الذي لفت انتباه القطّ. لاح البيت المجاور في الظلام، وكان الضوء الوحيد ينبعث من النافذة فوق الشرفة. تساءل إن كانت السيدة التنين تنام في تلك الغرفة. كان هذا هو الاسم الذي أطلقه على غرايس التي رأى أنها كتلة سمراء من الشراسة. كان تراف قائد وحدة في الجيش، ومن خبرته يعرف حقيقة الشخص من طريقة مشيته. فمن طريقة مشي الآنسة غرايس ويلر وهي تمشي إلى سيارتها صباح كلّ يوم، بذقنها المرفوعة وكتفيها المدفوعين إلى الخلف، وهي تنقر على الأرض بكعبي حذائها العاليين جداً، عرف أنها لا تسير في الحياة، وإنما تندفع كالعاصفة.

إنها من ذلك النوع من النساء الذي يتفاداه الرجل الذي ينشد السلام والهدوء.

ماء القطّ بصوت أعلى وظل يحدّق بالنافذة المضاءة.

«أيها الأحمق»، قال تراف للقطّ، «لا يوجد شيء هناك».

فجأة قفز القطّ من سريره وخرج من باب الكراج المفتوح بسرعة.

لم ير تراف هذا الحيوان السمين البطيء يجري بهذه السرعة قط، ولا حتى مرة واحدة.

بدافع الفضول، تبع تراف القطّ الذي عبر الممر، ثم حشر نفسه تحت فتحة السياج واختفى في باحة البيت المجاور.

«ماذا يحدث بحقّ الجحيم؟» دمدم تراف لنفسه. كان على وشك أن ينادي القطّ عندما فُتحت نافذة الطابق العلوي.

ظهرت السّيدة جيانو عند النافذة ووضعت طاسة صغيرة على عتبة النافذة وراحت تنظر بترقب. كانت ترتدي ثوب نوم أزرق باهت جعلها تتألق، وكان الضوء المنبعث من غرفتها يضيء ذقنها وشعرها الأبيض الرقيق في شكل هالة. كانت تبدو مثل ملاك ضعيف، لكنه متألق.

ماء كيلر، وبقفزة خفيفة تتعارض مع وزنه الثقيل، قفز فوق شجيرة منخفضة، ومنها إلى غصن شجرة، ثم قفز إلى سطح الشرفة، ومشى بهدوء نحو النافذة المفتوحة ووقف عند حافة النافذة، وبدأ

يلعق الحليب كما لو أنه فعل ذلك ألف مرة من قبل.

راحت المرأة العجوز تربّت عليه وهو يشرب، تهمهم بصوت واطئ. اقترب تراف أكثر.

«إنك جائع، أليس كذلك، يا ثيو؟» قالت المرأة.

ثيو؟

«لقد سخنته من أجلك، فأنا أعرف أنك لا تحب حليبك بارداً».

لعق القطّ الحليب متجاهلاً الطعام الذي تركه له تراف في المطبخ. عندما انتهى القطّ من لعق الحليب، لعق كفيه ثم نظّف وجهه.

خائن

هل أنت مستعد للنوم؟» سألته المرأة. وأمام نظرات تراف المندهشة، رفعت القطّ السمين من حافة النافذة وحملته إلى داخل البيت، تاركة النافذة مفتوحة وراءها.

همّ تراف ليحذرّها، لأنه يعرف أكثر من أي شخص آخر بأن قطّ أبيه لا يحبّ أن يحمله أحد، لكنه لم يسمع أي صوت يصدر من داخل البيت. وبعد لحظة طويلة، انطفأ الضوء، وتُرك تراف في الظلام، يحدّق في النافذة.

اللعنة.

إذاً أصبح هناك بيت جديد للقطّ مع امرأة عجوز لا تعرف اسمه الحقيقي، والسيدة التنين التي تستطيع أن تشطر المرء إلى شطرين بنظرة واحدة منها، وفتاة صغيرة تظن أن تراف ممثل في أحد برامج الواقع في التلفزيون. حسناً. يمكنكن أن تأخذوه. أرجو أن تعرفن أنّه قطّ متقلّب المزاج، فظّ، وحادّ الطبع.

ترُكت النافذة مفتوحة قليلاً، ليتمكن القطّ من الخروج إذا أراد. أظن أنه بخير.

ساد الصمت في تلك الغرفة المظلمة، وشكّ تراف بأن كيلر الذي أصبح اسمه الآن «ثيو»، متكوراً الآن عند أسفل سرير المرأة العجوز وقد غفا، كما كان يغفو عند قدمي والده في السرير.

فرك تراف وجهه بيديه ليبعد عنه الذكريات. وأدرك فجأة برودة هواء الليل الذي هبّ على كتفيه العاريين، وعاد إلى الكراج. ما دام أنه موجود في مكان آمن، فما هي المشكلة؟ حتى أن القطّ ليس قطّ تراف في الأصل.

عندما عاد إلى الكراج، أدرك أن البيت أصبح فارغاً أكثر من المعتاد، كما لو أنه فقد شيئاً.

عاد إلى ممارسة تمارينه وهو عابس من أفكاره المتضاربة.

الفصل (٨)

سارة

«توقّفي عن التحدّيق»، قال تراف.

عدّلت سارة من وقفتها حيث تتّكئ على السياج الذي يفصل بين بيتها وبيت ترافيس. «لم أكن أحدّق. كنت أنظر».

«هراء. كنتِ تحدّقين في بيت السّيدة فيلبس القديم منذ ساعة».

«نصف ساعة»، قالت مصحّحة، ونظرت إليه وهو يمسح دراجته النارية بمنشفة قديمة. مع أن تراف يكبرها ببضعة أشهر، فقد كانت سارة تعتبره طوال تلك السنوات بمثابة أخيها الصغير. كانت بعض صديقاتها، خصوصاً العازبات منهن، يرين ذلك مضيعة للوقت، لأنه على الرغم من مظهره الفظ، فهو صيد ثمين، لأنه يملك ورشته الخاصة وبيته، وهو شاب هادئ على نحو يثير الفضول ويثير حوله لغزاً و «عيناه جميلتان» كما تقول زوي. أما بالنسبة إلى سارة، فإنها تعتبر تراف أعزّ صديق لها وهذا يكفيها. «لقد مرّ شهر تقريباً على انتقال أسرة ويلر إلى بيت السّيدة فيلبس القديم. أظن أننا نستطيع أن نسميه الآن رسمياً «بيت ويلر، أليس كذلك؟»

«طبعاً. مهما كان الأمر. إذا رأينك تحدقين كثيراً، فإنه سيخيّل إليهن بأنك فتاة غريبة الأطوار. يا إلهي، أظن أنك غريبة الأطوار حقاً وأنا أعرفك منذ زمن طويل».

«أف». كانت سارة تقول ذلك دائماً عندما تعرف أنّها لا تستطيع أن تنتصر على أحد في المناقشة، لكنها لم تكن تعترف بذلك. تنشّقت رائحة أزهار الخزامى التي زرعتها أختها أفا على طول السياج. كانت الرائحة مهدئة للأعصاب، وقالت لنفسها إنه من السيئ ألّا يكون لها ذات التأثير على تراف الجديّ الذي لا يتوقف عن التفكير.

تعيش عائلة تراف بجانب عائلة سارة منذ أكثر من ١٧٠ سنة، وهي تعرفه جيداً ولا تتذكّر أول مرة التقيا فيها، وهو يشكل جزءاً من حياتها مثل جميع أخواتها. وكانا صديقين منذ صغرهما حتى المدرسة الثانوية، وظلا صديقين حتى بعد أن صادق صبية آخرين وتجاهلها لفترة قصيرة.

في تلك الفترة انزعجت كثيراً لكنها كانت تتوقّع حدوث ذلك. ففي المدرسة الثانوية، كان تراف محط إعجاب الجميع، فقد كان اللاعب النجم في فريق المدرسة لكرة القدم، والملك المتوج، والطالب المتفوّق. بينما كانت سارة زعيمة مجموعة من الفتيات المتمردات اجتماعياً اللاتي كن يضعن على عيونهن كحلاً سميكاً وينصتن إلى موسيقى صاخبة تعزفها فرق غاضبة ولم يكن يكترثن كثيراً بالمبادئ والقوانين التي تفرضها المدرسة والعائلة والكنيسة، وجميع الأشياء الأخرى.

أما تراف وأصدقاؤه فكان يُنظر إليهم بأنهم شبان «واعدون» و»أذكياء» في حين كانوا ينظرون إلى سارة وصديقاتها على أنهن فتيات «مشاغبات، متمردات على المجتمع».

لكن سارة لم تكن تبالي بكلّ ذلك آنذاك وكانت تجد متعة كبيرة في سلوكها هذا. ولم يكن يُتوقّع الكثير منها، وكانت أيّ علامة «جيد» (نجاحها وعدم معاقبتها بالبقاء في المدرسة بعد انتهاء الدوام لمدة شهر كامل) يُستقبل بترحيب كبير.

ابتسمت سارة. من كان يتوقع أن هذه الأميرة المتمردة ستكبر وتصبح أمينة مكتبة البلدة المحترمة؟ كانت فخورة بهذا التحوّل الكبير في حياتها. وبالطبع، كان تراف يقول إنه يعرف أن ذلك سيحدث، لأنها حتّى عندما كانت فتاة متمردة، ظلّ صديقاً لها. كانا صديقين متناقضين، وكانت صداقتهما غريبة، لكنّها استمرت طوال تلك السنين، وتواصلت حتى بعد أن مات والداها، وبعد أن مات والداه، ثم ازدادا قرباً من بعضهما أكثر من أي وقت مضى.

عادت سارة لتنظر من فوق السياج، وركّزت نظرتها على بيت غرايس الذي لم يكن يوجد فيه شيء يتحرّك، حيث أُسدلت الستائر المخرّمة لتحجب أشعة الشمس الباهتة. تنهّدت سارة وقالت: «غرايس فتاة محبطة جداً»

«لماذا؟ ألأنها لا تريد أن تصبح صديقتك؟» عاد تراف إلى الكراج وجلب دلواً فيه خرق وعلبة شمع، ووضعه بجانب درّاجته، وقال: «لا يريد جميع الناس أن يكونوا أصدقاء لأحد، فأنا لا أريد أن أصادق أحداً».

«لكنك صديقي».

رمقها طويلاً وقال: «لقد كبرنا معاً، ولم يكن لدى أحدنا خيار في ذلك».

شعرت سارة أنه معكّر المزاج بعد ظهر اليوم وأنه يريد أن يبقى وحده، لكنها كانت عازمة على ألّا تتركه وحده. فهو يعيش وحيداً في معظم أوقاته. فقالت له: «اعترف على الأقل بأنك سعيد لأن بيت السّيدة فيلبس القديم لم يبق فارغاً بعد أن غادرت إلى فلوريدا».

«أنا سعيد لأنهن هادئات، هذا كلّ شيء. كنت أخشى أن تؤجر السّيدة فيلبس بيتها إلى أناس صاخبين يزعجونني».

«لم أكن سأفاجأ لو فعلت ذلك. فهي أحقر امرأة عرفتها في حياتي».

«حدّثيني عنها»، قال تراف، «فقد ذهبتُ لأدفع ضريبة الورشة الشهر الماضي ووصلت إلى هناك بعد الساعة الرابعة بدقيقة واحدة. ومع أنني تأخرت دقيقة واحدة فرضت عليَّ غرامة تأخير».

«أنا واثقة بأنها فعلت ذلك وهي تبتسم. هكذا»، وجعّدت سارة أنفها وكشفت عن أسنانها، محاولة أن يبدو وجهها مثل وجه كلب تشيهواهوا مسعور.

ابتسم تراف، حمل دلوه، وانتقل إلى الطرف الآخر من درّاجته، وقال: «كنت آمل ألّا يكون عندي جيران أبداً؟»

«وأنا كذلك؟»

تظاهر بأنه يفكّر في الأمر، ثم هزّ كتفه وقال: «بما أنك تجلبين لي طعام العشاء مرة في الأسبوع، فأنت جارة جيدة».

«أنت لطيف للغاية. هيا يا تراف، من الجيد أن يكون عندك جيران، وأسرة ويلر كجيران أفضل من السّيدة فيلبس بكثير «.

وضع علبة الشمع جانباً، وسحب مفكًّا من الدلو، وفتح به علبة جديدة، ثم قال: «لا نعرف أيّ نوع من الجيران هم بعد».

«هل يستدعين الشرطة عندما تصفق الباب بقوة؟»

«لا، لم يفعلن ذلك بعد».

«وهل يرمين الأوساخ التي تطير إلى باحة بيتنا ويدعين بأنهن لم يفعلن ذلك، حتّى لو رأيتهن يفعلن ذلك؟»

رمقها بنظرة منزعجة ولم يجب.

«وهل يرمون قطتك المحبوبة ببندقية هوائية عندما يرونها في خارج...».

«حسناً، حسناً» قال بامتعاض، «الجيران الجدد أفضل قليلاً من السّيدة فيلبس، لكن لمعلوماتك، فإن كيلر ليس قطّي المحبوب، وإنما كان قطّ أبي، لكني أشعر بمسؤولية تجاه هذا الوحش الأجرب، وهذا هو السبب الوحيد الذي يجعلني أبقيه معي. أحدنا يتحمّل الآخر، هذا كلّ ما في الأمر».

«إن لم تكن تحبّ هذا الحيوان، فبإمكانك أن تعطيه لأحد. فقد عرضت عليك ليزا تيلدين أن تأخذه منك. سمعتها تقول ذلك».

« يموء كيلر بقوة كلّما رأى ليزا. وهو يخرج من البيت ويعود. إنه يفعل ذلك دائماً»، قال تراف ثم أضاف، «في أحيان كثيرة».

فقالت موافقة: «نعم، إنه يفعل ذلك دائماً. ومن الجيد أنك أبقيته معك. وأظن أن ليزا عرضت أن تأخذه لأنها كانت تأمل بأن تُلاحظها».

دمدم تراف شيئاً وابتسمت سارة وقالت: «لن أخبرها أنك قلت ذلك، لأن ذلك سيحطّم قلبها، فهي تكنّ لك مشاعر ودية منذ أن كنتما في المدرسة الثانوية».

تجاهل ما قالته سارة وانهمك في تلميع درّاجته بحماسة متجدّدة.

كانت لا تزال تبتسم، عندما انتقلت نظرتها إلى البيت المتهالك قليلاً وراءه، وقالت: «إن غرايس وأفراد أسرتها أناس مميّزون. تقول أفا إن شجرة القيقب في الباحة الأمامية تحبّهن، وقد عرفت ذلك لأن الأوراق تسقط في دائرة كاملة والجذوع تشير إلى...»

فصاح بها، «أرجوك توقّفي. لا أريد أن أسمع ما تظن أختك كيف تشعر شجرة القيقب، أو الكتب التي تهمس إليك، أو السحر الغريب الذي يظهر فجأة في فطيرة صنعتها أختك إيلا، أو أي شيء آخر يتعلق بك وبعائلتك الغريبة».

«أنت تعرف أن هذا صحيح. لقد رأيتَ تلك الأشياء».

«ليس عندما أكون صاحياً». رمقها بنظرة قاسية، وأضاف، «لو صدُّقت هذا الهراء الآن بعد أن كبرت، يجب أن أصدّق كذلك أنّ وحيد القرن يضرط ويُخرج قوس قزح، وهذا شيء لا يمكن تصديقه. كلّكن في عائلة دوف مصابات بهراء العصر الجديد».

ضحكت، وقالت: «لا. قل لي حقاً كيف تشعر؟»

ابتسم وألقى الخرقة في الدلو، وقال: «الواقع يا سارة، الواقع هو كلّ ما أهتمّ به».

«الواقع إذاً»، لم يعترف تراف قط بأن لدى سارة قدرة خاصّة على التواصل مع الكتب، ولم تكن تبالي بذلك لأنها لم تكن بحاجة إلى موافقة شقيقها الذي لم تلده أمّها. كان كلّ ما يهمها صداقته، ثم قالت: «إذاً خذ هذه الحقيقة. فجارتنا الجديدة من ذلك النوع الذي يعجبك».

فقال متذمراً: «إنكِ لا تعرفين ما هو نوع المرأة الذي يعجبني. وأنت تعرفن أنني لم أواعد فتاة منذ أن عدت».

هذا صحيح، لكن هذا ليس صحيحاً تماماً لأن النساء في دوف بوند لم يحاولن التقرب منه. بإمكان سارة أن تذكر أسماء أربع نساء تحامقن وحاولن أن يلفتن انتباهه. «اعترف بذلك - فهي من النوع الذي يعجبك. فهي امرأة مثيرة وحارة وأنيقة. وجميع صديقاتك السابقات، على الأقل اللاتي أعرفهن يقعن في هذه الفئة».

«لا يهمّني إن كانت حارة بما يكفي لإشعال عود ثقاب، لديها طفلة».

«ألا تحبّ الأطفال؟»

«لا»، وأخذ يلمّع مخزن الوقود بالشمع الأحمر الذي بلون أحمر شفاه غامق، يطليه بطبقات عديدة حتى يظلّ يلمع دائماً.

«لا يمكنك ألّا تحبّ الأطفال الأبرياء الحلوين. هذا شيء غير إنساني».

«الأطفال جيدون طالما أنهم بعيدون عني لا أراهم ولا أسمعهم ولا أتكلّم معهم، وأكره الأطفال الذين يحدّقون بي من فوق سياج منزلي كما لو كانوا يريدون أن يتسللوا إلى بيتي في اللحظة التي أدير فيها ظهري».

«لا بد أنك تتحدّث عن ديزي».

«منذ أسبوعين تقف هذه الطفلة كلّ يوم وراء ذلك السياج اللعين وتحدّق بي. أظن أنها ستقفز ذات يوم وتأتي إلى باحة بيتي مرة أخرى».

«مرة أخرى؟» ما هذا؟ إذاً التقيت بديزي».

تجاهلها، ثم قال: «أعرف أنها ستفعل ذلك، وهي تعرف أنها ستفعل ذلك، وعندما تفعل ذلك، سيكون لي حساب آخر معها»، وأخذ يفرك درّاجته بقوة جعلت سارة ترفع حاجبيها بدهشة.

«قد يكون موقفك تجاهها غير صحيح. لماذا لا تمدّ يدك إلى ديزي؟ لعلها تريد أن تأخذها في جولة على دراجتك بما أنها تنظر إليها دائماً».

«لا».

«هيا. خذها في جولة قصيرة عندما لا تكون مشغولاً. ربما يحلّ ذلك المشكلة».

«أو لا يحلّها».

«هيا يا تراف. يجب أن تتعرّف عليها أكثر، فقد تحبّها. إنها ليست كالأطفال الآخرين».

«كيف عرفت ذلك؟»

«ذهبت لزيارة بيت ويلر مرات عدة الأسبوع الماضي بعد أن عدت من عملي وكلّمتها هي والسّيدة جيانو اللطيفة، مع أنها لم تكن واضحة في بعض الأحيان».

«هل عرفتْ السيدة التنين بزياراتك هذه؟»

في واقع الحال فإن هذا اسم يلائم غرايس. هزّت سارة كتفيها وقالت: «لم أطلب من أحد أن يكتم ذلك عنها، لذلك أظن أنها تعرف».

«قلتِ إنك زرتهن بعد العمل».

«وماذا يعني ذلك؟»

«ثلاث مرات، ربما؟ أيام الإثنين والثلاثاء والخميس، عندما تُغلق المكتبة قبل ساعة من الوقت المعتاد؟» عندما لم تجب، ابتسم ابتسامة ساخرة، وقال: «كنت تزورينهن عندما لم تكن في البيت».

اللعنة. لقد عرف تراف ذلك. «حسناً. ربما وقّتُّ زيارتي هكذا. أريد أن أتعرّف على السيدة التنين، لكنّها متحفّظة بعض الشيء». منذ الاجتماع الأخير في النادي الاجتماعي، زارت سارة مبنى البلدية قرابة أربع مرات، وكانت غرايس تقول لها في كلّ مرّة بتهذيب «إنها مشغولة ولا تستطيع أن تتحدّث إليها الآن» لكنها ستزورني عندما «يكون عندها لحظة».

لكن حتى الآن لم تأت تلك «اللحظة». «إنها ليست من النوع الدافئ والودود»، قالت سارة بحدّة، «لذلك قررت أن أتعرّف على أفراد أسرتها أولاً».

هزّ تراف رأسه وقال: «أنتِ فتاة مثيرة للمشاكل».

«لا، لست كذلك. أريد حقاً أن أكون صديقتها».

«لماذا؟»

هذا سؤال المليون دولار، أليس كذلك؟ لم تجرؤ سارة على أن تقول لتراف إنّ مجلّة يوميات شارلوت دوف القديمة أخبرتها أن على غرايس - يجب - أن تبقى في البلدة، لأنه سيسخر منها إذا قالت له ذلك. فقرّرت سارة أن الصمت هو الرد الوحيد الذي يمكن أن تجيبه بأمان.

«إذاً تحاولين أن تتعرفي عليها من خلال أسرتها. ودعيني أخمّن - إنك أرسلت لها كتاباً أيضاً».

طبعاً أرسلتْ لها سارة كتاباً. مدركة نظرة تراف المكفهرة، قالت بنبرة عالية، «ربما».

أطلق صيحة غير مصدّق.

تجاهلته. في الواقع لم يكن لديها خيار في ذلك. فقد ظلّ الكتاب يتبعها طوال أسبوع، يظهر لها في أماكن غريبة، ويلّح عليها أن تسلّمه إلى يدي غرايس. كان على سارة أن تقبّل ليندا روبنسون عندما طلبت منها أن تعطيها الكتاب نيابة عنها.

«أظن أنك لن تتعلّمي أبداً». سحب تراف قنينة منظف كروم من دلوه وبدأ ينظّف المقود. «إنك تستعجلين الأمور. امرأة مثلها لا تثق بأي شخص بسهولة. إنها امرأة أرقام، حسابات مالية، صحيح؟ لقد تركت عملها في شركة ضخمة في شارلوت كي تعيد أمّها - أو بالأحرى أمّها بالتبني - إلى دوف بوند حيث نشأت السيدة العجوز، بأمل أن تخفّف من حدة تأثيرات مرض الزهايمر الذي تعاني منه. لم يمض شهر على مجيء غرايس إلى هنا يا سارة، وشهر ليس مدة كافية. فالذين يتعاملون بالأرقام لا يحبّون أن يستعجلوا الأمور كثيراً، لذلك ارجو أن تتمهلّي».

قطّبت سارة جبينها، وقالت: «كيف عرفت كلّ ذلك؟»

«ألم تعرفي؟»

«ليس كلّ هذه المعلومات».

بدا متفاخراً قليلاً. «حسناً، حسناً، حسناً. أنا أعرف أكثر مما تثرثر به البلدة».

«أنا لا أثرثر»، قالت سارة بحركة مستنكرة ووقفت على أطراف أصابع قدميها لترى بيت غرايس بشكل أفضل. «هيا. أخبرني بكلّ ما تعرفه».

«لماذا عليّ أن أخبرك؟»

«لأنك إذا لم تخبريني، فإني سأذهب إلى هناك وأخبر السيدة التنين بأنك تظن أنها حارّة ومثيرة. حسناً... سأفعل ذلك عندما تعود إلى البيت. سيارتها ليست موجودة الآن أمام البيت».

تلاشت معالم التفاخر من على وجهه، وقال: «لن تفعلين ذلك».

«سأفعل. وسأقول لها الحقيقة لأنني رأيتك تنظر إليها». عندما احمرّ وجهه، وجدت سارة متعة في ذلك.

بعد لحظة صمت، قال بنبرة تشي بالكراهية، «أنت قاسية يا دوف».

لمعت ابتسامة على وجهها وقالت: «مثل صخرة يا باركر».

ألقى الخرقة الوسخة في الدلو، وقال لها: «سأخبرك بالأشياء القليلة التي أعرفها، فقط لأنك تطعمين القطّ عندما أعمل حتى وقت متأخر، لا لأنك تحاولين ابتزازي».

«فقط أخبرني بما تعرفه».

«حسناً. قبل كلّ شيء، لن تبقى هنا أكثر من سنة».

«هذا ما قالته، لكنها يجب أن تبقى مدة أطول». انسلّت الكلمات من فمها قبل أن تستطيع أن توقفها.

ارتفع حاجبا تراف، وقال: «لا يمكنك أن تؤثري على قرارها هذا».

«أعرف، لكن...» لم تكن سارة تنوي أن تقول ما قالته، لكن لم يعد بالإمكان إعادة ما قالته الآن، «كلّ ما أعرفه هو أنه يجب أن تبقى غرايس في دوف بوند لتتمكّن من تحقيق...» ولوّحت سارة بيدها بغموض، «أشياء».

«أشياء مثل ماذا؟»

«لا أعرف، لكن مهما كان، عليها أن تبقى هنا لأكثر من سنة».

«لا أظن أنها ستبقى».

«قد تبقى»، أصرّت سارة، «عندما ترى أن جميع سكان دوف بوند يطلبون منها ذلك، أظن أنها ستبقى».

انفجر تراف ضاحكاً وقال: «إذاً أرجو لك حظًّا سعيداً».

«شكراً»، رمقته سارة بنظرة مليئة بالاستياء، «وماذا عرفت أيضاً؟»

«ماتت أختها منذ بضعة أشهر بعد أن تناولت جرعة زائدة».

«يا إلهي. أعرف أن أختها ماتت، لكنّي لا أعرف كيف ماتت ومتى». حاولت سارة أن تتخيّل كيف يمكن أن تكون مشاعرها لو أنها فقدت إحدى أخواتها لكنها وجدت أنها لا تستطيع أن تتخيّل ذلك. تملكها شعور مفاجئ بأن تضم أفا إليها وتعانقها، وهمهمت، «إنها أسرة مسكينة».

«يبدو أن أخت غرايس لم تكن أمًّا جيدة أيضاً لأنها تركت ديزي في رعاية السّيدة جيانو منذ سنوات، وقال المصدر الذي أخبرني إنه سمع من شخص على معرفة جيدة بالسّيدة جيانو، بأن

غرايس وأختها عاشتا حياة مليئة بالمشاكل، وللتعويض عن ذلك، حملت غرايس على عاتقها مسؤولية كبيرة، وأرادت أن تكون امرأة مثالية».

«هذا يوضح أشياء كثيرة».

«في أثناء ذلك، ذهبت أختها في الاتجاه المعاكس. فلم تستطع أن تحافظ على عمل، وكانت تكذب وتسرق نقوداً، وتترك ابنتها في رعاية السّيدة جيانو لعدة أسابيع طويلة، ثم تخلّت عنها نهائياً».

«وأصبحت غرايس مسؤولة الآن عن ابنة أختها وعن السّيدة جيانو معاً». كان ذلك أسوأ بكثير مما كانت تتخيّله سارة، وقالت: «لو حدث لي شيء كهذا، فإني سأكون غاضبة جداً».

انتقلت نظرة تراف إلى بيت أسرة ويلر، وقال: «وأنا كذلك»، ردّد هذه الكلمات بصوت واطئ كما لو أنه فكّر بذلك لأول مرة. هزّ رأسه ثم استدار نحو درّاجته.

نظرت سارة إلى ترافيس نظرة فضولية، وسألته، «من هو مصدرك؟»

هزّ كتفيه وبدأ ينظف الضوء العلوي.

«إنه بليك، أليس كذلك؟»

«ربما».

تمالكت نفسها كي لا يحمرّ وجهها، لكنّ خيّل إليها أنها نجحت في ذلك. وتساءلت كيف تمكّن بليك من معرفة كلّ هذه المعلومات عن جيرانهم الجدّد، لكنها تذكّرت أنّ أمّ بليك كانت صديقة السّيدة فيلبس التي كانت قريبة السّيدة جيانو. إذاً - نعم. هكذا هو الأمر.

كانت سارة تأمل أن تسأل بليك مباشرة عن الأشياء الأخرى التي سمعها، لكن ذلك مستحيل لأن ما حدث بينها وبين بليك أحدث شرخاً عميقاً لا يمكن رأبه أبداً، ولم ينه علاقتهما الرومانسية فقط وإنما أنهى صداقتهما أيضاً، وكان كلّ ذلك بسبب غبائي.

دفعت سارة جانباً جبلاً من الأسف القديم عندما توقفت سيارة غرايس الهوندا عند مدخل البيت. نزلت غرايس من السيارة ووقفت لتُخرج كيسيْ بقالة من صندوق السيارة. لم تكن ترتدي بدلتها المعهودة اليوم، وكان شعرها الأسود منفلتاً، تحجب وجهها نظارات شمسية ضخمة.

«كم تبلغ من العمر في رأيك؟» سألته سارة.

«لا بد أنها تحمل شهادة جامعية ولديها ما لا يقل عن بضع سنوات من الخبرة كي تحصل على وظيفة جيدة كهذه في شركة مالية».

«هذا يجعل عمرها قريباً من عمرنا، ربما أكثر قليلاً». كانت سارة في الخامسة والعشرين، لكنها تشعر بأنها أكبر من ذلك، «سمعت أنها كانت تشغل وظيفة ممتازة في شارلوت. أراهن أن رئيس البلدية فوجئ عندما قبلت وظيفة أمينة سجل البلدية».

«أتوقّع ذلك، فهي تتفوق على سكان هذه البلدة بكثير».

«هممم»، تمنّت سارة لو أنها كانت تعرف كيف ترتدي ثيابها كما تفعل غرايس. كان عصر يوم أحد هادئ، لكن أناقة المرأة تضارع أناقة نساء مدينة نيويورك بثوبها الصيفي الأصفر وصندلها الأبيض ذي الأشرطة. كان من المفروض أن تتهادى فوق يخت فاخر بدلاً من أن تكون هنا تحمل بيدها أكياس بقالية وتسكن في بيت مستأجر حال لون طلائه.

«ثمة شيء خفيّ في هذه المرأة»، راحت سارة تراقب غرايس التي اختفت داخل البيت، «ألا تظن ذلك؟».

هزّ تراف كتفيه بلا مبالاة، لكنه لم يجادلها.

بانغ! صفق باب الغربال وأُغلق في بيت ويلر. عادت غرايس إلى السيارة، هذه المرة كانت السّيدة جيانو تسير بجانبها.

ثمة شيء من العالم القديم يغلّف السّيدة جيانو تحبّه سارة كثيراً. فقد كانت ترتدي ثوباً مزهراً وعلى كتفيها شال موشّى بالأزهار. كانت هذه المرأة العجوز الضئيلة الجسم محاطة بالأزهار من كلّ جانب كأنها تطوف في حديقة. كانت تسير بجانب غرايس تترنح قليلاً، تمسك محفظة كبيرة من القشّ بإحكام كما لو أنها تخشى أن يسرقها أحد منها.

«اللعنة».

نظرت سارة إلى تراف.

غمره شعور بالكآبة. ورداً على نظرة سارة المتسائلة، قال: «إنها تذكّرني بأبي. لقد بدأت حالتها تسوء أكثر مما كانت عندما وصلن. إن حالتها تزداد سوءاً». وبهزة آسفة برأسه، حمل الدلو وعاد إلى الكراج.

ظلت سارة تراقبهما بينما كانت غرايس تساعد أمّها على الصعود إلى السيارة ثم التفتت نحو البيت، وصاحت، «ديزي».

صُفق باب الغربال مرة أخرى. خرجت ديزي وهي تقفز تمسك حذاءها بيدها. كانت ترتدي بنطال جينز أزرق وقميصاً أزرق فاتح اللون، ويقبع بين ضفائرها الشقراء المشعّثة تاج يلمع. لم تكن تمشي وإنما ترقص. عندما وصلت إلى منتصف الباحة، وبدأت، كما لو أنها سعيدة بملمس العشب السميك البارد تحت قدميها الحافيتين، تدور بجنون حول نفسها.

كلمة حادّة وجهتها لها غرايس جعلت الفتاة تتوقف فجأة عن الرقص وتهدّل كتفاها كما لو أنها حُرمت من الهواء.

خرج تراف من الكراج يحمل بيده قنينتي بيرة. أعطى واحدة لسارة وتتبع نظرتها إلى حيث كانت ديزي تجرّ قدميها نحو السيارة الآن. «إنهن قصيرات القامة، كلهن»، قال بنبرة غاضبة، «كأنهن في حديقة الأقزام».

«كالجنّيات»، قالت سارة مصحّحة بعد أن أخذت رشفة بحذر، «إنهن مرهفات، جنّيات من عالم آخر».

نخر تراف، وقال: «مرهفات؟ قد تكون المرأة العجوز كذلك، لكن ليست الاثنتان الأخريان».

«لا يمكنك أن تقول إن هذه الطفلة الجميلة ليست مرهفة. انظر إليها فقط».

«هذه الطفلة الجميلة كما تسميها، يمكن أن تتحوّل من طفلة ثرثارة إلى طفلة متجهمة في أقل من ثانية. لقد رأيت ذلك بأمّ عيني، أما خالتها، فهي قاسية كالفولاذ، ترميك بين الحين والآخر بنظرة تستطيع أن تقطعك حتى العظم».

«ماذا؟ لا تنتقد السّيدة العجوز المسكينة جيانو».

«إنها الأسوأ. فقد سرقت القطّ».

رمشت سارة بعينيها وقالت: «ماذا؟»

«إنها تغوي كيلر ليذهب إليها كلّ ليلة عندما تضع له طاسة حليب عند النافذة».

«وماذا في ذلك؟ ففي جميع الأحوال أنت لا تحبّ كيلر. لا أرى لماذا أنك...»

«على الرغم من ذلك فهي سرقة»، دمدم تراف، «هذا هو مبدأ الأشياء».

فتحت غرايس باب السيارة الخلفي، وقالت لديزي التي كانت تجرّ قدميها فوق العشب بتردد شديد، بحدّة.

لم تسمع سارة ما قالته غرايس، لكن تأثير كلماتها كان جلياً كالنهار. فقد كان تراف محقًّا بأن الفتاة الصغيرة تستطيع أن تتغيّر في لحظة واحدة. ارتفعت ذقن ديزي، وتهدلّ كتفاها، وردّت جواباً بنبرة قوة يمكن أن يخثّر الحليب.

قد يكون ذلك ردّ فعل طبيعي لفتاة مزاجية قبل فترة المراهقة، لكنّه مفاجئ لأن يصدر من طفلة.

«إنها مزعجة بعض الشيء، أليس كذلك؟» قال تراف، ورشف من قنينة البيرة.

«مسكينة»، دمدمت سارة.

«لا تبدأي»، أنهى تراف بيرته وألقى القنينة الفارغة في علبة القمامة فأحدث صوت ارتطام قوي، ثم أخرج خوذته السوداء اللمّاعة ووضعها على رأسه ثم أخرج مفاتيحه من جيبه، وألقى نظرة برمة على سارة، وقال: «توقّفي عن النظر كما لو كنت تريدين أن تتبنّي هذه الفتاة. عندها أسرة».

«هل عندها أصدقاء؟ لم أر أطفالاً آخرين في بيتهم. هل رأيت أنت؟»

«كيف أعرف؟ فأنا لا أراقبهن».

رفعت سارة حاجبيها وانتظرت.

قطبّ تراف جبينه، وقال: «لا، لم أر أطفالاً آخرين هناك».

«هذا ما كنت أظنّه. أرجو أن تُحضر غرايس ديزي إلى المكتبة لتحضر ساعة قراءة القصّة التي تحضرها فتيات من عمرها تقريباً كلّ أسبوع».

«لا تتدخلي في أمورهن».

«يجب أن أفعل ذلك يا تراف، فقد أصبحت هذه العائلة تنتمي إلى بلدتنا».

«إنك لا تعرفين».

«لا، أعرف. لا، أنا أعرف».

انخفض حاجباه وسألها، «كيف؟»

هزتّ كتفيها بلا مبالاة، عارفة أنّه سيسخر منها إذا قالت له الحقيقة. «ينتابني شعور بذلك، هذا كلّ ما في الأمر».

«أنت مضحكة، ألا تعرفين ذلك؟» وضع خوذته على رأسه وثبّت الشريط حول رقبته، وأضاف، «أراهن بأنهن سيغادرن عندما ينتهي عقد إيجارهن. إذا حدث ذلك، ستطهين لي طبق لازانيا مرة في الشهر لمدة سنة كاملة».

«وإذا لم يحدث وبقين، ستغسل سيارتي وتلمعّها بالشمع مرة في الشهر لمدّة سنة».

«اتفقنا، يا دوف». قال تراف ورمى بساقه فوق درّاجته، ووضع المفتاح في فتحة التشغيل وبعد لحظة هدر المحرّك ودبّت فيه الحياة، محدثاً صدى عالياً.

كانت غرايس قد أغلقت باب السيارة للتو وراء ديزي، لكنها التفتت الآن نحوهما، وبدا واضحاً أنها هدير دراجته أزعجها كثيراً.

لاحظ تراف تجهم غرايس، فردّ عليها بأن سرّع محرّك الدراجة مرة أخرى محدثاً صوتاً عالياً جداً ارتجّت منه البيوت المجاورة.

رفعت غرايس نظاراتها الشمسية حتى أرنبة أنفها ورمقت تراف من الأعلى إلى الأسفل، نظرة لا تشي بالارتياح، كما لو كانت تبحث فيه عن عيوب فوجدت أكثر مما كانت تتوقع. ثم - بإصبعها الوسطى - أعادت نظاراتها الشمسية ببطء إلى مكانها.

ضحكت سارة. «لقد أُحرقتَ يا باركر»، صرخت بين هدير المحرّك.

ألقى تراف نظرة غاضبة على غرايس التي استدارت وبدأت تصعد إلى سيارتها. أغلقت الباب بقوة إضافية، ثم رجعت السيارة إلى الخلف وانطلقت واختفت عن الأنظار.

حدّق تراف خلف السيارة، عابساً، ثمّ تمتم بغضب تحت أنفاسه، ودفع دراجته إلى الشارع، وثنى رسغه برفق، وانطلق بقوة.

عندما أصبح أمام بيت غرايس الفارغ زاد من سرعة محرّكه. كان الصوت مليئاً بالتحدي بقدر ما كان عالياً.

كانت سارة تراقب كلّ ذلك وهي تبتسم.

«يا إلهي، صوت هذه الدراجة مرتفع جداً».

استدارت سارة فرأت أفا تترجلّ من شاحنتها الصغيرة عند مدخل البيت. «لم أسمعك عندما توقفت».

«كيف يمكنك أن تسمعي شيئاً عندما تهدر درّاجته». جاءت أفا ووقفت بجانب سارة عند السياج ورأت زجاجة البيرة في يدها. «منذ متى تشربين هذا النوع من البيرة؟»

«تراف أعطاني إياها. أخذتها منه بدافع التهذيب».

«أعطني إياها. لن يعرف ذلك أبداً».

ابتسمت سارة وأعطت قنينة البيرة إلى أختها. «تبادلنا حديثاً ممتعاً. بدأت أفكّر بأن جارنا المتوتر، المصاب بجروح خطيرة، ليس منيعاً من أسرة ويلر كما كنت أظنّ، وأنا سعيدة بذلك».

«أنت رومانسية. من السيء أن يكون تراف كذلك». رشفت أفا رشفة من البيرة، وأضافت: «صدقاً لا أستطيع أن أتخيّل تراف مع صديقة عندها طفلة وأمّ مريضة، فهو لم يُروّض بما يكفي ليتحمّل هذا النوع من المسؤولية. ويبدو أن غرايس لا يمكنها أن تصادق إلّا مديراً تنفيذياً لديه حساب كبير في البنك ومعه حقيبة مليئة بالشيكات. وهذا لا ينطبق على تراف».

تنهّدت سارة، وقالت: «لا».

أخذت أفا رشفة أخرى من البيرة، وبنظرتها الفضولية بعينيها الخضراوين الرماديتين سألتها، «هل سألتِ الكتب؟»

«مرات كثيرة. إنها عنيدة. تصبح هكذا دائماً عندما يتعلق الأمر بتراف. كما تعرفين فهو ليس قارئاً نهماً».

لوت أفا وجهها.

«أعرف. لا أفهم ذلك. فطوال السنوات التي عرفته فيها، طلب كتاب واحد فقط أن يزوره، وكان ذلك عندما مرض أبوه».

«شيء محبط». ألقت أفا نظرة خبيرة على أقرب زهرة خزامى، ودفعت بطرف حذائها الطويل حصوة بيضاء وأعادتها إلى الحوض. «أعرف هذا الشعور. أحاول استنباط نوع من الشاي لأساعد السّيدة بيريز على علاج التهاب المفاصل الذي تعاني منه، لكنّي لا أعرف كيف أفعل ذلك».

«يمكننا أن نفعل الكثير»، قالت سارة آسفة.

«صحيح». رشفت أفا رشفة أخرى. أزّت نحلة بجانبها ثم رأتها تهبط لتحطّ فوق زهرة الخزامى. «النحل يحبّ زهرة الخزامى، والفراشات أيضاً».

«هل تظنين أن هذا سينجح على أمينة سجل البلدية المترددة؟»

ضحكت أفا. «ربّما. كانت ماما تقول دائماً إنّك تستطيعين أن تصطادي عدداً أكبر من الذباب بالعسل أكثر من الخلّ». عندما أنهت بيرتها، قالت: «سأدخل الآن، هل أنت جائعة؟ أفكّر بأن أسخّن قرنبيط البروكولي مع الدجاج للعشاء».

«سأعدّ سلطة معها».

«جيد، وسارة، لا تقلقي على غرايس. ستجدين طريقة. أعرف أنّك ستجدين طريقة».

لم تكن سارة وأفا قريبتين من بعضهما في السابق، أما الآن فلم تكن سارة تعرف ماذا ستفعل بدون أختها. «شكراً. كنت بحاجة لسماع ذلك».

ابتسمت أفا وقالت: «هذه هي الحقيقة. هيا لنذهب ونعدّ العشاء».

«سألحق بك بعد دقيقة».

«جيد. أكاد أتضور جوعاً؟» دخلت أفا، وسارت فوق العشب وبيدها قنينة البيرة الفارغة.

لبثت سارة في مكانها بجانب السياج، وعادت تنظر إلى بيت ويلر. كانت أمّهما محقّة عندما قالت إنه يمكن اصطياد الذباب بالعسل أكثر، لكن سارة لم تكن ترى أن للعسل تأثيراً كبيراً على غرايس. قد تكون سارة محظوظة أكثر لو أعدّت قالب كيك لذيذ بالقهوة مع الجوز والقشطة الحامضة و...

اعتدلت سارة في وقفتها. ربّما كان ذلك هو الردّ، بسيط هكذا. من يستطيع أن يرفض قالب كيك بالقهوة، ساخن وطازج؟

كانت فكرة صغيرة جداً. لكن جميع الخطط الكبيرة تبدأ بخطوة صغيرة، وهذه الخطوة الصغيرة أفضل من لا شيء.

بشعور من التفاؤل، تركت سارة السياج ودخلت إلى البيت تتساءل إن كانت تتوفر لديها جميع المكونات اللازمة لصنع قالب كيك بالقهوة الذي لا يقاوم والذي كانت تصنعه أختها إيلا.

الفصل (٩)

غرايس

نظرت غرايس إلى الصباح الرمادي الذي تكسوه طبقة كثيفة من الضباب. كانت تكره يوم الإثنين. فقد كان يخيّل لها دائماً أنّ أول يوم من الأسبوع يتربّص بها، ناشباً مخالبه الحادّة، يريد أن يمزّق آمالها وأحلامها إرباً إرباً. وكانت أكوام الأوراق المكدّسة فوق طاولة مكتبها التي يجب أن تدخل بياناتها في الكومبيوتر بانتظارها تؤيد هذه النظرية. تجهّم وجهها عندما وضعت السيارة في وضعية الرجوع إلى الخلف.

عندما بدأت ترفع قدمها قليلاً عن دواسة الفرامل فُتح باب السيارة من الجانب الآخر، ومدّت سارة دوف رأسها. «مرحباً» قالت أمينة مكتبة بلدة دوف عندما ضغطت غرايس على الفرامل.

ارتفع عامل الغضب لدى غرايس نقاط عديدة. ففي أفضل الظروف، وحتى لو كانت قد أمضت ليلة مريحة الليلة الماضية، فهي ليست شخصاً صباحياً، وتحتاج إلى وقت وهدوء وإلى ما لا يقل عن كوبين من القهوة حتى تستطيع مواجهة اليوم بشيء يكون قريباً من ابتسامة. لكنها حتى الآن، لم تحصل على أي شيء من ذلك.

في الليلة الماضية، بعد أن أوت غرايس إلى سريرها ببضع ساعات، أفاقت عندما سمعت ماما جي تنادي، «ثيو»، مرات كثيرة. ارتدت روبها وهي لا تزال نصف نائمة، وهبطت بسرعة إلى الطابق السفلي حيث وجدت باب البيت منفرجاً، ورأت ماما جي على تقف الشرفة بثوب نومها، وبيدها طاسة حليب.

مذعورة، لحقت بها غرايس، وسألتها، «ماذا تفعلين؟»

«أبحث عن ثيو. لم يأت ليتناول حليبه».

بعينيها المغبشتين، غاضبة لأنها صحت من النوم في هذا الوقت من الليل، قالت لها غرايس بنبرة أقسى مما كانت تقصد، «هذا شيء سخيف. لقد مات ثيو منذ سنوات. هيا ادخلي الآن».

كان لكلماتها ونبرة صوتها تأثير فوري، ولم يكن هذا شيئاً جيداً.

«مات؟» ارتعش صوت ماما جي بألم.

هزّت غرايس رأسها وندمت على ما قالته، لكنها كانت متعبة غير قادرة على التفكير، «منذ سنوات. هيا بنا ندخل. أنت مضطربة قليلاً، والجو بارد...»

«لا»، تحوّلت تعابير ماما جي إلى تعابير تشي بالعناد، وقالت: «رأيت ثيو البارحة، إنه لم يمت. إنه حيّ وهو جائع. أعرف أنّه جائع». قبل أن تجيبها غرايس، استدارت ماما جي وهبطت الدرج بسرعة، تتأرجح في العتمة، والحليب يخضخض في الطاسة تسيل منه قطرات على ثوب نومها.

مصدومة وخائفة، خيّل إلى غرايس لوهلة أن ماما جي ستقع، لكنها استعادت توازنها في آخر لحظة. توقّفت عند أسفل درجات الشرفة ورفعت بصرها وحدّقت بغرايس، وقالت: «يجب أن أعطي ثيو الحليب. إني أنتظره منذ ساعات، ولم يعد إلى البيت»، ثم نظرت ماما جي عبر الباحة الأمامية إلى الشارع، «ربما يجب أن أضع الحليب بجانب الطريق. كان ينام في علبة البريد. كان ذلك يُفقد السّيد هوميروس صوابه».

استغرقت غرايس عشرين دقيقة كاملة من التفكير ثم التوسل حتى استطاعت إقناع ماما جي أخيراً بأن تعود إلى البيت ووعدتها بأن تترك الحليب على الشرفة من أجل «ثيو» الضائع. جعل ذلك غرايس ترتجف. فلو لم تستيقظ، لربما خرجت ماما جي من البيت وذهبت، ولن تعرف غرايس ما الذي يمكن أن يحدث بعد ذلك. مجرد التفكير في ذلك جعلها تشعر بالغثيان.

بعد أن أعادت ماما جي إلى سريرها، تقلّبت غرايس في فراشها ولم تعد تستطيع أن تنام، وأصبح صوت أي صرير تسمعه في البيت القديم يجعلها تنتصب في جلستها مذعورة، ولم يغمض لها جفن إلا بعد الرابعة صباحاً.

في صباح هذا اليوم، عندما انطلق جرس المنبه، أرغمت غرايس نفسها على النهوض. وغالب النعاس عندما كانت تستحم، وقرّرت أن تخبر ليندا بما جرى وأن تقترح كيف يمكن منع ماما جي من الخروج من البيت بعد أن يخلد الجميع إلى النوم. تعليق علب صفيح فوق مقابض الأبواب؟ تركيب جرس من نوع ما؟ جرس إنذار في البيت؟

انفرجت أساريرها عندما اقترحت عليها ليندا عدة اقتراحات كان أسهلها وأسرعها تركيب قفل في مكان مرتفع من الباب لا يمكن أن تصل إليه ماما جي. فاتصلت غرايس على الفور بالأخين كالاهان اللذين كانت السّيدة فيلبس قد أوصت بهما ووعدا بأن يأتيا بعد الظهر لتركيب القفل.

بعد ساعة فقط، شعرت بإرهاق شديد كأنّ قاطرة مشت فوقها، واستقبلت الصباح الرطب بصداع شديد. عندما نظرت غرايس إلى سارة التي فتحت باب السيارة من الجانب الآخر، والتي كانت تبدو مبتهجة ترتسم على وجهها ابتسامة عريضة كأنها ترى الصباح شيئاً يجب الاحتفاء به. كان كلّ ما تريد غرايس أن تفعله هو أن تقذف سمّ الصباح في وجهها.

لكن قبل أن تفتح غرايس فمها، دفعت سارة باب السيارة بكتفها ودفعت أمام أنف غرايس كوباً كبيراً من القهوة تتصاعد منه رائحة البندق الكثيفة. تنفست روح غرايس الصعداء، وأوقفت السيارة وتناولت كوب القهوة من سارة وأمسكته بكلتا يديها بوقار شديد كأنه كوب مقدّس.

«أنا سعيدة لأنني رأيتك»، قالت سارة التي تحمل حقيبة كتب ثقيلة، وكيساً ورقياً بالإضافة إلى كوب قهوتها، وصعدت وجلست بجانب غرايس وأغلقت الباب. «قلت في نفسي إن كان باستطاعتنا

أن نترافق معاً». وضعت حقيبتها بجانب قدميها، ووضعت كوب قهوتها في حامل القهوة بجانبها، ووضعت الكيس الورقي بينهما.

عبقت رائحة الفانيلا والقرفة الممتزجة برائحة القهوة في السيارة. «ماذا في الأمر؟» لم تستطع غرايس أن تخفي نبرة الأمل في صوتها.

فتحت سارة الكيس الورقي، وسال لعاب غرايس عندما هبّت عليها رائحة الخبز الطازج.

«إنها قطعة كيك بالقهوة»، قالت سارة، «إنها وصفة أمّي، لكن عندما عدّلتها أختي إيلا قليلاً، أصبحت أفضل الآن».

رشفت غرايس القهوة الكثيفة، المرّة بعض الشيء، وفيها مسحة من الحليب. عندما لامست لسانها أحسّت بالدفء من رأسها حتى أصابع قدميها. أخذت رشفة أخرى، مذهولة حتى درجة الاستسلام.

نقلت غرايس نظرتها إلى الكيس ثم عادت إلى كوبها. كان بإمكانها أن تستسلم لدوافعها الدنيا وتعتذر عن قبول سارة وقطعة الكيك اللذيذة التي جلبتها وقهوتها اللذيذة التي هي في أمسّ الحاجة إليها، أو تقبل صحبتها وما جلبته معها.

بينما كانت تفكّر بخياراتها، رشفت رشفة أخرى من القهوة وقالت بشرود: «إنها لذيذة».

«هل كمية الحليب جيدة؟ كان عليّ أن أخمّن، لكنّي قلت بما أنني أتناول القهوة مع قليل من الحليب فقد تعجبك أيضاً».

كان الوقت مبكّرا جداً لاتباع هذا الخطّ من التساؤل، فلم تقل غرايس إلّا «إنها رائعة. إنني لا أبالغ. إنها مثالية».

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه سارة، وأشرقت قسمات وجهها كثيراً في هذا الوقت المبكر من اليوم، وقالت: «القهوة إكسير الحياة».

كانت غرايس تستمتع بتذوق هذا الكمال الساخن في كوبها فلم تستطع أن تجيبها.

مدّت سارة يدها إلى الكيس الورقي وأخرجت منه بضع مناديل كبيرة الحجم كُتبت عليها عبارة «عيد ميلاد سعيد» بخط وردي مبهرج. وضعت منديلاً على ركبة غرايس، وقالت: «أرجو ألّا تمانعي أن أرافقك اليوم. فكّرت ليلة البارحة بأننا نستطيع أن نترافق بسيارة واحدة إلى عملنا. فنحن جارتان، وأماكن عملنا تقع في الشارع نفسه، وهكذا نستطيع أن نوّفر الوقت والبنزين».

لم تكن غرايس تريد أن ترافق أحداً عندما تذهب إلى العمل كل يوم، خصوصاً برفقة شخص يبدو مبتهجاً في الصباح على نحو غريب، وهذا ما ينطبق على سارة. لكن القهوة التي دفأت أصابعها أزالت طبقة الجليد التي تكسو روحها جعلتها تدمدم بتهذيب «هذا مناسب بيئياً». أخذت رشفة أخرى وقالت لنفسها إن مرافقة سارة لمدة عشر دقائق ليس شيئاً سيئاً. اليوم فقط، قالت لنفسها. لا أكثر.

أخرجت سارة قطعتين من الكيك ملفوفتين بمنديلين من الكيس وأعطت قطعة منها لغرايس.

كانت تفوح منها رائحة سكّر بني دافئ وقرفة وفانيلا حلوة. أخرجت غرايس قطعتها وقطعت جزءاً منها ووضعته في فمها.

يا إلهي، الكيك لذيذ كما هي القهوة. «لكنني لا أستطيع»، قالت غرايس. ربما نترافق معاً يومين في الأسبوع. «إنها لذيذة؟»

«شكراً. يمكنني أن أجلب لك الوصفة إذا أردت».

«لن أحصل على هذه النتيجة أبداً».

«إنها وصفة سهلة. يستطيع أي شخص أن يخبزها».

حاولت غرايس ألّا تلتهم قطعة الكيك كلّها، لكنّها لذيذة جداً، وهي قطعة واحدة فقط، لا بل قطعة صغيرة، قالت لنفسها عندما أنهتها.

لعقت سارة الفتات الذي علق بشفتها وقالت: «عندما كانت أختي إيلا تعيش معنا في البيت، كنا نقيم كشكاً في سوق المزارعين أيام السبت، وكان الناس يأتون حتى من أشفيل ويشترون كيك القهوة الذي تصنعه إيلا».

«يمكنني أن أرى سبب ذلك». مسحت غرايس أصابعها في منديل ووضعته في الكيس، وتمنت لو أن سارة جلبت المزيد.

«أنا سعيدة لمرافقتك اليوم»، قالت سارة عندما أنهت تناول الكيك ومسحت يدها بالمنديل، «أريد أن أحدّثك عن النادي الاجتماعي».

عظيم. هذا آخر شيء تريد غرايس أن تتحدّث عنه. إن تناول الكيك والقهوة شيء، والحديث عن هذا شيء آخر. قالت غرايس لنفسها إن هذا الحديث بينهما سينتهي بسرعة إذا وصلت بسرعة.

وضعت كوب قهوتها في الحامل، ثم وضعت السيارة في وضعية الرجوع، وخرجت من الممر.

لم تُضع سارة الوقت، فبدأت تقول: «كنا نتحدث أنا وزوي هذا الصباح ونرجو ألّا تكوني قد انزعجت مما جرى في النادي».

أنزعج؟ كانت غرايس منتشية، «لماذا أنزعج؟»

«لا أظن أن الاجتماع جرى كما كنت ترغبين».

لكنّه كان كما كانت تريد. كانت تريد أن تتخلّص منه، وقد نجحت في ذلك. «أنا راضية تماماً عن النتيجة». كانت غرايس قد سلّمت إدارة النادي إلى زوي منذ أسبوع تقريباً (في الواقع، كان ذلك أشبه بـ»اضرب واهرب»)، لذلك تعرف غرايس ما الذي تريد أن تقوله لها سارة.

هذا غير مهم، فما جرى قد جرى، وهي سعيدة لأنه أصبح بإمكانها أن تركّز الآن على تنظيم مكتبها. «لا يمكن أن يكون النادي في أيد أفضل منها».

«هذا ما أقوله أيضاً». ابتسمت سارة ووضعت منديلها في الكيس الفارغ، «كنت أخشى أنّك ستزعجين، لكن يبدو أن الأمر غير ذلك».

«كنت مشغولة كثيراً فلم يكن عندي وقت لأفكّر بذلك. فعلى جميع البلديات أن تنقل سجلات الضرائب لديها إلى النظام الرسمي الجديد في نهاية الشهر، ولم تكلّف السّيدة فيلبس نفسها حتى أن تبدأ بعمل بذلك، لهذا السبب فأنا غارقة في العمل حتى رأسي».

«لعلها تأخرت في عمل ذلك؟»

«لا. كتبت ملحوظة على الملف، إلى الشخص الجديد، لا أنا».

أجفلت سارة، «هذا سيء».

«يبدو أن لديها ميولاً معينة».

«أكثر مما تعرفين. واو، هل تكره السّيدة فيلبس الكمبيوتر؟»

«تمرّ أوقات لا أحبّه أنا أيضاً، لكن التكنولوجيا تساعدنا كثيراً».

رشفت سارة قهوتها، وقالت: «كانت السّيدة جيانو محقّة. إنك تأخذين التحديات كما تأخذين بطّة إلى الماء لتشرب».

متفاجئة، نظرت غرايس إلى سارة. كان لون عيني سارة يميل إلى اللون الأخضر الرمادي الشاحب، حتى يكاد يكون لونهما فضياً، وبدا كأنهما تستطيعان أن تخترقاها، وسألتها، «متى كلّمت ماما جي؟»

«أتيت لزيارتكن عندما أنصرف من عملي باكراً»، قالت سارة زامّة شفتيها، «أظن أنه كان يوم الخميس عندما قالت لي إنك تحبين التحديات. كنّا نتحدّث عن البلدة وعن النادي الاجتماعي. لا أعرف إن كانت قد فهمت كلّ شيء، لأنه بدا لي أنها كانت تشرد كثيراً، وظلّت تناديني هانا». حدقت العينان الخضراوان الشاحبتان في عيني غرايس، «هل كانت تلك أختك؟»

تلاشى تأثير القهوة والكيك المهدئ وعاد الغضب الذي يعتري غرايس في الصباح عادة، ثم قالت: «نعم» وعضّت على الكلمة فبدا صوتها مثل صوت دُرجٍ يُغلق بقوة.

صمتت سارة لوهلة، ثم قالت: «هانا اسم جميل».

قبضت غرايس بيديها على المقود بقوة، وقالت «لا أريد أن أتحدّث عن أختي». هذا يمكن أن ينهي الموضوع.

«حسناً»، قالت سارة ورشفت قهوتها.

للحظة ساد صمت محرج، وبدأت غرايس تسترخي عندما قالت لها سارة: «من الجيد أن يكون لديك أخت تشبهك كثيراً».

يا إلهي. «قلت إنّني لا أريد أن أتحدّث عن ذلك».

ابتسمت سارة وقالت: «آسفة. لكني أعرف أنه لا بد أن الأمر صعب. إذا أردت أن نتحدّث عن ذلك، فأنا مستعدة».

قطبت غرايس حاجبيها وقالت: «لا يوجد شيء يمكن أن أقوله».

هزت سارة رأسها بتعاطف.

ثم أضافت غرايس بانزعاج شديد، «علماً أن هانا لا تشبهني، وأنا لا أشبهها. لا بد أن علاقتك مع أخواتك تختلف تماماً عن علاقتي مع أختي».

«ربما. أظن أن عائلتنا تميّزنا سواء أكنا نعرف ذلك أم لا. أقصد، انظري. فأنا أصغر أخواتي، وكانت ثياب أخواتي تنتقل إليّ. وكان الشيء الوحيد الجديد الذي أرتديه ملابسي الداخلية». بابتسامة واهية، مسدّت الثوب الطويل المتعدّد الألوان فوق ركبتها، «لذلك أصبحت أحبّ الثياب الدارجة كثيراً».

لم يكن بوسع غرايس أن تطلق على ما ترتديه سارة من ثياب أنها دارجة لكن كان عليها أن تعترف بأنّ ألوان ثوبها تنسجم مع لون بشرتها الفاتحة وشعرها الأشقر الرمادي. ومع ذلك، شعرت غرايس بمعاناة أن يضطر المرء إلى ارتداء ثياب مستعملة. كطفلتين تعيشان في بيوت رعاية، فقد ارتدت غرايس وهانا ثياباً مستعملة أكثر من أي شخص آخر.

وعلى الرغم من ذلك، لم يكن لهانا أي تأثير على غرايس، وإذا كان هناك أيّ تأثير عليها، فإن لا مبالاة هانا وطيشها دفع غرايس إلى أن تسير في طريقها المهني والمحافظ. ربما كانت هانا سعيدة عندما كانت ترتدي بنطلون جينز وقمصاناً قطنية مهترئة، أما غرايس فكانت تريد لنفسها أشياء أفضل، وهذا ما دفعها إلى أن ترتدي بدلات أنيقة، محافظة، بعكس هانا -

تجمّدت الفكرة في رأس غرايس. يا إلهي. سارة محقّة. فقد أثرّت فيّ هانا. وتساءلت غرايس ما هي الأشياء الأخرى التي أثّرت فيها أختها على حياتها، لكنها أدركت فجأة بألم أنه إذا كان ثمة تأثير من هانا عليها، فقد توقف كلّ ذلك الآن، لأنها ذهبت ولن تعود أبداً. أغرق الشعور بالحزن والوحدة غرايس فعضّت على شفتها لتحبس الدموع في عينيها.

لهذا السبب لم تكن غرايس تريد أن تتحدّث عن هانا. فلا تزال جميع أخوات سارة على قيد الحياة ويتمتعن بصحة جيدة، فكيف يمكن للحزن أن يتغلغل في نفسك، أو كيف يمكن أن يكون شعورك عندما تكونين الأخت الكبرى ثم فجأة لا تعودين أختاً على الإطلاق. كان ذلك كما لو أنّ ثقباً فُتح في ذاكرة الطفولة لدى غرايس.

لا بد أن سارة لم تكن تدرك تأثير كلماتها. أخذت رشفة من قهوتها وقالت: «بالمناسبة، هل أعطتك ليندا الكتاب؟»

ممتنّة لأنها بدأت تتحدث عن شيء آخر غير هانا، قالت غرايس، «أي كتاب؟ لا - أوه. نساء صغيرات. نعم أعطتني إياه». تذكرت غرايس أنه لا يزال في سلة الخبز. «هذا لطف منك، ومع أنّك كلّفت نفسك عناء إرساله إليّ، فلا يوجد عندي وقت لقراءته. كان عليّ أن أعيده إليك، لكنّي نسيت أن أحضره معي».

لوّحت سارة بيدها، وقالت: «ابقه عندك كما تشائين».

فابتسمت غرايس ابتسامة مصطنعة، وقالت: «حسناً، لقد قرأته عندما كنت طفلة، ولست مهتمة بقراءته الآن؟»

«مممم. ربّما هو مهتمّ بك».

بهتت ابتسامة غرايس. كيف يمكنها أن تجيبها؟ تذكّرت قسمات وجه ليندا الوجلة عندما كانت تتكلّم عن سارة دوف وعن كتبها. هذه البلدة غريبة الأطوار، ولن أكون جزءاً منها. ثم قالت، «سأعيد الكتاب إلى المكتبة غداً».

«بالتأكيد». لم تتردد نظرة سارة الواضحة إليها.

في تلك اللحظة، انعطفت غرايس بسيارتها إلى الشارع الرئيسي. كانت شمس الصباح تميل فوق المباني المشيدة من الآجر الأحمر وتضيء المظلات التي حال لونها.

«أحبّ أوقات الصباح»، قالت سارة بارتياح، «شكراً لأنك أوصلتني. هذا أفضل بكثير من أن آتي بالسيارة وحدي».

«لا توجد مشكلة». لقد حدث ذلك. لماذا أثارت سارة موضوع هانا؟ ومتى لن يعود الحديث عنها يؤلمني؟ لكن الأمر أكثر من ذلك، فلم يكن موت هانا يجعل غرايس تتألم، وإنما كان يجعلها تغضب. كانت لدى هانا أشياء كثيرة كي تعيش من أجلها - فقد كانت ابنتها وماما جي وغرايس يحببنها وكنّ سيفعلن أيّ شيء من أجلها، وكانت غرايس تتساءل كلّ يوم إن كانت أختها تبادلهن هذا الحبّ.

صفّت غرايس سيارتها في ساحة وقوف السيارات في مبنى البلدية.

لم تُبد سارة أي حركة لتأخذ أغراضها من السيارة، وقالت: «سأراك هنا بعد ظهر اليوم في الساعة الخامسة؟»

«لماذا - آه، حسناً لنعود إلى البيت معاً. ألا تغلق المكتبة في وقت مبكّر يوم الإثنين؟»

«تغلق المكتبة الساعة الرابعة، وسأبقى حتى الخامسة لأعيد ترتيب الكتب المعادة، ثم سأذهب إلى مقهى ضوء القمر وأطلب عشاء لتراف».

«تراف. أنت وهو...»

«لاااااااااا» ابتسمت سارة ابتسامة عريضة، «يا إلهي، لكنّي أحبّ أن أرى تعابير وجهه إذا سمعك تقولين هذا. إننا نعرف بعضنا منذ أن كنّا أطفالاً. أعتني به أحياناً لأن والده مات».

«إن ديزي معجبة به. أرجو أن يكون شخصاً مأمون الجانب».

«إنه شخص مأمون الجانب. لا بل إنه شخص ممتاز. ينجذب إليه الأطفال وهو لا يحب ذلك، فيحبّونه أكثر. أظن لأنه صادق بطريقته الفظة، وكما تعرفين فإن الأطفال يحبّون ذلك». ابتسمت لغرايس، وأضافت «يبدو أن ديزي طفلة عظيمة. إنك تبذلين جهداً كبيراً في تربيتها».

«لقد ربتّها ماما جي حتى الآن. لم تكن أختي أمًّا جيدة. صدقاً، بل إنها لم تكن أختاً جيدة أيضاً». بدا أنها شعرت بارتياح غريب عندما قالت ذلك بصوت عال. «لقد تركت هانا ديزي مع ماما جي منذ سنوات عدة، وعندما ماتت هانا، لم تتغيّر أشياء كثيرة على ديزي، لكن مرض ماما جي.... بدأ يغيّر أشياء كثيرة، وكان ذلك قاسياً جداً على ديزي».

«يبدو أنه قاس عليكّن جميعاً».

«نعم. آمل أن أعرف كيف يمكنني أن أجعل الأمور أسهل بالنسبة لديزي لكن...» هزّت غرايس رأسها، «لماذا لا يأتي الأطفال ومعهم دفتر إرشادات، مثل غسّالات الصحون والخلاطات؟ أظن أن الحياة ستكون أسهل بكثير».

ضحكت سارة، وقالت: «لست أنت الوحيدة التي تريد ذلك. لهذا السبب هناك ألف كتاب حول تربية الأطفال».

«قرأتها كلّها. بجدّ، عندما بدأت أدرك أنّ عليّ أن أتولى تربية ديزي، طلبت جميع الكتب التي تتناول تربية الأطفال التي وجدتها في المكتبات. يمكنني أن أقتبس منها إحصائيات ونظريات في علم النفس، لكن لا يفيد شيء منها عندما تحاولين أن تجعليهم يتناولون طعامهم. صدقاً، أشعر كأنني أتلّمس طريقي».

«ربما هي نفس المشاعر التي كانت تنتاب أباءنا. وما يزيد الأمور تعقيداً هو أن كلّ طفل يستجيب للأشياء بطريقة مختلفة. كان على أمّي المسكينة أن تعاني من هذه المشكلة سبع مرات».

ألقت غرايس نظرة فضولية على سارة، وقالت: «لأنه لا يوجد عندك أطفال، يبدو أنك تفهمينهم جيداً».

«ليس حقاً. لكن المكتبة تستضيف ساعة لقراءة قصص الأطفال، الأمر الذي أتلح لي الفرصة لرؤية معظم الأطفال في البلدة كلّ أسبوع، ولا تتصورين مدة تباين أذواقهم. فبعضهم يحبّون كتب المغامرات، وبعضهم يحبّون الفنتازيا، ويقرأ بعضهم القصص المصورة بالرسوم - من الجنون كم كتاباً مختلفاً يجب أن أبقي على الرفوف. كلّ طفل مختلف عن الطفل الآخر».

«نعم، إذا كنت تظنين أن ذائقتهم بالكتب متنوعة، فيجب أن تسأليهم عن أنواع الخضراوات التي يحبّونها».

ابتسمت سارة وقالت: «أخاف أن أفعل ذلك. لكن يبدو أن ديزي ليست في وضع سيئ، وهذا يعني أن تربيتك لها جيدة».

فقالت غرايس، «شكراً. أرجو ذلك». في عملها السابق، يمكن أن يؤدي أي خطأ ترتكبه إلى خسارة المستثمرين في الشركة ملايين الدولارات، وكان ذلك يشكل ضغطاً كبيراً عليها، لكن بدأت تتحمّل مسؤولية تربية طفلة بدأت تقلق بأنها إذا ارتكبت أي خطأ فإن ذلك قد يفسد حياة ابنة أختها طوال حياتها. لا تستطيع أن تحتمل هذه الفكرة. أرخت غرايس حزام مقعدها وفتحت الباب بجانبها، وقالت: «شكراً للقهوة والكيك».

«أهلاً بك. شكراً لأنك أوصلتني». بدأت سارة تجمع أغراضها.

نزلت غرايس من السيارة، ووقفت لتأخذ حقيبتها ومحفظتها.

علّقت سارة حقيبتها الثقيلة على كتفها، وقالت: «يجب أن أتوقّف عن أخذ كتب كثيرة معي إلى البيت».

«وأنا أضطر إلى أن آخذ قليلاً من العمل أيضاً إلى البيت، مع إنني أحاول ألّا أفعل ذلك».

«هذه الكتب ليست عملاً»، قالت سارة وربتت على حقيبتها وهي تسير نحو الرصيف، «إنها تحب أن تزورني».

حسناً، هذا شيء خاصّ، شيء يقترب من حافة الجنون. «إنها أصدقاؤك، الكتب».

«يمكنك أن تقولي ذلك. مع أنها ليست أصدقاء مثلنا».

«لقد التقينا للتو. لست متأكّدة إن كان هذا يجعلنا صديقتين».

«سنصبح صديقتين، أنا وأنت. صديقتان جيدتان. من النوع الذي يذهب إلى جنازة إحدانا الأخرى».

ضحكت غرايس وقالت: «لا توجد طريقة تستطيع فيها إحدانا أن تحضر جنازة الأخرى. هذا مستحيل من الناحية الجسدية».

ابتسمت سارة وقالت: «أستشّف من ذلك بأنك لا تؤمنين بالأشباح».

«لا، لا، أومن بها. لكن ماما جي تؤمن بها. على الأقل أشباح القطط. فقد أصبحت ترى قطّتنا القديمة التي ماتت منذ سنوات».

«حقاً».

«نعم، إنها تتخيّل هذه الأشياء، هذا كلّ ما في الأمر». أقفلت غرايس باب سيارتها ولحقت بسارة على الرصيف. «لا أظن أنك تؤمنين بالأشباح».

«أنا أؤمن بالاحتمالات، وهذا أحدها؟»

الاحتمالات. فكّرت غرايس قليلاً وأدركت أنّها لم تؤمن بذلك منذ زمن بعيد. «هل رأيت شبحاً في حياتك؟»

«لا»، اعترفت سارة آسفة. «وهذا شيء سيء. يقولون إن المكتبة تغصّ بالأشباح لكنني لم أر أياً منها».

«لو رأيت شبحاً لهربت على الفور».

«سيصبح هذا فيلم رعب قصير». لمعت عينا سارة الشاحبتين بمرح، وأطّرت يديها كما لو أنها تصوّر فيلماً. «الإطار الأول: أنت، تمشين في الشارع».

«بحذاء ذي كعب عال. أفلام الرعب تُري دائماً امرأة في حذاء بكعب عال وهي تركض. إذا كان الحذاء من ماركة لوبوتينس، فأنا مستعدة لتقديم هذه التضحية».

«حذاء بكعب عال. المشهد الثاني: شبح يظهر فجأة».

تظاهرت غرايس بأنها ستصرخ، مع أنه لم ينبعث منها أيّ صوت.

«تماماً، لكن بصوت أعلى. المشهد النهائي: أنتِ تهربين».

«النهاية». عندما بدأت غرايس تسير باتجاه مبنى البلدية، غذّت سارة خطواتها نحوها حتى أصبحت بجانبها، وقالت: «سنواجه مشاكل تتعلق بالإنتاج. فإذا كنت أركض هاربة من شبح، فلن يستطيع المصوّر اللحاق بي».

ضحكت سارة، وقالت: «هل لاحظتِ أنّ الأشباح في الأفلام تكون غاضبة عادة؟ فإمّا أن يكون أحدهم قد بنى بيتاً فوق قبر أحد تلك الأشباح، أو أن رغباته الأخيرة لم تُنفذ، أو أن أمّه جعلته يرتدي ثياباً غريبة كطفل - يا إلهي، الأشباح في الأفلام تكون غاضبة من أشياء مختلفة. لكن هذا الغضب هو الذي يجعلها مخيفة. عندما يكون الناس غاضبين، فإنهم يصبحون مخيفين أيضاً».

لم تستطع غرايس أن تجادل في ذلك. «ربما لهذا السبب أحذر من جارنا. فهو يبدو غاضباً باستمرار».

«تراف شاب عابس، لكنّه طيب في داخله ولطيف المعشر».

«لماذا هو عابس دائماً؟ لا أظن أنني رأيته يبتسم قط».

لانت قسمات سارة وقالت: «لقد غيّرته أفغانستان. فقد أصيب بجروح بليغة وفقد عدداً من رفاقه. لا أعرف شيئاً أكثر من ذلك لأنه يرفض التحدّث عنها».

لم تبذل غرايس أيّ جهد حقيقي لتتحدّث مع تراف. ففي سعيها المحموم لحماية ديزي، لم تكن غرايس تفعل شيئاً سوى أن تحدّق به. وقد أطلقت حكمي عليه من شعره الطويل وأوشامه ولم يكن ينبغي لي أن أفعل ذلك. «رأيت ندوباً على رقبته».

«الندوب التي على كتفه وظهره أسوأ بكثير»، قالت لها سارة، «وهو لا ينام جيداً. فعندما أستيقظ في صباح كلّ يوم، أرى النور مضاء في بيته، مهما كان الوقت مبكراً. وأنا أعتني به عندما أستطيع، وهذا لا يحدث كثيراً». نظرت سارة بطرف عينها إلى غرايس وسألتها، «هل تركت أصدقاء كثيرين عندما انتقلتِ إلى هنا؟»

توقّفت غرايس عند معبر المشاة المؤدي إلى المكتبة، وقالت: «كنت أعمل من عشر ساعات إلى اثنتي عشر ساعة في اليوم، فلم يكن عندي وقت للأصدقاء». ولا يوجد عندي وقت الآن.

نظرت أسفل الشارع حيث غمرت شمس الصيف الرصيف، وبدأت ضفائر صغيرة من السحب تتصاعد لكنها سرعان ما تتلاشى في هواء الصباح. كانت جيوب من الضباب لا تزال قابعة في الزوايا ثم تحوم فوق العشب الرطب في الحديقة الكبيرة، فأصبح الشارع الذي يلمع بنور الصباح ناعماً وجميلاً، مثل لوحة.

الجو هادئ فعلاً في هذه البلدة الصغيرة. لكن هذا لا يكفي، فسرعان ما سيأتي الوقت لتعود إلى العالم الحقيقي، حيث تستطيع أن تضع بصمتها وتخطّط لمستقبل جيد لديزي، وإذا أمكن لماما جي. ابتسمت غرايس لسارة ابتسامة مهذبة ومدّت يدها لتصافحها، وقالت: «شكراً مرة أخرى على القهوة والكيك. كانا رائعين». وقد جعلا يومي مشرقاً أكثر أيضاً. ولو قليلاً على الأقل.

فترت ابتسامة سارة عندما رأت يد غرايس ممدودة لمصافحتها بطريقة جادة، لكنها قبلتها بعد تردد. «من دواعي سروري»، ابتسمت وسوّت حقيبة كتبها على كتفها، ثم قالت: «انظري. بقيت معي كمية كافية من الكيك من أجل اجتماع النادي الاجتماعي بعد ظهر اليوم».

«سيتمتّعون بها»، قالت غرايس ساهمة وهي تفتش عن مفاتيح مكتبها في محفظتها، «حسنا، كان وقتاً ممتعاً. أراك بعد ظهر اليوم عندما نعود إلى البيت. الساعة الخامسة، صحيح؟»

«سأراك قبل ذلك - أوه. هناك أحد ينتظر عند المكتبة».

تبعت غرايس نظرة سارة إلى درج المكتبة، وقالت: «يبدو أن أول زبون قد وصل».

«إنها ليزا رينفرو. اتصلت بي البارحة وطلبت مني أن أضع لها جانباً كتاب ماري أليس مونرو الجديد. لكن يجب أن أعطيها كتاباً عن تخمير الجعة أيضاً».

رمقت غرايس المرأة النحيفة الزّامة شفتيها الواقفة تنتظر بضجر أمام المكتبة. كانت ترتدي ثوباً أزرق داكناً وحذاء مسطحاً، وكان وجهها ملتو كما لو كانت دائمة التجّهم. «هل تصنع الجعة؟»

«لا. ليزا لا تشرب الكحول. أعرف ذلك لأنها تذهب إلى الكنيسة التي أذهب إليها وتقول للجميع إنها لا تشرب مشروبات كحولية أبداً».

«إذاً لماذا تحتاج إلى كتاب عن تخمير الجعة؟»

ابتسمت سارة وقالت: «لا أعرف. لكن يجب أن أدعها تدخل. سأراك بعد ظهر اليوم». عبرت الشارع، ونادت ليزا وهي تمشي.

هزّت غرايس رأسها. لم تفهم سارة دوف على الإطلاق. عندما سترافقها مساء إلى البيت، ستقول لها غرايس إنه على الرغم من أن مرافقتها لها كانت ممتعة فهي لا تستطيع أن تفعل ذلك دائماً. لإن تحضير ماما جي وديزي في الصباح قبل أن تأتي ليندا يشكل تحدياً كافياً ولا تريد ضغطاً آخر وتتعرف على شخص ينتظرها كلّ يوم.

مع أنني سأشتاق إلى الكيك والقهوة. سارت غرايس على الرصيف باتجاه مبنى البلدية، ولاحظت الآن أنّ لون الأزهار في الحوض أصبح أرجوانياً عميقاً رائعاً. وهو لونها المفضّل. يجب أن أتذكر أن أسأل ليني عن نوع هذه الأزهار. عندما مدّت غرايس يدها لتفتح الباب، فوجئت بأنه كان مفتوحاً.

هذا شيء غريب. فهي أول من يصل في الصباح عادة إلى المبنى، وقلما يأتي رئيس البلدية مور قبل الساعة العاشرة.

مندهشة، دخلت إلى مكتبها. ما إن أُغلق الباب وراءها حتى ظهر السيد مور عند مدخل مكتبه. كانت ثيابه في حالة فوضى، شعره مشعث كما لو كان قد مرر يديه فيه مليون مرة. ولم يكن يرتدي سترته، وربطة عنقه تتدلى محلولة حول رقبته، وقميصه وبنطال بدلته مجعّدة بشكل يثير الرثاء.

تجهّم وجهها، وسألته، «هل نمت هنا؟»

«ماذا؟ أنا...لا. أقصد نعم، لكن هذا الصباح فقط. لم أنم طوال الوقت».

«لم أرك هنا قط في هذا الوقت المبكر». وضعت حقيبتها بجانب منضدتها، وفتحت الدرج السفلي وألقت فيه محفظتها، «هل هناك مشكلة؟»

بدت ابتسامته الآن متكلفة وجامدة، وقال: «يجب أن نتكلّم»، وأومأ إليها باتجاه باب مكتبه. «تفضلي واجلسي».

«ماذا في الأمر؟»

ازدادت ابتسامته الجامدة توتُّرا، ثم ضحك ضحكة متكلفة وقال: «أنتِ صريحة، سأقول لك».

«وهذا شيء يجب أن تعتاد عليه. فلم ألتق بالسّيدة فيلبس إلّا مرة واحدة، لكنّها لم تعطني الانطباع بأنها من ذلك النوع من النساء التي تتجنب أن تخوض في الموضوع مباشرة».

استرخت ابتسامته، وهمهم شيئاً غير مفهوم قبل أن يقول بنبرة حزينة، «تفضلي ادخلي. الأمر في غاية الأهمية. أعرف أن لديك أعمالاً كثيرة...»

«إذاً لاحظت».

«تقولين ذلك كثيراً، نعم لاحظت». بدا أنه لم يدرك أنه أشعل نيرانها مرة أخرى. «انظري، عندنا حالة طوارئ. حالة سيئة».

وبطبيعة الحال، يريدني أن أصلحها، مهما كانت. تبعته على مضض إلى مكتبه وجلست في الكرسي أمام طاولة مكتبه. «ما هي حالة الطوارئ؟»

أصدر كرسيه صريراً عندما ألقى بنفسه عليه. «لقد حدث شيء. شيء أنا...». ومرّر يده في شعره وشعّث ما تبقى من شعره، «حتى أنني لا أعرف كيف بدأ ذلك أو من اقترح... أظن أن هذا ليس مهماً. لكنني - أقصد أننا... يجب أن نضع لها حداً وبسرعة».

«نضع حداً لأي شيء؟»

أسند مرفقيه إلى طاولة مكتبه، ولامس رؤوس أصابعه معاً، ونظر إليها كما ينظر المرء إلى نمر محبوس في قفص. «أنا رئيس البلدية منذ ثلاث وعشرين سنة وخضت خمس انتخابات وفزت بها كلّها».

«تهانيّ». لاحظت غرايس وضعية أصابع يديه المتلامسة وافترضت أنّه لا بد رأى هذه الحركة في أحد الأفلام، لأنها أصدرت صوتاً مجوفاً كما تضرب ملعقة على طاسة فارغة.

«أدرتُ حملات ناجحة. رفعت لافتات، أجريت زيارات، تكلّمت في الكنائس والجمعيات والمنظمات وإلى كلّ من أراد أن ينتخبني. إنك لا تتوقفين عن القيام بذلك، كما تعرفين. عمل تقومين به طوال أربع وعشرين ساعة على مدى الأسبوع». ثم تلاشى شيء من شعوره بالتوتر وراء سحابة مهدّئة من الرضاء الذاتي. «وحتى الآن أحضر المناسبات التي يقيمونها في الكنائس، وأوزّع الحلوى في المهرجانات، وأقبّل دائماً، دائماً الأطفال الصغار الذين أراهم، مع أن» - انزلقت ابتسامته قليلاً - لا يكون سهلاً كما قد يبدو».

ربما لا. انتظرت، لكنّه لم يقل شيئاً، يبدو أنه تاه في قائمة عقلية وراح يتذكّر الأطفال الصغار الذين قبّلهم. «رئيس البلدية؟ قلت إن هناك حالة طارئة. لم أسمع حتى الآن شيئاً سيئاً».

«أوه»، رمش بعينيه، «آسف. كنت أفكّر. لكنّك على حقّ. إنها حالة طوارئ. وهي بالفعل كذلك، لذلك...» بلّل شفتيه كما لو كانتا جافتين. «لقد أدرتُ كلّ تلك الحملات - وكانت كلّها ناجحة. السنة القادمة، سأرشّح نفسي مرة أخرى». نظر إليها ملياً، «يمكنك أن تري إلى أين تسير الأمور».

لا، لم تكن ترى شيئاً. «أريد بعض المعلومات».

«طبعاً. طبعاً». هزّ رأسه كما لو كان يعرف بحكمة أنّها ستسأله هذا السؤال. «لا أعرف كيف، لكنّي لا أرى أن هذا سيحدث، فأضع أذني عادة على الأرض، أبحث عن هذا النوع من الأشياء». أخذ نفساً مضطرباً، عميقاً، وأضاف، «في الأسبوع الماضي، سمعت إشاعات، غامضة في البداية، حتى رأيت ذلك بأمّ عيني... الآنسة ويلر، لدينا حالة، حالة صعبة جداً».

يا رب امنحني الصبر! هل يستطيع أن يتكلّم في مزيد من الدوائر؟ «عن أي شيء نتحدّث هنا؟ عن الأوبئة؟ الجراد؟ أم هل انتقلنا مباشرة إلى وفيّات الأولاد البكر».

«لا يمكن المزاح في هذا الأمر»، قال لها، وتلاشت ابتسامته الدائمة تماماً، «الآنسة ويلر، أمامنا وضع في غاية الأهمية، وضع لا يستطيع أحد أن يحلّه إلّا أنت».

«أنا؟ كيف؟»

«النادي الاجتماعي».

ماذا؟ فجأة، لقد أخذت القهوة وقطعة الكيك هذا الصباح معنى شرَّيرا. «ماذا عن النادي الاجتماعي؟» تركت كلّ كلمة صقيعاً معلَّقا كانت على يقين بأنها تستطيع أن تقطع منها قطع ثلج.

أجفل ثم تمالك نفسه ليقول شيئاً بسرعة، كما لو أنه إذا تكلّم بسرعة، فإنه لا يزعجها، «يجب أن تصبحي رئيسة النادي الاجتماعي».

«لا».

«نعم. لا أعرف ما الذي حدث في ذلك الاجتماع، لكن...»

«إنك تعرف تماماً ماذا حدث في ذلك الاجتماع. لقد أخبرتك بذلك في نفس اليوم، وضحكت وقلت، ممتاز».

تضرّج وجهه ولوّح بيده وقال: «كنتِ قد قلتِ شيئاً، لكنّي لم أفهم تماماً ما الذي جرى. فهمت أنك أعطيت رئاسة النادي إلى زوي بيل».

«نعم، أنت فعلت ذلك. قلتُ بوضوح شديد...»

«لم أكن أصغي جيداً آنذاك». أخذ نفساً مرتعشاً وضغط بأطراف أصابعه على صدغيه كما لو كان يخشى أن ينفجر رأسه. «انظري، آنسة ويلر، أريدك أن تذهبي وتحضري اجتماع النادي وتستعيدي رئاسة النادي».

«لا أستطيع. زوي بيل أصبحت رئيسة النادي».

«أعرف ذلك. وهنا تكمن المشكلة». عاد وخلّل يده في شعره، وبدا أنه يفكّر بأن يقتلع ما تبقى من شعره من جذوره، ثم أضاف، «من بين كلّ الناس الذين يترأسون النادي، فهي الأسوأ على الإطلاق».

ما الذي يجري؟ شعرت غرايس بأنها تتبادل مع رئيس البلدية حديثين مختلفين تماماً، حديثها باللغة الإنكليزية وحديثه باللغة الدوثراكية، ثم قالت: «زوي نائب رئيس البنك المحليّ، وهذا يعني أن لديها اتصالات ممتازة ولديها قدرة جيدة على إدارة العمل. بالإضافة إلى أنها امرأة ودودة وذات كفاءة عالية. إنها أفضل شخص يمكن اختياره لـ...»

«لا أريد أن أسمع كلمة ملعونة أخرى بأن زوي بيل هي الشخص المثالي لهذا المنصب. يجب أن تذهبي إلى الاجتماع بعد ظهر اليوم وتستعيدي رئاسة النادي».

«لن أفعل ذلك».

«بل ستفعلين»، انحنى نحوها، وجهه أحمر، عروقه بارزة في جبينه، «ستترأسين اللجنة، وستخطّطين لمهرجان التفاح، وستتظاهرين بأنك تستمتعين بكل ذلك وتبتسمين كثيراً حتى يظن الجميع بأنك أنت ومن يعمل في هذا المكتب، تبثين روح الحياة».

«وإذا لم أفعل ذلك؟» سألته بتشنج.

ازداد وجهه احمراراً، وقال: «إذا رفضت ذلك فإني سأضطر إلى أن أتخلّى عن خدماتك». صرّ صوته في الكلمة الأخيرة.

تملكتها رغبة عارمة في أن تنهض وتغادر المكتب وتترك هذا العمل التي لم تكن تريده أصلاً، وكانت تتمنّى أنها لم تحصل عليه أصلاً، لكن الحياة لم تمنحها خيارات عديدة مؤخراً، وترك عملها الآن ليس خياراً جيداً.

«آنسة ويلر، أرجوك. لا أريد أن أطردك من العمل. حقاً لا أريد. فأنت موظفة استثنائية. لم أر السجلات مرتبة هكذا منذ زمن! لكن... انظري، فأنا مسؤول منتخب أولاً وأخيراً».

«وماذا يعني ذلك؟»

«يعني»، نظر إلى الباب المفتوح. نهض وذهب إلى الباب وأغلقه، ثم عاد وألقى بنفسه في كرسيه مثل كيس رمل رطب، كتفاه متهدلان، «أنكِ إذا لم تستعيدي رئاسة النادي، فقد أفقد منصبي».

«كيف؟»

«سيترشح أحدهم ضدّي في الانتخابات القادمة، وهذا شيء لم يحدث من قبل».

«انتظر. لم يترشح أحد ضدّك من قبل؟ ولا مرة؟»

فقال: «لا. حسناً، دار كلام في إحدى السنوات بأن السّيد فيلبن صاحب مخزن البذور والعلف على الطريق السريع ٢٠، يمكن أن يرشّح نفسه، لكن لحسن الحظ مات قبل أن يحصل على العدد الكافي من التواقيع».

«لحسن الحظ؟»

احمرّ وجهه وقال: «تعرفين ماذا أقصد. لكن يدور حديث الآن بأن شخصاً آخر يفكّر في الترشح للمنصب».

«من يمكنه أن يرشّح نفسه لمنصب رئيس البلدية له علاقة بـ... أوه لا... زوي بيل».

هزّ رأسه بشكل بائس.

«إنك تمزح».

«إنها ستفعل ذلك». تقدّم وجلس على حافة كرسيه، وأضاف، «الأسبوع الماضي كنت في البنك أنتظر دوري لأدفع قسط القرض العقاري وسمعتها تقول لإحداهن إنها كلّفت شركة لكي تجري لها دراسة تسويقية حول مشروع خاصّ».

«و...؟»

«ما إن رأتني حتى سكتت وابتعدت بسرعة كما لو أنها انزعجت لأنني سمعت ما قالته».

«ربما كانت تتحدّث عن أيّ شيء».

«في اليوم التالي، رأيتها في مكتب البريد تسأل مارك روبنسون عن تكلفة إرسال رسائل جماعية إلى جميع الناخبين المسجّلين».

«صحيح؟»

هزّ رأسه، وقال: «أترين؟ وبعد يومين رأيتها في الصيدلية تشتري دفاتر وأقلاماً».

«وماذا يعني ذلك؟»

فقال متبرماً: «يجب أن تقدم عريضة لتحصل على بطاقات الاقتراع، وكان سلوكها غريباً عندما رأتني. كنت لا أزال آمل أن أكون مخطئاً، وأن كلّ ذلك كان محض مصادفات. لكن في عطلة نهاية الأسبوع هذه، تأكدت لي أسوأ شكوكي. ولم يعد عندي أدنى شكّ حول هذا الأمر».

«ما الذي جرى؟»

«رأيتها في باحة بيت كات كارتر التي تسكن في نفس الشارع الذي أقيم فيه، ويقع بيتها قبالة بيتي. رأيت لافتتين في باحة منزلها، وكانتا تقارنان بينهما وتتحدّثان عنهما. عندما لاحظتا أنني رأيتهما حاولتا إخفاء اللافتتين في صندوق سيارة زوي، لكن واحدة منهما سقطت من يد كات فرأيتها بوضوح. كان مكتوب عليها «زوي بيل مرشحة لرئيس البلدية: بداية جديدة»» هزّ رأسه كما لو كان ينفض ما رآه من عينيه. «لا يمكن أن يحصل ذلك. عائلة بيل عائلة عريقة جداً في دوف بوند، وإذا ترشّح أحد من عائلة بيل لمنصب رئيس البلدية، حتى قطّتهم، فمن المؤكد أنه سيفوز».

«إنك تبالغ».

«لا، لا أبالغ. نصف سكان هذه البلدة يدينون لهم بنقود، وهم يملكون أموالاً تكفي لشراء أيّ صوت، وقد زادت الأمور سوءاً عندما تركتِ زوي تتسلّم إدارة النادي الاجتماعي. فهي ستدّعي أنها خبيرة في ذلك أيضاً».

«إن تنظيم مهرجان شيء وإدارة بلدة شيء آخر».

«الناخبون لا يعرفون ذلك. إنه البرنامج المثالي حتى تلقي بي إلى خارج هذا المنصب. لا يوجد لديّ أدنى شكّ بأنها ستقيم أفضل مهرجان للتفاح في تاريخ البلدة، ثم ستطوف في أرجائه وتوزع

منشورات على الناس وتقبّل الأطفال الصغار وتتصرّف كما لو كان ذلك حفل انتخابها»، ثم دمدم لاعناً، «يجب أن نستعيد منها الرئاسة»، ونظر نظرة تشي بالاتّهام إلى غرايس، وقال: «يجب أن تستعيدي منصب الرئاسة».

«كيف؟»

«ستذهبين إلى اجتماع النادي الاجتماعي بعد ظهر اليوم وتستعيدين هذا الشيء اللعين. قولي لهم إنك لم تعرفي ماذا كنت تقولين لأنك كنتِ مريضة، أو كنت تهلوسين لأنك كنتِ جائعة، أو أن رأسك كان يؤلمك، أو - اللّعنة - لا يهمّني ما الذي ستقولينه، فقط استعيدي رئاسة النادي».

لا أستطيع».

«يجب أن تفعلي ذلك. إنها حرب يا آنسة ويلر. وسأكون ملعوناً إذا تركتُ أحداً من عائلة بيل، حتى لو كانت امرأة جميلة مثلها، يسرق منصبي».

«لا أظن أن الترشح لمنصب عام في انتخابات عادلة يُعتبر سرقة».

عقد يديه معاً، وبدأ غضبه يتلاشى ليحلّ محله يأس محض. «آنسة ويلر، أرجوك، أرجوك، أرجوك. افعلي ذلك من أجلي - وسأمنحك أيام عطلة إضافية أو - أو سأطلب لك طاولة مكتب جديدة. ربّما، إذا غيّرت بعض البنود في الميزانية وقللنا من زينة عيد الميلاد هذه السنة، أستطيع أن أزيد راتبك قليلاً و...»

«وو! لا يا سيدي. هذه رشوة محضة وهذا شيء غير شرعي، ولن أكون السبب في عدم تزيين البلدة بمناسبة عيد الميلاد، هذا خطأ فظيع».

تهدّل كتفاه، وبدت عيناه الزرقاوان النديتان أشدّ حزناً من عيني أيّ جرو رأته في حياتها. «ماذا سأفعل؟»

«لماذا لا ترشح نفسك لهذا المنصب بشكل حقيقي هذه المرة؟ ابحث عن القضايا التي تجذب الناخبين؟»

نظر إليها كما لو أنها اقترحت عليه أن يقطع رأسه ويعلّقه على إحدى خطّافات صنارات صيد السمك لديه.

«ألا يناسبك هذا؟» قالت بجفاف.

«لن يساعد ذلك. كما قلت لك فإن لدى عائلة بيل تأثير كبير على هذه البلدة، ولا توجد قضايا كافية في العالم يمكنها أن تتغلّب على هذه الميّزة الضخمة التي تتمتع بها».

هزّت غرايس رأسها كما لو أنها وافقت، لكنها لم توافق بعد. بدا لها شخصاً مهزوماً. ورغماً عنها، شعرت بالأسى عليه. فعلى الرغم من ضعفه، فهو شخص لطيف، أناني أحياناً، لكنّها متأكدة بأنه لم يُخف ذبابة.

يريد للمهرجان أن يقام، حسناً، ستنتظم المهرجان، لكنّها لن تقبل بأن تقوم بعمل آخر من دون أن تحصل على مقابل. فكّرت في الموضوع للحظة طويلة، ثمّ قالت له أخيراً، «أريد إجازة بعد ظهر أيام الجمعة».

أزهر الأمل في وجهه المكفهر، وقال: «هذا ممكن، كما أظن».

«ولكي ننهي العمل بسرعة يجب أن تُدخل البيانات في الكمبيوتر لمدة أربع ساعات كلّ يوم».

رمش بعينيه وقال: «عفواً؟»

«كلّ يوم».

«الآن، انتظري دقيقة...»

«سأستعيد رئاسة لجنة المهرجانات، وستقوم أنت بإدخال البيانات صباح كلّ يوم».

«وماذا ستفعلين في الصباح؟»

«سأقوم بعملي: تسجيل الضرائب، تصنيف الرخص، وتحدّيث سجلات الناخبين...»، وألقت عليه نظرة متبرمة، «أنت تعرف ما هو توصيف وظيفتي».

صمت للحظة، ثم قال: «سأُدخل جميع البيانات؟»

« كلّها بدون استثناء».

غاص في كرسيه، وقال: «لا أستطيع أن أفعل ذلك، فأنا رئيس البلدية، ولست أمين السجل. إن إدخال البيانات مهمتك».

«وإدارة الانتخابات مهمتك».

«لا أستطيع أن أُدخل البيانات. يجب أن أكون هنا صباح كلّ يوم و...» هزّ رأسه، وبدا مثل طفل لم يُسمح له بأن يأخذ مصاصة، «لا».

«حسناً»، قالت ونهضت واقفة، «إذا لم تكن تريد مني شيئاً آخر، فإني سأعود إلى عملي. سأساعدك في حملتك الانتخابية إذا وافقت على إدخال البيانات».

عندما وصلت إلى الباب ووضعت يدها على مقبض الباب، صاح، «انتظري».

التفتت وعقدت ذراعيها.

«حسناً، حسناً»، قال، وقد بدا نزقاً مثل ديزي، «سأُدخل البيانات الغبية».

«وسأحصل على نصف يوم عطلة كل يوم جمعة؟»

«ساعتان، لهذا الشهر فقط».

«ثلاث ساعات كلّ يوم جمعة حتى تبدأ مدرسة ديزي».

«انظري، إنك تحصلين للتو على...»

«قل نعم وإلّا فإنني سأخرج».

دمدم شيئاً، وبدا غاضباً، لكنه أومأ بعد لحظة إيماءة خفيفة، وقال: «حسناً، حسناً. كما تريدين. فقط لا تدعي زوي تصبح المسؤولة عن المهرجان».

«اتفقنا. لكنّي لا أعرف كيف يمكنني أن أقنعها بأن تتخلّى عن منصبها الآن - كانت تريده كثيراً - لأنها رفعت يدها في اللحظة التي سألت فيها من يريد أن يشغل منصب رئيس النادي».

«أنا متأكّد بأنها قفزت من فوق كرسيها. مع أن زوي بيل جميلة جداً، لكنّها قاسية جداً تحت تلك الطبقة المطلية بالأصبغة. إنها تشبه والدها».

لكن غرايس هي ابنة ماما جي الأفضل. «سأفكّر في الأمر. هل تعرف متى سيبدأ الاجتماع؟»

«الساعة الثالثة».

«جيد. أمامي سبع ساعات قريباً لأحضرّ له، أليس كذلك؟»

«اذهبي»، وضرب بقبضته على طاولة المكتب كما لو كان يختم موافقته. «اذهبي وأريهم أنّ زوي بيل ليست المرأة القاسية الوحيدة في هذه البلدة كالمسامير. إني أومن بك يا غرايس ويلر. إنها حرب، وأعرف أنّك لن تخذليني».

فكّرت غرايس بألف شيء يمكن أن تقوله ردًّا على ما قاله، ولم يكن أحد تلك الردود مهذباً بما يكفي، وإنما قالت: «سأجلب لك الملفّات لتُدخل البيانات الآن».

اضطربت ابتسامته، وقال: «ألا يمكننا أن نبدأ غداً؟ كنت أريد أن أذهب إلى الصيد».

«إذا بدأت العمل الآن، فإنك تستطيع أن تذهب في فترة الغداء وتصطاد السمك طوال فترة بعد الظهر». متجاهلة عبوسه، عادت إلى طاولة مكتبها وجمعت كومة الملفّات الضخمة وعادت إلى مكتبه. استغرقت أكثر من ساعة لتعلّمه كيف يبدأ عمله لأنه لم يكن يعرف شيئاً عن نظام الكمبيوتر الجديد. وبدأ عمله الشاق بتذمر.

عندما عادت إلى مكتبها، شعرت بالسعادة لأنه أصبح خالياً من أكداس الملفّات الثقيلة التي كانت تجعله ينحني إلى الأسفل. ماذا يجب أن تفعل أولاً؟ لو كان الملفّ المتعلّق بالمهرجان معها الآن، لبدأت بدراسته ووضعت قائمة شاملة بما يجب عمله، لكنّها أعطت الملفّ إلى زوي في الاجتماع الماضي. وقالت غرايس لنفسها إن أقلّ ما يمكنها أن تفعله هو أن تطلع بسرعة على ميزانية الاحتفال، وأدركت أن الميزانية الحالية للبلدة ستوفر لها تلك المعلومات.

أين رأت ملفّ الميزانية السنوية؟ آه، نعم. إنها في الملفّ بعنوان «مواد». هزّت رأسها لعدم تنظيم السّيدة فيلبس وراحت تبحث في حقيبتها عن مفاتيح خزانة الملفّات. فجأة وجدت شيئاً ثقيلاً فوق المفاتيح.

عندما سحبته، فوجئت بأنه كتاب «نساء صغيرات»، نفس الكتاب الذي تركته في سلة الخبز منذ أكثر من أسبوع. كيف جاء إلى حقيبتي بحق السماء؟ أنا لم... آه. ماما جي. البارحة وجدت غرايس فرشاة شعر ماما جي عالقة في فتحة المدفأة. لا تعرف كيف حدث ذلك.

أخرجت غرايس المفاتيح وأعادت الكتاب إلى حقيبتها ووضعتها بجانب الطاولة. لعل ماما جي رأت الكتاب وتذكّرته لأنها بدأت تعيش في الماضي، وقد ذكّرها كتاب «نساء صغيرات» ببيتها في ويتلو.

نهضت غرايس وفتحت خزانة الملفّات. وجدت الميزانية وعادت إلى طاولتها. عندما جلست، تذكرت ما قاله لها رئيس البلدية بأن زوي بيل تنوي ترشيح نفسها لهذا المنصب وبدا لها أن هذا شيئاً جيداً. لكن شكوكاً ساورتها وتساءلت إن كان هناك شيء غامض لا تعرفه في كلّ ذلك. لكن ما هو؟

استعادت الحديث في ذاكرتها، وتذكّرت الاجتماع القصير الذي رحّبت فيه زوي على الفور بأن تتسلم رئاسة النادي. كان كل شيء يسير على ما يرام...وسقطت نظرتها بشرود على حقيبتها ورأت غلاف الكتاب الأصفر بعكس لون الغلاف الغامق في السابق.

عندما وصلت غرايس وهانا إلى بيت ماما جي في البداية، كانت ماما جي تقرأ لهما كلّ ليلة قبل أن تأويا إلى الفراش صفحات من رواية «نساء صغيرات». وكانت هانا التي لم تقرأ شيئاً قط، تغطّ في النوم بعد الصفحات القليلة الأولى، أما غرايس فكانت مفتونة بحياة عائلة مارش. فقد كانت علاقة الأخوات وثيقة جداً وتحبّ أحداهن الأخرى، وكانت الأمّ الرقيقة تعتني ببناتها. وحتى عندما كنّ يتشاجرن، كان حبّهن يزداد قوة. كانت غرايس تريد أن تكون عندها عائلة كهذه. وتستطيع حتى الآن أن تردد منها فقرات طويلة، لاسيما المسرحيّات التي كانت جو وأخواتها يحببن أن يؤدينها لأمّهن.

عندما رأت غرايس الكتاب خطرت لها فكرة ساحرة. تشكّلت الفكرة فجأة وتبلورت بوضوح شديد حتى كادت أن تراها أمامها.

أخرجت غرايس الكتاب من الحقيبة، ووضعته في حضنها وراحت تحدّق به. لا يمكن أن يفعلن ذلك، قالت لنفسها. لا يمكن.

لكنهن فعلن ذلك. كانت متأكّدة من ذلك كما لو أنها تراه أمامها. «مكائد مقدّسة، الوطواط، «همست لنفسها، «يا لهم من مجموعة من المتواطئين في هذه البلدة الصغيرة».

لم تكن تعرف إن كانت غاضبة أم سعيدة أكثر، لكن بعد لحظة، أعادت الكتاب إلى حقيبتها.

حسناً، حسناً، حسناً. سيكون اجتماعاً مثيراً للاهتمام.

فتحت ملفّ الميزانية وهي تهزّ رأسها وأخذت دفتر الملاحظات لتدوّن فيه المعلومات المتعلقة بالمهرجان. كانت قد أنهت تسجيل بنود ميزانية المهرجان وراحت تجمع المبالغ وهي شاردة الفكر.

ثم قطبّت حاجبيها.

لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً.

دفعت دفتر الملاحظات جانباً وأخرجت الآلة الحاسبة. خلال الساعة والنصف التالية، جمعت الأرقام مرات عديدة، وراحت تقلّب الصفحات، وتنهض من حين لآخر لتسحب ملفات أخرى من الخزانة وتقارن بين الأرقام الواردة فيها مع الأرقام المدرجة في الميزانية.

أخيراً، بعد أن امتلأت طاولة مكتبها بملفات وأوراق كثيرة، أسندت ظهرها إلى كرسيها وأخذت نَفَساً طويلاً. لا بد أن هناك خطأً. لا بد أنه خطأ.

هناك شخص واحد فقط يعرف. لملمت الأوراق وأعادتها إلى ملفاتها، وحملتها إلى مكتب رئيس البلدية.

بعد عشر دقائق، عادت إلى طاولتها، تحمل الملفات وتسير بخطوات بطيئة كما لو أنها تسير فوق بركة مليئة بسائل كثيف. جميع الأرقام صحيحة.

غاصت في كرسيها، ووضع الملفات على طاولة مكتبها، وراحت تحدّق فيها، عقلها يتسابق بمائة طريقة إلى يوم الثلاثاء.

كان رئيس البلدية مور محقاً في شيء واحد: إنها حرب. لكنّها ليست الحرب التي كان يفكّر بأنها ستكون. لا بل أسوأ. كانت غرايس متيقنة بأنها حرب ستخسرها هي وجميع سكان بلدة دوف بوند.

الفصل (١٠)

سارة

نظرت إرما تينغل إلى الساعة المعلّقة فوق باب غرفة الاجتماعات في المكتبة. «أين هي؟» ورمقت زوي بنظرة عابسة.

أغلقت زوي غطاء مرآتها بعد أن أعادت صبغ شفتيها بأحمر الشفاه، وقالت: «ستأتي، انتظري قليلاً». كانت تجلس في الجزء الأمامي من الغرفة، وتلّف ساقيها عند الكاحلين وتسندهما إلى الطاولة.

أُعجبت سارة بنعل حذاء زوي الأحمر. ومع أنها لم تنتعل حذاء بكعب عال قط، قالت لنفسها إنها إذا فعلت ذلك، فإنها ستشتري حذاء له نعل أحمر اللون. ثم دفعت صحن الكيك إلى وسط الطاولة ليتمكّن الآخرون من الوصول إليه، وسألت، «هل يريد أحد قطعة أخرى؟ بقيت قطعتان».

«لا، شكراً»، نظرت كات إلى أفا، «يصعب عليّ أن أقول ذلك. لكني أستطيع أن آكل منها طوال النهار».

«سأتناول قطعة أخرى». قال نيت وتناول قطعة ووضعها في منديل وسحبه نحوه.

«إذا لم يكن هناك أحد يريد أن يأخذ القطعة الأخيرة...؟» نظر إد حول المنضدة.

«إنس قطعة الكيك اللعينة»، قالت إرما بنبرة لاذعة، وانحنت قليلاً، ورمقت زوي بنظرة مليئة بالشك، وقالت: «هل أنت متأكّدة بأن غرايس ستصبح رئيس النادي؟»

ابتسمت زوي ابتسامة متعجرفة، وقالت: «نعم، ستصبح رئيس النادي».

«لقد رافقتها صباح اليوم في السيارة»، قالت سارة، «وسألتها عمّا إذا كانت راضية عن الأمور التي توصلت إليها اللجنة الاجتماعية فقالت نعم، لكن عندما أفكّر بذلك الآن، لا أظن أنها كانت تعرف. زوي، متى فعلتِ خدعة اللافتة تلك؟»

«صباح يوم السبت».

«أراهن بأنّها لا تعرف». كانت سارة سعيدة لأن غرايس لم تكن غاضبة، «أراهن بأن السيّد مور لم يذكر لها شيئاً عمّا جرى، ذلك الأحمق».

ألقى نيت نظرة فضولية على زوي وسأل، «أيّ خدعة لافتة؟»

ابتسمت زوي، وقالت: «لست بحاجة إلى سماع التفاصيل، لكن كن مطمئناً بأنني استخدمت الخدعة التي هي من أفضل ميّزاتي».

«هذا شيء مرعب»، قال نيت مع أنه بدا معجباً بها.

فقالت إرما، «زوي، يا بنت، لا يمكن أن يخطر ببالي كلّ هذا».

«لا أعرف»، قالت أفا، «قد تكون ميّزات فعّالة».

فقالت كات موافقة، «خصوصاً عندما تُستخدم معاً».

«أرجو أن تأتي غرايس قريباً»، قال إد مايهيو بعد أن أنهى قطعة الكيك الأخيرة وفتح قنينة الماء، «ستصلنا شحنة جديدة من أطواق الكلاب في الساعة الرابعة وستكون ماغي بحاجة إلى مساعدة...»

فُتح الباب بقوة.

للوهلة الأولى كانت غرايس تبدو كما كانت صباح اليوم - ترتدي بدلتها الأنيقة، شعرها الأسود معقود في شكل كعكة أنيقة في مؤخرة رقبتها، لكن هنا تنتهي الأشياء «العادية». فقد كانت نظرتها المحدّقة التي عادة ما تكون حذرة، متوقدة من الداخل كما لو أنّ لهب إلهة الموتى «هيدز» قد أضاء روحها. دخلت وهي تضم إلى صدرها مجموعة من الملفّات المتعددة الألوان.

قاومت سارة الرغبة في أن تقف وتحييها. سواء أكانت غاضبة أم لا، فإن هذه المرأة ستنقذهم جميعاً. أعرف ذلك. كنت أعرف أن هذا سيحدث.

جالت غرايس بنظرتها المتقدة حول الطاولة. ابتلعت إرما ريقها، وأطلقت أفا التي تبدو سعيدة دائماً عندما ترى أمامها مسرحية، صفيراً صامتاً، وبدا أن إد سيندفع إلى أقرب نافذة مفتوحة، بينما راح نيت يعبث بساعة يده. حيتها كات بتلويحة ترحيب حذرة.

وقفت سارة وقالت: «غرايس، يسعدني كثيراً أن أراك. لم نتوقّع... «.

«انتهينا». قالت غرايس وألقت الملفات التي تحملها على الطاولة أمام زوي التي لا تزال قدماها تستندان إلى الطاولة، وقالت لها: «إنه حذاء جميل، لكن أبعديه الآن».

فأنزلت زوي قدميها إلى الأرض ولملمت محفظتها ودفتر ملاحظاتها.

«طبعاً تريدين منصب الرئيس. هذا مفهوم»، وربتت على الملف السميك الذي كانت قد أعطته لغرايس. «سأترك هذا حتى...»

«اذهبي واجلسي». رمقتها غرايس بنظرة ثاقبة، «بحق السماء، كفّي عن التظاهر».

ابتسمت زوي ابتسامة عريضة، وقالت: «من يتظاهر؟»

أُعجبت سارة بجرأة زوي التي بدا أنها لم تتأثر بغضب غرايس الحارق.

ألقت غرايس الملفّات على الطاولة ورمقت زوي. «حتى أنك لا تستطيعين إنكار ذلك، أليس كذلك؟»

هزت زوي كتفيها وقالت: «لماذا أتضايق؟»

«أنت امرأة عملية».

«شكراً لك». لم يكن من الممكن أن تبدو زوي أكثر سعادة، «أظن أن من الأفضل أن نقول كلّ شيء على الملأ ونمضي في عملنا. ويبدو أنك فكّرت في الأمر. كنت أعرف أنّك ستفعلين ذلك».

مال نيت نحو سارة وهمس، «ما الذي يجري هنا بحقّ السماء؟»

فهمست سارة، «انظر فقط».

«ظنّك في محله»، قالت غرايس، ثم أشارت إلى الجانب الآخر من الطاولة باتجاه الكرسي الفارغ بجانب نيت.

«نعم، السّيدة الرئيس»، قالت زوي وأخذت أغراضها وذهبت إلى الكرسي الذي أشارت إليه غرايس، وجلست فيه وعلى وجهها ابتسامة لطيفة.

نظر نيت كأنه يريد أن يضحك لكنه خشي أن يفعل ذلك.

وقفت غرايس بجانب كرسيها ونظرت إلى أعضاء اللجنة، وقالت: «لقد انتصرتم. ها قد جئت؟»

لم تعرف سارة ما الذي يجب أن تقوله، فلم يبدو أن عبارة «تهانينا» مناسبة، ولا داعي لأي كلمة تدّل على التعاطف. عندما أدركت أن الجميع ينظرون إليها، ابتسمت وغاصت في كرسيها. «نرحب بعودتك! مهما حدث، فإننا سعيدون بوجودك معنا. لدينا عمل كثير، لذلك ربّما...»

«توقّفي. قبل أن نمضي في عملنا، إنكم تدينون لي كلكم باعتذار».

ارتفع حاجبا نيت «من أجل...؟»

«إنها تكلّم زوي،»، قالت إرما لنيت هامسة، ثم قالت بصوت عال، «أظن أنها يجب أن تفعل ذلك. زوي، ماذا فعلت؟»

«انتظري دقيقة،» تفحصت غرايس وجه جميع الأعضاء.

«لم نشارك جميعاً في ذلك».

«بعضنا فقط»، اعترفت سارة.

«لم نشارك بماذا؟» بدا إد محتاراً، «ماذا فعلتم؟»

فسألته غرايس، «ألم تكن تعرف شيئاً؟».

«لا. أقصد إنني كنت أعرف أنّهم يريدون أن تعودي لرئاسة النادي، لكنني ظننت أنّهم سيطلبون منك ذلك؟»

«لا تنظري إليّ أيضاً»، قالت إرما، «لا أعرف ما الذي يجري هنا. قالو لي فقط إنك ستعودين. هذا كلّ شيء».

«حسناً، حسناً، حسناً». بسطت غرايس يديها على الطاولة ومالت إلى الأمام، وقالت: «الآنسة بيل، هل تريدين أن تخبريهم؟»

زمّت زوي شفتيها، وقالت: «أظن أن من الأفضل أن تخبريهم أنت. فأنت المسؤولة الآن».

«حسناً»، جلست غرايس في كرسيها، وقالت: «بما أن بعضكم لا يعرف، فقد رشّحت زوي بيل نفسها لمدة أسبوع واحد لمنصب رئيس بلدية بلدتنا الجميلة».

غصّ إد عندما كان يأخذ رشفة ماء.

ضربته إرما على ظهره، وقالت: «مهلاً. إنها تمزح».

«لا، لا أمزح»، قوّست غرايس حاجبيها باتجاه زوي وقالت: «أليس كذلك؟»

لوت زوي شفتيها، لكنّها كبتت ابتسامتها، وقالت: «ربما ترشّحت لمنصب رئيس البلدية... قليلاً».

ضحكت أفا.

نظرت غرايس إليها وسألتها، «ما المضحك في الأمر؟»

فأمسكت أفا ضحكتها وقالت: «زوي تفعل أيّ شيء ‹قليلاً›».

«هذا لا يُصدّق، أليس كذلك؟» أجابتها غرايس، «وهذا ما جعلني أفكّر. إذ يشغل رئيس البلدية مور هذا المنصب منذ أكثر من عشرين عاماً ولم يعترض أحد عليه، ولا مرة واحدة. وعندما تساءلت عن سبب ذلك، أدركت أنّ هذا العمل مملّ ولا يريد أحد أن يشغله إلّا إذا كان صيّاد سمك دؤوباً. زوي، أنا لا أعرفك جيداً، لكنّي متأكدة بأنّك لا تصطادين السمك».

زمّت زوي شفتيها، وقالت: «إنه تقييم منصف».

«لذلك كان من المفروض أن أفكّر بذلك عندما وافقتي على ترأس هذه اللجنة...»

«النادي»، قالت أفا تصحّحها، لكنها صمتت عندما نظرت إليها غرايس.

«مهما أردتِ أن تسميها»، قالت غرايس ببرود، ثم التفتت إلى زوي، «أردتِ أن أصدّق أنك بعد أن حصلت على رئاسة النادي الاجتماعي، قرّرت أن ترشحي نفسك أيضاً لمنصب لا يريده أحد. فأنت نائب مدير بنك».

فسألتها كات، «زوي، كيف يمكن أن تكوني جشعة إلى هذه الدرجة؟ ألا يكفيك وظيفة واحدة؟»

ألقت غرايس نظرة صارمة على كات وقالت: «كنتِ جزءاً من ذلك أيضاً. أعرف أنكِ كنتِ».

احمرّ وجه كات ونظرت إلى دفتر ملاحظاتها كأنها أدركت فجأة أن عليها أن تكتب شيئاً هاماً لكنها لم تتذكّر ما هو.

مع أن الأجواء لم تكن مريحة، فقد أُعجبت سارة بطريقة غرايس في إثبات وجودها. إنها قائدة بالفطرة.

ثم حوّلت غرايس انتباهها إلى زوي وقالت لها: «بشكل ما، خلال أسبوع واحد، سمعك رئيس البلدية مور بالصدفة تناقشين موضوع الانتخاب عندما ذهب إلى البنك، وسمعك مصادفة تكلّمين مدير مكتب البريد حول إرسال رسائل إلى جميع الناخبين المسجّلين، ثم رأى اللافتة التي ستضعينها عندما أوقعت كات عرضاً اللافتة عندما كان يسير في الشارع».

نظر نيت إلى زوي نظرة مليئة بالتقدير وقال: «هل فعلتِ كلّ ذلك؟»

بدت إرما مندهشة، «في أسبوع واحد؟»

ابتسمت زوي وقالت: «كانت رائعة، أليس كذلك؟ كنت أعرف أنه سيفعل أي شيء ليمنعني من الترشح لهذا المنصب، وأنه سيطلب من غرايس أن تعود لرئاسة النادي الاجتماعي».

«وقد نجحت». حاولت سارة ألّا تبدو سعيدة جداً عندما قالت، «لو لم تدفعه خدعة اللافتة إلى الحافة، كنّا سنترك بعض استمارات الترشّح موقّعة في الفوتوكوبي في الصيدلية لأنه يذهب عادة إليها صباح كلّ يوم وهو ذاهب إلى عمله ليشتري حليب بالشوكولاتة».

فسأل إد، «كيف كان سيعرف أنه يوجد شيء متبق في آلة نسخ المستندات؟»

رفعت أفا يدها وقالت: «ستكون هذه مهمتي». كان من الواضح أنها سعيدة لمشاركتها في الحديث، «كان ينبغي أن أكون في الصيدلية أعدّ منشورات إعلانية لبيع النباتات، وعندما سيمرّ بجانب الفوتوكوبي، سأفتح الغطاء وأتظاهر بأنني منزعجة لأنني وجدت استمارة زوي فيها. وكنت سأذكر اسمها بصوت مسموع وألقي بها في سلة المهملات».

وأضافت زوي: «وكان سيرتاب في الأمر. كنا نعرف أنه سينتظر حتى تغادر أفا ثم يفتش في سلة المهملات ليرى ماذا ألقت فيها».

فقال نيت: «يا إلهي لقد فعلتن شيئاً عظيماً. أنا معجب بكن».

لوت أفا وجهها، وقالت: «كنت أتطلّع لأن أقوم بدوري، لكني لم أفعل ذلك لأن خدعة اللافتة نجحت».

قالت زوي: «كان يبدو في غاية الانزعاج».

ضحكت كات وقالت: «كان الأمر سهلاً للغاية».

«وماذا كان ذلك الشعار على اللافتة؟» سأل إد بفضول.

«زوي بيل مرشحة لمنصب رئيس البلدية: بداية جديدة. كانت تلك فكرة أفا».

ثم قالت أفا: «إنه أفضل من الشعار الذي اقترحته سارة: ليرحل العجائز».

«كانت تلك العبارة شريحة ومباشرة جداً»، وافقت كات.

ألقى نيت نظرة إعجاب حول الطاولة، وقال: «ميكافيللي، تنحّى جانباً، فقد جاءت زوي بيل وشريكاتها».

«أعذروني»، قطع صوت غرايس الهواء، «هل تهنئون بعضكم بعضاً؟ لأنكم إذا كنتم تفعلون ذلك، يوجد لدينا عمل كثير يجب أن نقوم به».

«طبعاً، لكن آه... ألا تريدين أن تعرفي لماذا أردنا أن نعيدك بشتى السبل؟» سألتها سارة.

استقرّت نظرة غرايس الباردة عليها، فندمت لأنها كانت تخشى أن تغضب منها غرايس. في الواقع، كانت تعرف أن غرايس ستغضب منها في جميع الأحوال، لكن عليهم إصلاح الأمر الآن قبل أن يمضوا في عملهم. تنحنحت، وقالت: «غرايس، أعرف أنّك غاضبة، ولديك كلّ الحقّ في ذلك، لكن لدينا عذر جيد لما فعلناه».

«حقاً؟» تقطّعت نبرة غرايس إلى حروف منفصلة.

أجفلت سارة وقالت: «إننا بحاجة إلى مساعدتك. نريد كلّنا أن يكون المهرجان أكبر وأفضل، شيء لم يحدث مثله منذ زمن. إننا نحتاج إلى قيادة قوية».

ثم أضافت أفا، «ولم نستطع أن منك نطلب ذلك لأننا كنا نعرف أنك سترفضين. كان ذلك واضحاً من الاجتماع الأخير».

«حتى أنك قلت إنك لا تريدين أن تكوني هنا. كان ذلك واضحاً جداً».

نظرت غرايس إليهم لوهلة. تنهّدت أخيراً، وقالت: «صحيح. كنت سأرفض».

«لذلك فعلنا ما كان يجب أن نفعله»، قالت سارة، «عندما وضعت زوي هذه الخطة».

فقالت غرايس بحدّة، «حسناً، لقد نجحتم، وها قد جئت مع أنّكم كنتم تتوقعون أنّني لن أقبل قبل انتهاء الاجتماع».

تلاشت سعادة سارة قليلاً، وسألتها، «ماذا يعني هذا؟»

نظرت غرايس حول الطاولة، وقالت: «قبل أن نتحدّث عن المهرجان، يجب أن نتحدّث عن شيء آخر. شيء أهم بكثير».

«لا يوجد شيء أهم من المهرجان»، احتجت إرما.

نظرت إليها غرايس دون أن تتوقف، ثم عادت ونظرت إلى كومة الملفّات أمامها، وقالت: «يجب أن نتحدّث عن الوضع المالي للبلدة».

هزّ نيت كتفه بلا مبالاة وقال: «حسناً. ماذا عنه؟»

فقالت: «إنه سيء».

أجفلت سارة. «نعرف أن وضع البلدة ليس كما يجب».

«ليس كما يجب؟ «ضحكت غرايس ضحكة خفيفة، وقالت: «هذا تبسيط للأمور».

عبست أفا وقالت: «ماذا تقصدين؟»

«إنه سيء. أسوأ مما تعرفون بكثير».

«آه»، قالت زوي وهي تهز رأسها، «كنت أتساءل كم سيستغرق ذلك قبل أن تنظري».

«أنظر إلى ماذا؟» سألت سارة وقد ازداد قلقها.

قالت زوي: «لقد رأت غرايس السجلات المالية للبلدة».

«نعم، رأيتها»، وبسطت غرايس يديها على الطاولة أمامها، وأضافت، «لقد درست الحسابات هذا الصباح وما رأيته هو...» هزّت رأسها، «شيء سيء».

قطبّت إرما جبينها وقالت: «إنك تعملين في مكتب رئيس البلدية ولم ترِ الحسابات إلّا اليوم؟»

«مضى عليَّ شهر واحد فقط هنا، وعملي ينحصر في الإيرادات لا في النفقات، لذلك فإنني لا أرى الخلاصة العامة. لكنني قرّرت اليوم أن ألقي نظرة على الميزانية المخصصة للمهرجان قبل أن أحضر الاجتماع، فاطلعت على سجلات ميزانية البلدة».

«إلى كم سنة عدت بدراستك؟» سألتها زوي.

«آخر عشر سنوات. كانت سيئة».

«هل يعرف رئيس البلدية مور ذلك؟» سألتها أفا.

«أخبرته بذلك لكنه لم يعرف التفاصيل. فقد كان يطلب الميزانية نفسها منذ أن استلم منصبه».

رمشت سارة بعينيها، وقالت: «ألم تتغيّر قط؟»

«ولا مرة واحدة».

«يا إلهي، هذا الرجل كسول»، قال إد باشمئزاز.

لم تجادلهم غرايس، ثم أضافت، «يقوم محاسب البلدة بتدقيق الحسابات كلّ سنة، لكن رئيس البلدية لا يعرف التفاصيل».

«هذا تهرّب صريح من المسؤولية»، قال نيت.

نظرت غرايس إلى أعضاء اللجنة، وقالت: «عندي صفقة. أنا مستعدة لأن أترأس اللجنة، لكن بشروطي».

«وما هي؟» سألتها سارة.

«أنا لا أنوي البقاء في دوف بوند لأكثر من سنة، ولا أخفي عليكم ذلك لأنني أريد أن أكون صريحة معكم. فقد انتقلت إلى هذه البلدة من شارلوت، وأريد أن أعود إليها».

«سنة واحدة؟» قالت كات عابسة، «ليست فترة طويلة».

«لا، إنها ليست طويلة. لكن قبل أن أغادر، إذا لم أستطع أن أحلّ جميع المشاكل التي تعاني منها البلدة، أكون قد وضعتكم على الأقل في الطريق الصحيح. ولكي يحدث ذلك، يجب أن تعمل هذه اللجنة أكثر من التخطيط لإقامة مهرجانات فقط».

فقالت إرما بعناد، «المهرجانات جيدة لاقتصادنا».

«لعطلة نهاية أسبوع واحد فقط، نعم، لكن هذا لا يكفي. هذه البلدة غارقة في ديونها، وإذا لم نفعل شيئاً بسرعة، فإنها ستهبط في لولب مالي لن تتعافى منه أبداً».

«لولب؟» قال إد بصوت عال، «هل الوضع سيء إلى هذه الدرجة؟»

«نعم سيء للغاية»، قالت غرايس.

«لكن كيف؟» سألت إرما بصوت مخنوق، «أقصد، إنني أعرف أن أشخاصاً غادروا البلدة وأن محلات عديدة قد أُغلقت، لكن ذلك يحدث بين الحين والآخر. ولا يمكن أن يظل الاقتصاد في صعود دائماً، كما تعرفين».

فأجابت غرايس، «الأمر أكثر من ذلك بكثير. فقد أمضيت الساعات القليلة الماضية وأنا أفكّر في هذا الأمر. لا يوجد في دوف بوند مجلس إدارة للبلدة أو أيّ شيء من هذا القبيل، فإذا لم يعالج رئيس البلدية مسألة ما، فإن ذلك يجب أن يقع على عاتق النادي الاجتماعي».

ساد الغرفة صمت مطبق. وتساءلت سارة إن كان صحيفة يوميات شارلوت دوف تعرف ذلك. لا بدّ أن هذه الوثيقة القديمة الغريبة تعرف، لكنها لم تذكر لها شيئاً.

عقدت زوي يديها معاً وأسندتهما إلى الطاولة أمامها، وسألت، «ماذا تريدين أن نفعل؟»

«يجب أن نخطط لشيء أهمّ من مهرجان التفاح. شيء يمكن أن يساعد البلدة».

«مثل؟» قالت أفا.

«الدعاية لجذب شركات تجارية. يجب أن ندعو أصحاب الأعمال المحتملين إلى البلدة ليروا دوف بوند كما ترونها أنتم. كما تراها سارة. ويجب أن نقنعهم بأن يستثمروا بالبلدة، أن يستثمروا بسكان البلدة. وإذا كان هناك شيء واحد أعرف كيف يمكننا أن نفعل ذلك فهو أننا يجب أن نقدّم لهم أفكاراً لإنشاء شركات هنا».

هذا هو إذاً السبب الذي جاءت غرايس من أجله إلى دوف بوند. كانت سارة تتساءل ماذا تستطيع غرايس أن تفعله لبلدتهم لا تستطيع هي أن تفعله، وقد عرفت الآن ما هو.

«يا إلهي». أبعدت كات كرسيها عن الطاولة، «انظروا، لا أريد أن أفسد بهجتكم، وإنما أريد أن أقدّم مساعدة، وقد انضممت إلى هذه اللجنة للتخطيط للمهرجان فقط، ولم أنضم إليها للتشجيع على جذب شركات إلى هنا، أو مهما سميت ذلك».

«ولا أنا»، قال نيت.

ظلت أفا تحدّق في غرايس، ثم سألتها بحذر، «هل ترين أن هذا سيساعد دوف بوند حقاً؟»

«نعم»، قالت غرايس من دون تردد، «إذا فعلنا ذلك بصورة صحيحة، يمكننا أن ننقذ البلدة».

فسألتها أفا، «ألا توجد طريقة أخرى».

فقالت غرايس: «لا».

هزّت أفا كتفيها وقالت: «إذاً لا يوجد أمامنا خيار آخر».

«عظيم»، تمتمت كات، «ما مقدار العمل الذي يجب أن نفعله لنحقق ذلك؟»

«عمل كثير»، قالت غرايس ونقرت على كومة الملفّات أمامها، «قبل أن نمضي في عملنا، دعوني أوضّح لكم كيف وصلت دوف بوند إلى هذا الوضع لأن ذلك سيساعدكم على فهم لماذا يُعتبر برنامج التوعية لجذب الشركات الوسيلة الوحيدة لوقف هذا الانحسار، ثم سنتّخذ بعض القرارات».

نظر الآخرون إلى سارة، كما لو أنهم يريدون أن يسمعوا رأيها. هذا هو عبء التوقّعات. هزت رأسها، وقالت: «لنفعل ذلك».

«موافقة»، قالت زوي.

«وأنا أيضاً»، وافقت أفا، «أريد أن أعرف لماذا أصبحت الأمور سيئة إلى هذه الدرجة، مع أنه لا يخفى على أحد أن ثروات البلدة آخذة في التراجع».

فقالت كات: «صحيح، إننا نلاحظ ذلك في الشارع الرئيسي».

«الأمر أكثر من ذلك»، قالت زوي بحدّة، «إن غرايس لا تمزح عندما تقول إن بلدتنا تحتضر. فقد كان لدى البنك أكثر من مائة حساب لشركات تجارية، أصبح الآن أقل من أربعين، وبعضها مجمد».

فقال إد: «الحياة هنا أصبحت صعبة. فلولا الراتب التقاعدي الذي أتقاضاه بعد عملي في مصنع الورق لمدة اثنتين وعشرين سنة، لما أمكننا أن نعيش أنا وماغي مما نجنيه من مخزن الحيوانات الأليفة. لم يكن الوضع هكذا عندما بدأنا العمل، أما الآن...» هزّ رأسه.

فقالت إرما: «كأنكم تنعقون بالموت. إن دوف بوند تتعرض إلى كساد، مثل أماكن كثيرة أخرى. انتظروا سنة أو سنتين وستعود الأمور كما كانت. إن ذلك يحدث دائماً، ورئيس البلدية يعرف ذلك، لذلك يجب أن نركّز على المهرجانات، وهذا هو واجبنا، لا شيء أكثر».

ابتسم نيت ابتسامة عريضة، وقال: «إرما، إنه أكثر من مجرّد كساد. بدأت إيراداتي تهبط منذ السنوات الأربع الماضية، أو ربما الخمس، وأعرف أن ذلك يحدث في مخزنك أيضاً، فقد سمعت أنّك تشتكين من ذلك».

أخذت إرما نَفَساً عميقاً.

رفع حاجبيه.

تضرّج وجهه وقال: «حسناً. لقد تدنت إيراداتي، ونعم، تعاني البلدة من مشكلة، لكن ماذا يمكننا أن نفعل لإصلاح الوضع؟ نحن ثمانية أشخاص فقط».

فقالت غرايس: «ثمانية أشخاص أذكياء، قادرون، ومصمّمون»، وأضافت، «قبل أن أنتقل إلى هنا، كنت أعمل في شارلوت في شركة مالية تساعد الشركات التي تتعرض للإفلاس على إعادة تنظيم نفسها لتصبح في وضع أفضل وتزداد ربحاً. وكنا نضع هيكلية استثمار فعّالة لمساعدتها على وضع خطط كي تتوسّع وتجدد نفسها. أظن أنه إذا كان بإمكان شركة تجارية أن تفعل ذلك، فإن بلدة مثل دوف بوند تستطيع أن تفعل ذلك أيضاً».

رفعت سارة عينيها إلى السقف، وهمهمت، شكراً لك أيها القدر لأنك أرسلت لنا هذه المرأة.

«الأهم، فالمهم»، قالت زوي، «عملياً، لا أزال رئيس اللجنة إلى أن نقترع على عودة غرايس».

رفعت سارة يدها، وقالت: «أقترح أن نقبل شروط غرايس، مهما كانت، وأن نعيد تنصيبها رئيساً للنادي على الفور».

قال نيت: «أؤيد ذلك».

سألت زوي «الجميع موافقون؟»

فقال الجميع «نعم» ماعدا إرما.

رفعت زوي حاجبيها وسألتها، «هل هذا يعني لا؟»

«لا»، قالت إرما، «طبعاً أصوّت نعم، نعم بالطبع. لكن كنت أتمنّى أن أفهم الأمور بشكل أفضل».

«لذلك سنقسم الاجتماع إلى جزئين»، قالت غرايس وفتحت الملفّ الذي في الأعلى، وقالت: «أولاً، سأوضح لكم لماذا تدنت أموال البلدة هكذا».

«وكم سيستغرق الاجتماع؟» سأل إد.

«نصف ساعة. ربما أكثر قليلاً، وذلك يتوقف على عدد الأسئلة التي ستسألونها».

أخرج هاتفه، وقال: «يجب أن أرسل رسالة نصيّة إلى ماغي وأخبرها بأنني سأتأخر عن البيت قليلاً».

«افعل ذلك» قالت غرايس.

نظرت أفا إلى غرايس بفضول، وسألتها، «وما هو الجزء الثاني من اجتماعنا؟»

صمتت غرايس قليلاً وأحسّت سارة بالتوتّر عبر الطاولة، ثم قالت: «سنناقش ذلك بعد أن نجري التصويت من أجل تخفيض ميزانية المهرجان».

«ماذا؟» لم تستطع سارة أن تصدّق أنّها تسمع ذلك، «لكن المهرجان هو هدفنا الوحيد الذي أُنشيء من أجله النادي الاجتماعي».

«يجب أن نقيم المهرجان»، قالت إرما، وقد احمرّ وجهها.

فقالت غرايس: «سنقيم المهرجان، لكن سيكون أصغر مما كان في السابق».

هزّ إد رأسه، وقال: «هذا غير معقول. يجب أن نفعل شيئاً لائقاً».

رمقته غرايس، وقالت: «هل يجب أن أذكّرك بأن نادي دوف بوند الاجتماعي لم يكن ليوجد لو لم تكن هناك دوف بوند؟ لا يوجد لدينا خيار. سنخفض ميزانية المهرجان وننفق المبلغ المتبقي على برنامج دعوة الشركات التجارية لزيارة بلدتنا».

فقالت إرما بغضب: «لن أصوّت على تخفيض ميزانية المهرجان بأي شكل من الأشكال».

«ربما يجب ألّا نقيم مهرجاناً على الإطلاق»، قالت زوي. عندما بدت الصدمة على وجه إرما، أضافت زوي آسفة، «فهو لا يدرّ أرباحاً منذ عدة سنوات».

فقالت غرايس: «سنقيم المهرجان، فعلى الأقل طلب رئيس البلدية هذا المبلغ الكبير، وبإمكاننا أن نخفض المهرجان».

«إلى أي حد؟» سألتها كات.

«إلى بضعة أكشاك، وربما موكب أيضاً، وعدة أكشاك لبيع المقانق والمناطيد، لكن لا أكثر».

امتقع وجه إد وقال: «لا أحبّ هذا، وماغي أيضاً».

قالت أفا بشيء من الحزن، «إن أجمل ذكرياتي تتركز عن المهرجان، لذلك لا أريد أن أراه يتقلّص أكثر».

«غرايس، لا بد أننا نستطيع أن نحصل على موارد من مصدر آخر؟» قالت سارة.

«لا أظن ذلك. فقد درست الميزانية مرات عدّة ولا توجد مصادر أخرى. سأريكم ماذا أقصد»، ودفعت غرايس كدسة الملفات إلى الأمام. «يوجد ملفّ لكلّ واحد منكم».

من مكانها، رأت سارة اسم كلّ عضو في اللجنة مدون على غلاف ملفّ. مدّ كلّ واحد منهم يده وتناول الملفّ الخاص به.

«تجدون في أعلى الصفحة ملخصاً عن الوضع المالي للبلدة «، قالت غرايس، «وتحته قائمة بالمهام الجديدة المنسّقة التي يجب القيام بها للوصول إلى بعض الشركات التجارية. يجب أن ننهي المهام الواردة في هذه القائمة قبل الاجتماع الذي سنعقده في الأسبوع المقبل».

مرّر نيت إصبعه على قائمته وقال: «يجب أن ننفذ كلّ ذلك قبل الأسبوع المقبل؟»

«كلّه»، كرّرت غرايس بحزم.

«سنفعل ذلك»، قالت زوي، وألقت نظرة حادة حول الطاولة قبل أن تعود لتنظر إلى غرايس، وقالت: «وماذا ستفعلين بالأموال التي ستأخذينها من حساب المهرجان؟»

«سنطبع مواد عالية الجودة لنشرح الفوائد العديدة التي سنجنيها من مجيء شركات تجارية إلى دوف بوند، وسنستضيف اجتماعات لبضع ساعات في مبنى البلدية، ونأمل أن نجري جولات منظمة إلى الأماكن المتاحة التي يمكن إقامة أعمال تجارية فيها».

فقالت إرما عابسة: «أف، سنطبع مواد مصقولة. هل تريدين أن نستجدي الشركات حتى تأتي إلى هنا».

«ليس استجداء. إنها عملية ترويج. نريد أن نوفر لهم إيجارات منخفضة التكاليف، ونحسن من مستوى التعليم، و...»، ثم انتقلت نظرة غرايس إلى سارة، «والناس. إنها فوائد عظيمة».

«إنها مكان خاصّ»، قالت سارة مع أنها لم تكن متفائلة جداً.

«حسناً، لن أفعل ذلك». قالت إرما ودفعت ملفّها جانباً، «إذا لم يكن هناك مهرجان، يجب أن نحترم تقاليد هذه البلدة التي يُعتبر المهرجان أحدها. وإذا جعلنا هذه المناسبة صغيرة جداً تقتصر على أكشاك المقانق وموكب بسيط فإن الناس سيغضبون وسيفقدون الثقة بالبلدة».

«صحيح»، قالت كات.

هزّت أفا ونيت رأسيهما.

وضع إد هاتفه الخلوي جانباً، وقال: «ماغي سعيدة لأننا سنقيم المهرجان. لم أخبرها بعد عن تخفيض الميزانية لأن ذلك سيغضبها كثيراً».

فقالت غرايس: «انظروا، يجب أن نفعل ما هو مفيد للبلدة أولاً، وما هو مفيد للمهرجان ثانياً».

سمعت همهمة وتذمُّرا، لكن لم يخالفها أحد علناً.

تابعت غرايس كلامها، «دعونا نتحدّث عن الوضع المالي للبلدة. يجب أن تفهموا ما الذي يجري».

فتحت سارة ملفّها. كان في أعلى الصفحة رسم بياني دائري يبيّن التكاليف والنفقات السنوية للبلدة. كان الخط الأحمر يتجاوز الخط الأخضر بكثير.

توجّهت غرايس إلى اللوح الأبيض على الجدار، وقالت: «ربما اطلع عدد منكم على موجز الميزانية التي يوزعها رئيس البلدية خلال فترة طلب التراخيص».

نقرت سارة على موجز الميزانية، وقالت: «إنها لا تشبه هذه بأيّ شكل من الأشكال».

«لأن فيها الإيرادات المتوقّعة مقارنة بالإنفاق السنوي، وهي لا تشمل الديون المستحقة الطويلة الأجل».

«لحظة»، انخفض حاجبا زوي، «إذاً فهو يختار الأفضل؟»

أطلق نيت صوتاً يشي بالاشمئزاز، «رئيس البلدية مور شخص كريه. إنه يزوّر الأرقام الحقيقية».

فقالت غرايس: «انظروا، أنا لا أدافع عن رئيس البلدية، لكن الأمور كانت سيئة قبل أن يتسلّم منصبه بما لا يقل عن عشر سنوات. وإن عدم قدرته على مواجهة الحقائق زاد الأمر سوءاً. وإذا نظرتم إلى المخطط البياني الأول، فإنكم ستفهمون ماذا أقصد. هذا ما جرى»، ورسمت دائرة كبيرة على اللوح وبدأت تفسّر بالتفصيل المشاكل المالية التي تعرضت لها البلدة.

أنصتت سارة بعناية شديدة. في الأساس، كانت تلك قروض قديمة ضرورية لتمويل كلّ شيء بدءاً من الأضرار التي أحدثتها الفيضانات منذ خمسين سنة إلى بناء الجسرين المؤديين إلى البلدة، والتحسينات الأخيرة التي أجريت على الشوارع والتي تجاوزت الميزانية. بالإضافة إلى الفوائض التي هُدرت خلال السنوات الجيدة وخطتين استثماريتين محافظتين، أثقلتها كلها التأثيرات الأخيرة لتخفيض قاعدة الضريبة».

ظلت سارة التي لم تكن تجيد لغة الأرقام تركّز انتباهها على ما تقوله غرايس حتى بدأت تتحدّث عن معدّل الدين إلى الدخل الذي لم يفهمه معظم أعضاء اللجنة ماعدا زوي التي أخذت تدمدم «غباء شديد الخطورة» وهي تدوّن ملاحظات كثيرة.

في النهاية أغلقت غرايس غطاء قلمها، وقالت: «هذا هو الوضع: هذه هي كلّ القروض وكلّ السندات، وكلّ الأخطاء».

دارت سارة بعينيها حول الطاولة.

حدّقت إرما بالرسم البياني الدائري كما لو كانت تخشى أن يقفز من اللوح ويلتهمهم جميعاً.

بدا أن إد وأفا وكات قد وقعوا بين قبضة الصدمة والغضب.

سحب نيت ياقة قميصه مرات عدة، كما لو أن الحرّ سيخنقه، بينما أخذت زوي تدرس التقرير بعمق أكثر، قلمها يدّون صفوفاً من الأرقام وتعيد جمع الأعمدة مرات ومرات.

كانت سارة الوحيدة التي تشعر بأنها لا تزال بعيدة عن الأمل. دوف بوند في ورطة، وهذا ما تشعر به منذ سنوات. وبينما كانت الأخبار أسوأ مما كانت تتوقّع، كان الجواب على مشاكلهم يقف بجانب اللوح الأبيض.

وضعت غرايس قلمها في السلة، وقالت: «هل توجد أسئلة؟» فهزّ الجميع رؤوسهم.

أغلقت سارة ملفّها، وقالت: «شكراً لك لأنكِ فسّرت لنا كلّ شيء».

«يا لها من فوضى». فركت كات صدغها كما لو كان يؤلمها، وقالت: «يجب أن نفعل شيئاً وبسرعة».

«سأساعدكم بأي طريقة ممكنة»، قال إد مع أنه لم يكن يبدو متفائلاً كثيراً.

«إذا كان هناك أيّ شيء يمكنني أن أساعد فيه»، قالت إرما بحدّة.

أغلقت أفا ملفّها ودفعته جانباً كما لو أنه لا يخصها، وسألت، «وماذا الآن؟»

«حسناً، هناك شيء واحد يمكنني أن أفعله». قلبت زوي الصفحة التي كانت تكتب فيها ودوّنت قائمة. «سأبحث في خيارات التمويل. عندي بعض الاتصالات في بلدات أخرى. سأتصل بهم وأرى ماذا يمكننا أن نفعله. وقد تكون هناك قروض تقدمها الولاية للبلدة».

فقالت غرايس: «أرجو أن تفعلي ذلك. يمكننا أن نلتقي غداً ونتحدّث أكثر عن الموضوع».

«اتفقنا. الساعة العاشرة؟» عندما هزّت غرايس رأسها موافقة، سجّلت زوي الموعد في أعلى دفتر ملاحظاتها ثم ألقت بقلمها على الطاولة، وأضافت، «سأرى ما يمكنني أن أفعله قبل أن نلتقي».

«شكراً لك». عادت غرايس إلى مقعدها، وقالت: «لنعد الآن إلى المهرجان. كما ترون، مع أن المهرجان مفعم بالمرح...»

«إنه تقليد»، قاطعتها إرما.

أمالت غرايس رأسها وقالت: «مع أن المهرجان كان تقليداً في الماضي، علينا أن نستخدم جزءاً من التمويل في برنامج تشجيع الشركات التجارية على الاستثمار في دوف بوند لضمان مستقبلها».

مسحت سارة بعينيها صفحة الميزانية، باحثة عن بند تمويل آخر، لكنّها لم تجد شيئاً.

نظرت غرايس حول الطاولة، وقالت: «ليقل الذين يوافقون على نقل نصف ميزانية المهرجان إلى مبادرة لتطوير أعمال تجارية جديدة، نعم».

«نصف؟» بدا إرما كأنها ستبكي.

لم يبد إد أكثر سعادة، وقال: «هذا كثير؟ ألا يمكنك أن تجعليه الربع مثلاً؟»

هزتّ غرايس رأسها، وقالت «علينا أن نشتري قوائم الزبائن المحتملين من غرف التجارة المحليّة، وهي مرتفعة الثمن. وتكاليف الطباعة عالية دائماً، وهناك تكاليف دعوة الوفود إلى البلدة وجميعها مرتفعة التكاليف. إننا بحاجة إلى ما لا يقل عن نصف ميزانية المهرجان للقيام بذلك».

«هذا صحيح»، قالت زوي، «مع أنني لا أحب ذلك، لكنّني أؤيد غرايس مرة أخرى».

«أنا أصوّت بلا»، قالت إرما بحدّة، «لا يمكننا أن نخفض تكاليف المهرجان إلى هذه الدرجة. من المستحيل أن نفعل ذلك».

وقال إد: «وأنا أصوّت بلا أيضاً».

نظرت غرايس إلى أفا، ثم تنهّدت وقالت: «نعم».

هزّ نيت رأسه. «لا.»

عضّت كات على شفتها. ثم أومأت، «نعم».

نظر الجميع إلى سارة. كانت تعرف أنها تؤيد غرايس، لكنها لم تكن تحب أن ترى مهرجان بلدتهم يتقلّص إلى هذه الدرجة، ثم قالت: «ألا توجد وسيلة أخرى؟»

«لا، كما أرى».

نظرت سارة إلى زوي التي هزّت رأسها. إذاً لا يوجد هناك مجال. ثم قالت «نعم».

«اللعنة». سجلت إرما مجموع الأصوات، وبدا كأنها تكتب نعياً. عندما انتهت ألقت قلمها على الطاولة.

«سيجن جنون الناس».

«كثيراً»ـ قالت سارة موافقة.

«يجب أن نوضح لهم الأمر»، قالت غرايس.

عبست سارة وقالت: «غرايس، قلت إن اجتماعنا يتألف من جزئين. ما هو الجزء الثاني؟»

بدا القلق على وجه إد، وقال: «خفت أن أسأل».

أغلقت غرايس ملفّها وقالت: «هذا سهل. أريد تغيير اسم النادي الاجتماعي».

فغرت إرما فمها وقالت: «ألا يوجد عندك شيء مقدّس؟»

«هذا ليس عملياً. وبهذا الاتجاه الجديد، فإننا لم نعد نخطط لمناسبات اجتماعية، وإنما نخطط حتى تحصل بلدتنا على مزيد من الربح، لذلك يجب أن نغيرها».

نظرت أفا إلى غرايس وسألتها، «بماذا تفكرين؟»

فأجابت غرايس بلا تردد، «لجنة تحسين دوف بوند».

فقالت زوي: «إنه اسم مهني ويوضح هدفنا الجديد بشكل جيد. أنا أؤيد هذا الاقتراح».

«وأنا موافقة»، قالت أفا.

«الجميع موافقون؟» نظرت غرايس حول الطاولة.

إرما الوحيدة التي لم ترفع يدها.

«اعتُمد القرار». بدأت غرايس ترتب أوراقها ثم قالت: «اتصلوا بي إذا كان لديكم أي سؤال حول البنود المدرجة في قوائم المهام التي يجب أن تقوموا بها. سأراكم جميعاً هنا الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الإثنين. انتهى الاجتماع الآن». قالت ذلك ونهضت وتوجّهت نحو الباب.

«انتظري»، ناداها نيت.

وقفت. «نعم؟»

« قد يستغرق إنهاء هذه المهام أكثر من أسبوع»، ونقر على ملفّه.

«بلا مزاح»، قالت إرما وهي تنظر إلى قائمتها، «سيستغرق ذلك ما لا يقل عن أسبوعين، وربما أكثر».

فقالت غرايس: «يجب أن نعمل بسرعة. لكن حسناً. ماذا عن يوم الجمعة القادم؟ هذا سيعطيكم يومين إضافيين».

أسند نيت ظهره إلى مؤخرة كرسيه، ومع أنه بدا غير مقتنع، قال، «سيكون هذا مفيداً».

هزّت غرايس رأسها وواصلت طريقها إلى الباب.

بدأ الجميع يتحدّثون في وقت واحد. فقد انحنى نيت ليطلب من زوي توضيحاً عن شيء لم يفهمه في الميزانية، وكان إد يتكلّم على الهاتف مع زوجته، بينما كانت كات وإرما تتجادلان حول قيمة برنامج تشجيع الشركات التجارية على المجيء إلى البلدة، أما أفا فقد جلست وراحت تنظر إليهم وقد ارتسمت علامات القلق على وجهها.

نهضت سارة وجرت نحو الباب، «غرايس».

وقفت غرايس لا يزال مقبض الباب في يدها، نظرتها هادئة، وقالت: «نعم؟»

لم تكن هناك نبرة ترحيب في كلمتها «نعم». ابتسمت سارة ابتسامة متكلفة وقالت: «أردت فقط أن أعبّر عن مدى سعادتي لوجودك هنا لمساعدتنا».

«لم تمنحوني فرصة حتى أرفض، أليس كذلك؟»

«لم يكن بإمكاننا أن نفعل ذلك. إننا بحاجة إليك. لم أدرك ذلك حتى الآن، لكن... «أخذت نفسا عميقاً، «إننا بحاجة إليك».

لم تلن قسمات وجه غرايس.

«انظري. أعرف أنك غاضبة؟»

«ألن تكوني غاضبة لو كنت في مكاني؟»

«نعم. لكن عندما تدركين كم كان الأمر هاماً بالنسبة لنا. إن دوف بوند...»

«انظري يا سارة. سأبذل كل جهدي. سأبقى هنا خلال الأحد عشر شهراً القادمة، لكن هذا كل شيء. كلّ ما يمكنني أن أفعله في هذه الفترة سأفعله، لكن بعد ذلك، ستكون دوف بوند موضع اهتمامكم أنتم لا اهتمامي أنا».

فتّشت سارة في وجه غرايس عن إشارة واحدة - علامة واحدة فقط - تشير إلى أنها تبدي اهتماماً بما سيحدث في بلدتهم، لكنّها لم تر أياً منها. كان ذلك محبطاً جداً. دائماً، تقول صحيفة اليوميات. ماذا لو أغضبتها وجعلتها تصمم على مغادرة البلدة؟ غاص قلب سارة وانتقلت من قدم إلى أخرى. «أظن أنّني سأراك الساعة الخامسة لنعود إلى البيت معاً؟»

«حسناً»، قالت غرايس وبدأت تمشي، لكنها توقّفت بعد بضع خطوات، «للعلم، لا أظن أنك يجب أن ترافقيني مرة أخرى. فلدي ما يكفي من الأعباء، ولست بحاجة إلى المزيد».

«بالتأكيد. كنت سأعدّ كيك بالتوت البري لنفطر غداً. سأترك لك بعضاً منها في البيت في الصباح لتتناوليها قبل أن تذهبي إلى العمل و...»

«لا، يا سارة --» نظرت غرايس إليها، فمها مضغوط في خطّ مستو، عيناها تتقدان غضباً. «لا تفعلي ذلك».

أدركت سارة الغضب وأحسّت بالرفض. حاولت أن تفكّر بشيء تقوله لكنها لم تجد شيئاً، فأومأت برأسها.

مشت غرايس مبتعدة، كعبا حذائها ينقران فوق أرضية المكتبة الخشبية.

وراء سارة، أزّ أعضاء اللجنة مثل الزنابير التي أثارتها عصا، وبتردد، عادوا إلى الطاولة.

«هذا لن يكون مجدياً»، قالت إرما بصوت مرتفع.

فقالت كات «إنك لا تعرفين. يجب أن نفعل شيئاً».

« لكن برنامج لتشجيع الشركات التجارية على المجيء إلى هنا؟ حتى إنني لا أعرف ماذا يعني ذلك، ولا يوجد واحد فينا يعرف».

تناولت أفا ملفّها ووقفت، «أنا مع كات في هذا. يجب أن نفعل شيئاً، وعلى الأقل توجد لدى غرايس خطة».

«خطة سيئة»، تمتم إد.

«سينزعج الناس كثيراً أيضاً.» نقرت إرما على الملف أمامها، «لن يكترثوا بكل ذلك، أعرف ذلك جيداً».

«لن يفهموها»، أضاف إد.

عبست إرما وقالت: «لن أستطيع أن أُري وجهي في الكنيسة مرة أخرى».

نظر نيت إلى ملفّه كأنه أفعى، وقال: «لا أظن أن البلدة في وضع سيء للغاية. أقصد، أعرف أن إيراداتنا متدنية، لكني لم أكن أعرف شيئاً عن مسألة القروض. كيف لم نكن نعرف شيئاً عنها؟»

فقالت زوي: «إنها قديمة، وكما قالت غرايس لا يوجد لدينا مجلس بلدي أو مجلس إدارة أو أي شيء يستطيع مراقبة هذه المسائل. لا يطلّع عليها أحد إلّا رئيس البلدية مور، وهو يتجاهلها ويهملها ويركلها بقدمه إلى أسفل الطريق لتصبح من مسؤولية الجيل القادم».

«هذا يحتاج إلى تغيير»، قالت إرما بحدّة.

هزّ الجميع رؤوسهم.

«على الأقل أصبحنا نعرف الآن كيف تسير الأمور». وضعت أفا ملفّها تحت ذراعها ودسّت قلمها في جيبها الأمامي، وقالت: «المعرفة قوة، أليس كذلك؟»

«أظن ذلك». قال إد ومال في كرسيه وفرك أذنه، «يا إلهي، يا له من اجتماع. أشعر كأن أحداً ضربني بعصى»، ثم نظر حوله وقال: «هل رأيتم المهام الموكلة إليكم؟ توجد رموز ملونه وخانات بجانب كلّ بند».

بدت نظرة توقير على وجه زوي، وقالت: «ذكاء محض».

أغلقت كات ملفّها وقالت: «سواء أكانت هناك رموز ملّونة أم لا، ليدنا الكثير من العمل».

«كيف يستطيع رئيس البلدية مور أن يظل مبتسماً؟» سألت إرما.

فقال نيت: «إنه صيّاد سمك، والصيادون يعيشون على الأمل».

زاغت عينا كات ووقفت. «أرجو أن نجد وسيلة ننقذ بها دوف بوند.»

نظرت سارة إلى زوي، وقالت: «ماذا سيحدث لو أخفقنا؟»

وقفت زوي ولملمت أغراضها. «يجب أن أدقّق في ذلك لأن مصرفنا لا يتعامل في هذه الأمور. إننا لا نتعامل إلّا بالحسابات الخاصة وحسابات الشركات ولا نتعامل مع الهيئات الحكومية، لكن يخيّل إليّ أنه يجب على البلدة أن تعلن حالة الطوارئ ونطلب المساعدة من الولاية، وهذا يعني أن نحصل على قروض قصيرة الأجل تساعدنا على جمع القمامة وأشياء من هذا القبيل، لكنّها ستضيف إلى العبء المالي للبلدة على المدى الطويل. ثم سيتعين علينا أن نُجري تخفيضات في النفقات، ونعلّق بعض الخدمات، ويمكن أن نجمع المدرسة الابتدائية في البلدة مع مدرسة أخرى في المقاطعة». صمتت قليلاً ثم أضافت، «ستكون هناك فوضى كبيرة».

«لكن لدينا الآن خطة هجوم». مع أن سارة أحسّت بأن غرايس جرحت مشاعرها فإنها لم تتخلَ عن الأمل لأنها لا تستطيع أن تتخلّى عن الأمل. «هيا، يمكننا أن نفعل ذلك».

فقالت أفا موافقة، «على الأقل، يمكننا أن نحاول»، ونظرت إلى كات وسألتها، «هل تريدين قهوة؟»

فقالت كات بحماسة، «نعم».

«انتظراني»، قال نيت وانضم إليهما وهما في طريقهما باتجاه الباب، «رأسي يدور من كلّ هذه الأرقام».

عندما غادروا، ألقت زوي بمحفظتها على كتفها، وقالت: «إرما، إنك محقّة في أمر واحد: الناس لن يعجبهم ذلك».

فقالت إرما: «سيعترضون بقوة. أنا متأكدة بأنهم سيفعلون ذلك، وأنا لا ألومهم».

«يجب أن نفسّر لهم حقيقة ما يجري»، قالت سارة.

فردّت زوي، «إذا استطعنا أن نفعل ذلك. لا أظن أن غرايس تدرك أهمية هذا المهرجان بالنسبة لسكان البلدة، لكنها ستعرف ذلك عندما ينتشر خبر ما جرى في هذا الاجتماع».

«أرجو أن يحاول الناس أن ينظروا إلى ذلك بشكل إيجابي. أقصد أنه لا يوجد أمامنا خيار آخر».

«لنأمل»، وضعت زوي نظارتها الشمسية ذات الإطار المصنوع من عظم ظهر السلحفاة، وقالت: «يجب أن أذهب. أراكم قريباً».

أخذ إد وإرما ملفّيهما وتبعا زوي إلى الخارج، وبقيت سارة وحدها.

توجهت إلى اللوح الأبيض، وأمسكت الممحاة ومسحت الجدول البياني. غرايس على حقّ. يجب أن تتوسع البلدة، وتجذب شركات جديدة ومزيداً من الناس. لكن مهما كانت أفكارها جيدة، فلن تكون غرايس مجدية بالنسبة لدوف بوند إلّا إذا فهمتها وأحبّتها مثل سارة.

أعادت سارة الممحاة إلى مكانها وذهبت لتأخذ ملفّها. استطاعت أن تعيد غرايس إلى اللجنة، وهذا نجاح باهر. ويجب عليها الآن أن تجد وسيلة تجعل غرايس تنتمي إلى بلدتهم وإلى الناس الذين يعيشون فيها.

الفصل (١١)

غرايس

في يوم الخميس التالي، بينما كانت غرايس تقفل باب مبنى البلدية اخترق الهواء هدير رعد عميق وبدأ المطر ينهمر بغزارة، أحدث سيولاً كبيرة في البلدة، ينثر رذاذاً ناعماً عليها ويبلل بدلتها الغالية الثمن. «يا إلهي»، تمتمت غرايس وأخرجت مظلّتها من حقيبتها، فتحتها ووقفت تحتها، وبدأت تغذّ الخطى نحو سيارتها.

بعد بضع خطوات مرّت بجانبها شاحنة كبيرة وسارت فوق بركة ماء عميقة تجمعت بجانب الرصيف أرسلت عجلاتها الضخمة جداراً ضخماً من الماء غمر غرايس.

لم يتح لغرايس الوقت الكافي لتصدّ بمظلّتها الموجة التي تطايرت نحوها قبل أن تبللها بالكامل، فدمدمت لعنات بغضب شديد. وقفت وراحت تحدّق في ثيابها الغارقة بالماء، وتملكّها غضب شديد.

لم تعرف كم مضى من الوقت وهي واقفة في مكانها وهي تمسك مظلّتها بوضعية دفاعية ورأسها مكشوف تحت المطر الذي كان يسقط فوق شعرها وكتفيها. بعد أن أدركت حقيقة ما حدث، رفعت مظلّتها ومسحت الماء من عينيها بيدها المبللة، ولاحظت سارة واقفة على الرصيف المقابل تنظر إليها.

كانت أمينة المكتبة ترتدي معطفاً مطرياً أصفر يلمع وحذاء طويلاً يتطابق معه تعّق على كتفها حقيبة كتبها، وتغطي رأسها مظلّة رُسمت عليها خنفساء ضخمة سعيدة.

لم تتحرك غرايس التي شعرت البرد والحرج من مكانها، وظل الماء يغلغل إلى داخل ثيابها وشعرها ثم يسيل فوق وجهها وكتفيها ليعود إلى ماء المطر الذي يسيل في الشارع. كانت مبللة مثل جرذ غريق.

نظرت سارة إلى غرايس من رأسها إلى قدميها، ومن دون أن تلوّح لها، استدارت وذهبت.

ثم خرجت سارة بسيارتها من ساحة وقوف السيارات في المكتبة، وانطلقت بسرعة دون أن تنظر إلى غرايس.

هذه هي النهاية النموذجية لأسبوع بائس.

لم تستطع غرايس أن تلوم سارة على تصرّفها هذا لأن غرايس لم تكلّم أمينة المكتبة منذ الاجتماع الأخير. فقد كانت رحلة عودتهما القصيرة إلى البيت في ذلك اليوم صامتة على نحو ممض لكليهما. ولم تخف غرايس الحقيقة بأنها كانت تتفادى اللقاء بسارة. كانت غرايس تعرف أن تصرفها هذا كان طفولياً، لكنّها كانت تشعر في قرارة نفسها أن سارة خانتها لأنها شاركت في

الحيلة حتى تعود غرايس إلى رئاسة النادي. ومع أن زوي بيل وكات كارتر شاركتا فيها فإن غرايس لم تقاطعهما، لكنها غضبت من سارة فقط.

تنهّدت غرايس، أحست بإرهاق مفاجئ وشعرت بأنها تريد أن تبكي. كان أسبوعاً سيئاً، رديئاً. فقد بدأ سلوك ما ما جي المضطرب في المساء يزداد سوءاً. ففي الليلة الماضية استيقظت عدة مرات وكانت غرايس تستيقظ معها. وكانت كلّ ليلة تجعل غرايس متعبة أكثر من الليلة التي سبقتها. وفي صباح هذا اليوم، بينما كانت تنظّف أسنانها والنعاس لا يزال يداعب عينيها، تذكّرت فجأة أن لدى ماما جي موعداً مع الطبيب بولتون في الساعة التاسعة. فاتصلت غرايس على الفور برئيس البلدية الذي وافق على أن تتأخر شريطة أن تظل تعمل حتى السابعة مساء، فاضطرت إلى خططها لتأخذ ديزي إلى السينما التي تعكّر مزاجها وبذلت غرايس المستحيل كي تقنع ماما جي التي أصبحت أكثر عناداً وديزي الحادّة الطبع على ارتداء ثيابهما وتناول فطورهما بسرعة للذهاب إلى موعد الطبيب خلال ثلاثين دقيقة.

استطاعت أن تفعل كلّ ذلك في خمسة وأربعين دقيقة، وهذا زمن قياسي، مع أنهن لم يصلن إلى عيادة الطبيب في الوقت المحدد. والشي الذي زاد الأمر سوءاً تعكّر مزاج غرايس عندما وصلن إلى عيادة الطبيب وإصرار ديزي على عدم النزول من السيارة.

وهكذا دخلت غرايس في مباراة في الصراخ مع هذه الفتاة الحادّة الطبع ذات الثماني سنوات. وعندما انزعجت ماما جي مما كان يجري وامتلأت عيناها الدموع، توقفت غرايس وديزي عن الجدال فيما بينهما واعتذرتا لها. ثم أدركت غرايس أنها هي السبب في ما حدث، فعلى الرغم من أنها كانت الشخص البالغ، راحت تصرخ في وجه ديزي كما لو كانت في عمرها.

وبسبب هذا الجدال أيضاً، تأخرن على موعد الطبيب. ومع أن الممرضة لم تقل شيئاً، فقد أحسّت غرايس أنها هي السبب في كلّ ذلك، وتألمت كثيراً لأنها نسيت أن تعطي الدواء لماما جي هذا الصباح، ومن الغضب الذي كان يعتمل في نفسها نسيت معظم ما قاله لها الدكتور بولتون في تلك الزيارة، فاضطرت إلى الاتصال به عندما رجعن إلى البيت فأعاد عليها ما قاله لها بشأن الدواء الجديد الذي وصفه لماما جي.

كان ذلك الصباح مشوَّشا، مضطرباً، يبعث على الأسى، وكانت المسؤولية كلّها تقع على كتفي غرايس الضعيفين.

كيف يمكنها أن تدرس الوضع المالي المعقّد لترى ما الذي يجب أن تفعله، وتضع خطة شاملة لإصلاح الوضع، بينما لا تستطيع أن تأخذ أمّها إلى موعد الطبيب في الموعد المحدد أو تتحدث بهدوء مع فتاة في الثامنة من عمرها؟ إنها أسوأ راعية أطفال وأمّ في العالم.

الأسوأ.

عندما وصلت غرايس إلى المكتب في الساعة الحادية عشرة، كانت متوترة الأعصاب ومكتئبة، وكان السيد مور معكّر المزاج أيضاً. كان يتملكه شعور بأنّ لديه الحق في أن يكون كذلك، لأنه اضطر إلى الردّ على ما لا يقل عن أربع مكالمات هاتفية مزعجة من مواطنين غاضبين في أثناء

غيابها. كانت غرايس تعرف أن تخفيض ميزانية مهرجان التفاح لن يلقى ترحيباً من أهالي البلدة، لكنّها لم تدرك أنهم سيعتبرون أن غرايس تكره بلدتهم المحبوبة، أو أن لديها نوعاً من الثأر ضدّها.

كان من الواضح أن السكان المحبطين سيلومونها هي ولن يلوموا أي شخص آخر. ففي اليوم الذي أعقب ذلك الاجتماع مباشرة، تغيّرت طريقة معاملتهم لها. فعندما كانت تذهب إلى مقهى ضوء القمر لتأخذ قهوتها الصباحية المعتادة، أصبحت النادلة، ماريان فريلي، ذات الشعر الكستنائي التي تصبغ شفتيها بأحمر شفاه فاقع، البالغة من العمر ثمانية وسبعين سنة، تصبّ قهوة غرايس وتأخذ منها النقود دون أن تقول لها كلمة واحدة. مع أن ماريان كانت تتبادل مع غرايس الحديث أول ما تضع قدمها في المقهى حتى تغادره.

لم تكن ماريان هي التي تفعل ذلك فقط، فقد كان سكان بلدة دوف بوند يُشعرون غرايس كلما أتيحت لهم الفرصة بأنهم غير راضين عن قرار اللجنة، وبدأ معظم سكان البلدة يتجنّبونها، ويشيحون بوجوههم عنها عندما يسيرون بجانبها على الرصيف أو يصادفونها في البلدة. لكن أسوأهم الأشخاص الذين يريدون أن يُعلموها برأيهم بالقرار الذي اتخذته، خصوصاً السيدة جولين هاملتون التي جاءت إلى مبنى البلدية البارحة مع كلبها الصغير «فطيرة القمر» وقالت لغرايس بوضوح شديد إن مهرجان التفاح هو أهم احتفال يقام في دوف بوند منذ زمن بعيد وإذا كانت غرايس تظنّ أنها تستطيع أن تحرمهم من مهرجانهم المحبوب ثم تغادر البلدة، فعليها أن تفكّر بشيء آخر.

عندما غادرت السيدة هاملتون وكلبها، جاء رئيس البلدية مور من مكتبه إلى مكتب غرايس وقال لها: «أترين؟ لقد حذّرتك»، ثم أخذ صنارة الصيد وهرب كما لو كان يهرب من الموت نفسه.

بالفعل كان السيد مور قد حذّرها. ففي اليوم الذي أعقب وضعها قانون لجنة تحسين دوف بوند، حذرها رئيس البلدية، ومع أنه كان يعرف سبب تخفيض ميزانية المهرجان، فقد ظلّ يرفض الاعتراف بذلك.

في البداية، قال إن هذا القرار ناجم عن «الطاغية الصغيرة» وهي العبارة التي لا بد أنه سمعها من شخص آخر، ولا تظن أنه يفهم معناها تماماً، ثمّ اتّهم غرايس بأنها تخضع لمشيئة زوي بيل التي تحاول أن تأخذ منصبه منه.

حدث ذلك عندما رمت غرايس بيانات ميزانية البلدة على طاولة مكتبه وأجبرته على أن يدقق فيها مرة أخرى حتى وافق مكرهاً على أنّه لا يوجد حلّ آخر. ولم يقتنع بأن خطتها الرامية إلى جذب شركات أخرى إلى البلدة ستجدي نفعاً. لكنها على الأقل استطاعت أن تجعله يرى حقيقة ما تفكّر به، بأنهم يجب أن يعيدوا الاستثمار في البلدة قبل ألّا يبقى هناك شيء يمكن استثماره. وعرف أنّ تخفيض ميزانية المهرجان الذي يحبّه الجميع هو أفضل شيء متاح له قبل أن تشهر البلدة إفلاسها.

هبّت ريح قوية وبدأت غرايس ترتجف عندما بدأت قطرات المطر تنقر بقوة فوق مظلّتها: سارت بضع خطوات نحو سيارتها، والتصقت ثيابها المبللة بجسمها، ثم توقّفت. شعرت بأنها

متعبة، متعبة جداً، وأنها لن تستطيع أن تعدّ طعاماً عندما تعود إلى البيت. نظرت إلى مقهى ضوء القمر الذي كانت نوافذه تتوهّج بضوء ذهبي، وومضت اللافتة الحمراء «مفتوح» مرحبة بها. كانت ديزي وماما جي تحبّان الخبز باللخم الذي يعدّه هذا المقهى، فقالت غرايس لنفسها إن أخذ وجبة جاهزة إلى البيت سيكون أسرع بكثير من الوقت الذي ستستغرقه لو قامت هي بإعداد أي شيء.

عادت غرايس إلى مبنى البلدية، ووقفت تحت السقف لاتقاء المطر، وأرسلت رسالة نصيّة إلى ليندا تسألها إن كانت لا تمانع من أن تمكث فترة أطول قليلاً مع ماما جي وديزي حتى تحضر وجبة عشاء جاهزة، فجاءها الرّد بسرعة بالموافقة وطلبت من غرايس أن تحضر ثلاث وجبات من لحم البقر المشوي مع فاصولياء خضراء وثوم وبطاطا مهروسة ومرق لحم. شعرت غرايس بارتياح وأسرعت نحو المقهى.

ما إن فتحت باب المقهى العريض حتى هبّت عليها رائحة القهوة الحارة اللذيذة.

على الفور توجهت إليها جميع النظرات، وتوقّفت الأحاديث في منتصف الجمل، وسرعان ما تحوّلت النظرات إلى تحديق فيها، لتذكّرها بأنّها أصبحت الآن الشخص المنبوذ في البلدة.

أتمنى لو كان في حذائي مهماز لمشيت بين هؤلاء الأشخاص كما يفعل الأشرار في أفلام الكاوبوي، لكن للأسف فإنها تنتعل حذاء ذا كعب عال غارق بالماء. وضعت مظلّتها التي لا يزال الماء يسيل منها في سلة بجانب الباب، وعلّقت معطفها المطري بجانب المعاطف أخرى، ودسّت شعرها الندي وراء أذنيها، ثم حاولت أن تعصر أسفل تنورتها المبللة فوق السجادة، محرجة. بعد أن سالت منها أنهار صغيرة، وجففت نفسها بقدر ما تستطيع من دون منشفة، عدّلت كتفيها وسارت عبر الصمت بين الطاولات نحو الكاونتر، كعب حذائها يصدر نقرات عالية فوق الأرضية الخشبية القديمة.

رأت غرايس بضعة وجوه تعرفها - كات كارتر تجلس مع رجل لم تره من قبل، رجل وسيم له بنية لاعب دفاع في فريق كرة قدم، لكنه يرتدي ثياباً أنيقة مثل رجل غني من مدينة نيويورك. عندما التقت عينا كات بعينيْ غرايس أومأت لها، كما لو أنها تشعر بأنها مرغمة على عمل ذلك.

بادلتها غرايس الإيماءة، منزعجة لأنها أحسّت بالامتنان لهذا الترحيب الجاف.

وفي الزاوية في الخلف، رأت الدكتور بولتون جالساً إلى طاولة يقرأ في صحيفة «رجيستر دوف بوند» وأمامه كوب قهوة نصف فارغ. عندما رأى غرايس ابتسم لها. كانت تحيته لها أكثر دفئاً من ابتسامة كات المتكلّفة. شعرت غرايس بالسعادة عندما رأت الطبيب، وهو رجل لطيف، طيب القلب، يبدي اهتماماً كبيراً بماما جي. وكان قد قال لها إنه فقد صديقاً عزيزاً بعد أن أصيب بهذا المرض، وبذل جهداً كبيراً ليتعلّم خفايا وأسرار المرض.

ثم مرّت من أمام طاولة تجلس إليها ماغي وإد مايهيو وهما يضحكان على شيء كان إد يريه لماغي على هاتفه الخلوي. ما إن رأت ماغي غرايس حتى اختفت ضحكة المرأة المسنّة، وحلّت محلها نظرة اتّهام قوية، وفي نفس الوقت، أبدى إد ابتسامة قصيرة محرجة.

بادلته غرايس الابتسامة، وشعرت بأنها تلقى ترحيباً هنا كما يلقى تمساح ترحيباً في حوض أسماك. ثم جلست على كرسي من طراز عتيق أمام الكاونتر.

في الجانب الآخر من الكاونتر، رأت رجلاً بديناً ذا لحية يحلّ الكلمات المتقاطعة في صحيفة ريجستر دوف بوند اليومية، لكنّه أخذ وقتاً ليتحرّك على مقعده ويدير لها ظهره. كانت متأكّدة بأنها لم تره من قبل، لذلك لذلك أحسّت بإهانة كبيرة.

كانت غرايس تحبّ أن تأتي إلى هذا المقهى، فهو مكان صغير ومريح ودافئ. ومثل معظم المطاعم في البلدات الصغيرة، فهو مزدان بزخارف ريفية تشمل مفارش طاولات قطنية حمراء، وأكياس حبوب موضوعة داخل إطارات، ومقاعد غير متجانسة، ومرطبانات مربى فارغة تُستخدم ككؤوس للشرب. ولم تشرب في حياتها قهوة أطيب من القهوة التي يقدمها هذا المقهى. ومع أنه كان بسيطاً، فقد كان جميلاً ومريحاً.

قرّبت غرايس المناديل التي على الكاونتر وأخذت حفنة منها، جفّفت بها وجهها وكلّ ما تستطيع أن تجففه.

دخلت النادلة ماريان من باب المطبخ تحمل صينية عليها أكواب قهوة نظيفة. عندما رأت غرايس، أطلقت زفرة رفض عالية «أف» وأخذت الصينية إلى الجانب الآخر من الكاونتر، وأصدرت صوت قرقعة عالية عند وضعت الأكواب.

أدركت غرايس أنها جاءت إلى المكان الخطأ، لكن كرامتها لم تسمح لها بأن تغادر قبل أن تحصل على ما جاءت من أجله: وجبة العشاء لأسرتها وليندا. أخذت غرايس قائمة الطعام من وراء حامل المناديل وتظاهرت بأنها تقرأها وأخفت وجهها من الزبائن الجالسين بالقرب منها.

ومع أنه لم يمض على وجودها في دوف بوند أكثر من ستّة أسابيع، وهي ليست فترة طويلة، فقد بدأت تستمتع بترحيب الناس لها الذين كانوا يلوّحون ويبتسمون لها، ويعاملونها كأنها واحدة منهم.

أما الآن، لمفاجأتها، لم تعد ترى ذلك.

وضع كوب فارغ أمامها وبدأت القهوة تُصبّ فيه. أنزلت قائمة الطعام فرأت ماريان تقف أمامها، تلملم المناديل المبللة التي استعملتها غرايس لتجفيف وجهها. كان شعر النادلة الكستنائي البراق مكوَّما فوق رأسها في شكل يشبه خلية نحل، وفمها المطلي بأحمر الشفاه مضغوط في خطّ مستقيم، حزين. كانت امرأة ذات ألوان متعددة وكانت غرايس معجبة بها كثيراً.

«شكراً». وضعت غرايس قائمة الطعام على الكاونتر ومدّت يدها إلى كوب القهوة.

«ملعقتا حليب، أليس كذلك؟» وضعت ماريان الحليب بجانب القهوة مع ملعقة.

«نعم. شكراً». أضافت غرايس الحليب، ثم أمسكت الكوب الدافئ بين يديها وتنحنحت، وقالت: «أريد أن أطلب ستّ وجبات سآخذها معي».

أخرجت ماريان دفترها الصغير من جيبها ونقرت على قلمها.

«ثلاث وجبات خبز باللحمة وثلاث وجبات لحم بقر مشوي وبطاطا مقلية وسلطة وبطاطا مهروسة وفاصولياء خضراء وثوم مع المرق للحم المشوي».

سجلت ماريان الطلب، وقالت: «لكن هذا طعام كثير».

«وجبة اللحم المشوي لليندا روبنسون وأسرتها».

«إذن سأضيف بضع لفّات في وجبة مارك لأنه يحبّ اللفات التي نعدّها كثيراً». مزّقت ماريان الطلب من دفتر تسجيل الطلبات الصغير واستدارت وثبتته على العجلة المعلّقة فوق نافذة المطبخ وأدارت العجلة.

ثم عادت إلى غرايس، وقالت: «ستكون الوجبات جاهزة بعد خمس عشرة دقيقة».

«شكراً».

«أهلا بك»، وأعادت دفتر الطلبات والقلم إلى جيب مئزرها وأعطت غرايس منشفة صحون.

نظرت غرايس إلى المنشفة، لا تعرف ماذا ستفعل بها.

«إنك مبللة بالماء. ظننت أنك تريدين أن تضعيها تحت قدميك».

نظرت غرايس إلى الأسفل، ورأت بركة صغيرة من الماء تشكّلت عند حاشية تنورتها تنقط ماء على الأرض، فقالت لها: «شكراً»، ووضعت المنشفة فوق البركة الصغيرة.

أسندت ماريان أحد مرفقيها على الكاونتر بقوة، وقالت: «أهلاً بك. يجب أن نتكلّم الآن، أنا وأنت».

سكت جميع الجالسين أمام الكاونتر لينصتوا.

وضع توم ديكير، وهو رجل عجوز أبيض الشعر، يجلس بعد ثلاثة مقاعد من غرايس، كوبه كما لو كان يريد أن يدّون بعض الملاحظات.

أملت غرايس بألّا تدخل في مبارزة تحمل سيفاً مكسوراً في مواجهة مجموعة من الأسود الغاضبة، لكنّها قررت أن تقاوم حتى النهاية، وألّا تضطر لأن تشرح لكل شخص على حدة سبب تخفيض ميزانية المهرجان، وتمنت أنها إذا شرحت الأمر لماريان التي تُعرف في البلدة بأنها امرأة ثرثارة، فإن الجميع سيعرفون بصورة أسرع. هزّت غرايس رأسها لماريان وقالت: «حسناً، لنتكلّم».

«سمعت أنّك تريدين تخفيض ميزانية المهرجان».

«لا أريد أن أفعل ذلك، لكننا مجبرون على ذلك. أعرف أن المهرجانات هامة جداً بالنسبة للبلدة، أتفهم ذلك. لكن انظري إلى هذه البلدة. فهذا هو المقهى الوحيد الذي بقي يعمل جيداً.

وتعرفين أن الأمور ليست على ما يرام في دوف بوند. فقد أغلقت أكثر من ثلث المحلات التجارية في هذا الشارع. لذلك، علينا أن نخطط للمستقبل، وهذا يعني أن نشجّع شركات جديدة على المجيء إلى البلدة».

انحنت ماريان أكثر ونقرت بطرف ظفرها المصبوغ بالأحمر على الكاونتر وقالت: «أعرف أننا بحاجة إلى شركات جديدة، لكنّنا نحتاج أيضاً إلى المهرجانات التي نقيمها، خصوصاً مهرجان التفاح. لا بد أنك تستطيعين إيجاد موارد من مصادر أخرى».

هزّ الرجل الملتحي الذي يحلّ الكلمات المتقاطعة رأسه، وقال: «مهرجان التفاح هو أقدم تقليد في البلدة»

ورشف الرجل العجوز توم قهوته ببطء وهو ينظر إلى غرايس من فوق حافة كوبه نظرة تشي بالاتّهام.

ابتلعت غرايس غضبها، وقالت: «أنا لا أريد أن ألغي المهرجان، وإنما نريد أن نعيد تخصيص بعض الأموال في الميزانية لمدة سنة أو على الأكثر سنتين. لفترة تكفي للحصول على عائدات من برنامج جذب شركات جديدة إلى البلدة لأن ذلك سيمكننا من الحصول على عائدات ضريبية جديدة حتى نعيد ميزانية المهرجان إلى ما كانت عليه، بل ربما نزيدها. لا أعرف ما الذي سمعته، لكنني...»

«مرحباً، غرايس»، قالت كات وجلست على المقعد بجانبها، «هل تمانعان في أن أنضم إليكما؟»

نظرت غرايس وراء كات ورأت الرجل الذي كان جالساً معها قد أصبح عند الباب. كان يرتدي معطفاً غالي الثمن، يبدو غاضباً أيضاً، فمه مقوّس في عبوس شديد. ثم نظرت غرايس إلى كات، وقالت: «طبعاً. أنتظر وجبات طلبتها لآخذها معي إلى البيت وكنت أتبادل الحديث مع ماريان».

«عن مهرجان التفاح»، قالت ماريان، «ولماذا يجب ألّا يُموّل بالكامل».

ابتسمت كات لماريان، وقالت: «أريد قهوة من فضلك».

«حسناً». ألقت ماريان نظرة قاسية على غرايس، وأضافت، «لديّ أشياء أخرى أريد أن أقولها عن هذا الأمر».

في الجانب الآخر من الكاونتر، هزّ توم رأسه بقوة.

«ماريان»، قالت كات بنبرة جافّة، «أنا أعرفك منذ أن ولدتِ ولا أتوقّع أبداً أن تتركي موضوعاً تضعين أسنانك فيه».

«أنا لست خجولة»، قالت ماريان وهي تضع كوباً أمام كات وملأته بقهوة ساخنة، «كنت أقول للسيدة ويلر إننا نريد مهرجان التفاح».

«سنقيم مهرجان التفاح»، كرّرت غرايس التي تشعر بالبرد والرطوبة والبؤس. ثم انحنت فوق كوب قهوتها وحاولت أن تمنع رجفة اعترتها.

لاحظت كات ذلك، وسألتها، «كيف تبللت هكذا؟»

«بركة الماء تلك في الطريق بجانب مبنى البلدية. مرّت شاحنة عندما كنت أسير بجانبها وملأتني بالماء».

«لقد نالوا منك».

«كان ذلك أشبه بفيلم سينمائي. فيلم سيء. أرجو ألّا يكون ذلك مقصوداً، لكن لا أستطيع أن أكون متأكّدة من ذلك. يبدو أنني أغضبت أناساً كثيرين هنا».

«أظن ذلك»، قالت ماريان وهي تضع إبريقاً صغيراً من الحليب الخالي من الدسم أمام كات.

«يبدو أن إرما كانت هنا»، قالت كات ونظرت من فوق قهوتها إلى غرايس، «إنها تنقل الأخبار».

«سمعتُ ذلك من أشخاص آخرين أيضاً»، قالت ماريان بنبرة حادّة.

فقالت كات: «نعم، إن الاجتما...، أقصد لجنة التحسين ستفعل ما نظن أنه الأفضل بالنسبة للبلدة، هذا كلّ ما يمكننا أن نعد به».

فقالت ماريان: «إذا خفضتم الميزانية، فلن يبقى شيء في المهرجان. فهو للتو ربع ما كان عليه. عندما كنت صغيرة، كان مهرجان التفاح أكبر احتفال يقام في البلدة، وكان الناس يأتون من أماكن بعيدة. في ذلك الوقت، كانت هناك مراجيح، وجولات بالمنطاد بالهواء الساخن و - أشياء أخرى كثيرة. لكن مع مرور السنوات، بدأ يتقلّص حتى لم يعد فيه شيء يمكن إلغاؤه، فلم يعد فيه سوى أكشاك لبيع الطعام والمصنوعات اليدوية وبضع ألعاب. لا أستطيع أن أرى كيف...»

دقّ جرس يُعلم ماريان بأنّ طعام أحد الزبائن قد أصبح جاهزاً. غمغمت شيئاً معبّرة عن انزعاجها وذهبت لجلب الطلبات، وتركت كات وغرايس وحدهما.

فركت غرايس رقبتها.

بدت علائم التعاطف على وجه كات، «إنهم يقسون عليك، أليس كذلك؟»

«كثيراً».

«أستطيع أن أتخيّل ذلك. هل أنت على ما يرام؟»

«نعم»، لم تقل غرايس الصدق، وتساءلت لماذا بدأت عيناها تحرقانها، ثم قالت «أظن أن الناس يلاحقونك أنت أيضاً؟»

«نعم، لكنهم لا يلومونني أنا».

«إنهم يلومونني أنا»، قالت غرايس متعبة، «لاحظت ذلك».

«آسفة. لأنك جديدة هنا...» قالت كات.

«أعرف كيف تسير الأمور. فأنا طفلة يتيمة وتنقلت بين بيوت رعاية عديدة، وذهبت إلى سبع مدارس خلال أربع سنوات. كنت دائماً الطفلة الجديدة وكان ذلك أمراً صعباً للغاية».

في الطرف الآخر من الكاونتر، دسّ توم يده في جيب معطفه وأخرج قنينة. صبّ كمية منها في كوب قهوته ثم نظر إلى عيني غرايس ورفع القنينة كأنه يدعوها.

عندما هزّت غرايس رأسها، هزّ كتفيه بلا مبالاة وأعاد القنينة إلى جيبه، وأخذ يرشف قهوته بلذة واضحة.

رمقت كات غرايس بنظرة فضولية، وقالت: «سمعت أحدهم يقول إن ماما جي ليست أمّك الحقيقية».

«عشت أنا وأختي معها منذ أن كنّا طفلتين صغيرتين». أمسكت غرايس كوبها بيديها كلتيهما، لتدفئهما وأضافت، «حتى بدأت أعتني بديزي - أو أنني أحاول ذلك - لم أكن أعرف مدى التضحية التي قدّمتها لنا ماما جي. إنها قدّيسة بكل معنى الكلمة».

«لا أعرف شيئاً عن الأمومة سوى أنني أظن أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك».

«وأنا كذلك»، اعترفت غرايس، «إنها شيء في غاية الصعوبة. في المرة القادمة، سأجلب نبتة لأرى كيف يمكنني أن أرعاها. فإذا عاشت حتى نهاية السنة، فإني سأربّي سمكة، ثمّ ببغاء، ثمّ قطّة، ثمّ دبّ، وإذا ظلت كلّها على قيد الحياة بعد عشر سنوات أو عشرين سنة، فإني سأنجب طفلاً».

ضحكت كات، وقالت: «يبدو أن ما تقولينه منطقي. لكن تعاملك مع ديزي لس سيئاً. بما أن ليندا روبنسون تزوركم كثيراً، فإننا سنعرف إن كنتِ ما تفعلينه ليس جيداً».

«سآخذ وجبة عشاء إلى ليندا، لذلك يصعب أن تكون شاهدة غير متحيّزة»، قالت غرايس ودسّت شعرها الندي وراء أذنها، «بالمناسبة، أشكرك لأنك جئت الآن لتحميني من ماريان. هذا لطف منك».

«لا توجد مشكلة. إني أقول للجميع إنّنا لن نخفض ميزانية المهرجان لو لم نكن مضطرين إلى ذلك، لكنّها معركة صعبة».

«لم أكن أدرك أن الجميع متعلّقون بمهرجان بسيط يقام في الشارع هكذا».

نظرت كات إليها وقالت: «إنه أكثر من ذلك. إنه جزء من تاريخنا، ويراه البعض جزءاً من مستقبلنا أيضاً».

تذكّرت غرايس الحقيبة القماشية الكبيرة التي كانت تجرّها عندما وصلت إلى بيت ماما جي منذ تلك السنوات. فمع أن الأشياء التي كانت تجمعها لم تكن سوى خردة، فقد كانت تجعلها تشعر بأن أمامها مستقبل. هل هذا ما يفكّر به سكان بلدة دوف بوند عن مهرجانهم؟

كان كلّ شيء في غاية التعقيد. تنهّدت ووضعت كوبها على الكاونتر لتفرك عينيها ووجدت نفسها تغالب تثاؤبة.

«يبدو أنك كان عليك أن تأخذي قيلولة»، قالت كات.

«عندما لا تنام ماما جي جيداً، فأنا لا أنام أيضاً. اضطررنا إلى تركيب أقفال على الأبواب كي لا تتمكن من مغادرة البيت، وكلما سمعت صريراً، أستيقظ مجفلة، وبعد أن تستيقظي يصعب عليك أن تعودي إلى النوم».

«الذين يصابون بالزهايمر» قالت كات وهي تهزّ رأسها كأنها تعرف، «كان والد تراف مصاباً به. أتذكّر ذلك لأنه كان يحكي عنه لسارة عندما كنت أزور أفا في بيتهما».

على الفور تخيّلتهم غرايس وهم يطهون وجبة طعام، يضحكون ويتحدثون عن حياتهم كما يفعل الأصدقاء. شعرت بوخزة من الغيرة. هذا شيء سخيف، فلا يوجد عندي وقت لرعاية ديزي حتى أصادق أحداً. ثم قالت لكات، «أرجو ألّا تكون قائمة الأعمال التي وزّعتها عليكم في الاجتماع كثيرة».

«لا. لقد أنهيت المهام الموكلة إليّ في أيام قليلة».

«لا بد أنك تمزحين».

«لا، أبداً»، قالت كات ووضعت كوبها على الكاونتر وراحت تنظر إلى سحابة البخار التي تتصاعد منه، «فقد درست إدارة الأعمال في جامعة ولاية أبالاشيان، وأن عملاً كهذا بمثابة تدريب جيد لي».

«إن عملك في مجال العقارات مفيد جداً لك».

«ألا تظنين ذلك؟ لكن بما أنني أعمل في مكتب أمّي، فإنني أفعل ذلك بطريقتها. فلا يوجد لديها وقت لتضع خططاً أو إحصائيات أو أشياء من هذا القبيل، وهي ترى أن سلال الهدايا والابتسامات تحقق لها ما تريد».

«لكن ألا ترين ذلك».

هزّت كات كتفيها وقالت: «إنها تبيع بيوتاً كثيرة، لذلك أرى أن ما تقوله صحيح. لكن سواء أرادت أن تعترف بذلك أم لا، لا يزال هناك مجال للتحسين».

«أظن أنك قلت لها ذلك».

«لم يجد ذلك نفعاً معها. سيأتي يوم سأبدأ فيه العمل بمفردي. لكن أمّي تسيطر على سوق البيوت في دوف بوند، لا بل في المقاطعة كلها. فإذا أردت أن أنجح عليّ أن أنتقل إلى أشفيل»، ثم ابتسمت وأضافت، «وبما أنني لن أغادر دوف بوند، فإنني لا أزال هنا».

«أتحبّين هذه البلدة إلى هذه الدرجة؟»

«نعم. فقد نشأت هنا وأعرف جميع أهلها»، وابتسمت، «وأحياناً فإن العادات، خصوصاً العادات المريحة، يمكن أن تعيق تقدمك. لذلك وجدت متعة في العمل الذي أوكلته لي».

«أنا سعيدة بذلك. أظن أنّك الوحيدة التي وجدت متعة في المهام التي أوكلتها إليكم».

نظرت كات نظرة فضولية إلى غرايس وقالت: «ما الذي جعلك تفكرين بدعوة الشركات التجارية التي غادرت دوف بوند؟»

«فكّرت بأنها أسرع السبل وأفضلها حتى نعرف أين يكمن فشلنا».

هزّت كات رأسها، وقالت: «تعلّمت أشياء كثيرة. يحبّ الناس هذه البلدة وسيعودون إليها بسرعة كما هي نبضات القلب، لكن لا يوجد لدينا عدد كاف من الزبائن للشراء من هذه المحلات. فالبلدات المحيطة بأشفيل مليئة بالمخازن الكبيرة ومراكز التسوّق، بالإضافة إلى البيع على الانترنت - وابتسمت كات ابتسامة عريضة - «لذلك بدأت المحلات الصغيرة تبيع بأسعار أقل من المحلات الأخرى».

«وبالرغم من ذلك، فإنك تجدين في وسط مدينة أشفيل محلات تجارية صغيرة ومعارض فنية ومطاعم تقدّم أطعمة طازجة من المزارع مباشرة، وكلها ناجحة».

«لأشفيل خصوصيتها، وتبرهن هذه المحلات على ذلك».

«ربما يجب علينا أن نجد خصوصيتنا»، قالت غرايس ورشفت قهوتها، «فلا يزال أصحاب المحلات الذين غادروا يقولون أشياء جيدة عن دوف بوند؟»

«أشياء جيدة كثيرة. فهم يحبّون أسلوب الحياة والناس والمجتمع فيها، ولم يكونوا مسرورين لأنهم اضطروا إلى مغادرتها».

«هذا شيء مهم، وسيساعدنا ذلك كثيراً».

«كما قلت، كان ذلك ممتعاً».

«جميل». نظرت غرايس إلى كات بوقار جديد، وقالت: «أرجو أن تذكري ذلك لأعضاء اللجنة في اجتماعنا التالي»

«طبعاً. هذا يجعلني أتساءل لماذا لا نستطيع...»، وتحولت نظرتها إلى شيء وراء غرايس.

التفتت غرايس ورأت سيارة بي إم دبليو تمرّ في الشارع. كانت قطرات المطر لا تزال تسقط فوق السقف بلا هوادة، ثم التفتت إلى كات وسألتها، «هل تعرفين ذلك الشخص؟»

نظرت كات إلى كوبها، وقالت: «قليلاً».

كانت تلك كذبة لم تستطع غرايس أن تخفي عدم تصديقها.

بدا الانزعاج على وجه كات التي قالت: «نعم، أعرفه، أكثر من قليلاً».

«أظن ذلك. يفترض أن أقول هنا شيئاً إيجابياً عن العلاقات أو الأشياء الأخرى، لكن صدقاً، لا أعرف الكثير عنها».

«ألم تكن لديك علاقة جدّية من قبل؟»

«لم يكن لديّ وقت لذلك. فقد درست في الجامعة ثم بدأت أعمل أربعاً وسبعين ساعة في الأسبوع، ثم ماتت أختي وأصبحت أرعى ابنة أختي، ثم مرضت ماما جي - دوامة من العلاقات انتهت منذ أن بدأت - فأنا الفتاة التي لا يريد أحد مصادقتها».

هزّت كات رأسها، وقالت: «هذه قائمة طويلة تجعلك بعيدة عن حدوث أشياء سعيدة في حياتك».

«أنا سعيدة كثيراً لأنه لا يوجد عندي أصدقاء». أو أنها تحاول أن تقنع نفسها بذلك، «وقد طلبت وجبات جاهزة للعشاء. وهذه إحدى أكبر مهاراتي كربّة منزل، أن أطلب طعاماً جاهزاً. أنا أجيد هذا الشيء كثيراً».

«لا تنتقدي نفسك لأن هذه مهارة جيدة. هل طلبتِ وجبة الخبز باللحم؟» عندما هزّت غرايس رأسها بأن نعم، أمالت كات رأسها إلى الخلف وأطلقت تنهيدة سعيدة، وقالت: «يملك أبي بيوتاً في باريس، وفي بحيرة كومو، وفي مدريد، لذلك أتيحت لي الفرصة لأن أتناول الطعام في بعض أفضل المطاعم في العالم، لكن لا شيء يمكن أن يجاري الخبز باللحم الذي تعدّه جول».

وجول هي كبيرة الطهاة وصاحبة مقهى ضوء القمر، وتُظهر الآن سحرها على الشواية. «إنه جيد حقاً»، قالت غرايس موافقة ورفعت كوب قهوتها.

«جيد؟ كما تقول صديقتنا ليندا روبنسون، إنها توازي الرعشة الجنسية».

كادت غرايس التي لم تكد تأخذ رشفة من قهوتها أن تغصّ بها.

ابتسمت كات بسعادة، عيناها البنيّتان تومضان بالمرح، «بجدّ إنها توازي الرعشة الجنسية».

الآن فهمت غرايس ماذا تعني موهبة كارتر عندما قالت لها سارة إن نساء عائلة كارتر يتمتعن بقوّة جذب الرجال الأثرياء ورجال السلطة، ورأت غرايس بعضاً من ذلك الآن. كانت كات تتمتع بجمال السمراوات الآسر الذي كانت تتمتع به نجمات السينما في أربعينيات القرن العشرين، بتلك العينين الشهوانيتين الناعستين والأهداب الطويلة التي كان المرء يراها في الفتيات على أغلفة المجلات في الزمن الماضي. لكن الأمر لا يقتصر على ذلك فقط، وإنما هناك تلك النظرة الدافئة والعميقة التي تنظر فيها كات إلى أحد، كما لو أنّ كلّ ما تقوله لا تقوله إلّا لك وحدك. قالت غرايس لنفسها إن الرجال سيتلقفّون ذلك بسرعة.

عندما تناولت كات كوبها وعادت تنظر باتجاه الباب، أزال حزن عميق قسمات المرح التي كانت قد ارتسمت على وجهها.

كانت غرايس تأمل بأن تعرف ماذا تقول، لكن لم يخطر ببالها شيء. هذا هو الشيء الذي يؤلم الشخص المنطوي على ذاته. لم تعرف ماذا عليها أن تقول في حالة كهذه، وفي حالات أخرى كثيرة أيضاً. يجب أن أقول لها شيئاً غير شخصي، شيئاً يصرف انتباهها، فقالت: «أصدقك القول، فقد بدأت أتساءل عن صحة قراري بشأن ميزانية المهرجان».

طارت نظرة كات على الفور لتلتقي بنظرة غرايس، وسألتها، «حقاً؟»

نظرت غرايس حولها للتأكد بأن أحداً لا يسمعهما لكنها أدركت أن توم اقترب مقعداً منها. عبست في وجهه قبل أن تعود نظرتها إلى كات. ولكي لا يسمعها أحد، اقتربت غرايس من كات وهمست، «لا أريد أن أقول شيئاً قبل الاجتماع، لأنه قد يزيد آمال الناس ولا أريد أن أخذل الجميع مرة أخرى. لكن قد لا تكون فكرة تخفيض ميزانية المهرجان هي الفكرة المثالية، فإذا لم نحصل على المال منها، فلا أعرف أين سنجد المال».

فردّت كات بشيء من الكآبة «أعرف. فقد درست زوي الأمر من جميع جوانبه وقالت إن الميزانية كانت كما هي الآن».

مالت غرايس إلى الخلف وتنهّدت، «قد نجد جهات ترعى المهرجان، وهذا سيحلّ المشكلة، على الأقل لهذه السنة.»

أجفلت كات وقالت: «لا تعجبني فكرة أن تقوم شركات برعاية المهرجان، ولا أظن أن أحداً آخر في دوف بوند يحبّ ذلك أيضاً، لأنه سيفقد شخصيته».

«هل توجد لمهرجان التفاح شخصية خاصة به؟»

«يا إلهي، نعم. أنا متأكدة بأنه توجد سجلات في البلدية تتحدّث عن كلّ ذلك؟»

«كلّ ما رأيته في ذلك الملفّ الذي تركته السّيدة فيلبس هو قائمة بالمناسبات وإيصالات ونشرات من السنوات القليلة الماضية. هذا كلّ ما رأيته».

اتسعّت نظرة كات وهي تفكّر، ثم قالت: «يجب أن تكلّمي سارة لأن أرشيف البلدة كلّه موجود في الطابق الأرضي في المكتبة. أنا متأكدة بأنك ستجدين المعلومات التي تريدينها عن المهرجانات».

نظرت غرايس إلى كوبها وقالت: «هل يمكنك أن تساعديني في ذلك؟ هل يمكنك أن تكلّمي سارة غداً وتقولي لنا النتيجة في الاجتماع».

ضيّقت كات عينيها وقالت: «اسمعي. ما الذي يجري هنا؟ لماذا لا تريدين أن تكلّمي سارة بنفسك؟»

فقالت غرايس: «لا أرى مانعاً إذا تكلّمت مع سارة».

رفعت كات حاجبيها.

«حسناً، حسناً. أظن أنني أغضبتها».

«لا يمكنكِ أن تغضبي سارة دوف. إنها ألطف شخص في العالم، وأكثر شخص إيجابي أيضاً».

«نعم، لكن يبدو أنني لست شخصاً لطيفاً، ولست إيجابية أيضاً. لقد غضبتُ بعد ما فعلته مع زوي كي أعود إلى رئاسة النادي».

فقالت كات: «وأنا ساعدت في ذلك أيضاً».

«إذاً أنا حانقة منك أنتِ أيضاً».

فقالت كات: «لكنك لا تزالين تكلّمينني، وتكلّمين زوي أيضاً. فقد رأيتكما تجلسان أمام البنك البارحة، تتصفحان بعض الأوراق».

«حسناً، حسناً. في الحقيقة، أنا لست غاضبة منك أو من زوي. أنا غاضبة من سارة فقط».

«كانت تلك فكرة زوي، وقد ساعدتها أنا وسارة في تنفيذها. في الواقع، أنا التي ساعدتها كثيراً، وكانت مساعدة سارة ضئيلة جداً».

لم تقل كات شيئاً لا تعرفه غرايس. «لا أستطيع أن أفسّر ذلك لنفسي أو لك، فلقد انزعجت كثيراً لأنّها شاركت في ذلك، ثم أرادت أن ترافقني بالسيارة...».

انتظرت كات.

ثم تابعت غرايس، «لكني لا أريد ذلك، فقلت لها لا، لكنّها ظلت تأتي و...»

«و...؟»

«بدأت أذهب إلى العمل في وقت متأخّر كي لا ترافقني».

«أوه».

«أكثر من مرة».

رفعت كات حاجبيها.

«حسناً، حسناً، لقد فعلتُ ذلك خمس مرات».

أجفلت كات.

لكن غرايس لم تنهِ كلامها فأضافت، «في صباح أحد الأيام، جثوت على الأرض عندما رأيتها قادمة وأظن أنها رأتني».

«عند مدخل البيت؟»

«نعم. تمددتُ على الأرض مثل بساط. كان ذلك محرجاً جداً».

«هذا شيء حقير».

«أعرف. أنا فظيعة»، قالت غرايس وغطّت عينيها، «لم أستطع - فهي تكون في غاية السعادة في الصباح، وأنا لا أحب أن أرى ذلك. لكن حقاً» - أنزلت غرايس يدها - «لم أكن أريد أن تنتظر منّي شيئاً».

«مثل ماذا؟ مرافقتك في السيارة؟»

«تعرفين كيف تسير الأمور. تقدّمين خدمة لأحد مرة، فيتوقّع منك أن تقدّمي له هذه الخدمة كلّ يوم. عدة أشخاص ينتظرون أن أخدمهم الآن - ماما جي وديزي والعمل، ولا يمكنني أن أتحمّل شيئاً آخر».

«إذاً قولي لها ذلك، وهي ستتفهم الأمر».

«أعرف، أعرف. لكنّه يبدو أن الوقت قد تأخر». أسندت غرايس مرفقها على الكاونتر ووضعت يدها على ذقنها، «لقد رأيتها قبل أن أدخل إلى المقهى الآن، ولم تلوّح لي بيدها، وقد أزعجني ذلك كثيراً».

هزّت كات رأسها ببطء، وقالت: «لا أستطيع أن أصدّق أنك أغضبتِ سارة دوف. لم يفعل ذلك أحد. فهي تستطيع أن ترى أفضل شيء في كلّ شخص. أقصد أنها فتاة رائعة».

هزّت غرايس رأسها بحزن.

«إنك امرأة غريبة الأطوار. آمل أن أساعدك في هذا الأمر، إنك وحيدة». أمالت كات رأسها إلى جانبها، وأضافت، «لكن هل يمكنني أن أقول لك شيئاً؟»

«ما هو؟» قالت غرايس بكآبة.

«أنتِ منهكة. يمكنني أن أرى ذلك، وأعرف أن العالم يريد أشياء كثيرة منك. يا إلهي، لا أعرف ماذا يمكنني أن أفعل لو كانت لديّ مسؤولياتك. إنك امرأة إدارية جيدة، اجمعي فريقاً جيداً من الأشخاص لمساعدتك على حلّ المشكلة. وسارة من ذلك النوع الذي يجلب لك حساء إذا مرضتِ، ويمكنها أن تشرف على ابنة أختك عندما تضطرين إلى العمل حتى وقت متأخر، أو تجلب لك العشاء إذا عرفت أنك متعبة. إنها ذلك الشخص الذي نريد جميعاً أن تكون في فريقنا، ومع ذلك فإنك تطردينها ولا تكلمينها فقط لأنها تبدو سعيدة جداً في الصباح».

شعرت غرايس أنها تافهة جداً عندما قالت لها كات ذلك، فتنهّدت. إنها تعرف أنّها سخيفة، لكنها عندما فعلت ذلك، كان تصرّفها نابعاً من مشاعرها الصادقة. «انظري، حتى لو جئنا إلى العمل معاً، فلن أطلب منها أن تساعدني في رعاية ديزي أو ماما جي، أو تجهيز عشاء لي أو أيّ شيء من هذا القبيل. هذا كثير. فلم أعرفها منذ زمن طويل لذلك لا أستطيع أن أطلب منها أن تساعدني في أشياء كهذه».

فقالت كات: «يا إلهي، يجب أن تتعلّمي الكثير عن الصداقة؟»

«نحن لسنا صديقتين».

«ستصبحان، إذا حاولت فقط».

«ماذا....»

قُرع الجرس. «الطلب جاهز». أحضرت ماريان الطلب إلى غرايس ووضعته أمامها على الكاونتر، ثم قالت: «سأضعه في كيسين: الكيس المربوط هو كيس وجبة ليندا».

«يجب أن أذهب الآن»، وقفت كات ووضعت نقوداً على الكاونتر، وأضافت: «غرايس، اصنعي لنفسك معروفاً واعتذري من سارة، ثم اذهبي وانظري ماذا لديها في من وثائق حول مهرجان التفاح، وستكون في غاية السعادة لمساعدتك، فهي تحبّ تلك الكتب والأوراق القديمة».

«أنت محقّة. يجب أن أكلّمها. سأذهب غداً». وقفت غرايس وأخرجت محفظتها. دفعت ثمن وجبات الطعام وحملت الكيسين وودّعت ماريان، وسارت وراء كات وقالت لها: «لا أظن أنه إذا أصبح عندي أصدقاء فإن ذلك سيقتلني».

عندما بدأتا تسيران، قالت لها كات، «إنك لا تحتاجين إلى أصدقاء كثيرين، وإنما تحتاجين إلى صديق واحد... الصديق المناسب».

دغدغت هذه الكلمات ذاكرة تقبع عميقاً في مكان ما في دماغ غرايس، فتوقّفت. أين سمعتُ هذه العبارة؟ لم تتذكّر تماماً - يا إلهي، نعم. لم تكن العبارة تتحدّث عن الأصدقاء، وإنما عن الأشخاص الذين يتقدمون لطلب يدها للزواج. إنك بحاجة إلى شخص واحد فقط... الشخص المناسب. تذكرت أنها قرأت هذه الكلمات في رواية «نساء صغيرات».

كان الكتاب يظهر في حياتها عندما تكون في أشدّ حالات الاضطراب. يجب أن أعيد هذا الكتاب السخيف إلى المكتبة. للحظة غريبة، تساءلت غرايس إن كان سيدعها تفعل ذلك.

أدركت غرايس أنّ كات أصبحت بجانب الباب، فأسرعت لتلحق بها. عندما وضعت الكيسين على الأرض لترتدي معطفها المطري، فُتح الباب ودخل تراف. كان شعره مبللاً وممشَّطا إلى الوراء، يرتدي قميصاً قطنياً مبللاً التصق بجسمه. عندما مرّ بجانبها، نظر إليها نظرة تشي بالانزعاج لرؤيته لها هنا.

همّت لأن تقول شيئاً رداً على نظرته لها، لكن امرأة شقراء ترتدي قميصاً مفتوح الصدر مرّت بسرعة من جانبها، وقالت: «تراف. هذا أنت. لقد حجزت طاولة هنا». وشبكت ذراعها في ذراعه وسحبته بعيداً ورمقت غرايس بنظرة حادة.

من دون أن تتيح لهما أن يرمقاها بنظرة أخرى، ارتدت غرايس معطفها المطري بسرعة، وحملت وجبات العشاء، وأخرجت مظلّتها من السلة، وغادرت المقهى تتبعها كات. بعد هطول هذه الأمطار، بدا كلّ شيء نضراً.

قالت لها كات، «ليزا تيلدين امرأة مزعجة. إنها معالجة تدليك في صالون تجميل في أشفيل، وهي امرأة غريبة الأطوار، لكن يا إلهي، أتساءل إن كانت تضمر شيئاً سيئاً لتراف».

«يبدو أنه لا يتفاداها».

«أظن أنها اختلقت عذراً لتلتقي به. إنها تستميت على شاب مثل تراف». قالت كات ونظرت إلى غرايس بشيء من الفضول، وأضافت، «لم يكد يقل لك مرحباً. أرجو ألّا تكوني قد أزعجته هو أيضاً».

«إنه قليل الكلام»، قالت كما لو أنها لا تبالي، وبالفعل لم تكن تبالي كثيراً.

«يعجبني تراف كثيراً. كان أبوه مصاباً بنفس مرض ماما جي. قد يفيدك أكثر مما تظنين»، انحنت كات قليلاً، «وهذا يعني أنه سيكون صديقاً جيداً آخر في مجموعة أصدقائك».

«ربما»، دمدمت غرايس، لكن لا بد أن كات مخطئة. فهذا الشاب الطويل القامة، الداكن البشرة، المتجّهم باستمرار، يحبّ العزلة مثلها، وهي تحبّ ذلك شيء. عندما التفتت ونظرت إلى المقهى حيث يجلس تراف مع تلك المرأة، فوجئت بأنه ينظر إليها. التقت نظراتهما وأحسّت غرايس على الفور بشرارة طويلة وقوية تسري بينهما.

كانت الصورة واضحة جداً إلى درجة أنها شمّت رائحة دخان، واعتراها شعور بالدفء في باطن قدمها. تساءلت عمّا إذا كانت هذه الشرارة قد أحرقت وجبات الطعام التي تحملها في يدها لكنّها خافت أن تنظر ثانية.

اقتربت كات من غرايس، وقالت: «إنه شاب وسيم، أليس كذلك؟»

احمرّ وجهها وابتعدت عن المقهى، سعيدة بالهواء المنعش، ثم قالت: «لا يعجبني الشباب ذوي الشعر الطويل والذين توجد أوشام على أجسامهم».

«إذاً تضيعين على نفسك الكثير».

«ربما. كان الحديث معك ممتع يا كات».

«وأنتِ أيضاً. أرجو أن تجدي ضالتك في المكتبة. إني أحب أن أتناول الطعام خارج البيت دون أن يزعجني أحد».

«وأنا أيضاً»، قالت غرايس وهزّت رأسها، غير قادرة على فهم ما الذي جعلها تتخيّل تلك الشرارة التي مرّت بينها وبين تراف، ثم قالت وهي شاردة الذهن، «أراك غداً».

أحنت رأسها وبدأت تغذّ الخطى إلى بيتها، رافضة أن تنظر إلى الوراء.

الفصل (١٢)

تراف

متعلّقا بأهداب النوم، متشبّثا بخصلات حلم أجوف تشدّه بعيداً. حاول تراف أن يتمسّك بها بقوة، بأمل أن يظل نائماً، لكن ما إن تبدّد الحلم، حتى وجد نفسه مستيقظاً، الضوء المنبعث من البهو يؤلم عينيه.

فرك تراف وجهه، محاولاً أن يزيل التعب عنه، ورأى أن الظلام الدامس لا يزال يخيّم خارج البيت. لم يتذكر ما الذي كان يحلم به، لكن الغريب في الأمر أنه شمّ رائحة صلصة باستا.

رائحة صلصة باستا كالتي كانت تعدّها أمّه.

كانت الذاكرة حقيقية بشكل غريب، ومع رائحة الصلصة التي تغلي على نار هادئة الغنية بالحبق، تناهى إليه صوت قرقعة ملعقة تضرب جانب...

انتصب في جلسته. إنه ليس حلماً. لا بد أن هناك أحداً في مطبخه.

شعر بالتوتر وأحسّ بتنميل في جلده، وأضحى تنفّسه ضحلاً وسريعاً. ألقى الشرشف الرقيق جانباً وانسلّ من سريره، خفقات قلبه لا تزال تطرق في أذنيه. نظر إلى ساعة الحائط المعلّقة فوق الباب. إنها الساعة الرابعة صباحاً، وهذا يعني أنه لم ينم سوى ساعتين، وصحا الآن غاضباً.

نهض وارتدى بنطاله الجينز وتناول المضرب الذي يضعه وراء الباب.

هادئاً هدوء الفجر، مشى في البهو ببطء لكي لا تصدر الأرضية الخشبية صريراً. أصبح جلده زلقاً، وثقلت معدته كما لو أنه ابتلع صخرة.

كانت الأضواء في المطبخ منارة، لكنها لم تكن منارة في أي مكان آخر في البيت. قفز إلى جانب الباب، ووقف ملتصقاً بالحائط، الشعرات على قفا رقبته تخزّه، والمضرب مرفوع وجاهز للضرب.

انتظر، يرهف السمع.

سمع رنين صوت شيء معدني، وتناهى إليه صوت غمغمة لم يفهم منها شيئاً.

استجمع شجاعته ودخل إلى لمطبخ، يجيل النظر في كل مكان.

«روبرت، ماذا تفعل بهذا المضرب؟»

رمش بعينيه. ثم رمش مرة أخرى.

وقفت السّيدة جيانو الضئيلة الحجم أمامه حافية، ترتدي رداء نومها وبلوزة مقلوبة من الداخل إلى الخارج تتدلّى من كتفيها النحيفتين. شعرها خفيف وأبيض وأجعد، يلمع تحت ضوء المطبخ حتى كان باستطاعته أن يرى فروة رأسها الوردية بين خصلات شعرها الخفيفة.

مدّت يدها وقالت: «أعطني هذه».

أعطك ماذا - آه، المضرب. كان لا يزال يرفعه فوق كتفه، مستعداً ليضرب به. يا إلهي، كان من الممكن أن أؤذيها. أحسّ بدوار مفاجئ وأنزل المضرب. «أنا آسف»، قال بصوت مخنوق، قلبه لا يزال يضرب بقوة حتى كاد يشعر بأنه سيخرج من عظام صدره، «لم أكن أعرف أنك...

«شيء سخيف»، أخذت منه المضرب، تهزّه من قبضته بقوة مدهشة، وقالت بضحكة خافتة كما لو أنها مستمتعة بذلك، «أنتم أبناء باركر، أصحاب مشكلات، أليس كذلك؟ وأنت أسوأهم يا روبرت وأنت تعرف ذلك».

روبرت. إنها لا تزال تظن أنني أبي. تهدجت أنفاسه، وضعف جسمه بعد أن غادره الأدرينالين. «السّيدة جيانو، أنا آسف. أنا...»

سُمع مواء القطّ.

التفت تراف إلى الخلف. كان القطّ قابعاً فوق طاولة المطبخ، يلعق ملعقة. لاحظ تراف بخاراً يتصاعد من قِدر على الموقد. لا يمكنه أن يخطئ الرائحة. لقد اقتحمت السّيدة جيانو بيته وهي تعدّ صلصة سباغيتي.

«ثيو، أيها النذل! هيا انزل من فوق الطاولة»، قالت السّيدة جيانو وطردت القطّ، «هذا القطّ سيء السلوك. يظل يقاطعني وأنا أعدّ العشاء و...» اتسعت عيناها، وسألته «روبرت، أين قميصك؟»

نظر إلى الأسفل واحمرّ وجهه. «أوه، اللعنة، سأعود في الحال».

هزّت رأسها ولوّحت بيدها أن يذهب كما فعلت للقطّ، وقالت: «ارتدي بعض الثياب. لا يمكن أن تأتي إلى هنا وأنت نصف عار. إنك تعرف هذا جيداً».

«نعم، سيدتي، سأعود في الحال».

«يجب أن تعود لأنني أحتاج إلى أحد يرتّب المائدة ولن أفعل ذلك بنفسي. فقد أعددت الطعام كلّه».

«نعم، سيدتي»، وهرع إلى غرفته وارتدى قميصه، وتوقّف ليضع هاتفه الخلوي في جيبه قبل أن يعود إلى المطبخ.

عندما عاد، كانت ماما جي تقف بجانب الموقد تحرّك الصلصة، والمضرب مستند إلى الجدار. «لا يمكنك أن تسرع إذا أردت أن تعدّ صلصة لذيذة، لكنها ستصبح جاهزة بعد قليل. بدأت أحضرّ السباغيتي الآن».

كانت هذه المرأة ضئيلة الحجم، وكانت تتصرف كما لو أنها في بيتها وهي تقف أمام الموقد في مطبخ بيته.

لم يجد مانعاً في أن تظن أنه أبوه. بشكل ما، جعل ذلك تراف يشعر أنه أصبح أكثر قرباً إلى أبيه، بالإضافة إلى أنه سيتناول طعاماً مطبوخاً في البيت، ما جعل الفائدة مزدوجة.

كان القطّ الذي جلس بارتياح فوق أحد الكراسي في غرفة الطعام، يراقب تراف من وراء نصف عينيه المغمضتين كما لو أنه يكافح لأن يظل مستيقظاً، لكن تراف يعرف أن القطّ سيعود إلى الطاولة ما إن يديرا ظهريهما. «رائحة الصلصة لذيذة».

ابتسمت وقالت: «إنها الوصفة التي كنّا نعدّها منذ زمن. وكنتَ تحبّها دائماً، أليس كذلك؟»

من رائحتها، أحبّها كثيراً. «نعم، يا سيدتي». كان قِدر الصلصة يغلي، ورأى قِدراً آخر وراءه على الموقد.

طفت أعواد السباغيتي فوق الماء. آه إنها سباغيتي. سيكون مذاقها رائعاً - تصاعدت سحابة من البخار من القِدر عندما هبّت عليه رائحة باستا محترقة.

بخطوتين واسعتين اقترب من الموقد. أطفأه وبقطعتي قماش أبعد القِدر عن عين الموقد الخلفي. كانت أطراف الباستا قد اسوّدت والتصق بعضها في أسفل القِدر.

نظرت السّيدة جيانو من ورائه وسألته، «ماذا جرى؟» عندما رأت الباستا التي احترقت، صاحت بصوت متردد، «يا إلهي»، ووضعت يدها على خدها وخطت خطوة مرتبكة إلى الخلف، «لقد نسيت الماء، أليس كذلك؟»

«لا، لقد تبخّرت». فتح الفرن ووضع القِدر حتى لا تراه وأغلق باب الفرن كي لا تصعد منه الرائحة. ابتسم لها ابتسامة مشجّعة، وأضاف: «نحتاج إلى قِدر أكبر». أحضر قدراً أكبر ووضعه على الموقد وأخرج علبة باستا أخرى من الخزانة، وسألها «خمسة كوارتات من الماء؟»

«لا، أربعة»، صحّحته شاردة الذهن.

«صحيح». ملأ القِدر ووضعه فوق الموقد.

نقرت السّيدة جيانو بلسانها، وقالت: «أضف قليلاً من الملح وزيت الزيتون. ألم تطبخ قبل الآن؟»

أحس بالسعادة لأنها نسيت الباستا المحترقة التي وضعها داخل الفرن. كان أبوه يتصرّف بنفس الطريقة. كان يبحر في فقاعات ذكرياته التي مضى عليها زمن بعيد، لكن عند أول إشارة للنسيان، كان يترنح، ويشعر بالقلق، ويدرك أن هناك شيئاً على غير ما يرام، وإذا لم يتمكن تراف من أن يعيد والده إلى اللحظة الراهنة، كان أبوه ينزعج كثيراً، ويحزن، وحتى أنه كان يغضب.

أومأ تراف باتجاه قِدر الصلصة، وقال: «السباغيتي أفضل وجبة على العشاء».

كما كان يأمل، جعل ذلك ماما جي تطوف في ذكرياتها، يشاطرها قصص عشاء السباغيتي التي كانت تتناولها مع أفراد عائلتها. عندما بدأ الماء يغلي، أضاف تراف الباستا، ثم قال: «سأعدّ المائدة».

«نعم. أنت وأخوك وأبوك وأمك. آه، ويجب ألّا ننسى غرايس وديزي. لا يمكننا أن ننساهما».

هزّ رأسه وذهب ليحضر الصحون. أبعد القطّ عن الطاولة وأنزل عدة صحون. عندما تأكّد أن ماما جي منهمكة في عملها أخرج هاتفه الخلوي من جيبه وأرسل رسالة نصيّة إلى سارة.

آسف لإزعاجك، لكن عندي زائرة غير متوقّعة. قولي للسيدة التنين إن أمّها موجودة هنا.

لم ينتظر طويلاً حتى جاءه الرد.

أخبرها بنفسك. هذا هو رقمها. واسمها غرايس.

قطّب جبينه وهو لا يزال يحدّق بالرقم الذي أرسلته له. لم يشأ أن يتصلّ بغرايس مباشرة. فهو لا يكلّمها عادة. إحراج لا يستطيع أن يسيطر عليه.

لكن الأمر ليس كذلك. فعندما رآها البارحة في المقهى ونظرت إليه حدث شيء ما، شيء لا يستطيع أن يصف ما هو، لكنه أحرقه من قلبه حتى باطن قدميه، ثم وجد نفسه يفكّر بها أكثر مما يجب.

يا إلهي، لقد أصابتني حالة من هراء العصر الجديد بسبب سارة. قال ساخراً من نفسه لأنه كان شخصاً خيالياً، فأرسل رسالة نصيّة أخرى إلى سارة. هيا، اكتبي لها، هل يمكنك أن تعلميها بذلك فقط؟

جاء الرّد سريعاً.

أنا نائمة. لديك الرقم.

اللعنة على جميع النساء العنيدات. فكّر بأن عليه أن يتصل بغرايس بنفسه.

هل يجب أن يخابرها أم يكتفي بإرسال رسالة نصيّة؟ الرسالة أسهل، ويستطيع أن يقرأها قبل أن يرسلها ليتأكد مما كتبه. الرسالة أفضل من التحدّث إليها، لأنه لن تكون أمامه محاولة ثانية إذا لم ينجح هذه المرة.

فكّر قليلاً، ثم كتب: هذا ترافيس باركر. ماما جي موجودة هنا. يجب أن تأتي وتأخذيها.

عندما لم يأته ردّ، انتظر، وتساءل إن كانت تضع هاتفها في مكان قريب من سريرها ليوقظها.

بعد قليل، أضاف، إنها تعدّ سباغيتي.

كان قد ضغط على زر الإرسال عندما أدرك أن ما كتبه شيئاً غبياً، لأنها سترى ما الذي يجري عندما تأتي. كشّر لغباوته وأعاد هاتفه إلى جيبه. إنس الأمر. لا توجد طريقة لإعادة ما كتبه.

«أرى أنك لا ترتّب المائدة»، قالت له السّيدة جيانو.

«نعم، يا سيدتي». راح يضع الصحون على المائدة.

«شوك وملاعق. لسنا بحاجة إلى سكاكين».

وضع الأشواك والملاعق وهو يراقب السّيدة جيانو. كانت عيناها تلمعان، تدندن وهي تحرّك القِدر. إنها سعيدة، قال لنفسه. إنها سعيدة لأنها موجودة هنا.

منذ زمن لم يشعر أحد بالسعادة في هذا البيت. أزّ هاتفه، فنظر إليه.

أنا قادمة.

سادت لحظة صمت ثم شكراً لك. آسفة للإزعاج.

تمتم تحت أنفاسه. في الحقيقة إنه ليس إزعاجاً. لكنّه سينتظر حتى يقول ذلك للسّيدة التنين شخصياً.

«سيصبح العشاء جاهزاً بعد قليل»، فالت السّيدة جيانو وأضافت رشّة من الحبق إلى القدر الذي بدأ يغلي، ثم رفعت قنينة الحبق وقالت: «وهذه، ليست طازجة. اضطررت لأن أضع ضعف الكمية التي أستخدمها عادة لكي يصبح مذاقها لذيذاً»، ثم هزّت رأسها نحوه وأضافت، «من الآن فصاعداً، يجب أن تجلب أعشاباً طازجة، لأن الأعشاب المحفوظة ليست جيدة».

هزّ رأسه لأنه خيّل إليه أن هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله، ثم قال: «السّيدة جيانو، أنا...»

«أرجوك. ادعوني ماما جي. هذا هو اسمي»، ونظرت إليه نظرة ماكرة تألّقت بضحكة، «أو هكذا يكون عندما أريد».

لم يتمكّن من إخفاء ابتسامته، وقال: «إذاً ماما جي». اقترب وتفحّص الماء الذي بدأ يغلي وراح يحرّك الباستا، «هل أصبحت جاهزة؟»

جاءت لتنظر إلى القِدر. «هممم. ليس بعد. تحتاج إلى بضع دقائق أخرى».

رفعت الغطاء عن الصلصة ولوّحت بيدها، فهبّت نحوه رائحة صلصة الباستا القوية. «شمّ هذه الرائحة؟ إنها كالذهب».

«كان من اللطف منك أن تطبخي».

«أنا سعيدة لأنني فعلت ذلك. كما تعرف فإنني مدينة لك بجميع الأوقات التي كنت تصلح لي فيها مايبل ولم تأخذ مني بنساً واحداً».

«مايبل...» قال متفاجئاً.

«تعرف... مايبل. سيارتي الشيفروليه. لقد أصلحتها لي مائة مرة، ولم تأخذ مني بنساً واحداً، ولا مرة واحدة».

إذاً كان أبي يصلح سيارة ماما جي ولم يكن يأخذ منها أجراً. تساءل تراف من هم الأشخاص الآخرون الذين كان والده يصلح سياراتهم مجاناً.

«أظن أنّك بحاجة إلى تناول وجبة طعام جيدة خصوصاً أنك أصبحت تعيش وحدك الآن. آه، يا روبرت، عندما سمعت أن لاي ماتت وتركتك أنت وترافيس المسكين، تحطّم قلبي، أعرف كم كنت تحبّها».

أدرك تراف أنّ ماما جي انتقلت في الزمن من الفترة التي كان يعيش فيها أبوه إلى وقت أقرب في الحاضر. كان الدكتور بولتون قد شرح له ذلك. فهم لا يعملون وفق تسلسل زمني. فالأيام والأحداث سائلة وهم يعومون بين الأزمنة، لا يقيّدهم ولا يوقفهم شيء إلى أن يحدث شيء يزعجهم. فيتشوّشون، ويخافون، وهم يعبّرون عن ذلك بالخوف أو بالغضب. يجب أن تقول لهم إن الأمور تسير بشكل جيد. كأنك تسافر معهم من زمن إلى آخر، وتهبط حيث يهبطون، ويجب أن نكون حيث يكونون، لا تباغتهم. لم يكن ذلك بالأمر السهل، لكن في الشهور التي أمضاها تراف في رعاية أبيه، تعلّم كلّ ذلك.

قال لها الآن: «لا أستطيع أن أنتظر حتى أتذوق صلصتك. سأضع قليلاً من الجبن فوق السباغيتي»، وتوجّه نحو الثلاجة، وقال: «أرجو أن تكوني جائعة. لدينا كمية كبيرة من السباغيتي».

ابتسمت له، وقالت: «سأتناول قليلاً منها». في تلك اللحظة بالذات، أصبحت نظرتها واضحة وترددت ابتسامتها، كما لو أنها تراه الآن كما هو في الواقع.

«أنت...» قالت وهي لا تزال تمسك بالملعقة، ثم تراجعت قليلاً، «أنت لست روبرت».

كان تراف يعرف ما الذي سيأتي بعد ذلك - الاضطراب، الشعور بالإحراج، الغضب - ولكي لا يحدث ذلك، قال لها: «إنك تصنعين أفضل صلصة سباغيتي. الرائحة وحدها جعلتني أشعر بالجوع».

نظرت ماما جي حولها كما لو أنها أصبحت ترى المطبخ الآن. رفعت يدها المرتعشة المنقّطة إلى شعرها ودسّت خصلة فالتة وراء أذنها، وقالت: «لا أستطيع أن أتذكّر... كيف جئتُ إلى هنا؟ أنا...»

«لقد دعوتك إلى هنا، طبعاً»، قال تراف محافظاً على نبرته هادئة وإيجابية. «لماذا لا تجلسين؟ لقد أصبحت السباغيتي التي صنعتها جاهزة تقريباً».

نظرت إلى القِدر الذي تبقبق الماء فيه، وسألته، «هل أنا طبخت كلّ هذه».

«نعم، ورائحتها لذيذة». أخذ الملعقة من يدها ووضعها على حامل الملاعق فوق الموقد، ثمّ أمسكها من مرفقها وقادها بلطف إلى الطاولة، وقال: «تفضلي ماما جي، اجلسي».

جلست. تبللت عيناها بدموع لم تذرفها الآن، وقالت: «لا أعرف كيف جئت إلى...»

دقّ الجرس. الحمد لله. «سأعود على الفور. لا تتحرّكي»، وهرع نحو الباب يتبعه القطّ.

مدّ تراف يده ليفتح الباب لكنه أدرك أنه لم يشعل ضوء الشرفة. عظيم. يا له من أسلوب جيد للترحيب بها، فقد جعلها تقف في الظلام.

أشعل الضوء وهو يفتح الباب.

رمشت غرايس عينيها عليه. كانت قد ارتدت على عجل بنطال الجينز وقميصاً قطنياً، ولم يكن شعرها الأسود ممشطاً. لم يرها في غير ثيابها الرسمية من قبل فبدت أصغر سناً وأكثر ضعفاً مما كان يتخيّلها.

ماء القطّ ثم انسلّ من البيت كما لو كان يخشى أن يمنعه أحد، واختفى بين الشجيرات.

نظرت غرايس إليه ثم التفتت إلى تراف، وسألته، «أين هي؟»

«في المطبخ. لقد طلبتُ منها أن تجلس».

«أنا آسفة جداً»، هزّت غرايس رأسها، حاجباها مقوّسان بقلق، «حتى أنني لم أعرف أنها خرجت من البيت. فقد أقفلت الأبواب عندما أويت إلى الفراش، وهي لا تستطيع أن تصل إلى القفل لأنه مرتفع، لكن بطريقة ما تمكنت من فتحه». ابتسمت غرايس ابتسامة محبطة جداً، وأضافت، «سآخذها إلى البيت».

تنحّى جانباً وأشار لها باتجاه المطبخ.

مرّت من جانبه، وكما لو كان يشعر بكلّ خطوة تخطوها، انطلقت الشرارات بسرعة فوق أرضية الغرفة لتخترق باطني قدميها.

أكاد أفقد صوابي، قال لنفسه. ستكون سارة فخورة جداً.

أغلق الباب وتبع غرايس.

وقفت غرايس بجانب ماما جي التي كانت لا تزال جالسة إلى المائدة.

ابتسمت ماما جي ابتسامة مشرقة، وقالت: «ها قد جئتِ. لقد طبختُ سباغيتيا لروبرت».

آه، لقد عادت إلى روبرت.

عبست غرايس وقالت: «من الرائع أن تطبخي، لكننا يجب أن نترك تراف...»

«روبرت»، قاطعها تراف.

طارت نظرة غرايس نحوه.

«لقد رتّب روبرت المائدة للتو»، قالت ماما جي وهي تنظر إلى المائدة بسعادة، «يجب أن نأكل بينما لا تزال السباغيتي ساخنة».

«ماما جي، يجب أن...»

«غرايس»، كان كلّ ما قاله، لكنّه كان كافياً. التقت عيناها بعينيه، ودُهش من عمق عينيها البنيتين الغامقتين. قال لنفسه إنه مستعد لأن يغرق في هاتين العينين، ولا يطوف على سطحهما أبداً. «يجب أن نأكل».

«طبعاً، يجب أن نأكل»، قالت ماما جي، بنبرة غاضبة، «فأنا لم أفعل ذلك حتى لا نأكل».

فتحت غرايس فمها لكنها أغلقته بسرعة، وهمهمت تحت أنفاسها «ممنوع الجدال»، حسناً، سنأكل ثم نعود إلى البيت».

«طبعاً سنعود إلى البيت بعد أن نأكل»، قالت ماما جي، «لا نستطيع أن نبقى هنا، في بيت باركر، هل يمكننا ذلك يا روبرت؟»

«هذا إذا لم تريدي أن تفعلي شيئاً آخر».

فضحكت ماما جي وقالت: «لا، العشاء هو كلّ ما يمكن أن تحصل عليه».

«قمت بالعمل كلّه، لذلك أرجو أن تجلسي وسأقدم أنا الطعام».

فتحت ماما جي منديلها ووضعته على حضنها، ثم قالت: «غرايس، صبّي لكلّ واحد منّا شراباً. أنا سأشرب ماء فقط. قال الطبيب يجب أن أشرب ماء كثيراً».

«نعم»، قالت غرايس ونظرت إلى تراف، وسألته، «ماء؟»

«نعم من فضلك». بينما راح تراف يملأ الصحون، أخرجت غرايس ثلاث كؤوس من الخزانة وملأتها بالماء وأخذتها إلى المائدة.

ثم جلسوا إلى المائدة والبخار يتصاعد من أطباق السباغيتي أمام كلّ منهم. وشكّل الضوء فوق المائدة شعاعاً ذهبياً مستديراً وتساءل تراف إن كانوا يشبهون الشخصيات في لوحة نورمان روكويل.

أخذت ماما جي شوكتها، وقالت: «أليس هذا المكان دافئاً ومريحاً؟»

بدا كلّ ذلك غريباً بالنسبة إلى تراف الذي يتناول طعامه على هذه الطاولة وحيداً منذ أكثر من سنة. سنة طويلة، وحيداً. مشاعر لم يشأ أن يسميها صعدت إلى حنجرته.

أخذت غرايس التي بدا أنها تريد أن تكون زيارتها في هذا البيت قصيرة تلّف السباغيتي حول شوكتها بسرعة، وقالت: «ماما جي، أرجو أن تأكلي».

انتقلت نظرة ماما جي من غرايس إلى تراف، ثم عادت إلى الصحون التي وضعتها منذ قليل والتي كانت فارغة.

وفجأة بدأت ابتسامة السيدة العجوز تبهت.

تنحنح تراف ولفّ السباغيتي حول شوكته وقال: «كانت عائلة فيلبس صديقة دائماً لعائلة باركر».

عادت نظرة ماما جي إليه وركّزت عينيها عليه، وقالت: «كانت عائلتانا قريبتين دائماً من بعضهما بعضاً. يا إلهي، كم كنت أمضي وقتاً ممتعاً مع أبيك».

أبوك. عرفت الآن أنني لست أبي. «كنتِ تعرفين أبي جيداً». يا إلهي، كم لذيذة هذه السباغيتي. حاول أن يبحث عن موضوع مريح يشغل به ماما جي، فسألها، «كيف بدأت تأتين لرعاية أبي؟»

زمّت شفتيها، وقالت: «كيف بدأت آتي لرعايته؟ دعني أرى... أوه نعم! كانت أمّه تعرف أمّي، وقد رتبتا الأمر بينهما. كان روبرت مشاغباً فظيعاً وهربت أكثر من جليسة أطفال من رعايتهما، وعندما جئت أصبح هادئاً. كنت أعرف كيف أتعامل مع الأطفال المشاغبين».

انبعث صوت من غرايس.

وجد تراف نفسه يقاوم ابتسامة. لقد نجح في ذلك. عندما غمزها استرخت قسمات وجهها المتشنجة. «إني لا أتباهى بذلك، لكن أبي لم يكن يعتبرني طفلاً مشاغباً».

أبعدت غرايس عينيها عنه، لكن ابتسامة صغيرة ارتسمت على فمها، أسعدته.

«وغرايس أيضاً، في النهاية»، قالت ماما جي وخفضت حاجبيها، «لقد رعيتُ عدداً من الأطفال، اثنا عشر طفلاً تقريباً. كنت أحرص دائماً على انتقاء الأطفال؟»

«كيف كنتِ تختارينهم؟»

عندما سمعت ذلك، رفعت غرايس التي كانت تلفّ السباغيتي حول شوكتها عينيها والتقتا بعيني ماما جي، وقالت: «كنت دائماً أتساءل عن ذلك».

«كانت توجد لديّ طريقة»، قالت ماما جي وأخذت رشفة ماء، «كنت أقبل الأطفال الذين أشعر أنهم بحاجة شديدة إليّ. وكانت غرايس بحاجة إليّ. وفي ذلك الوقت، كنت أنا بحاجة إليها».

«كنتِ بحاجة إليّ؟» سألتها غرايس وضحكت ضحكة غريبة، «فأنا لم أكن طفلة سهلة الانقياد، ولم يكن أحد يريد أن يتبنّى فتاة مشاغبة مثلي».

«لا يوجد أطفال طيعّون»، قالت ماما جي بصوت منخفض وهي تضيف جبن البارميجان إلى السباغيتي، «كنت أظن أنك تعرفين ذلك».

حدّقت غرايس في صحنها وبدا أنها تفكّر في الأمر.

فجأة، شعر تراف بأنه يتحدّث مع شخص آخر، فتنحنح وقال: «إن رعاية الأطفال يتطلب قلباً كبيراً».

«نعم. لكنني لم أندم للحظة واحدة. كان التعامل مع بعض الأطفال أصعب من التعامل مع أطفال آخرين. كان بعضهم يبقى سنوات، وبعضهم يبقى أياماً، وكان عليّ أن أحبّهم بقدر ما أستطيع. لكن عندما يحين الوقت، تحزم حقائبهم، وتقبّل جباههم، وتودعهم».

«لا يمكنني أن أتخيّل أن تدعيهم يذهبون هكذا. لا بدّ أن الأمر كان صعباً عليك وعلى الطفل».

«رعاية الملائكة»، قالت بهدوء.

تشكلّت ثنية بين حاجبي غرايس.

«ألم كثير»، هزّت ماما جي رأسها، «يمكنك أن تراه في عيونهم، تسمعه في أصواتهم؟»

تنحنحت غرايس، وقالت: «أنا متأكّدة بأن ترافيس لا يريد أن يسمع شيئاً عن رعاية الأطفال؟»

«من المؤكد أنني أريد»، وابتسم لماما جي، وأضاف، «لقد منحتِ هؤلاء الأطفال هدية ثمينة».

«لم يكن ذلك من جانب واحد»، قالت ماما جي بنزق، «كان أحدنا يساعد الآخر. كنت أمنحهم الاستقرار والحبّ، وكانوا يمنحونني الأمل والضحكة، لا بل أكثر من ذلك بكثير». أنزلت شوكتها، وأضافت، «دعني أحدّثك عن غرايس».

«لا، لا»، تمتمت غرايس، «ماما جي، لا...»

فوجئت السّيدة جيانو برفضها وسألتها، «لم لا؟»

«لا حاجة إلى ذكر ذلك. إنه لا يريد أن يسمع هذا».

لكنّه كان يريد كثيراً، فقال لها: «أرجو ألّا تتوقّفي من أجلي». رمته غرايس بنظرة حادة، لكنّه ابتسم لها.

فقالت ماما جي بعناد، «إنه يريد أن يسمع ذلك»، والتقت عيناها بعينيه، ومالت قليلاً إلى الأمام، «غرايس مثلك».

كانت شوكة السباغيتي في منتصف الطريق إلى فمه، لكنّه أنزلها وقال: «مثلي؟»

«إنها غاضبة مثلك، غاضبة من الحياة، من القَدَر الذي لا يعمل لصالح أحد كما تعرف. لكن عندما يعاني المرء ويُهجر ويُتخلّى عنه عدة مرات و...»

«ماما جي»، تمتمت غرايس، وقد احمرّ وجهها، «أرجوك. هذا يكفي».

عمل تراف قائد وحدة في الجيش لسنتين، وقد مكنّه ذلك من معرفة ما يدور في نفوس رجال كثيرين. ففي اللحظة التي رأى فيها غرايس ويلر، عرف أنها امرأة حادّة الطباع، عنيدة، ذات شخصية قوية. كان ذلك واضحاً في طريقة كلامها، في طريقة مشيتها وحركاتها، وحتى بطريقة

نظرتها. عرف الآن سبب ذلك. فقد جاءت من مكان مليء بالألم، واستطاعت أن تحرّر نفسها منه وهي عازمة على ألّا تعود إليه.

أُعجب بذلك كثيراً.

«بالطبع، يوجد لدى غرايس سبب حتى تكون غاضبة». التقطت ماما جي شوكتها، وركّزت نظرتها على تراف، «مثلك تماماً».

اكتشف تراف أنه في حين لم يجد مانعاً بأن تتحدّث ماما جي عن غرايس، فقد أحسّ بأنه لا يريد أن تتحدّث عنه، فقال لها: «لا أقصد الإساءة، لكنّك لا تعرفين الكثير عنيّ».

«ها»، وأشارت بشوكتها إليه، وضاقت عيناها، «النوم يهرب منك كما تهرب القطّة من كلب يعوي عليها».

رمش بعينيه.

«لأنك لا تنام، فإنك تصبح غاضباً». ثم نظرت إلى صحنها وبدأت تلفّ السباغيتي حول شوكتها ببطء، «إنه أمر محزن لكن الحياة غير منصفة. أفكّر أحياناً بأنها يجب ألّا تكون كذلك، لكن توجد في الحياة لحظات جيدة ولحظات سيئة. وبما أنك لا تستطيع أن تختار اللحظات كلّها، يجب أن تختار اللحظات التي تتعلّق بها».

«لكن هذا ليس بالأمر السهل»، قالت غرايس، صوتها حادّ.

«دعيني، أقول لك شيئاً يا حبيبتي»، قالت ماما جي ومدّت يدها ووضعتها على يد غرايس، «في أحد الأيام عرفت طفلتين، فتاتين صغيرتين جميلتين، كابدتا نفس الآلام والمعاناة في الحياة. لم يكن هناك أي اختلاف في نشأتهما: أبوان لم يباليا بهما، أمّ أنانية جداً لم تقم بواجبها المفروض عليها. لقد تخلّى عن هاتين الفتاتين أشخاص بالغون يعرفون أكثر، ثمّ ألقيا بهما في خضم حياة باردة وقاسية فراحتا تتنقلان من بيت إلى بيت إلى بيت ومن مدرسة إلى مدرسة إلى مدرسة، ووصفهما المعلمون والمشرفون في المدرسة بأنهما فتاتان مضطربتان مثيرتان للمشاكل، وسخر منهما الأطفال الآخرون بقسوة. وعلى الرغم من ذلك، فقد أصبحت إحداهما فتاة طيبة والأخرى فتاة سيئة. لماذا؟ لأن إحداهما اختارت أن تتعلّق باللحظات المظلمة، بينما قررت الأخرى أن تتعلّق بالضوء».

«يا إلهي»، قالت غرايس ونظرت إلى تراف نظرة مليئة بالحرج، «لم يكن الأمر هكذا».

«ألم يكن هكذا؟» ربتت ماما جي على يد غرايس، وقالت: «تناولي صحن السباغيتي يا عزيزتي».

نظرت غرايس إلى يد ماما جي حيث وضعتها.

رأى تراف مشاعر متباينة على وجه غرايس - غضب، إحراج، قلق - لكن وراء كلّ ذلك كان يكمن حبّ. فهي تحبّ هذه السيدة العجوز المضطربة، المشوشة.

حوّلت ماما جي نظرتها المبهمة إليه، وسألته، «لماذا أنت غاضب هكذا أيها الشابّ؟ ما الذي يجعلك غاضباً بهذا الشكل؟»

التفتت غرايس ونظرت إليه، وقد انعكس السؤال في نظرتها.

«لا أعرف»، قال وأنزل شوكته. ومع أنه لم يكن يريد ذلك، لكنه وجد نفسه يجيبها، ثم أضاف، «أظن أنني حزين. أظن أن هذا هو السبب. فقد كان عندي رجال يقدّرونني ويعتمدون عليّ وظننت أن كلّ شيء في يدي، وأنّهم آمنون، وأنّنا كنّا جميعاً في مأمن و...» هزّ رأسه. «كانت أسطورة، فقد تبين أننا لم نكن في مأمن قط».

«هذا درس يصعب تعلّمه»، قالت ماما جي بصفاء، «فالحياة مليئة بالمفاجئات، وليست كلّها جيدة».

لم يستطع أن يجادل في هذا الأمر. «وعدت إلى البيت أخيراً، وأعيش وحدي منذ أن مات أبي، سوى أصدقائي. أظن أنني أنتظر».

أمالت ماما جي رأسها وقالت: «تنتظر ماذا؟»

هزّ كتفيه بلا مبالاة وقال: «لا أعرف، لكني أفكّر في الأمر».

هزّت ماما جي رأسها بتمعن، وطال الصمت الذي كان ثقيلاً.

لكنّه كان صمتاً سلمياً، ووجد تراف أنه يحبّذ هذا النوع من الهدوء.

تململت غرايس في كرسيها وقالت: «يجب أن نذهب. ماما جي، هل انتهيت؟»

«لا، ابقيا»، قال تراف.

نظرت المرأتان إليه. درجات متباينة من المفاجأة في عينيهما.

أصبح وجهه دافئاً. لم يكن ينوي أن يبدو ملحاحاً بهذا الشكل، لكن اللّعنة، أراد ألّا تذهبا. فقد مضى وقت طويل جداً منذ أن تناول عشاء هكذا في مطبخه، مع شخصين جعلاه يشعر بأنه واحد من أفراد العائلة. عائلتهما. وكان هذا الشعور جميلاً. أحسّ بالأمان. أحسّ بأنه لا يزال حيًّا، وأنه لا يزال مرتبطاً بالناس. كان شعوراً غريباً، وتساءل هل تفهم سارة ذلك أكثر مما يفهمه هو. فهي تنتمي إلى عائلة، ويدرك عدد قليل من الناس الفروق الدقيقة للحياة العائلية كما تدركها سارة. لعله سيذهب ليزورها في المكتبة غداً ليعرف رأيها.

هزّت ماما جي رأسها وقالت: «لديها أجوبة كثيرة، أليس كذلك؟»

قطبّت غرايس جبينها، مشوّشة، بينما حدّق تراف في ماما جي.

يا إلهي، هل قرأت أفكاري؟ بالتأكيد لا. دفع صحنه جانباً، وقال: «لا أعرف ماذا تقصدين».

«أوه، أعرف أشياء. أعرف دائماً»، قالت ودفعت صحنها جانباً أيضاً. لم تكد تلمس السباغيتي في صحنها، وأضافت، «صحيح أنني أفقد ذكرياتي لكنّي أظن أنني أكسب أناساً آخرين. هل حدث لك ذلك من قبل؟»

«لا. لم يحدث شيء كهذا، بقدر ما أعرف».

«هذا جيد، فهذا شيء ليس ممتعاً كما تعرف، وإنما هو في الواقع شيء مخيف بعض الشيء».

«حسناً»، قالت غرايس ونهضت واقفة، «شكراً لك على استقبالنا. كان العشاء رائعاً، لكن يجب أن نعود إلى البيت».

نظرت ماما جي حولها كما لو كانت تبحث عن ساعة الحائط، وسألت، «كم الساعة الآن؟»

فقالت غرايس بسرعة، «حان الوقت لنذهب. لقد تعشينا ويجب أن نعود إلى البيت».

«هل تأخر الوقت؟» فجأة بدت ماما جي مرهقة، «أريد أن أنام».

بدأ تراف ينهض واقفاً، لكن غرايس رفعت يدها وقالت: «أنا سأفعل ذلك». لم تنظر إليه مرة أخرى عندما ساعدت ماما جي على أن تنهض من كرسيها.

نهضت ماما جي بنفسها، وراحت تترنح في مشيتها كأنها مرهقة لا تقوى على المشي.

وقف تراف وقال: «سأرافقكما إلى البيت. سا...»

«لا»، قالت غرايس بحدّة، «لقد فعلت أكثر من المطلوب منك»، ووضعت ذراعها حول ماما جي وسارتا نحو الباب، ثم قالت من وراء كتفها «شكراً لك».

عندما فتحت غرايس الباب، التفتت ماما جي إلى الوراء وقالت له: «يجب أن تشفى بسرعة أكبر».

«ماما جي...»، بدأت غرايس.

فقال: «لا، دعيها تتكلّم».

حوّلت ماما جي نظرتها منه إلى غرايس، وقالت: «لقد سمحتما كلاكما لغضبكما أن يسيطر على حياتكما، لكن حان الوقت لأن توقفا ذلك الآن». التقت عيناها بعيني تراف ثم وضعت يدها على كتف غرايس، «ذات يوم، ستكون هناك من أجلها».

احمرّ وجه غرايس وقالت: «لا...»

«أسكتي»، قالت ماما جي وانحنت قليلاً نحو تراف، «أنت وسارة وديزي أيضاً. يجب أن تكونوا هناك معاً. هل تفهمي؟»

«ماما جي»، تمتمت غرايس.

هزّ تراف المندهش من الصدق الذي رآه في عيني المرأة العجوز، رأسه.

تفحصّت ماما وجهه، تبحث فيه عن شيء. ومهما كان ذلك الشيء الذي تبحث عنه، فلا بدّ أنها وجدته، لأنها ابتسمت ابتسامة عريضة، وقالت: «ستعرف متى»، ثم التفتت إلى غرايس وربتت على خدّها وقالت: «الآن، يمكننا أن نعود إلى البيت».

عندما قالت ذلك، استدارت وخرجت من الباب.

نظرت غرايس إليه بحزن، وقالت: «أنا آسفة. كان ذلك... كان شيئاً غريباً، لكنّها ليست...». هزّت رأسها وخرجت وأغلقت الباب وراءها.

وقف ترافيس طويلاً لا يعرف ماذا يفعل، وحدّق في الباب المغلق طويلاً.

ثم عاد وجلس إلى المائدة. كان وهج المصباح الذهبي فوقه يرسم حوله وحول المائدة الفارغة دائرة من العزلة.

الفصل (١٣)

غرايس

في صباح اليوم التالي، جلست غرايس في سيارتها تنتظر سارة أمام بيتها. فقد بذلت جهداً كبيراً كي تنهض مبكراً وتأتي لتنتظر سارة أمام بيتها، خصوصاً بعد أن ذهبت ماما جي في وقت متأخر الليلة الماضية إلى بيت تراف لتعدّ السباغتي. «سباغيتي في منتصف الليل»، تمتمت غرايس لنفسها، «من يفعل ذلك؟»

بين ما قالته ماما جي من أشياء غريبة وهدوء تراف الشديد، لم يكن العشاء مريحاً بالنسبة لغرايس، لكن مع ذلك كان عليها أن تُثني على جارها الذي كان في غاية اللطف وبذل كلّ ما بوسعه ليُشعر ماما جي بالأمان ويرحب بها في بيته، حتى بعد أن بدأت تقدّم له نبوءات مثل عرّاف.

أسندت غرايس ظهرها إلى المقعد وتنهّدت. ما جرى ليلة البارحة كان محرجاً على نحو لا يصدق. فبعد أن أعادت ماما جي إلى البيت ووضعتها في سريرها، ظلت غرايس صاحية ولم يغمض لها جفن، فأعدّت لنفسها كوباً من القهوة، وجلست على درجات الشرفة المائلة، وفعلت شيئاً لم تفعله من قبل - فقد راحت تراقب الشمس وهي تشرق.

كان المشهد جميلاً. فقد اكتسى الليل بوهج صباح وردي أخذ يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى برتقالي ثم إلى ذهبي براق عندما انتشر الضوء في الشارع الذي تحفّه الأشجار من كلا الجانبين، وأصبحت أوراق الأشجار تلمع، والندى يومض ويشعّ عبر برك الماء التي خلفتّها الأمطار التي هطلت البارحة، وبرزت حواف البيوت المزخرفة الرائعة. وبينما كانت غرايس تراقب الشمس وهي تزداد لمعاناً وبريقاً وبدأ الحيّ يستيقظ شيئاً فشيئاً، تذكّرت ما قالته ماما جي أثناء عشاء السباغيتي عن التعلّق بالأشياء الجيدة في الحياة، بدلاً من التعلّق بالأشياء السيئة. لقد جعلت ماما جي ذلك يبدو أمراً سهلاً، لكن غرايس تعرف أن هذا يحتاج إلى بذل كثير من الجهد والحبّ ليتمكّن المرء من إيجاد الألق والنور في وسط الظلمة الحالكة.

بينما كانت غرايس تشرب كوب قهوتها الثاني، فكّرت أنه ربما كان سكان بلدة دوف بوند يشعرون بهذه الطريقة حول مهرجانهم، ويعتبرونه أحد الأشياء الجيدة التي يتعلّقون بها عندما لا تسير الحياة على ما يرام، وربما كان الشيء الوحيد الذي تبقّى لديهم، وهذا يفسّر الغضب الذي تملكهم عندما خُفضت الميزانية.

لهذا السبب فهي تنتظر سارة الآن. فقد أرادت غرايس أن تطلّع على السجلات الموجودة في قبو المكتبة كما قالت لها كات عندما كانتا في المقهى. لكن لم يكن ذلك السبب الوحيد. فرؤية تراف

وهو جالس إلى تلك الطاولة الكبيرة في مطبخه وحيداً، آلم قلب غرايس كثيراً. مع أنها تعرف أن لديه أصدقاء لأنها رأتهم يزورونه خلال تلك الأسابيع. أما اثناء العشاء ليلة البارحة، فقد عرفت أنه شخص منطوٍ، هادئ، عاطفي، يشعر بكلّ شيء بعمق ويحاول جاهداً ألّا يُظهر ذلك. وهي كذلك. كانت ماما جيِ محقّة عندما قالت ذلك: غرايس وتراف يشبه أحدهما الآخر في أشكال متعددة.

فُتح الباب وخرجت سارة إلى الشرفة وهي تحمل حقيبة كتبها الثقيلة. عندما هبطت الدرج رأت غرايس جالسة في سيارتها.

تسمّرت سارة في مكانها.

رفعت غرايس كوبيْ القهوة الطازجة اللذين أحضرتهما معها وأرتهما لسارة عبر نافذة السيارة، ثمّ وضعت الكوبين ورفعت كيس الكرواسان. «أترين؟» قالت لها غرايس عندما فتحت نافذتها، «لقد أخضرتُ كراوسان وقهوة».

ابتسمت سارة.

بادلتها غرايس ابتسامة عريضة وبدت على وجهها علامات الارتياح.

سارت سارة المسافة المتبقية من الممشى وفتحت باب السيارة.

«هل سنذهب معاً؟»

«نعم، أرجوك» قالت غرايس.

بدون تردّد، صعدت سارة إلى السيارة، ووضعت حقيبتها الثقيلة على أرضية السيارة، وسألتها، «ماذا يوجد في الكيس؟»

«كرواسان بالشوكولاتة. جلبتها من مقهى ضوء القمر».

«هل ذهبت إلى هناك هذا الصباح؟»

«نعم، وأحضرتُ القهوة أيضاً».

«هذا رائع». جلست سارة في مقعدها وراحت ترشف قهوتها، ثم قالت «يمكنني أن أتعوّد على هذا».

«وأنا أيضاً»، قالت غرايس وابتسمت ثم وضعت السيارة في وضعية الرجوع، وخرجت من مدخل بيت سارة. «أردت أن أتحدّث معك». هيا يا ويلر. لنفعل ذلك بشكل صحيح، «سأفعل شيئاً لا أجيده تماماً. سأعتذر منك. فقد كنت غبية جداً. هذا كلّ ما يمكنني أن أقوله».

«إنك لا تدينين لي باعتذار»، قالت سارة وأخرجت الكرواسان من الكيس، «بل أنا التي أدين لك باعتذار».

«لا، أنا. كنت فقط...»

«غرايس، كان ذلك خطأي. لم يكن علينا أن نرغمك على أن تعودي لتترأسي اللجنة. كنت أعرف أن زوي ستفعل شيئا... وقد شجّعتها على ذلك. كنت أريد أن تعودي إلى اللجنة بأي شكل، وأنا...»

«اللعنة، سارة. هذا اعتذاري، لا اعتذارك أنت».

اتسعت عينا سارة.

ضحكت غرايس ضحكة مترددة، وقالت: «إننا امرأتان مجنونتان، أليس كذلك؟»

عادت الابتسامة إلى وجه سارة، وقالت: «نعم، إننا هكذا. بالمناسبة، رأيتُ ما جرى البارحة».

«متى؟» سألتها غرايس بجفاف، «كان يوم البارحة طويلاً».

«تعرفين... الشاحنة؟ بركة الماء؟»

«أوه، نعم. ذلك». هزّت غرايس رأسها، وأضافت، «لم تكن تلك أفضل أوقاتي».

«أنا آسفة لأنني ضحكت».

نظرت غرايس إلى سارة، وسألتها، «هل ضحكت؟»

«نعم. ظننت أنّك رأيتني».

هزّت غرايس رأسها وقالت: «عندما رأيتِ كلّ شيء، وضعتِ يدك على وجهك. صدقاً، خيّل إليّ أنّك كنت ترسلين لي الرسالة بأنني أنال ما أستحق».

«لا لكن لم يكن يجب أن أضحك أيضاً. كانت...» هزّت كتفيها، «كانت دفقة ماء قوية».

«قوية»، قالت غرايس موافقة وهي تبتسم، «قلت لكات إن ما حدث يشبه ما يحدث في الأفلام. فقد رأيتها في المقهى بعد ذلك. لكن انظري، بالنسبة لمن يدين باعتذار للآخر من أجل اللجنة والمهرجان وكلّ شيء. أعرف أنني كنت وقحة معكم خلال ذلك الأسبوع، وكان ذلك غباء مني. لا أعرف لماذا غضبت منك، ولم أغضب من زوي وكات لأنهما دبرتا معظم تلك الحيلة، لكني غضبت منك... ربما لأنّني كنت أعتقد أنّك تقفين إلى جانبي».

فقالت سارة: «كنت أعرف أن هذا هو رأيك. غرايس، لقد أخطأت، لكنّي كنت أريد أن تساعدينا. إننا نحتاج إليك. البلدة بحاجة إليك».

انعطفت غرايس بالسيارة نحو الشارع الرئيسي، وقالت: «يجب أن أشعر بالإطراء لسماع ذلك. يا إلهي، أشعر بالإطراء حقاً. لكن... حسناً، لقد آلمني ذلك».

«لذلك عليّ أن أعتذر».

«لا. كنتم محقّين عندما قلتِ إنكم لو لم تفعلوا ذلك، لما كنت قد عدت إلى اللجنة، لذلك فإن الخطأ خطأي. فقد دخلت إلى الاجتماع الأول ذاك وألقيت الملف أمام زوي وغادرت. في ذلك

الوقت، كنت أشعر بأنني أفعل ما الذي يجب أن أفعله، لكنني كنت مخطئة. حقاً، فأنا سعيدة لأنني عدت لأتحمّل المسؤولية».

«حقاً؟»

«الآن بعد أن عرفت المسائل الحقيقية المتعلقة بالموارد المالية في البلدة، أصبح لديّ شيء أهمّ يمكنني أن أفعله من ذلك العمل المملّ بإدخال البيانات. أظن أنني أستطيع أن أقدّم المساعدة. فعلى الرغم من أنني قد لا أمكث في هذه البلدة لفترة طويلة تكفي لإصلاح الأمور بالكامل، لكن يمكنني أن أضعكم على الطريق الصحيح».

اختفت الابتسامة من وجه سارة، وقالت: «لا أحبّ أن أسمعك تقولين إنك ستغادرين. يجب أن تبقي هنا. حقاً يجب أن تبقي هنا».

هزّت غرايس رأسها، وقالت وهي تبتسم، «هذا لن يحدث، لكن في أثناء وجودي هنا، سأظل على الأقل ملتزمة».

«بأيّ شيء؟»

«بهذه البلدة. باللجنة، وأن أكون صديقة جيدة». انعطفت غرايس إلى الشارع الرئيسي، «لم يكن عندي صديق في حياتي مثل النساء الأخريات. لا يوجد أحد أتكلّم معه وأشاركه همومه. أنا جديدة على ذلك، لذلك أظن أنني سأرتكب بعض الأخطاء».

«لكننا صديقتان؟ أهذا ما تقصدينه؟»

بدت سارة سعيدة فضحكت غرايس، وقالت: «نعم، هذا ما أقصده. وسترافقينني كل يوم إلى العمل وسأحضر قهوة ووجبات خفيفة».

«اتفقنا»، قالت سارة ووضعت منديلاً على ركبة غرايس ووضعت فوقها قطعة كرواسان بالشوكولاتة، «ويجب أن أعترف بشيء آخر».

«ما هو؟»

«انتابني شعور بالغيرة منك قليلاً».

«منّي؟ لماذا بحق السماء؟»

نظرت سارة إلى قطعة الكرواسان التي تتناولها وقالت: «غرتُ منك لأنني كنت أظن دائماً إنّني أنا التي ستنقذ دوف بوند»، ثم رفعت عينيها إلى غرايس وأضافت، «لكن لن أكون أنا. ستكونين أنت».

«توقفي لحظة. لم أقل إنّني سأنقذ البلدة. قلت إنّني سأضعكم على الطريق الصحيح. هذا كلّ ما أستطيع أن أفعله. لا أستطيع أن أنقذ أيّ شيء الآن، ولا حتى نفسي».

«لا. ستجدين طريقة لإنقاذ دوف بوند. أنا ومتأكدة من ذلك».

«يا إلهي، مع أنني أحبّك كثيراً، فإنني لا أعرف لماذا تتصرفين معي بهذا الشكل الغريب».

«أعرف»، وافقت سارة وهي تزيل اللفافة عن قطعة الكرواسان، «ستعتادين على ذلك».

فضحكت غرايس، وقالت: «أظن أنني يجب أن أفعل ذلك».

«أنا سعيدة لأنك قابلت كات البارحة في المقهى. لقد اتصلت بي بعد ذلك».

«لماذا؟»

«كانت قلقة عليك. قالت إنك متعبة جداً».

«إنها ديزي، حسناً، ديزي، وذهبت ماما جي في منتصف الليل إلى بيت تراف، وطهت له سباغيتي وكلّ هذه الأشياء».

«كنت أعرف أنها كانت هناك. أرسل لي تراف رسالة نصيّة وسألني عن رقم هاتفك».

«تساءلت كيف حصل عليه. لقد جعلته يدفع ثمن ذلك، وأنا أيضاً، لأنها قالت بعض الأشياء المحرجة».

«ماذا قالت؟»

«أشياء لا معنى لها، لكنّي كنت أتمنّى أنّها لم تقلها أمام تراف».

أخذت سارة رشفة من قهوتها، وقالت: «إنه يتفهم الأمر. فقد اعتنى بأبيه، لذلك فهو يعرف هذه الأشياء».

صحيح. ربما لن يسيء فهم سلوك ماما جي. «كلّ ما أريد أن أعرفه هو كيف خرجت من البيت. فقد ركّبت قفلاً في أعلى الباب كي لا تصل إليه، لكن بعد أن تلقيت تلك الرسالة من تراف، وجدت الباب مفتوحاً على مصراعيه. مع أن ماما جي ليست طويلة القامة حتى تصل إلى القفل، ولا يوجد كرسي بجانب الباب أو أيّ شيء يدّل على كيف فعلت ذلك»، ثم هزّت غرايس رأسها، وأضافت، «لا أعرف كيف فعلت ذلك».

«يا إلهي. هذا أمر يدعو إلى القلق».

«جداً»، نظرت غرايس إلى سارة، وقالت: «بالمناسبة، أرسلت أختك بعض الشاي إلى ماما جي الأسبوع الماضي».

«قالت إنها ستفعل ذلك. هل كان مفيداً؟»

«بشكل رائع، نعم.»

كانت قد كتبت على العلبة «شاي خاص من أفا إلى ماما جي»، ولم تكن غرايس تعرف ماذا يوجد في داخلها. مهما كان في تلك العلبة، فقد كان مفيداً. فبعد أن تناولت ماما جي كوباً واحداً منه عند المغرب، شعرت بارتياح كبير، وراحت تدندن لنفسها مستمتعة بتلك اللحظة. وعلى الرغم من

أنه يبدو أنه لم يساعدها على النوم، فقد خفّف من حدّة القلق الذي ينتابها مساء كلّ يوم. «كنت أخشى ألّا يفيدها».

«أنواع الشاي التي تزرعها أفا آمنة». كانت نبرة سارة متشنجة قليلاً.

«أنا متأكدة من ذلك، لكنّي أخشى أن يتداخل مع الأدوية التي تتناولها ماما جي. طبعاً سخرت ليندا عندما قلت لها ذلك لأنها تحبّ كلّ شيء تصنعه عائلة دوف».

ابتسمت سارة وقالت: «ليندا امرأة طيبة».

«نعم. أرسلت أفا علبة الشاي عندما كنت في العمل، وقبل أن أصل إلى البيت، أعدّت ليندا كوباً من الشاي لماما جي. كان مفيداً جداً». بالطبع، لو كان الأمر بيد غرايس، لما سمحت لماما جي أن تشربه من دون أن تعرف ما هي مكوناته. «اتصلت بأفا وسألتها عن المكونات، وقالت إنها تتألف من كمية قليلة من البابونج وأزهار الخزامى ولمسة من لحاء المنغوليا، لا شيء ضارّ كما قال الدكتور بولتون».

«يمكنك أن تثقي بأفا».

«أعرف، وأنا أثق بها كذلك». ابتسمت غرايس لسارة وقالت: «أتريدين أن تعرفي شيئاً مضحكاً؟ عندما رأت ليندا أن تأثير الشاي جيد على ماما جي قرّرت أن تجربّه».

«لا أظن أنه سيفيدها، لأن أفا أعدتّه خصيصاً لماما جي».

«صحيح. فقد قالت ليندا إنّها شربت منه ستّة أكواب وكان كلّ ما فعله أنه جعلها تشعر بالحاجة إلى أن تبول في منتصف الليل».

ضحكت سارة، وقالت: «عرفت أنّها جربّته فقد جاءت إلى بيتنا منذ بضعة أيام وأعدّت لها أفا شاي الخزامى يناسبها».

«سمعت عن ذلك. يبدو أن الشاي جعلها ترى أحلاماً كثيرة. فمنذ ذلك الحين، كان عليّ أن أنصت إلى ليندا وهي تحكي لي عن أحلامها التي معظمها هي عارية على الشاطئ مع رجل لا تعرفه».

ابتسمت سارة وهي ترشف قهوتها، «صحيح؟»

«نعم. قالت ليندا إنها ترى أحلاماً واقعية إلى درجة أنها استيقظت عندما شمت رائحة الماء المالح وشراب الرم مع جوز الهند». لم تكن غرايس تريد أن تسمع مزيداً من هذه الأحلام الحيوية، وإنما كانت تريد أن تنام نوماً عميقاً ليلة واحدة. ليلة واحدة فقط.

«أنا سعيدة بأن شاي أفا كان مفيداً».

«أنت وأختك تساعدان»، قالت غرايس وانعطفت إلى باحة وقوف السيارات ثم توقفت. أطفأت محرك السيارة، وقالت لسارة: «لا أعرف كيف أشكرك».

نظرت سارة إلى قطعة الكرواسان نصف المأكولة وأسندتها إلى ركبتها، «أعرف أنّني كنت متحمّسة جداً لأن أرحبّ بقدومك إلى بلدتنا. وأعرف أن هذا صعّب الأمور عليك. لكني كنت سعيدة جداً لأنك انتقلت إلى بلدتنا، وسعيدة جداً لأنني تعرّفت عليك وعلى ديزي وماما جي».

أحسّت غرايس بضيق في صدرها. اقتربت فقاعة من مشاعر الغضب من السطح. عرفت أن ذلك حدث لها لأنها مرهقة ولم تنم سوى سويعات لكن هذه المرة قاومتها. «أنا سعيدة جداً لوجودي هنا أيضاً. كان هذا هو الشيء الوحيد الذي قالته ماما جي ليلة البارحة، وكان صحيحاً. كنت أشعر بالغضب كثيراً. غضبت كثيراً عندما تركت عملي في شارلوت لأنني كنت أعتبر دائماً أن النقود معيار النجاح. كنت أقول ذلك لنفسي دائماً - إنني عندما أكبر، سأجمع مالاً كثيراً وأشتري بيتاً لي ولهانا»، أطلقت غرايس تنهيدة حزينة، «لكن الأمور لم تسر كما كنت أشاء، ولم أكن أشعر بأنني في أفضل حالاتي منذ أن جئت إلى هنا».

«كنتِ عظيمة. إنك تقسين على نفسك كثيراً».

«ليس حقاً. صدقاً، لا أعرف ما الذي يجعلني غاضبة. القدر؟ الظروف؟ مرض ماما جي؟ ربما كلّ هذه الأشياء. لكنّي أظن أن معظم غضبي سببه هانا، وأظن أنني كنت غاضبة منها منذ مدة طويلة جداً لكني لم أكن أعترف بذلك بيني وبين نفسي»، ونظرت نظرة خجولة إلى سارة، وأضافت: «أنت قريبة جداً من أخواتك، لذلك ربما لن تستطيعي أن تفهمي هذا الشعور».

«أنا لست قريبة منهن كلّهن. في الواقع أنا قريبة جداً من أفا فقط».

«لكن لم تسبب لك إحدى أخواتك ألماً ولم تؤذك كما فعلت لي هانا. فقد أنجبت ديزي ولم تقف لحظة واحدة لتفكّر كيف يمكن أن يؤثّر ذلك على ابنتها عندما تركتها برعاية ماما جي التي منحتنا أنا وهانا الكثير، ولا تستحقّ أن تُلقي لها طفلة بهذا الشكل، حتى لو كانت طفلة جيدة مثل ديزي». أرخت غرايس رأسها على مسند الرأس، وأضافت، «على نحو ما، كنت أنا كذلك فتاة سيئة مثل هانا. كان عليّ أن أساعد ماما جي أكثر، وقمت بدور الخالة المفضّلة وأغرقتها بالهدايا وأخذتها إلى المطاعم، وأنفقت عليها. لم أعرفها جيداً»

«أصبحت تعرفينها الآن».

أطلقت غرايس ضحكة جافّة، وقالت: «إني أتجادل معها باستمرار».

«إن الانتقال من دور الخالة إلى دور الأمّ ليس سهلاً. أنا متيقنة من أن ذلك كان صعباً عليكما كلاكما».

«كان ذلك أصعب على ديزي. فهي تشعر بالملل لأنها تمكث في البيت دائماً، وهذا شيء غير جيّد بالنسبة لها. لا أعرف ما الذي يمكنني أن أفعله لها».

«ستجدين طريقة». حملت سارة حقيبتها، وأضافت، «أعرف أنك ستفعلين ذلك».

مع أنها كانت كلمات بسيطة، لكنها الكلمات التي كانت غرايس بحاجة إلى سماعها. تنهّدت عندما فتحت الباب من جانبها، وقالت، «آمل ذلك».

نزلتا من السيارة وبينما كانتا تجمعان أغراضهما سمعتا أحداً ينادي اسم سارة.

التفتت غرايس عندما اقتربت السّيدة جولين هاملتون، كلبها يلهث وراءها سعيداً.

توقّفت السّيدة هاملتون عندما رأت غرايس مع سارة، وقالت: «حسناً، هل قررتما أن تزيلا الضرر الذي لحق بميزانية المهرجان؟»

«العمّة جو»، قالت سارة متجهمة.

لوّحت لها غرايس مودعة، وقالت: «حسناً. أسمع الكثير من هذا الكلام».

نفخت السيدة هاملتون، وقالت: «يجب أن تحصلوا على مزيد من الأموال. فالناس غاضبون هنا. ومن المهين أن يأتي شخص لا يعرف بلدتنا جيداً ويتخّذ قرارات هامة كهذه من دون أن يستشير أهلها».

«العمّة جو، تعرفين أنني عضوة في تلك اللجنة أيضاً»، قالت سارة بشيء من التأفف، «وأنا لن أصوّت على شيء متهوّر ويُلحق الضرر بدوف بوند».

«أعرف أنّك لن تفعلين ذلك. لكن هي؟» قالت السّيدة هاملتون ووجهت إبهامها نحو غرايس، «فأنا لا أعرف عنها شيئاً».

فقالت غرايس: «حسناً، سأبحث هذه المسألة اليوم. أظن أنني افتقدت شيئاً».

نظرت سارة والسّيدة هاملتن إلى غرايس، متفاجئتين. حتى الكلب بدا متفاجئاً عندما أحنى رأسه، ثم أضافت غرايس، «في حقيقة الأمر، كنت سأسأل سارة أن تطلعني على سجلات البلدة صباح هذا اليوم».

«طبعاً سأفعل ذلك»، قالت سارة «لكن... لماذا؟»

«أريد أن أرى كلّ ما يتعلق بمهرجانات التفاح السابقة. أريد أن أعرف كلّ ما يمكنني أن أعرفه عنها. فقد فكّرت البارحة أنه لا يحقّ لي أن أغيّر شيئاً من دون أن أفهمه حقّ الفهم. فعندما كنت في وظيفتي السابقة، كان أول شيء نفعله عندما يأتينا مشروع جديد هو أن نحاول أن نفهم العلامة التجارية التي تميّز شركة ما، وماذا تعني، وكنا نجري شتى الأبحاث قبل أن نتخذ أي قرار، ولم تتخذ لجنتنا هذه الخطوة ولم أتذكر أننا لم نفعل ذلك حتى دار حديث بيني وبين كات البارحة».

فقالت السّيدة هاملتون التي بدا أنها سُرّت مما سمعته، «إذاً سارة، أريها هذه السجلات بسرعة».

«طبعاً»، نظرت سارة إلى غرايس، «هل تريدين أن تطلعّي عليها الآن؟»

«إذا لم يكن لديك أي مانع. فقد أخبرت السيد مور بأنني سأتأخر قليلاً، وسيقوم بإدخال البيانات صباح اليوم».

« هل سيقوم رئيس البلدية بإدخال البيانات؟» قاطعتها السّيدة هاملتون بتكشيرة عريضة، «حبيبتي، أظن أنني يجب أن أحبّك أكثر».

ابتسمت سارة وقالت لغرايس: «هيا لنذهب. عندي أشياء كثيرة أريد أن أريها لك».

الفصل (١٤)

سارة

«مياو»

توقّفت سارة وهي تهيئ غرفة الاجتماعات من أجل اجتماع «لجنة التحسين» وذهبت لتنظر من النافذة، فرأت القط سيغفريد يدور أمام علبة إعادة الكتب المعارة. واحد. اثنان. ثم توقّف وأقعى ونظر إلى باب مبنى البلدية كما لو أنه يترقّب خروج فأر منه.

دائرتان فقط. هذا شيء واعد. متشجعة أكثر من أي وقت مضى، فركت سارة يديها معاً. لقد منحها القطّ سيغفريد الأمل. فقد أمضت غرايس زهاء ثلاث ساعات صباح هذا اليوم وهي تبحث في سجلات البلدة، وعندما غادرت المكتبة، كانت غارقة في التفكير، كأنّ شيئاً جديداً خطر ببالها.

أرجو أن تكوّن فكرة عظيمة. فكرة رائعة.

فُتح باب مبنى البلدية وخرجت منه زوي، ترتدي فستاناً ضيقاً بنيًّا بلون الشوكولاتة مشذَّبا بياقة بيتر بان، تحمل بيدها عدة ملفّات، ودسّت قلماً وراء إحدى أذنيها. نظرت إلى جانبيْ الطريق، ثمّ اجتازت الشارع واتجهت نحو المكتبة.

ماء سيغفريد مرة أخرى ثم سار في الشارع حتى اختفى عن الأنظار.

عادت سارة لتكمل إعداد الغرفة لعقد الاجتماع، ووضعت على الطاولة قناني ماء ودفاتر ملاحظات.

دخلت زوي. لم تتجّه إلى كرسيها وإنما اتجهت إلى حيث تقف سارة وسألتها، «كيف تفعلين بهذا؟»

رمشت عينا سارة وقالت: «ماذا أفعل بماذا؟»

«بهذا»، ومدّت زوي يدها بكتاب تعليم العبارات الإيطالية الذي أعطته لها سارة منذ بضعة أسابيع.

«آه. هذا». وضعت سارة آخر قنينة ماء أمام مقعد غرايس، وقالت: «ليس من السهل تفسير ذلك».

«فسّريه في جميع الأحوال».

لاحظت سارة ذلك البريق العدائي الذي لمع في عيني زوي البندقيتين، وقالت: «أفهم أنك كنت بحاجة إلى هذا الكتاب».

زمّت زوي شفتيها، وقالت: «نعم، لكن لا تسأليني عن السبب».

«حسناً. أنت تعطين وأنا أعطي. سأشرح لك كيف عرفت أنّك بحاجة إلى هذا الكتاب، لكن بعد أن تخبريني كيف أفادك الكتاب».

الخطّ العنيد المرتسم على فمّ زوي قال لسارة كلّ ما تريد أن تعرفه، فابتسمت مبتهجة وقالت: «أنا سعيدة جداً لأنه كان مفيداً».

لم تبادلها زوي الابتسامة، وقالت: «هيا قولي يا دوف، كيف تفعلين ذلك؟»

لقد سألها آخرون هذا السؤال كثيراً، ومع مرور الوقت تعلّمت سارة أن تكون حريصة في ردها. فقد صدّقها البعض، ولم يصدّقها البعض الآخر، وكانت محاولة إقناع الذين لم يصدّقوها هدراً للوقت، فقالت: «إنها تأتي إليّ هكذا».

«هكذا؟»

هزّت كتفيها بلا مبالاة وقالت: «إنها تخبرني وأنا أستمع لها».

«الكتب تتكلّم؟»

«بشكل ما. لكن ليس بصوت مسموع وإنما في رأسي».

«من أجل حبّ... هنا». دفعت زوي الكتاب إلى يد سارة، وقالت: «هيا خذيه».

نظرت سارة إلى الكتاب الذي بدا أنه يضحك بصمت. دسّته تحت ذراعها، وقالت: «يبدو أنك منزعجة. هل...»

«لا يهمّ ما الذي جرى. لا أريد هذا الكتاب في أي مكان قريب مني. إنه... لم...» وأغلقت زوي فمها ثم استدارت على عقبيها وعادت إلى مقعدها.

بدأ الكتاب يضحك بقوة أكثر. ربتت سارة عليه وقالت: «أنا آسفة إن كان قد أزعجك. سأعيده إلى الرفّ عندما ينتهي الاجتماع».

«شكراً»، قالت زوي بتكلّف.

«طبعاً. لا أريد أن تنزعجي».

«لست منزعجة»، قالت زوي وجلست، «هل كلّ شيء جاهز فيما يتعلق بالخطة جيم؟»

«نعم. لقد تكلّمت للتو مع أفا على الهاتف وقالت إنها ستشارك - آه، ها هي غرايس. مساء الخير».

دخلت غرايس واتجّهت مباشرة إلى مقعدها، وقالت: «مساء الخير». كانت تحمل مجموعة جديدة من الملفّات وابتسمت عندما مرّت بجانب سارة.

لاحظت سارة أنّ الملفّ الباهت اللون هو الملفّ الذي كانت تستعمله السّيدة فيلبس لسنوات قبل أن تستبدله غرايس بملفّات ملوّنة. كانت تأمل أن هذه علامة للاستمرار.

دخل إد وإرما إلى غرفة الاجتماعات، وتبعهما نيت، وسرعان ما ملأ الضجيج الغرفة. نظرت غرايس إلى ساعتها عندما دخلت كات وأفا بسرعة وجلستا في مقعديهما.

«آسفة لأننا تأخرنا»، قالت أفا، «كان لدى كات عمل يجب أن تنهيه». وضعت كات ملفّها على الطاولة، لكنها بقيت واقفة، وقالت: «قبل أن نبدأ، لديّ شيء أريد أن أعلنه لكم، وكلّ هذا بفضل غرايس».

نظر الجميع إلى غرايس التي بدا أنها مندهشة، وسألت، «أنا؟»

«نعم، أنت. بعد حديثنا في مقهى ضوء القمر، أدركت أنّني أقيّد نفسي في عملي، لذلك... «ابتسمت للجميع، «بدأتُ شركتي الخاصة».

«ماذا؟» صاحت إرما.

ابتسمت كات وأخرجت من جيبها مجموعة من بطاقات العمل ووزعتها عليهم، «لقد بدأتُ للتو، وبعد فترة من الزمن سأحقّق أرباحاً، لكني على الأقل بدأت».

أخذت إرما البطاقة ومدّت يدها إلى الأمام وأمالت رأسها قليلاً لتنظر من أسفل نظارتها. «عقارات كارتر التجارية، شركة ذات مسؤولية محدودة» أنزلت إرما البطاقة، وسألتها، «إلى أي مدى شركتك مختلفة عن شركة أمّك؟»

«أمّي تعمل في العقارات السكنية، أما أنا فسأعمل في العقارات التجارية، تأجير وبيع. أمّي لا تحب أن تعمل مع الشركات التجارية بسبب الروتين المرافق لها، لكنها مربحة أكثر بكثير. أو... «صحّحت نفسها»... ستكون مربحةً».

قالت لها غرايس، «تهانيّ. أظن أنك ستقومين بعمل عظيم».

«آمل ذلك»، قالت كات وجلست في مكانها، «سأظل أعمل مع أمّي حتى أكوّن شركتي، وأرجو ألّا يستغرق ذلك وقتاً طويلاً».

«أمامك مشوار طويل»، قال إد موافقاً، «إذا سمعتُ أحداً يبحث عن عقار تجاري، فسأدّله عليك».

«شكراً لك».

ثم قالت زوي، «يمكنني أن أفكّر بعدة أشخاص يجب أن تكلميهم الآن. هل يمكنك أن تعطيني عدة بطاقات؟ سأحتاج إلى ما لا يقل عن خمس بطاقات».

أعطت كات البطاقات إلى زوي التي وضعتها في ملفّها وشكرتها.

«هذه أخبار ممتازة، وتصبّ تماماً فيما سأقوله»، قالت غرايس ونظرت إلى الجالسين حول الطاولة، «هل أنتم مستعدون لنبدأ؟» عندما هزّ الجميع رؤوسهم، قالت غرايس: «هل قرأتم التقرير الذي أرسلته زوي بالإيميل هذا الصباح؟»

لوت أفا وجهها وقالت: «حاولت».

«إنه طويل جداً ويصعب قراءته على الكمبيوتر، فطبعته. يا إلهي كان سميكاً» قال نيت متجهّم الوجه، «أو ربما، لأنني لم أفهمه».

نظرت غرايس إلى زوي وقالت: «أرجو أن توضحي لهم ماذا وجدنا؟»

«طبعاً. أحضرت بعض النسخ في حال لم تتسّن لبعضكم فرصة قراءته». فتحت زوي ملفّها ووزّعت نسخاً من تقريرها، ثم قالت: «كنّا نتساءل، أنا وغرايس، عن السبب الذي جعل المهرجانات تفقد روادّها، وأجرينا تحليلاً مالياً للمهرجانات لمعرفة مدى تأثيرها على دوف بوند».

«فعدنا إلى السجلات المالية القديمة»، أضافت غرايس، «ثم أمضيت وقتاً في دراسة أرشيف البلدة».

«اكتشفنا أن المهرجانات والبلدة تعاني من المشكلة نفسها»، أضافت زوي.

«واحدة فقط؟» بدا نيت غير مصدّق.

«مشكلة واحدة كبيرة»، قالت زوي بصرامة، «مشكلة ضخمة ومكلفة أيضاً».

«ما هي؟» سألت إرما التي بدا أنها مهتمّة في معرفة ذلك.

«لقد فقدت البلدة رؤية السبب الذي يجعلنا نقيم من أجله المهرجانات. فقد كانت هذه المهرجانات تقام في الأصل لفائدة السكان ويحتفلون في الوقت نفسه ببلدتهم وبتاريخها».

«هذه أسباب وجيهة لإقامة مهرجان؟»

«صحيح»، قالت زوي موافقة، «لكن مع الوقت، عندما بدأت هذه المهرجانات تحقق نجاحاً، سيطرت عليها البلدة وأصبحت بقرة حلابة لخزينة دوف بوند».

«ماذا تقصدين بـ ‹سيطرت›؟» سألتها إرما.

« كما قلت تماماً. فقد بدأت البلدة تفرض رسوماً من أجل المشاركة فيها - استخدام الحديقة العامة والأمن بالإضافة إلى أشياء أخرى».

هزّت غرايس رأسها وقالت: «وفرضوا رسوماً على باعة الأكشاك أيضاً».

قاطعتها كات، «انتظري. ظننت أن المهرجانات التي كنّا نقيمها كانت تخسر على الدوام؟»

فقالت زوي، «إنها تخسر الآن، لكنها كانت تدرّ ربحاً كبيراً في الماضي».

«لا للبلدة فحسب»، أضافت غرايس، «كما ترون، كان الهدف الأساسي لأول مهرجان للتفاح مساعدة الناس في دوف بوند، كي يجلب المزارعون والمحلات في البلدة منتجاتهم الفائضة وكلّ ما يريدون بيعه، وكانت الأموال التي يربحونها تعوضهم عن فترة الركود في الشتاء».

ثم أضافت زوي، «وكان مهرجان الربيع يقام كي يلتقي الناس للاحتفال بالحصاد ومساعدة المزارعين والشركات التجارية المحليّة لتمويل محاصيلهم الصيفية الأكبر».

«كان مهرجاناً كبيراً»، قالت غرايس.

«إذاً لم تكن هذه المهرجانات تهدف في الأصل إلى كسب المال من أجل البلدية»، قالت إرما، «وإنما كانت تهدف إلى مساعدة السكان».

«تماماً»، قالت غرايس ونقرت على أحد ملفّاتها، «لكن مع مرور السنوات، انتقل التركيز من مساعدة السكّان إلى إنشاء سيولة نقدية لخزينة البلدية، وعندما حدث ذلك، بدأ نجاح المهرجانات يخفّ شيئاً فشيئاً»

فقالت كات: «هذا شيء سيء».

«نعم. ساءت الأمور كثيراً عندما تحوّل المهرجان إلى مناسبة رسمية تقيمها البلدة في عام ألف وتسعمائة وسبعة وسبعين، وكان رئيس البلدية جينكنز، سلف السيد مور هو الذي اتخذ هذا القرار، الذي جعل المهرجان جزءاً من عمل أمين السجل في البلدية بشكل رسمي».

فقالت إرما باشمئزاز، «كان جينكنز رجلاً شحيحاً. فعندما كان يدفع ثمن شيء كان يفعل ذلك كأنه يقلع ضرساً، لهذا السبب لم يفز في الانتخابات».

هزّت غرايس رأسها، وقالت: «أصبحت المهرجانات في عهده فاسدة وهزيلة».

أعادت زوي التقرير إلى ملفّها، وقالت: «ولم يبق عندنا إلّا مهرجانان ضعيفان يهدفان بصورة أساسية لجذب السيّاح، وكان هذا بعكس الهدف الذي أُنشئت من أجله المهرجانات في الأصل، وكانت كلما ابتعدت عن هدفها الرئيسي الذي أُنشئت من أجله، ازدادت فشلاً».

عادت كات وجلست في مقعدها، وقالت: «وهكذا نسينا قاعدة زبائننا».

«تماماً»، قالت غرايس.

سادت لحظة صمت عندما بدأ الجميع يفكرون بذلك. وضع نيت الورقة أمامه على الطاولة، وقال: «يجب أن نعود إلى الصيغة القديمة».

«نعم»، قالت غرايس، «لذلك أريد أن أعود لمراجعة ميزانية الاحتفال».

«يا إلهي؟» قالت إرما.

«ما الذي تريدين مراجعته مرة أخرى؟» سألتها أفا، «ففي الاجتماع الأخير قلتِ إننا يجب أن نشجع على جذب الشركات التجارية أم أننا مفلسون ولا توجد لدينا أموال أخرى».

«وهذا صحيح، وسأعالج هذا الأمر. لكني أريد أن أتحدّث أولاً عن شيء اكتشفته صباح هذا اليوم»، ونظرت حول الطاولة، وأضافت، «لقد اطلعّت على سجلات البلدة التي تعود إلى حوالى ثلاثمائة سنة. كان درساً رائعاً في التاريخ، لكن للأسف أصبحت دوف بوند بلدة فاشلة الآن، وتوجد أوجه تشابه كثيرة مع الشركات الفاشلة التي كنت أساعد على إعادة هيكلتها. وكما قلت لسارة صباح اليوم، فقد كنّا، عندما نعمل على إعادة هيكلة شركة ما، نمضي أسابيع، وفي بعض الأحيان، شهوراً، لنتعرّف على من هي، وماذا هي، وكيف ينظر إليها الآخرون. هذه هي علامتها التجارية. ومن بين كلّ الأشياء التي تمتلكها أي شركة، فإن علامتها التجارية تساوي أكثر من أي شيء آخر».

فقالت كات: «بالتأكيد، مثل علامة نايكي أو نابيسكو التجارية - أظن أنكم تعرفون ماذا تمثّل».

«تماماً. وعندما تقومين بمساعدة شركة على إعادة هيكلتها، فإن آخر شيء تريدين أن تفعليه هو إلحاق الضرر بعلامتها التجارية. وإنما يجب بذل كل جهد لحمايتها، وإذا كان بالإمكان، البناء عليها».

«وهل تظنين أن مهرجان التفاح هو جزء من العلامة التجارية للبلدة؟» سألتها إرما.

«لا. المهرجانات ليست علامة تجارية للبلدة. إنها أنتم جميعاً».

مالت سارة إلى الأمام وقالت: «جميعنا؟»

فقالت غرايس، «عندما كنت أقرأ الصكوك والصحف القديمة والنشرات القديمة المتعلقة بمهرجان التفاح، رأيت الشيء نفسه يتكرر كثيراً. فقد كنت أرى عائلات مثل بيل ودوف وباركر ومور وكارتر وجيبسون وتينغل وبولتون - كلّكم، عائلاتكم كلها. وأنتم لا تزالون جميعكم هنا. أنتم هي العلامة التجارية»، ونقرت على الملفّات أمامها، وأضافت، «كان مهرجان التفاح مناسبة ضخمة لأنه كان مناسبة عائلية».

رمشت سارة بعينيها. «والعائلة هي أساس بلدة دوف بوند».

«تماماً. هذه هي السمة التي نتميّز بها، لذلك علينا أن نركّز عليها إذا أردنا أن نستعيد البلدة».

سأل إد، «لكن... كيف يمكننا أن نفعل ذلك؟»

«نسوّق أنفسنا على أساس ما يتوفر لدينا، لا على أساس ما لا نملكه».

بدت أفا مشوّشة، فسألت، «لكن ماذا يوجد لدينا؟»

أشارت غرايس إلى زوي وقالت: «عندنا بنك يريد أن يزيد حسابات الشركات التجارية».

فقالت زوي موافقة بنبرة حماسية، «إنك تعرفين ذلك جيداً».

ثم أشارت غرايس إلى كات، وقالت: «وتوجد لدينا أيضاً عقارات تجارية بأسعار رخيصة».

فقالت كات: «معظم أصحاب العقارات يريدون أن يعقدوا صفقات جيدة أيضاً، خصوصاً إبرام عقود إيجار طويلة الأجل».

فقالت غرايس: «وتوجد أيضاً شركات تجارية كثيرة تريد أن تروّج لنفسها وتجد زبائن جدد».

فقال نيت: «أنا موافق».

«وأنا كذلك»، قال إد.

«يا إلهي»، قالت أفا، «بدأتُ الآن أفهم ما كنتِ تقولينه. يجب أن ندمج الشيئين معاً».

ابتسمت غرايس.

«انتظروا. ماذا؟» أحسّت سارة بأنها الوحيدة التي ترُكت.

رمتها زوي بنظرة برمة، وقالت: «قد يكون مهرجان التفاح أقلّ مناسبة لجذب الشركات».

أسندت غرايس ظهرها إلى الكرسي، وقالت: «لكن يجب أن نعيده كما كان في الماضي، مهرجان يعبّر عن طبيعة هذه البلدة، عن أهلها».

«وكيف يمكننا أن نفعل ذلك؟» سألت سارة.

فقالت غرايس: «نُظهر من نحن. دوف بوند بلدة جميلة، عائلية، ودودة».

ثم أضافت زوي، «وفيها إمكانيات ضخمة لإنشاء أعمال تجارية صغيرة. هكذا كنّا دائماً، لكننا لم نركّز على

هذا الأمر. لم نخبر أحداً بذلك».

أضافت غرايس، «وهذا يعني أن على كلّ عمل تجاري في دوف أن يقيم كشكاً خاصاً به».

«كلّها؟»سأل نيت متفاجئاً.

هزّت غرايس رأسها.

«يمكن أن تقيم الكنائس أكشاكاً أيضاً»، قالت إرما، «حيث يمكنهم تأدية رقصة «مشية الكعكة» أو شيء من هذا القبيل. سيحبّونها كثيراً».

«ومعظم الفرق الموجودة في البلدة أيضاً»، أضافت غرايس.

شعّ وجه إد وقال: «أنا عضو في نادي كيوانيس وطلبنا من الأخوين كالاهان أن يصنعا لنا ستّة ألواح لنزهات الشواء في الصيف، لكنّنا نبحث دائماً عن وسائل لنجمع تبرعات لمستشفى الأطفال. الناس يحبّون ذلك أيضاً».

فقالت غرايس: «إنها فكرة عظيمة».

وأضافت أفا، «وبإمكان مقهى ضوء القمر أن ينصب خيمة يقدّم فيها القهوة والطعام، ويمكنني أن أبيع فيها بعض النباتات الربيعية وأصناف الشاي التي أعدّها أيضاً».

«ويستطيع البنك أن يوزّع حصالات في شكل لعبة خنزير وحقائب»، أضافت زوي، «وقال لي أبي الأسبوع الماضي إننا لا نقوم بالدعاية كما كنا نفعل في الماضي، لذلك ستكون هذه بداية جيدة».

هذا شيء جيد. بدأ رأس سارة يحتدم بالأفكار. «الأخوان كالاهان يصنعان أشياء خشبية جميلة مثل صواني الجبنة وصحون السلطة وألواحاً خشبية جميلة. ويقول الدكتور بولتون إنّنا يجب أن نقيم معرضاً للصحة، لذلك فإنا واثقة بأنه سيكون مستعداً لإقامة خيمة لفحص ضغط الدم مجاناً، ويوزّع بعض المنشورات الطبية وأشياء من هذا القبيل».

«يجب أن يوزّع مثل هذه الأشياء»، قال إد وهو يفرك ذقنه، «ونستطيع أنا وماغي أن نقوم بتزيين الكلاب ونبيع بعض المواد التي لا تزال في صناديقها في المخزن الخلفي. يجب أن نتخلّص منها بأي حال».

«يمكنكما أن تبيعا أشياء جديدة أيضاً»، ذكّرته زوي، «بالإضافة إلى المواد الموجودة لديكما».

«إنها فكرة جيدة»، قال إد وهزّ رأسه موافقاً.

«سأقيم عرضاً لبستنة الحدائق الصيفية وأنظّم ورشات عن أساليب الزراعة»، اقترح نيت.

«يجب أن نضع جدولاً بهذه النشاطات على الانترنت»، قالت غرايس.

«عظيم. سأرسله لكم هذا الأسبوع».

«هممم»، أمالت كات رأسها وقالت: «أتساءل إن كانت ليزا تيلدين تريد أن ترسل مساعديها للقيام بأعمال تدليك صغيرة؟ ستكون هذه وسيلة ممتازة لتدعم قاعدة زبائنها المحليّين».

فقالت زوي، «رائع، وسأدفع لها لقاء هذه الخدمة».

«وأنا أيضاً» قال نيت بحماسة. عندما نظر الجميع إليه، احمرّ وجهه وقال، «ماذا؟ إن ظهري يؤلمني».

ابتسمت كات وقالت: «صحيح. ألم الظهر. هذا عذر عظيم، يا نيت».

«وماذا عن تي دبل يو؟» سألت إرما، «عندها كلّ تلك الحيوانات التي تشبه حيوانات أليفة».

«وماذا يعني ذلك؟» قال إد.

رمقته إرما بنظرة برمة، «تستطيع أن تقيم حديقة صغيرة للحيوانات الأليفة فيها دجاج وعنزات قزمة، وفرس قزم يدعى بروس لي، وأجمل حمار صغير أيضاً بالإضافة إلى حملين اثنين».

«نعم»، لم يكن من الممكن أن تكون غرايس أكثر سعادة، «أترون ما الذي يحدث؟ إن دوف بوند تحدث. إنها نحن، وهذا ما يجب أن نسوّقه».

عندما سمعت سارة غرايس تقول «نحن» أمسكت رغبتها في أن تصرخ مبتهجة.

نقرت كات على ملفّها وقالت: «يجب أن نوجه الدعوة أيضاً إلى المحلات والشركات التي أغلقت وغادرت البلدة والتي معظمها شركات محلية».

«فكرة عظيمة»، قالت غرايس موافقة.

«أنا موافق»، قال نيت، «لا يمكنني أن أرى كيف أننا لا نستطيع أن نفعل ذلك. لكن ما هو تصوّرك للجزء المتعلّق بتشجيع الشركات على المجيء إلى البلدة في خطتك؟»

« سنخصص مكاناً في المهرجان لاستقبال جميع الشركات التجارية ونعاملها باعتبارها مستثمرين متوقّعين في بلدتنا، وسنقدم لكل شركة منها المعلومات الأساسية التي تحتاج إليها، ونخصّص دليلاً يطلعهم على بلدتنا الجميلة».

«هذا جيد»، قالت إرما مبتهجة، «أفهم من ذلك بأنك فكّرت بمسألة التمويل؟»

«فكّرت أنا وزوي بذلك بعد ظهر اليوم. سنضيف باعة إلى المهرجان».

انسلّت ابتسامة من فم إرما وقالت: «كان يوجد لدينا باعة على الدوام».

«ليس بهذا العدد. سنضيف أعداداً أكبر».

هزت زوي رأسها وقالت: «سنوسّع حجم المهرجان - سنضاعفه».

«يا إلهي»، قالت إرما، عيناها واسعتان وراء نظارتها، «لكن كيف سيقلل ذلك من تكاليف المهرجان؟»

«لأننا سنفرض بعض الرسوم على كل بائع».

«لا!» قالت إرما وألقت بقلمها، «لن يحبّ الناس ذلك».

فقالت زوي بهدوء، «لقد فكّرنا في ذلك. لكننا لن نأخذ الرسوم المعتادة، وإنما سنطلب نسبة معينة من الأرباح لقاء مبلغ معين».

«مبلغ كبير»، قالت غرايس، «فإذا لم يحقّق البائع أرباحاً جيدة، فلن نحقّق نحن أرباحاً أيضاً».

«أليست هذه مجازفة؟» سألت أفا.

فقالت غرايس: «أفضّل أن أدعوها مجازفة محسوبة. لكن هذا يعني أننا يجب أن نبدأ العمل بسرعة وبحماسة. يجب أن نضع قائمة البائعين بأسرع وقت وأن نحصل على التزامات. إرما، أرجو أن تستلمي أنتِ موضوع الباعة».

احمرّ وجه إرما لكنها بدت مسرورة. «أنا؟»

سحبت غرايس ملفّا، وقالت: «هل لديك مانع؟»

«لا! أقصد، أنا سعيدة لأن أساعد».

مررت غرايس الملفّ إلى إرما، وقالت لها: «سنتحدّث عن هذا الأمر بعد انتهاء الاجتماع. وبما أننا سنطلب نسبة من الأرباح، يجب أن نحصل على عدداً أكبر من الباعة».

هزّت زوي رأسها وقالت: «سلال الترحيب. قائمة بالبائعين وجميع المواد الترويجية على موقع البلدة على الإنترنت - نريد أن نوصل الكلمة إليهم».

فقالت سارة: «لم يخطر ببالي أن تكون هناك سلال للترحيب بالباعة».

هزّ إد رأسه، وقال: «في كلّ سنة، كنا نضع قائمة بالمشاركين في المهرجان وكنّا نذهب ونضع علامة على الصناديق فقط، ثم ننسحب».

«كان ذلك بسبب السّيدة فيلبس»، قالت أفا.

فقالت غرايس: «كانت تقوم بالأعمال الأساسية فقط. كان العمل كثيراً. يمكنني أن أقول إنها كانت ترى النادي الاجتماعي كما رأيته في البداية - بأنه عمل مزعج ويجب أن تنتهي منه بأسرع ما يمكنها ومن دون أدنى جهد».

«صحيح». أغلق إد ملفّه ووضع مرفقيه عليه، يداه متشابكتان في الأعلى، «لكن أليس من الواجب أن نكون حذرين بشأن نوع الشركات التي سنشجعها على القدوم إلى بلدتنا؟ يجب أن نختار الأعمال الجيدة التي تلائم بلدتنا، الأعمال التي يحبذها سكان البلدة».

ضحك نيت بارتياب، وقال: «هل يمكننا أن نفعل ذلك؟»

فقالت زوي: «طبعاً سنفعل ذلك كما نفعل عندما نبيع السماد العضوي في مخزننا. نعرضها أمام المخزن مع عدد كبير من صور المروج الجميلة، ونسأل الزبائن الذين اشتروا مجرفة أو خرطوم حديقة إن كانوا بحاجة إليها».

ابتسم نيت ابتسامة عريضة، وقال: «وهل تنجح هذه الطريقة».

«بالتأكيد»

«لكن كيف نعرف ما هي الأعمال التي يجب أن نطلب أن تأتي؟» سألت أفا.

«سأضع أنا وغرايس قائمة بها»، قالت زوي، «بعضها واضح. فقد خسرنا طبيب الأطفال في البلدة عندما تقاعد الدكتور لين، ولا تزال عيادته موجودة، وعلينا أن نبحث عن طبيب جيد آخر. والمسرح مغلق منذ أن توفى لو جاكوبس. كما تعرفون فهو مسرح جميل، اشترته جولز ستيوارت بعد ذلك صاحبة شركة ضوء القمر وقالت إنها مستعدة لبيعه إذا عُرض عليها سعر مناسب، وهو مكان ممتاز لإقامة دار سينما مستقلة.»

«أحبّ الأفلام المستقلّة»، قالت سارة.

نظرت غرايس إلى أفا وابتسمت لها، «وأنت على قائمة عملنا أيضاً».

«أنا؟» انتقلت نظرة أفا من غرايس إلى زوي ثم عادت إلى غرايس، «عندي بيوت بلاستيكية ومكتب».

«نعم»، قالت زوي، «لكن لا يوجد عندك صالة شاي».

فتحت أفا عينيها واسعاً، وقالت: «صالة شاي؟»

«سيكون هذا شيئاً جديداً على البلدة»، قالت إرما.

فقالت سارة: «أحبّ مقهى الشاي. لا يوجد شيء أفضل من كتاب جيد مع كوب شاي ساخن وقطعة حلوى».

فكّرت أفا قليلاً وقالت: «أظن أنني أستطيع أن أفعل ذلك. لم تخطر لي هذه الفكرة من قبل، لكن - لا. فأنا لا أعرف كيف أطبخ، ولا أحد يريد أن يشرب الشاي من دون أن يتناول الطعام».

هزّت كات كتفيها وقالت: «إن كنتِ مهتمّة في الأمر، يمكننا أن نساعدك».

فقالت زوي، «صحيح، فلا داعي للقلق. وإذا كان لديك مدير مناسب، فلن تضطري لأن تكوني موجودة. وسيدّر عليك ربحاً جيداً من دون أن توزعي انتباهك بين المكانين».

أسندت أفا ظهرها إلى المقعد، وقالت: «سأفكّر في الأمر. لكن.... أتعرفون، يمكنني أن أفعل ذلك. لم تخطر ببالي هذه الفكرة من قبل».

«تماماً». التفتت زوي إلى كات وقالت لها، «يجب أن نضع قائمة تضم جميع المكاتب والمخازن المتوفرة في البلدة مع أسعارها. نريد أن ندرجها في قائمة سلة الترحيب».

ابتسمت كات وقالت: «سأبدأ العمل عليها فوراً. هل يمكنني أن أُدرج اسم شركتي في القائمة؟»

«طبعاً. فأنتِ الوسيط العقاري الوحيد في هذه البلدة».

نظرت غرايس حول الطاولة وابتسمت، «أعرف أن هذا يبدو شيئاً جيداً، لكن في الحقيقة كانت دوف بوند تتسلّ من بين أيديكم شيئاً فشيئاً، محل تجاري تلو الآخر. نستطيع أن نعيد ذلك كما كان».

«محل تجاري تلو الآخر» قالت أفا مندهشة.

«هل تظنين أن ذلك ممكن؟» سألتها إرما.

فقالت غرايس: «لا شيء مضمون، لكن نعم، أظنّ أن هذا ممكن. أظن أن دوف بوند ستصبح أفضل وأن هذه اللجنة ستجعل ذلك يحدث».

والأفضل هو»، ابتسمت سارة ابتسامة عريضة، «الأفضل».

قالت إرما «يا إلهي. الآن فقط»، وبسطت يديها فوق الطاولة وقرّبت كرسيها أكثر، «وماذا سنفعل الآن؟»

فقالت غرايس: «الأهم فالمهم. في البداية سنركّز على التخطيط للمهرجان في الفترة المتبقية من الاجتماع. وسنعقد اجتماعاً آخر يوم الإثنين لنبحث في الجانب المتعلق بالعمل، وسترأس زوي الاجتماع».

فقالت زوي، «حسناً».

«وماذا ستفعلين أنت؟» سألتها كات.

«سأكون المسؤولة عن المسائل اللوجستية - الخيم، الكهرباء، أمور السلامة. التحضيرات الأساسية».

فكّرت سارة بالبلدة، وبجميع الآمال التي كانت تنتابها والتي يصعب تعدادها. كانت سعيدة لرؤية الحماسة التي تملأ الغرفة وأحست بأن هذا يبشّر بالخير لنجاح المهرجان. لكن لديها اليوم هدف أسمى. تنحنحت، وقالت: «قبل أن نبدأ في التخطيط للمهرجان، توجد مسألة أخرى أريد أن أطرحها».

صمت الجميع كما لو أنهم شعروا بالتوتر، أومأت أفا إلى سارة تشجعها.

رفعت غرايس التي سحبت ملفها نحوها عينيها، وسألت متفاجئة، «وهي؟»

استلّت سارة ورقة من ملفّها ومرّرتها عبر الطاولة إلى غرايس.

أخذتها غرايس وقرأتها بصوت عال، «يوم الإثنين: في بو برينز لتزيين الحيوانات الأليفة، ويوم الثلاثاء: مساعدة أفا في تعبئة الشاي، ويومي الأربعاء والجمعة: ساعة قراءة الأطفال في المكتبة، ويوم الخميس: في مقهى ضوء القمر دورة تدريبية لإعداد الفطائر». وضعت القائمة، وسألتها، «ما هذه؟»

قالت سارة «وضعت هذه القائمة مع أعضاء اللجنة من أجل ديزي».

«من أجل ديزي؟»

أومأت سارة، وقالت: «نعرف إنك تجتازين وقتاً صعباً مؤخراً، ونريد أن نساعدك. لذلك قررنا أن تقوم ديزي بمساعدتنا، وستحصل على دولارين في الأسبوع؟»

«لم نشأ أن ندفع لها كثيراً»، قالت إرما، «لأن هذا شيئاً غير جيد للطفل».

قال إد: «يمكننا أنا وماغي أن نستفيد من مساعدتها لأن يوم الإثنين يكون أكثر الأيام ازدحاماً».

ثم قالت أفا، «وأنا أحتاج إلى مساعدة دائماً لتعبئة الشاي. عندي طلبات كثيرة لا أستطيع أن ألبيها وحدي».

وأضافت سارة، «وأنا أسعى لأجعل ساعة قراءة الأطفال أفضل، وتستطيع ديزي أن تساعدني في اختيار الكتب ثم تقرأ للأطفال الآخرين. سيكون ذلك جيداً بالنسبة لها أيضاً، لأنها ستتمكن، على الأقل، من رؤية بعض الوجوه التي ستراها عندما تبدأ المدرسة».

وضعت غرايس القائمة على الطاولة، وقالت: «أنا - أنتم جميعاً... لا أعرف ماذا أقول».

«لا تقولي شيئاً»، قال نيت، «أحضريها معك كلّ يوم بعد استراحة الغداء. سأمرّ عليك وأنا عائد إلى عملي، فلا تضطرين لمغادرة المكتب».

ثم أضافت سارة، «ثم تعود معك إلى البيت. ستكون في أمان وستملأ وقتها، وعندما تساعد أفا، فإنها ستكون قريبة منك، فتستطيعين أن تأتي لرؤيتها في أي وقت».

لمعت عينا غرايس وقالت: «لا يمكنني أن أدعكم تفعلون ذلك».

«ستجرحين مشاعرنا إذا رفضت»، قالت أفا.

«وسيكون ذلك رائعاً بالنسبة لديزي»، أضافت سارة.

«وبهذه الطريقة تستطيع ليندا أن تمضي وقتاً أطول مع ماما جي»، قالت كات.

ضغطت غرايس يدها على خدها، وتبللت عيناها بالدموع، ثم التفتت إلى سارة، وقالت: «كنتِ تعرفين ذلك عندما رافقتني بالسيارة صباح اليوم».

«نعم، لكنّي لم أشأ أن أقول شيئاً إلّا بعد أن نلتقي كلّنا. هذه هدية البلدة لك يا غرايس، كلّ ما عليك أن تفعليه هو أن تقولي نعم».

«أنا...» غرايس جالت بعينيها حول جميع المتحلقين حول الطاولة كأنها تراهم لأول مرة في حياتها.

أخيراً، التقت عيناها بعينيْ سارة، وقالت: «لا يمكنني أن أرفض. ديزي ستحبّ ذلك كثيراً». وفي أرقّ وأدفأ صوت سمعته سارة من غرايس، قالت: «شكراً لكم».

الفصل (١٥)

غرايس

ركنت غرايس سيارتها أمام البيت ونزلت منها. كانت الأمور تسير على نحو مدهش. فقد انتهى اجتماع اللجنة أفضل مما كانت تأمل، وذلك العرض لمساعدة ديزي - اغرورقت عيناها بالدموع ثانية. كانت المساعدة التي قدمّها لها سكان البلدة سخية جداً، وهي في أمسّ الحاجة إلى هذه المساعدة. غمرها شعور بالتفاؤل. نعم هذا هو التفاؤل. أحسّت أنها متفائلة، لا بل سعيدة.

كان ذلك شيئاً مضحكاً، فقد قالت إنها لن تشعر بالسعادة مرة أخرى، على الأقل، إلّا بعد أن تعود إلى شارلوت. هذا يدّل على أنني لا أعرف سوى القليل عن نفسي.

أخذت محفظتها وحقيبتها وسارت نحو الممشى. كان يوماً عظيماً، واعتراها إحساس بأنها أنجزت شيئاً عظيماً مع أعضاء اللجنة. إنهم يستطيعون إنقاذ البلدة، وهي متأكّدة من ذلك. هذا ما كانت تفعله، إنقاذ شركة تحتضر. ابتسمت لنفسها. عندما خطت بضع خطوات باتجاه بيتها رأت تراف يعمل على دراجته أمام باب بيته.

بدأت خطواتها تتباطأ حتى توقّفت تماماً. إنها تدين له بكلمة شكر على مساعدته لماما جي في ذلك الوقت المتأخر من الليل. هذا أقلّ ما يمكنها أن تفعله، وعلى الرغم من ذلك فقد تردّدت. لقد ذكّرها بنفسها، شخص منطوٍ على نفسه لا يرتاح في وجود الآخرين. قالت لها سارة إنه لم يكن كذلك قبل أن يذهب إلى الحرب، وأنه كان مختلفاً، وأكثر انفتاحاً، لكن غرايس لم تستطع أن تتصوّر ذلك، فهي تعرفه كما هو الآن.

سارت نحو السياج. كانت تسير على أطراف أصابعها كي لا يغوص كعب حذائها في العشب. عندما وصلت إلى السياج، قالت: «مرحبا». نظر إلى الأعلى، والتقت عيناه بعينيها.

للمرة الثانية، بدا كأنّ تياراً كهربائياً مرّ بينهماً وربطهما معاً. تضرّج وجه غرايس وبدأ قلبها يخفق بقوة.

يا إلهي. هذا خطأ.

وضع مفتاح البراغي على الأرض وسار نحو السياج.

أدركت غرايس أن السياج قصير عندما انحنى فوقه. كبحت الرغبة في أن تستدير وتجري نحو باب بيتها. ابتسمت بتهذيب وقالت: «أردت أن أشكرك على عنايتك بماما جي عندما زارتك في مطبخك في منتصف الليل».

أخرج قطعة قماش من جيبه ومسح بها يديه، ولم تغادر عيناه عينيها، وسألها، «كيف حالها؟»

«نفس الشيء. تمرّ عليها أيام جيدة وأيام سيئة، لكن الأيام الجيدة أكثر»

«أنا سعيد لسماع ذلك». ثمة شيء ومض خلف عينيه، ثم دسّ قطعة القماش في جيبه، «لتستمتع بالأيام الجيدة».

وجدت نفسها تنظر إلى يديه. كانتا كبيرتين وخشنتين. يدا رجل يعرف كيف يعمل، وقد عمل طوال حياته. تذكّرت أيدي العاملين في البنوك والمحلّلين الماليين الذي عملت معهم - ناعمة وشاحبة ذات أظافر مشذّبة، لا توجد فيها ندبة واحدة. كانت الندوب تملأ يدي تراف. لا بد أن بعضها مؤلم، وعلى الرغم من ذلك فهو يعمل.

نقلت عينيها من يديه إلى يديها. ذات يوم، كانت يداها مثل أيدي زملائها في الشركة: ناعمة، بيضاء وأظافرها مقلّمة. أما الآن فكان ظفران في يدها مكسورين، وراحة يدها مبقعة بالحبر عندما تسرّب الحبر من القلم الذي كانت تكتب به على اللوح الأبيض أثناء الاجتماع. أغلقت أصابعها وتساءلت حول هذه الفروق. لم تكن محرجة من عملها، وإنما كانت فخورة. فهي تفعل حالياً أشياء أكبر مما كانت تفعله في شارلوت. فعلى الرغم من عدم وجود حسابات ضخمة من الإيرادات والمصروفات في عملها في دوف بوند، فهو أهم بكثير من أيّ عمل قامت به من قبل. إنها تخلق شيئاً أصلياً، ولم يكن ذلك جيداً فحسب، وإنما أكثر من جيد. لم تعرف كيف تفسّر ذلك.

«غرايس؟»

رفعت عينيها إليه وأدركت أنها تركت الصمت يستمر لفترة طويلة. «أردت فقط أن أشكرك»، انبعث صوتها، وهي تلهث، كلماتها عقيمة. لماذا لم أحضّر ما كان عليّ أن أقوله له قبل أن آتي إلى هنا؟»

« تذكّرني ماما جي بأبي. كانت تمرّ أوقات يكون فيها طبيعياً، ثم...» قال لها تراف ثم هزّ رأسه، «الأمر قاس».

كان صوته يشي بالتعاطف، وكان عليها أن تبتلع ريقها قبل أن تجيب، «الأمر ليس سهلاً. حتى الآن لا أعرف كيف خرجتْ من البيت».

ابتسامة خفيفة لامست فمه القاسي، «إنهم كالأطفال، بطريقة ما، يفعلون دائماً الأشياء التي تطلبين منهم ألّا يفعلوها».

«لديّ عدد كاف من الأطفال الذين يجب أن أعتني بهم بالإضافة إلى ديزي»، نظرت غرايس حولها، وسألت، «أين هي؟ إني متفاجئة أنها لا تراقبك الآن. لا بد أن هذا يضايقك كثيراً».

هزّ كتفيه ثم أجفل عندما فرك كتفه من دون أن يشعر، وقال: «إنها لا تسبب أي مشاكل».

أدركت غرايس أن الندوب على كتفه ورقبته آلمته، وتساءلت ما هو ذلك الحادث الشنيع الذي سببّها له.

أرادت أن تسأله عن تلك الندوب، ولماذا يعيش وحيداً، وكيف تعلّم إصلاح شاحنته الصغيرة ودراجته النارية، ولماذا يبدو بيته صغيراً ومريحاً مع أنه كبير وفارغ، و - يا إلهي - هناك أسئلة كثيرة كانت تريد أن تسأله إياها.

لكنّها لم تعرف من أين تبدأ أو كيف تبدأ، فقالت له، «أظن أنني يجب أن أذهب إلى البيت. أشكرك مرة أخرى».

نظرته المحدّقة لم تتركها، وقال: «أهلا بك».

شعرت بحرارة في وجهها. استدارت وخطت خطوة نحو بيتها لكنها وجدت أنها لم تستطع أن تتحرّك. فقد غاص كعبها العالي في العشب. سحبت قدمها بقوة فانكسر كعب حذائها. لا، لا، لا، لا.

لم يتحرّك تراف من مكانه وراء السياج، ولم يكن هناك شيء يمكنها أن تفعله سوى أن تسحب قدمها من حذائها ذي الكعب المكسور، وتنحني وتلتقطه، ثم - محرجة جداً لأن تنظر إليه - اندفعت إلى داخل البيت بسرعة.

كان ذلك أطول درب تقطعه في حياتها وكان باستطاعتها أن تشعر بنظرته خلفها في كلّ خطوة تخطوها. وعندما وصلت غرايس إلى البيت أخيراً، دخلت وأغلقت الباب وراءها وأسندت ظهرها إليه. يا إلهي، ماذا جرى؟ لو كان هذا عنواناً رئيسياً في صحيفة، فإنه سيكون «أكبر شعور بالحرج في العالم تسببه امرأة خرقاء لنفسها بدون مساعدة أحد».

«غرايس؟»خرجت ليندا من المطبخ، «ظننت أنّني سمعت صوتك...كيف كان عملك اليوم؟»

«أفضل مما كنت آمل»، قالت غرايس ورمت حذاءها المكسور بجانب الباب، ثم خلعت الفردة الأخرى وألقت بها، وذهبت إلى غرفة الجلوس، حافية، «كيف كانت ماما جي اليوم؟»

«كان يوماً جيداً. أعطيتها نصف كوب من الشاي الذي أرسلته أفا وأصبحت تتصرّف مثل ملاك».

«عظيم. وأين ديزي؟» كانت غرايس متلهفة لتخبرها عن خطة أعضاء اللجنة لها.

«إنها في سريرها في الطابق العلوي تقرأ كتاباً».

لا بد أن الدهشة ارتسمت على وجه غرايس لأن ليندا قالت لها: «أعرف، لكن المعجزات لا تتوقف»، وانحنت قليلاً نحوها وأضافت بصوت خافت، «إنها تقرأ رواية نساء صغيرات».

توقّفت غرايس في مكانها وهي متجهة إلى المطبخ، وسألتها، «الرواية التي أرسلتها سارة؟»

«كان من المفروض أن تقرئيها أنت، لكن ربما كانت ديزي هي التي ستقرأها. لا يمكنك أن تعرفي عن الكتاب الذي ترسله سارة. في بعض الأحيان تكونين وسيلة فقط». نظرت ليندا إلى ساعتها، وقالت: «بما أنك جئت، عليّ أن أذهب لأن مارك يعدّ فطيرة الكيش».

«طبعاً. شكراً على مساعدتك. لا أعرف ماذا كنت سأفعل من دونك».

ابتسمت ليندا ابتسامة عريضة وهي تجمع أغراضها، ثم قالت: «يجب ألا تقلقي حول ذلك»، وسارت نحو الباب وقالت: «أراك يوم الإثنين». حدّقت غرايس في الباب المغلق طويلاً. كانت قد وضعت رواية «نساء صغيرات» على الطاولة بجانب الباب التي تضع عليها حقيبتها لكي تتذكّر لأن تأخذ الكتاب وتعيده إلى المكتبة. لكن مع أنه كان أمامها ظلّت تنساه، كما لو أنه يختبئ منها عندما تستعد لمغادرة البيت. إنها فكرة سخيفة. كنت أنساه فقط، هذا كلّ ما في الأمر.

دخلت غرايس إلى المطبخ وهي تمتم لنفسها.

رفعت ماما جي عينيها من كوب الشاي الذي تشربه. «هل عدتِ؟».

«نعم»، نظرت غرايس إلى ماما جي، تقيّم تعابير وجهها، وشعرت بالارتياح لأنها رأت أنها تبدو مثل نفسها القديمة، «وجلبت معي بعض الأوراق لأعمل عليها في البيت».

«جداول البيانات».

ابتسمت غرايس وقالت: «كما تعرفين فإن برنامج إكسل صديقي».

«كان دائماً كذلك».

نظرت غرايس حولها في المطبخ. كان الوقت لا يزال مبكراً على تناول العشاء، لكن لا بأس بوجبة خفيفة. «هل تعرفين ماذا أريد؟ بعض الشوكولاتة الساخنة»، وأخرجت من الخزانة ركوة صغيرة، ثم أخرجت علبة الحليب من الثلاجة والمسحوق من الخزانة التي تعلو المغسلة.

همّت ماما جي لتنهض من مكانها.

«لا ابقِ في مكانك. يمكنني أن أصنعها بنفسي».

فقالت لها ماما جي مبتسمة، «اذهبي واجلسي، فقد كنت أعدّ لك ولهانا الشوكولاتة الساخنة عندما تعودان من المدرسة كلّ يوم. ألا تذكرين؟»

«طبعاً أتذكّر». أعطت غرايس القِدر لماما جي وظلت واقفة بجانبها، وقالت: «كنت تصنعين لنا دائماً ألذّ شوكولاتة ساخنة».

«إنها موهبة»، قالت ماما جي وهي تضع القِدر فوق الموقد، ثم صبّت قليلاً من الحليب وأشعلت الموقد. ثم أخرجت ملعقة من الدرج ونظرت إلى غرايس نظرة متسائلة وقالت لها: «تبدو أمارات السعادة على وجهك».

«كان يوماً جيداً». باستثناء اللحظات التي أحرجت فيها نفسي أمام جارنا. ماعدا ذلك، كان يومها عظيماً. «البلدة مليئة بأشخاص لطيفين».

«هل غيّرت رأيك حول البقاء في دوف بوند؟»

«لا تتوفر فرص كافية لي هنا. والراتب الذي أتقاضاه من عملي في البلدية لا يكفي حتى نبقى هنا».

«غرايس، لا يمكنك أن تقيسي كلّ شيء بالدولارات».

«أنا لا أفعل ذلك، لكنّي لا أرى نفسي في وظيفة أمينة سجل البلدية طوال حياتي. إنها لا تكفي. سيأتي يوم سنضطر إلى شراء بيت لنا».

فقالت ماما جي عبارتها المعهودة «لن أعلّق على ذلك» هممم، ثم قالت، «كيف هي أمورك مع سارة دوف؟»

فقالت غرايس: «جيدة. أحببتها كثيراً مع أنه لا توجد أشياء مشتركة كثيرة بيننا. إنها تقول إن الكتب تخبرها أشياء».

هزّت ماما جي رأسها بحكمة، وقالت: «كانت عائلة دوف مختلفة دائماً».

«هل تصدّقين حقاً أن الكتب تكلّمها؟»

«لمَ لا؟» أنزلت ماما جي ملعقتها وسحبت علبة السكّر من خلف الكاونتر، وأضافت، «إن جداول البيانات تفعل الشيء نفسه معك، لكن الفرق هو أنك لا تسمي ذلك ‹كلاماً›».

النظر إلى هذا الأمر بهذه الطريقة مثير للاهتمام. لكن لا أزال...»لا أظن أن هذا ما تقصده».

أضافت ماما جي الكاكاو إلى الحليب وحرّكته، ثم قالت: «كانت أمّ سارة تقول إنّ لدى بناتها قدرات خاصّة».

«تقولين ذلك كما لو كانت بناتها ساحرات أو شيئاً من هذا القبيل».

«كنّ ماهرات، مثلك تماماً».

«وأنتِ»، قالت غرايس واتكأت إلى الكاونتر، تراقب التعابير المرتسمة على وجه ماما جي. إنها تحبّ هذه المرأة كثيراً، كثيراً. حتّى الآن، تتذكّر تلك اللحظة الأولى عندما وقفت على شرفة بيت ماما جي وعرفت على الفور أنها تنتمي إلى هذا البيت، «هل تتذكّرين كيف كنتِ تقرأين لي ولهانا عندما جئنا في البداية؟»

«نعم. قرأت لكما كتباً كثيرة. وعندما تعلّمت القراءة لم تتوقفي عن القراءة»، وبدأت تتذكّر الكتب التي قرأتها غرايس.

«كانت هناك كتب كثيرة».

«الكتب كنز»، قالت ماما جي وهي تحرّك الحليب. «أصبحت جاهزة تقريباً».

أخرجت غرايس من الخزانة كوبين وملأتهما. وضعت القِدر على الموقد الخلفي وتبعت ماما جي لتجلسا إلى الطاولة. أمسكت ماما جي كوبها بعناية ثم أخذت منه رشفة. لم تبتلع ما رشفته واحمرّ وجهها وبصقتها في كوبها. دمدمت شيئاً، ثم وقفت وأخذت كوب غرايس وعادت إلى الكاونتر.

سألتها غرايس في حيرة، «ما المشكلة؟»

«نسيت أن أضع السكّر».

لاحظت غرايس أن علبة السكّر لا تزال في المكان الذي تركتها فيه ماما جي، مغلقة.

نقلت ماما جي القِدر من عين الموقد الخلفي إلى عين الموقد الأمامي وأشعلته.

لكنها لم تتحرّك. ظلّت واقفة هناك، تحدّق في القِدر، وكتفاها متهدلان.

«ماما جي»، وقفت غرايس واتجهت إلى الموقد وأطفأته، «كان كلّ ما سنفعله هو أن نضيف قليلاً من السكر. هذا ليس مهم. أرجوك اجلسي وسوف...»

«لا»، رفعت ماما جي عينيها المليئتين بالدموع إلى عيني غرايس وقالت: «لم يكن من المفترض أن يحدث هذا. كان من المفترض أن أجهزّ أنا الشوكولاتة الساخنة، لا أنت، فأنا التي أصنعها عادة، وأنا التي تفعل ذلك دائماً».

وضعت غرايس ذراعها على كتف ماما جي النحيف، وفوجئت كم أصبح يبدو هشًّا وضعيفاً حتى من تحت الكنزة التي ترتديها. «انسي الشوكولاتة الساخنة الآن. إنها ليست مهمة. أنا أحبّك».

«وأنا أحبّك أيضاً. لكنّي أكره ذلك. لا أحب أن أنسى وألّا أعرف. أشعر أحياناً بأنني شخص آخر ولا أستطيع حتى أن أفكّر»، قالت ماما جي وشفتاها ترتعشان.

أراحت غرايس خدها على شعر ماما جي الناعم الذي تفوح منه رائحة أزهار ممزوجة برائحة الطبخ، الراحة والأمان. «ستصبح الأمور على ما يرام. أعدك بذلك».

ضمت ماما جي غرايس واستندت إليها، وقالت: «كنت أقول لك ذلك عندما كنتِ صغيرة».

«أرجو أن تستمعي إليّ أكثر مما كنت أستمع إليك».

ضحكت ماما جي ضحكة خفيفة وقالت: «ربما لا». قبّلت غرايس جبين ماما جي وقالت لها «اذهبي الآن واجلسي وسأجلب لك الشوكولاتة الساخنة. جاء دوري الآن».

هزّت ماما جي رأسها واستدارت، وأخرجت منديلاً ورقياً من جيب بلوزتها وجففت دموعها، وقالت: «بدأت أجعل الأمور صعبة علينا كلينا».

«لا تقولي ذلك. أنت خائفة، وأنا خائفة أيضاً. لكنّنا سنظل معاً ولن يتغيّر ذلك». أحضرت غرايس السكّر وأضافت كمية منه إلى الكوبين ثم أخذتهما إلى الطاولة، وكررت «أعدك بذلك».

«أتعدينني بذلك؟»

«كنت تعدينني دائماً»، قالت غرايس وناولت ماما جي كوبها، «عندما كنت أسمعك تقولين ذلك كنت أشعر بأنني أصبحت أفضل حالاً على الفور».

«طبعاً».

«كنت أقول ذلك لهانا طوال الوقت أيضاً»، أجفلت غرايس، «أقصد أنني كنت أقول ذلك لهانا. مضى على ذلك شهور ولا أزال لا أصدّق أنها ذهبت».

«كنّا محظوظتين لأنها بقيت معنا لفترة طويلة. لم تكن تسمح لنفسها بأن ترتبط بأحد. لم يكن لديها جذور، تلك الفتاة، وعندما هبّت الريح، سرعان ما تهاوت».

كانت غرايس سعيدة لأن ماما جي كانت صافية الذهن اليوم. كانت غرايس بحاجة كبيرة إلى هذا الحديث، لأن اللحظات الجيدة أصبحت نادرة جداً مع ماما جي، «لن أفهم أبداً كيف استطاعت هانا أن تتركنا وتذهب، خصوصاً ديزي».

«إن ديزي تحمل غضبك، وهذا ما يقلقني».

«أعرف، فقد رأيته».

«يجب أن تكلّميها. كثيراً. حتّى إذا لم تشأ أن تسمع»، مدّت ماما جي يدها ووضعتها فوق يد غرايس، «كما فعلت معك».

«أشعر أنني أضايقها».

«هذا ما تفعله الأمهات. يظللن يضايقنك إلى أن تستمعين إليهن، وهن يفعلن ذلك لأنهن يحرصن عليك. استمري يا غرايس، ولا تتوقّفي عن الحديث معها مهما قالت لك».

هزّت غرايس رأسها، وقالت، «مع أنني أكره أن أعترف بذلك، فإني أظن أن وجودنا في دوف بوند جيد بالنسبة لديزي. وكان جيداً بالنسبة لي أيضاً».

«لديّ أجمل الذكريات في هذا المكان»، تنهّدت ماما جي وتطلعت حولها في أرجاء المطبخ وقد لانت تعابير وجهها، ثم أضافت، «كنت أنا وفيلوميدرا نلعب في الفناء الخلفي للبيت عندما كانت أمّي وأمّها تعدّان عشاء يوم الأحد. وكانت بنات خالتي الأخريات يأتين أحياناً، وكنا نمضي وقتاً ممتعاً ونضحك كثيراً. كان هناك أطفال كثيرون، ونساء كثيرات».

«ورجال؟»

«ليس في المطبخ»، ابتسمت ماما جي بشيء من الامتعاض، «لكن نعم، كان هناك رجال. وكان زوج فيلوديندرا يقدّم مساعدة كبيرة».

«في الطهي؟»

«أوه، ماذا تقولين. لم يكن ذلك يحدث في ذلك الوقت، لا، لم يكن يساعد في الطهي، لكنّه كان آكلاً نهماً. كلّ مغن يحتاج إلى مستمعين، وكان يقدّر الطعام كثيراً».

ضحكت غرايس وقالت: «أظن أن الأشياء كانت مختلفة في ذلك الوقت».

«لا تعرفين كم كانت مختلفة»، قالت ماما جي وأخذت رشفة من كوبها، ونظرت بعيداً. «أمر غريب - عندما تنظرين إلى الماضي، تبدو لك أن الأمور كانت أسهل، لكنّها لم تكن كذلك».

«حقاً؟»

«عندما تتذكرين شيئاً فإنك تعرفين نتيجة ما حدث، لذلك نظن أنه كان زمناً أسهل، لكن التطلّع إلى المستقبل يبدو مجهولاً أكثر بكثير، لذلك يبدو أكثر تعقيداً. لكن لا أظن أنه كذلك. ليس في الواقع».

هزّت غرايس رأسها، وقالت: «كم أتمنّى أن تكون هانا لا تزال معنا».

«أعرف».

حرقت الدموع عينيْ غرايس، ثم قالت: «لا أزال أتساءل هل كان ذلك حادثاً حقاً، أم أن... «وعلقت الكلمات في حنجرتها.

«غرايس، لا تفعلي ذلك. لقد تناولت جرعة زائدة بالمصادفة، هذا هو الأمر بكل بساطة».

«كيف يمكننا نعرف أن هذا فعلاً ما حدث؟»

«لم تكن من النوع الذي تزعج نفسها، والموت هو الإزعاج النهائي».

تنهّدت غرايس، «كم أتمنّى أن نعرف».

«وهل سيحدث ذلك أيّ فرق؟» أظلمت نظرة ماما جي وهي تمسك كوبها بكلتا يديها، «منذ اللحظة التي رأيت فيها هانا أول مرة، عرفت أنّها ستهرب من أيّ شيء لا تحبّه وأن ذلك سيؤدي إلى حدوث مشكلة. كان بوسعك أن تري ذلك في وجهها. كنت أتمنّى أن يستطيع شيء ما أن يسيطر على قلبها المضطرب عندما تكبر، كأن تحبّ أحداً، إن لم يكن رجلاً، فربما طفلتها. لقد رأيت ذلك يحدث، وكان من الممكن أن يُحدث فرقاً، لكن عندما أنجبت ديزي ولم يتغيّر شيء، عرفت كيف ستكون نهايتها».

«كيف يستطيع أحد ألّا يعتني بطفلة مثل ديزي؟ لا أفهم ذلك».

«إنها فتاة طيبة، ابنتنا ديزي. أنا سعيدة لأنك موجودة معها. لكن، غرايس... يجب أن تكلّميها عن مرضي».

«لماذا؟»

«إنها تظنّ أنه مؤقت، وأنه سيزول بعد فترة قصيرة. سمعتها تقول ذلك لليندا. يجب أن تعرف ديزي حقيقة ما يجري، وأن تعرف ما الذي يمكن أن تتوقّعه. سأخبرها ذلك بنفسي، لكنّها ستكون أكثر حرية في التعبير عن أفكارها معك».

«لا أريد أن أفعل ذلك. يجب أن تتعامل مع أشياء سيئة كثيرة».

«الصدق دائماً أفضل وسيلة».

«لا أستطيع لأن ذلك سيحزنها كثيراً».

«نعم. لكنّك ستكونين بجانبها».

نظرت غرايس إلى كوبها، وقالت: «حتى أنني لا أعرف ما الذي سأقوله لها».

«ستعرفين عندما تبدأين، ويجب أن تفعلي ذلك قريباً».

أوجعتها الكلمات، لكن غرايس هزّت رأسها، وقالت: «يجب أن أعدّ العشاء الآن». نهضت واقفة وبدأت تعدّ طبقاً من العجة. نادت ديزي ثلاث مرات حتى نزلت أخيراً من الطابق العلوي لتتناول العشاء، لكنّها كانت مصمّمة على أن تعود إلى كتابها، فملأت فمها حتى كادت تغصّ. أما غرايس فكانت تأكل ببطء.

استغلت غرايس الفرصة لتخبر ديزي «بالأعمال» التي أعدّها لها أعضاء اللجنة. أبدت ديزي اهتماماً بما قالته لكن بحذر، فانزعجت غرايس لأن الفتاة الصغيرة لم تبد حماسة كما كانت تتوقع، لأن ديزي لم تكن تعرف أحداً في هذه البلدة، لكنّها ستتعرّف عليهم شيئاً فشيئاً.

بعد العشاء، بدأ هدوء ماما جي ينسلّ بعيداً وانزعجت كثيراً لأنها لم تجد نعليها المفضّلين، ونادت غرايس مرّتين باسم «هانا»، حتى أنها سألت أين هي أمّها. وعندما بدأ يزداد غضبها وبدا أن الحياكة أتعبتها، أعدّت غرايس كوباً من شاي أفا، فشعرت بالارتياح عندما رأت أن الشاي هدأها.

بعد بضع ساعات، بعد أن أوت ديزي وماما جي إلى سريرهما، أوصدت غرايس باب البيت وذهبت إلى غرفة نومها، منهكة من هذا اليوم الطويل.

بعد قليل لاحظت غرايس الضوء يتسلل من تحت باب غرفة ديزي، فنهضت ونقرت على باب غرفتها نقرات خفيفة. وعندما لم تسمع رداً، فتحت غرايس الباب ودخلت إلى غرفة ديزي. بالإضافة إلى ضوء المصباح الصغير بجانب السرير، كان ضوء القمر الذي يتسلل عبر النافذة في الجانب الآخر من الغرفة الضوء الوحيد.

رأت ديزي جالسة على الكرسي أمام النافذة، تحدّق في القمر عبر الأشجار. كانت ترتدي قميص نوم «المرأة العجيبة» الذي يبلغ حجمه ضعف حجم ديزي، وشعرها الأشقر مشعث.

كانت غرايس تتوقّع أن تجد ديزي تقرأ، لكنها رأت الكتاب مفتوحاً على سريرها، وسألتها، «هل كل شيء على ما يرام؟»

لم تدر ديزي رأسها. كان ضوء القمر يضفي على بشرتها البيضاء وهجاً يميل إلى اللون الأزرق، ثم قالت «أنا بخير».

اقتربت غرايس منها أكثر. «أنا فقط...» توقّفت، «ما الذي يفعله القطّ هنا؟»

انتصب كيلر الذي كان متكوراً بجانب ديزي، وتثائب. ربتت ديزي على ظهره، وقالت: «كان نائماً».

«كيف دخل إلى هنا؟»

قفز كيلر من الكرسي وهبط على الأرض بخبطة قوية. «أنا التي أدخلته»، قالت ديزي وهي تنظر إليه وهو يتمطّى، «إنه يحبّ أن ينام مع ماما جي».

«لكن لا توجد عندنا علبة للفضلات».

هزّت ديزي كتفيها بلا مبالاة، وقالت: «ماما جي تترك نافذتها مفتوحة لكي يدخل».

«يا إلهي. منذ متى يحدث ذلك؟»

«لا أعرف. أظن منذ بضعة أسابيع»، راقبت ديزي القطّ وهو ينسلّ من الباب، «تقول ماما جي إنه يُدفئ قدميها».

نظرت غرايس إلى المدخل الفارغ حيث اختفى القطّ، وقالت لنفسها: «هذا هو ثيو إذن. كنت أظن أنها تتخيّل ذلك».

«لا»، قالت ديزي ونظرت من النافذة.

«ألست سعيدة بالأعمال الجديدة التي ستقومين بها؟ تستطيعين أن تبدأي العمل يوم الإثنين إذا أردت».

«نعم، أظن أن ذلك أفضل من الجلوس هنا».

قالت شيئاً على الأقل. حاولت غرايس أن تفكّر بشيء آخر تقوله لها. ثم أزاحت الكتاب جانباً وجلست على حافة السرير، وسألتها، «هل هناك مشكلة؟ ظننت أنني سأجدك تقرأين».

انتقلت عينا ديزي إلى الكتاب المفتوح، وقالت: «ظننت أنني سأحبّه، لكن... «قطبّت جبينها، وقالت: «إنه حقاً ليس لي».

«كنت أحبّ هذا الكتاب».

«الشخصيات في هذه القصّة يختلفون عنّي كثيراً، فلا توجد لديّ أخوات أو أمّ أو أيّ شيء يوجد لديهم».

«أرى ذلك»، قالت غرايس والتقطت الكتاب ووضعت المؤشّر على الصفحة التي وصلت إليها ديزي، وقلّبت الصفحات المألوفة لها، وقالت: «ألا ترين أن جمال الكتاب يكمن في هذا؟ أنه يأخذك إلى أماكن لا تستطيعين أن تزورينها بمفردك، ويجعلك تلتقين بأشخاص ويريك أشياء لا يمكنك أن ترينها في الحياة الحقيقية».

«إنه يجعلني حزينة».

وضعت غرايس الكتاب، وقالت: «أظن أننا كلّنا حزينون إلى حد ما. فقد كانت الشهور القليلة الماضية سيئة للغاية».

نظرت ديزي إلى غرايس وسألتها، هل أنت حزينة؟»

«أحياناً». ماذا يجب أن تقول الآن؟ ستعرفين، قالت ماما جي. حسناً، لم تعرف. لا توجد لديها فكرة ماذا يمكن أن تقول لها. لا شيء. أطلقت تنهيدة، ثم قالت: «ديزي، إنك تعرفين أن ماما جي ليست في صحة جيدة. هل تعرفين لماذا؟»

«إنها مصابة بالزهايمر. السّيد ترافيس قال لي ذلك، وقال لي إن والده كان مصاباً بنفس المرض». سحبت ديزي ركبتيها ودسّت قميص نومها فوقهما، ثم أضافت، «ماما جي لم تعرف اسمي البارحة».

«أليس هذا شيء مخيف عندما يحدث ذلك؟»

هزّت ديزي رأسها، ثم قالت: «وهي تناديني أحيانا هانا».

«لأنك تشبهين أمّك كثيراً عندما كانت في عمرك. كانت جميلة مثلك».

أرخت ديزي ذقنها على ركبتيها.

بدأت تصغر أكثر، مثل كرة صغيرة.

قولي لها الحقيقة. «ديزي، قد يأتي وقت لا تعود فيه ماما جي تعرفنا، ولا حتى قليلاً».

لم تتحرّك ديزي.

«لن يحدث ذلك فوراً. إن قدرتها على معرفة أين هي ومن هي تأتي وتذهب، لكنّها ستحدث في النهاية».

«أعرف».

«أنت... تعرفين؟»

«سمعتكِ أنتِ والسيدة ليندا تتحدثان، فأصبحت أعرف».

هزّت غرايس رأسها، وقالت: «من الجيد أنك تفهمين ذلك. أنا فقط... «أمسكت غرايس الكتاب بقوة ووقفت، ثم اقتربت أكثر من ديزي. «هل هناك شيء تريدين أن تعرفيه؟ أيّ شيء تريدين أن تسأليني عنه؟»

لم تتحرّك ديزي لفترة طويلة، وقالت أخيراً كلمة واحدة، «لماذا؟» كان صوتها رقيقاً وخافتاً لم يكد يكون مسموعاً حتى في هذا السكون.

الألم في صوت ديزي جرح غرايس مثل سكين. «لا أعرف لماذا»، وألقت الكتاب على السرير حيث كان مفتوحاً، «في بعض الأحيان، تحدث أشياء هكذا، بدون سبب».

حدّقت ديزي خارج النافذة، لا تأتي بحركة.

لبثت غرايس في مكانها، تحاول أن تجد الكلمات، ثم قالت: «اسمعي يا ديزي. مهما حدث لماما جي فإننا سنعالج الأمر معاً، أنا وأنت، كعائلة».

«إننا مجرد شخصين».

«اثنان يكفيان. وأنا...» أخذت نَفَسَا عميقاً، «أنا جديدة على هذا الأمر، لذلك فإني أتعلّم مع الوقت، لكنّي أهتمّ بك كثيراً وأريد أفضل، أفضل شيء من أجلك. في بعض الأحيان لا أعرف ما هو، وفي أحيان أخرى أخمّن فقط، لذلك أريد أن تكوني صبورة معي وتمنحيني وقتاً كي أتعلّم أكثر. هل يمكنك أن تفعلي ذلك من أجلي؟»

نظرت إليها ديزي كما لو كانت تحسب كلماتها كلمة كلمة.

ثم أضافت غرايس، «لا أعرف ما الذي يجب أن أقوله عندما نتكلّم... كما هو الحال الآن، لكنّي أريد أن أفعل ذلك بشكل صحيح. سأفعل ذلك بطريقة صحيحة. لكن سيكون من المفيد كثيراً بالنسبة لي إذا أخبرتني ماذا تريدين، ماذا تحتاجين. أعدك بأنني سأنصت إليك، ولن أتركك أبداً».

التفتت ديزي لتراقب الشجرة خارج نافذتها التي كانت أغصانها تتمايل مع هبات النسيم الليلي، وقالت: «حسناً».

دسّت غرايس خصلة شعر وراء أذنها، وقالت: «أعرف أن الأشهر القليلة الماضية لم تكن سهلة علينا، موت أمّك، ومرض ماما جي، ثم انتقالنا إلى هنا، و...»

«لماذا كان يجب أن تموت أمّي؟»

أتمنّى لو أنني أعرف. «لم تتّخذ قرارات صائبة. لم تفعل ذلك قط. ولم يكن موتها... بصدق، مفهوماً بالنسبة لي أنا أيضاً. ماما جي تقول إنه الزمن. قد يكون ذلك. لا أعرف».

مررت ديزي أصابعها في أصابع قدميها عندما ظهرت من تحت قميص نومها، وقالت: «لم يكن لدى الفتيات في الكتاب أب».

«نعم». نظرت غرايس إلى الكتاب، «أراهن أنّني قرأت هذا الكتاب مائة مرة عندما كنت في عمرك، أو أكبر قليلاً. حسناً... أكبر ببضع سنوات. إنك قارئة أفضل مما كنت».

«أحبّ الكتب التي تحكي عن العائلات. أظن أنني أحبّ هذا الكتاب أيضاً. أجد صعوبة في قراءته أحياناً».

النبرة الحزينة في صوت ديزي قرص روح غرايس. نظرت إلى الكتاب ووقعت عيناها على جملة «أنا لا أخاف من العواصف لأنني أتعلّم كيف أبحر سفينتي».

لم تدرك أنّها رددتها بصوت مسموع فقالت ديزي: «قالتها أيمي. أنا أحبّ أيمي كثيراً».

ابتسمت غرايس. «إنك تبدين كما تخيّلت دائماً كما كانت تبدو، لكنك لست مثلها».

عدّلت ديزي جلستها ووضعت قدميها على الأرض، وقالت: «كم كنت أتمنّى لو أن أمّي كانت تريدني».

حتى تلك اللحظة، كانت غرايس تظن أن قلبها لم يعد يستطيع أن يتحمل مزيداً من الألم، لكن الغضب الذي كان يعتمل في نفسها من هانا اندلع بشكل جميل. «ديزي، أريدك. أريدك أنت وماما جي. إننا عائلة، نحن الثلاثة، وسأكون هنا دائماً من أجلكما، مهما كانت الظروف».

لم تقل ديزي شيئاً.

«أعدك»، ربتت غرايس على السرير، «والآن، تعالي إلى السرير. لقد تأخر الوقت».

تنهّدت ديزي لكنّها استجابت لطلب غرايس.

«يمكنك أن تقرأي أكثر إذا أردت». غطت غرايس ديزي وانحنت وقبلّتها. «إنه كتاب جيد»، همست فوق جبين ديزي، «وسنكون نحن، عائلة ويلر، عائلة عظيمة».

رفعت ديزي نفسها وضمت غرايس وعانقتها بقوة، وقالت: «قد تكونين ماما جيدة».

ضحكت غرايس. ربما. حسناً هذه هي البداية، أليس كذلك. «أرجو أنك تظنين ذلك».

«يمكنك أن تتدربي عليّ».

ضمت غرايس الفتاة الصغيرة إليها بقوة أكثر وعانقتها، وابتسمت من خلال دموعها.

الفصل (١٦)

سارة

بعد ثلاثة أسابيع ونصف، رفعت غرايس عينيها عن قائمتها، وقالت: «دعونا نرى ما لديكم».

أعطت سارة دفتر الملاحظات إلى غرايس وقالت: «اثنان وخمسون بائعاً، ما عدا أكشاك بيع الطعام والمشروبات. لم نحصل على رقم كهذا من قبل قط». وقفتا وسط حديقة ماك إينتير حيث سيقام مهرجان التفاح في بلدة دوف بوند، وهو أكبر موقع حتى الآن. كانت الأزهار التي أصبح لونها أرجوانياً جميلاً إزاء العشب الأخضر النضر، تتمايل بفعل هبات الهواء.

نظرت سارة إلى الأزهار وابتسمت، لأن لون الأزهار لم يتغيّر منذ أن اقترحت غرايس دعوة الشركات التجارية إلى مهرجان التفاح. وكان القط سيغفريد قد مرّ البارحة من أمام المكتبة ودار دورة واحدة فقط. بدأنا نصل إلى هدفنا، أليس كذلك؟

دغدغت رائحة العشب المقصوص حديثاً أنفها. وكان ليني سميث يضع أكياساً مطاطية في الملعب من أجل سلامة الأطفال. عندما رآهما ليني ابتسم لهما ابتسامة عريضة كاشفاً عن سنّين مفقودين. قالت سارة في نفسها إن رجل الصيانة هذا مبتهج من أجل المهرجان أكثر من أي شخص آخر في البلدة.

قلّبت غرايس الصفحات في دفترها وقالت: «انظري إلى قائمة البائعين هذه. إرما متحمسة جداً. أتساءل إن كان علينا أن نخفف من حدّة حماستها؟»

«لا،»، قالت سارة.

ابتسمت غرايس وقالت: «لقد عاد مهرجان التفاح، احتفال عائلي لمدة يومين حقيقيين، انطلق بقوة بفضل حماسة إرما».

«وقامت زوي وإد بحملة علاقات عامة رائعة أيضاً. فقد نشرا إعلانات في جميع الصحف المحليّة على مسافة خمسين ميلاً، وسيجريان مقابلات في محطات الإذاعة المحليّة، ووزعا منشورات في جميع المقاهي والمكتبات أيضاً. وحجزت جميع المحلات في البلدة خيمة لها. سيكون مهرجاناً ضخماً».

«أرجو ذلك. إذا احتاج الأمر يمكننا أن نضع بضع عربات لبيع الطعام بجانب مبنى البلدية».

«عربات طعام من أشفيل»، لم تستطع سارة أن تنتظر، «كانت تلك فكرة رائعة اقترحها نيت».

«اللجنة كلها تفعل ذلك».

سارتا نحو الرصيف، وتوقّفتا لمناقشة احتياجات بعض الباعة لتوصيل الكهرباء، وحاولتا تحديد أفضل مكان للماء.

ناولت سارة قلماً لغرايس لتؤشّر على خريطة الموقع، ثم رفعت عينيها نحو الشمس وقالت: «اليوم حار. يقولون إن المطر سيهطل، لكنّي لا أصدّق أنها تمطر إلّا إذا رأيتها بعيني».

جعّدت غرايس أنفها، وقالت: «أرجو ألّا تمطر في عطلة نهاية الأسبوع خلال المهرجان».

«من المحتمل أن تمطر. فهي تمطر عادة في الخريف».

«سنحتاج إلى شيء من حظّ عائلة دوف حتى لا تمطر في ذلك الوقت». وضعت غرايس إشارة على الخريطة وأعادت الدفتر إلى سارة، وقالت: «ديزي متلهفة لزيارة قارئة البخت. حدّثتها ليندا عنها، وأنا سعيدة جداً من أجل الكشك الذي ستقيمه زوي».

«وأنا أيضاً»، قالت سارة. كانت زوي ونيت يشرفان على خيمة الاستقبال عليها لافتة «نرحب بعودتكم إلى دوف بوند»، وقد دعت زوي اثنتين ثلاثين شركة ومستثمراً محتملين لزيارة المهرجان.

أمضت اللجنة أياماً وليال طويلة في العمل لتحديد أسماء عدد من كبار المستثمرين، ووضعت نبذة كاملة عن البلدة ضمت قائمة قدّمتها كات عن العقارات التجارية المتاحة في البلدة. وخلال ذلك، انهمكت والدة كات في إعداد عشرات سلال الهدايا التي تبرّعت بها عدة محلات تجارية في دوف بوند.

إذا توقّف عِشر المدعوين عند الكشك فهذا يكفي، قالت سارة لنفسها تكاد تبكي من شدة سعادتها، «أظن أن هذا كلّ شيء اليوم. أظن أنني يجب أن أعود إلى العمل».

«وأنا أيضاً»، قالت غرايس.

سارت سارة وغرايس على الرصيف باتجاه مبنى البلدية، ثم سألتها غرايس، «ماذا بقي في قائمة الأشياء التي يجب أن نفعلها؟»

دققت سارة في دفتر الملاحظات، ثم قالت: «يجب أن تطلبي العَلَم الذي سنعلّقه في الشارع الرئيسي. يجب أن يشرف أحد على تعليق العَلَم، شخص غير ليني. فعندما علّق العَلَم آخر مرة، علّقه بالمقلوب».

«اطلبي من إرما أن تشرف على هذا الأمر، فهي دقيقة جداً في عملها».

«إنها تبذل مجهوداً كبيراً لإعداد بطاقات الشكر. إنها تعدّها بنفسها، وهي جميلة جداً. طلبت منها واحدة لأضعها على الرف فوق المدفأة».

فقالت غرايس: «إنها امرأة موهوبة، وماذا يوجد أيضاً؟»

«بقي شيئان فقط. لا نزال ننتظر تأكيد إرسال سيارة إسعاف من المقاطعة. يجب أن تكون هناك سيارة إسعاف للطوارئ».

«يمكن عمل ذلك بالهاتف».

نظرت سارة إلى القائمة، وأضافت، «والأمن. يجب أن يكلّم أحدهم بليك ويعطيه مخطط المهرجان ويعرف مكان خيمة المراقبة».

توقّفت غرايس وقالت: «هذه مهمتك أنت يا سارة».

«لا. سأتصل بالمقاطعة ليرسلوا سيارة إسعاف وكلّمي أنتِ بليك.»

«لا.

«غرايس...» قالت سارة عابسة، «هيا... أنا وبليك... إنه أمر محرج».

«سيظل الأمر محرجاً حتى تكلّمينه»، قالت غرايس وأمالت رأسها، ثم سألتها، «ما الذي جرى بينكما؟»

«الأمر معقّد. يوجد بيننا هذا النوع من العلاقة الغريبة أنا أحبك أما أنت فلا تحبني. في البداية أحبّني لكنّي لم أحبّه، ثم أحبّبته لكنّه لم يحبّني، ثم... لا تعرفين كيف تسير الأمور».

«إذا لم يحبّ أحدكما الآخر في نفس الوقت، لماذا يصبح الأمر محرجاً الآن؟»

«أحببنا بعضنا مرة واحدة فقط، واستمرت أسبوعاً قصيراً، عندما»، ثم صمتت سارة وأضافت، «أو هكذا خيّل إليّ».

أجفلت غرايس.

«نعم، كنت مخطئة، ولم أدرك ذلك إلّا بعد أن جعلت من نفسي فتاة حمقاء»، تجهّم وجهها، وأضافت، «ولم يجعل بليك الأمر أفضل أيضاً». إنها تكره أن تتذكّر ذلك اليوم، تكرهه جداً، «لهذا السبب يجب أن تكلّميه أنت».

هزّت غرايس رأسها، وقالت: «يجب أن تكلّميه أنت».

«لكنني أخبرتك ما حدث...»

«سارة، ألسنا صديقتين؟»

فقالت سارة بحذر، «أظن ذلك».

نظرت غرايس إليها وقالت: «طبعاً نحن صديقتان. إذا أردت أن أفعل شيئاً من أجلك، ألن تطلبي مني ذلك؟ ستكونين صادقة معي حتى لو لم أكن أريد أن أسمع ذلك».

«أظن أنّني قد أفعله».

غصّت غرايس، وقالت: «تعرفين أنك ستفعلينه، فقد فعلت ذلك من قبل».

«صحيح».

«لذلك سأقول لك هذا. سارة دوف، يجب أن تكلّمي بليك».

ذات يوم، ستكلّم سارة بليك. ستقول له شيئاً، وسيقول لها شيئاً، وسيكون ذلك بعيداً جداً عن اليوم الذي جرح فيه أحدهما مشاعر الآخر وسيكون ذلك سهلاً وغير مؤلم.

لكن ليس الآن الوقت المناسب. «سأفعل ذلك، لكن ليس الآن، وإذا كنا نتحدّث عن الحاجة إلى التحدّث مع الآخرين، فماذا عنك أنتِ وتراف؟ فلم أرك تكلّمينه منذ اليوم الذي طهت فيه ماما جي السباغيتي في منتصف الليل في مطبخ بيته. ظننت أنكما ستقفزان فوق ذلك السياج وتذهبان إلى وسط الباحة و...»

«لا تغيّري الموضوع! نقرت غرايس على دفتر الملاحظات الذي كانت سارة تمسك به الآن أمامها كأنه درع، «لقد آن الأوان لوضع حدّ لجنون بليك ماك إينتير».

«سأفعل ذلك ذات يوم».

«اليوم».

«لماذا اليوم؟ لم أرك تقفزين فوق السياج لتقولي لتراف إنك تظنين أنه...»

«هذا غير ذاك، فأنا لا أفكّر بتراف».

قطبّت سارة حاجبيها وقالت: «حقاً؟»

احمرّ وجه غرايس، وقالت: «حسناً. أفكّر به قليلاً. هناك تلك الشرارة الغريبة، وأنا... اللعنة، لقد غيّرت الموضوع مرة أخرى. إننا نتحدّث الآن عن بليك. فقد مضى على ما جرى بينكما زمناً طويلاً. وقت طويل جداً».

«لست مستعدّة».

ابتسمت غرايس، وقالت: «يجب أن تكوني».

«لماذا؟ ماذا...»

أمسكت غرايس سارة من مرفقها وأدارتها.

كان بليك واقفاً هناك تماماً. وبكلمة «هناك تماماً» كانت تقصد أنها إذا ثنت ذراعها من مرفقها ورفعت يدها، فإنها ستلمسه.

كان بليك في بدلته الرسمية، تجثم على رأسه نظاراته الشمسية. كانت عيناه الخضراوان تنظران بحذر لكنهما كانتا ودّيتين. ثم قال لسارة، «قالت غرايس إنكم تريدون التحدّث عن المهرجان، إلى ماذا تحتاجين؟»

لم يكن على سارة أن تلتفت لتعرف أن غرايس قد ذهبت. يا لها من صديقة. فتحت سارة فمها، لكن الكلمات لم تخرج منه، ولا كلمة واحدة، ولا حتى حرف واحد، تنهيدة، ولا حتى أي صوت. لا شيء.

ضمت دفتر الملاحظات إلى صدرها، أغلقت فمها، واستدارت على عقبيها، مستعدة لتذهب.

«توقفي»، قال بليك مستخدماً صوته كشرطي فتسمّرت في مكانها بشكل غريزي، «دعيني أرى هذا الدفتر».

استدارت ببطء.

مدّ يده إلى دفتر الملاحظات، لكن بدا أنها لم ترخِ قبضتها.

سحبه وتمتم، «سارة». كان صوته دافئاً ممزوجاً بسخط ومرح معاً، «اتركيه».

كانت قد نسيت كيف تتجعّد عيناه عندما يبتسم، وعندما فعل ذلك، ذابت، وأرخت ذراعيها، فسقط الدفتر على الأرض.

نظر إليها بسخط وانحنى والتقط الدفتر، وقال: «تقول غرايس إنكم ستقيمون مهرجاناً كبيراً».

صحيح. كان يجب أن تحدّثه عن موضوع الأمن في المهرجان. سأقتل غرايس لأنها فعلت ذلك. تنحنحت سارة، وقالت: «نحن، آه... كنا نريد أن تقوم بـ...، آه...» حماها الله من رجل له عينان خضراوان. كانت كما لو أنها تحاول أن تحلّ مسألة رياضيات معقّدة وأغنيتك المفضّلة تصدح في الخلفية. «خطة الأمن. أريدك أن... أقصد نريد أن توقّع عليها وتعلمنا إن كنت تريد أن تدخل عليها أي تعديل وإن كنا بحاجة إلى مزيد من الأمن أم أنها جيدة كما هي الآن». قالت هذه الكلمات بسرعة حتى بدا أنها كلمة واحدة طويلة.

«هل توجد خريطة المهرجان معك؟ أريد أن أعرف أين سأضع رجالي»

أخذت الدفتر وراحت تقلّب صفحاته حتى وجدت الصفحة المطلوبة.

نظر إليها. «هل ستكون هناك تغييرات عليها؟»

هزّت رأسها.

بدأ يدرسها، يتتبّع الصفحة بإصبعه.

أخذت تراقبه، متسمّرة في مكانها. كان يقف قريباً جداً منها. قريباً جداً جداً. هل كانت رموشه طويلة جداً دائماً؟ من أين جاءت هذه الندبة الصغيرة على ذقنه؟ إنها جديدة. منذ سنوات طويلة لم تقف بالقرب منه هكذا. انتقلت نظرتها إلى صدره، ورأت حدود سترته المقاومة للرصاص تحت قميصه. إنه في مأمن. هذا جيد. تساءلت إن كان لا يزال يستخدم نفس نوع الكولونيا. كم كانت تحلم بتلك الرائحة. الآن، ابتعد عنها كثيراً ليخبرها. لعلها إذا اقتربت أكثر قليلاً...

قلب الصفحة وأخرج قلمه، وقال: «سأضع إشارة على بعض الأشياء، لكن بصورة عامة، تبدو جيّدة».

انحنت سارة أكثر وأخذت نفساً عميقاً. يا إلهي، إنه يضع نفس الكولونيا. أغمضت عينيها وهي تتنشقها.

إنها رائعة.

سماوية.

مثالية.

انحنت أكثر قليلاً، وكاد أن يختّل توازنها بسبب شعورها بالتوتر، وكادت أن تقع.

فتحت عينيها ورفعت يدها.

فجأة، ظهرت غرايس التي وضعت ذراعها حول خصر سارة وشدّتها إلى الأعلى، ثم قالت: «مرحباً، بليك! هل لديك أسئلة؟»

راح بليك الذي كان يركّز على المخطط، ينظر بارتياب من غرايس إلى سارة، وبالعكس. ثم سألها عن مكان وقوف السيارات، وأخذ يتحدّث مع غرايس بينما كانت سارة تحدّق بهما. يجب أن أقبّله، قالت لنفسها. الجانب الطيب فيها قال لها لا. وماذا إذا لم يبادلني القبلة؟ فإني سأبدو حمقاء. أما جانبها السيء فضحك وقال لها: لن تكوني أكثر حمقاً مما أنتِ الآن. هيا افعلي ذلك.

لدى جانبها السيء وجهة نظر. قبلة واحدة فقط و...

«ألا ترين ذلك يا سارة؟» سألتها غرايس التي كانت تنظر إليها هي وبليك الآن.

هزّت رأسها.

«جيد». أعاد بليك الدفتر إلى غرايس، وقال: «أظن أننا غطّينا كلّ شيء. أستطيع الآن أن أتصل بعدد من رجال الشرطة الاحتياطيين إذا احتجنا إليهم. سأحرص على أن يكون هناك شرطيان في جميع الأوقات، وسأبقي شرطياً للاحتياط أيضاً في حال زاد عدد الناس عما هو متوقّع».

«شرطة احتياطيون؟» سألته غرايس.

ابتسم بليك وقال بجفاف: «إنهم رجال شرطة متقاعدون يتطوعون للخدمة. لن تكون هناك تكاليف إضافية على البلدة.»

«آسفة. لدينا ميزانية محدودة، وقد وعدت رئيس البلدية مور بأن تظل هكذا».

«أفهم ذلك»، ونظر إلى الحديقة، «سمعت أنه سيكون مهرجاناً عظيماً».

«سارة تقول هذا أيضاً، أليس كذلك يا سارة؟» قالت غرايس وقرصت سارة من ذراعها.

«آخ. أقصد نعم. أنت عظيم. أنت وجميع الشرطة، أقصد. كلّكم...» هزّت رأسها، «شكراً، إنك رائع».

«يجب أن نذهب»، خطت غرايس خطوة إلى الوراء وشدّت سارة معها.

«شكراً يا بليك، لدينا اجتماع بعد قليل، وإلّا كنا سنبقى ونتحدّث. سأخبرك إذا طرأ أي تغيير على الخطة».

وغادرتا، أو بالأحرى غادرت غرايس وراحت تسحب معها سارة بدون مقاومة.

عندما ابتعدتا، همست غرايس، «بحق السماء ماذا فعلتِ؟»

«قلت لك إنني لست مستعدّة بعد».

«كنت مشلولة تماماً».

«تكلمتُ، قليلاً».

نظرت إليها غرايس بإحباط، «هل كان لكلامك أي معنى؟»

«بدأتِ تدققين أكثر الآن. أنا لم...»

عندما مرّت سيارة بليك من جانبهما، توقّفت سارة ونظرت إليها حتى اختفت في آخر الشارع.

وقفت غرايس معها، ثم قالت: «رأيتك تميلين نحوه، تتأرجحين مثل برج جينيا. خفت ألّا أصل إليك قبل أن تسقطي فوقه».

احمرّ وجه سارة. «لا لم أكن سأسقط».

رفعت غرايس حاجبيها.

«حسناً» دمدمت سارة، «اختلّ توازني قليلاً. هل تظنين أنه لاحظ ذلك؟» ثم رفعت يدها، وقالت: «لا، لا تقولي لي. لا أريد أن أعرف».

نظرت غرايس برثاء وسألتها، «لماذا لا تساعدك كتبك في هذا الأمر؟ أليست هذه مهمتها أيضاً».

عدّلت كتفيها وقالت: «لا تستطيعين أن تطلبي من الكتب ما يجب أن تفعله. هي التي تطلب منك».

«يبدو أنها تحب أن تصدر الأوامر».

فركت سارة أنفها، وقالت: «قد أجد يوماً كتاباً يساعدني، مع أنني بحثت إلا أنني لم أجد هذا الكتاب بعد».

«عندما تجدينه، أخبريني»، هزّت غرايس رأسها. «لم تسر الأمور كما كنت أتمنى. لم يكن عليّ أن أضغط عليك لتكلمينه».

«قلت لك ذلك».

«أعرف، أعرف. كنت أظن أنك إذا كلّمته مرة واحدة فقط، فإن الجليد بينكما سينكسر ولن تضطري إلى تجنّبه دائماً. لم أدرك أنك عندما ترينه، ستكونين على وشك أن تضاجعيه أيضاً».

«وفي وضح النهار أيضاً»، قالت سارة بحزن.

«وفي الشارع الرئيسي».

ضغطت سارة صدغيها بيديها وتنهدت، «أنا فظيعة. عندما أراه، أفقد أعصابي».

تنهّدت غرايس وقالت: «الحقّ عليّ هذه المرة. ماذا يمكنني أن أفعل لأكفّر عن ذلك؟ ما رأيك بفطيرة من ضوء القمر؟»

«نعم الفطيرة تساعدني دائماً»، قالت سارة وفركت وجهها، «إنها نقطة ضعفي. حسناً، بالإضافة إلى شعوري بالقلق عمّا إذا كانت بلدتنا ستحقق نجاحاً أم لا».

لانت قسمات غرايس، وقالت: «لم أر قط شخصاً يهتمّ بمكان كما تهتمّين بدوف بوند».

فقالت لها سارة، «لقد بدأت تحبّين هذا المكان، أليس كذلك؟»

نظرت غرايس إلى الشارع، إلى الأرصفة التي تغمرها أشعة الشمس والمظلات التي حال لونها، وقالت: «نعم». بدا من صوتها أنها متفاجئة.

«إنها تتغلغل فيك شيئاً فشيئاً. آمل أن تساعدنا خططك. لا، انتظري. أنا لا آمل، وإنما متأكدة بأنها ستساعدنا».

«إنها ليست خططي فقط. فقد شارك فيها جميع أعضاء اللجنة وهم يقومون بعمل عظيم. كلّكم».

«نعم، لكنك قائدة عظيمة».

ابتسمت غرايس، وقالت: «سأفضي إليك بسرّ. لم أتسلم موقع مسؤولية من قبل».

«ماذا؟»

«عندما كنت أعمل في شارلوت، كنت عضواً في فريق كبير».

«نعم، لكن لا بد أنك كنت مسؤولة عن شيء، لا بد أنك كنت ترأسين مشروعاً ما».

«لا. كان عملي يتركّز في تحليل الأرقام. كنت أفعل ذلك كثيراً».

«لا بد أنه عمل مملّ».

«نعم، لكن الغريب في الأمر أنني لم أكن أدرك ذلك. أما الآن...» أمالت غرايس رأسها، «فإني أتساءل كيف يمكنني أن أعود إلى ذلك العمل».

«لذلك يجب أن تبقي هنا»، قالت سارة، «إن دوف بوند بحاجة إليك. نحن بحاجة إليك».

«سأبقى إذا استطعت، لكن الراتب الذي أتقاضاه لا يكاد يكفي لتسديد فواتيري. عندما تنتهي السنة، سأعود إلى شارلوت لأكسب راتباً جيداً». عندما لاحظت غرايس تعابير الإحباط على وجه سارة، أضافت، «انظري، يجب أن أعتني بمستقبل ديزي».

«أعرف. كيف حالها الآن؟»

ابتسمت غرايس وقالت: «جيدة جداً. بدأت تحبّ ما تفعله، وأنا متأكّدة أنك تعرفين ذلك».

«إنها تقدم مساعدة كبيرة في المكتبة. لا أعرف كيف كنت أعمل من دونها»، ابتسمت سارة، «وتعرفين أنه مُرحب بها دائماً».

بادلتها غرايس الابتسامة، وقالت: «أعرف. لا أعرف كيف أشكرك على ما فعلته لها».

«ستفعلين نفس الشيء لأيّ واحد منّا. لكن هذا يكفي. هل قلتِ شيئاً عن فطيرة؟»

«نعم وعلى حسابي أيضاً».

فقالت سارة، «هذا جيد، لأنني تركت محفظتي في سيارتك هذا الصباح»، وسارتا باتجاه المقهى. كانت الشمس دافئة، وكانت الأزهار تومئ لهما. ثم قالت لها سارة، لن أتخلّى عنك يا غرايس ويلر. إن ما تريده دوف بوند ستحصل عليه».

الفصل (١٧)

تراف

كان المطر ينهمر بغزارة، ويشكّل جداول تسيل من فوق السطح ويهزّ الأشجار بقوة كأنه يحاول أن يُسقط حبات التفاح منها. كان تراف يرتدي قميصاً قطنياً، وشورتاً، وحذاء رياضة، يحدّق في الأوزان أمامه يحاول أن يجد الطاقة المناسبة ليحملها لكنه لم يجدها. فلم ينم أكثر من ساعتين هذه الليلة. ساعتان كريهتان غير مريحتين. كان مرهقاً إلى درجة أن سماع أنفاسه كان يثير حنقه.

عليه أن يتدرب قليلاً. لكن ماذا يمكن أن يفعل غير ذلك؟ ما إن اقترب من مقعد الرياضة حتى أضاء نور الشرفة في البيت المجاور.

متفاجئاً، نظر إلى الساعة المركونة على الرفّ فوق الطاولة التي كان أبوه يعمل عليها. الساعة الواحدة وخمس وثلاثون دقيقة. من الغريب أن يرى الضوء في هذا الوقت من الليل. ذهب ليراقب من فتحة باب الكراج.

كانت السّيدة جيانو تقف على الشرفة، وقد ضاع جسدها الصغير في معطفها المنزلي الكبير الموشّى بالأزهار. صعدت إلى أعلى درجة وهي تترنح، تستند بيد إلى درابزين الشرفة، وباليد الأخرى تمسك عقدة ثوبها، تنظر إلى الفناء في هذه الليلة الماطرة كأنها تبحث عن شيء.

«لا»، تتمتم تراف، «عودي إلى البيت». عندما تقدّم مرض أبيه، بدأ يصبح مشوَّشا حول الليل والنهار، يستيقظ في ساعات غريبة ويظن أنه حان وقت الاستيقاظ. في البداية، كان تراف يحاول أن يعيده إلى سريره، لكن عندما وجد أن ذلك يزعج الرجل العجوز كثيراً، لم يعد تراف يفعل ذلك. في نهاية الأمر، أصبح تراف يتقبّل الأمر كلما نهض أبوه عندما يظنّ أن الصباح قد طلع، وكان يأخذه إلى المطبخ ليعدّ فطوراً لكليهما.

يا إلهي، كم اشتاق تراف لطعام الفطور في منتصف الليل. حتّى الآن، كان يبدو أكثر الأوقات هدوءاً في حياته، حتى قبل أن يذهب إلى الحرب.

تمايلت السّيدة جيانو فوق الدرجة بشكل غير مريح، وصاحت، «هنا، ثيو».

إنها تبحث عن كيلر. لم يعد القطّ إلى البيت هذا المساء، وهو أمر غير معتاد، ربما بسبب المطر. لعل أراد أن يذهب وينام في مكان جاف وآمن.

«ثيو». كان صوتها رقيقاً وضعيفاً، يكاد يكون مسموعاً مع صوت سقوط المطر.

نظر تراف إلى النافذة حيث غرفة نوم غرايس. اعتراه شعور بالانزعاج لأنّه أصبح يعرف أين توجد غرفتها. فقد رآها بمحض الصدفة ذات ليلة وهي تغلق ستارة نافذتها. كانت ترتدي ثوب نوم

وردي اللون، وكان من الواضح أنها ستأوي إلى الفراش. لكن غرفتها كانت غارقة في الظلام الآن.

هبطت السّيدة جيانو الدرج وهي تترنح، تمسك بالدرابزين كأنها تحاول أن تحافظ على توازنها على ظهر سفينة تتأرجح يمنة ويساراً. لم يوقفها المطر الذي يهطل بغزارة.

«ثيو»، نادت وهي تشدّ ثوبها.

لا بد أن تراف أصدر صوتاً، فالتفتت نحوه، وبعد دقيقة من التردد، بدأت تسير مترنحة نحوه.

ازداد المطر، وتحوّل صوت ضربات المطر الخفيفة إلى هدير خفيف. رأى ثوب نومها قد أصبح داكن اللون يتبلل في كل ثانية، وأصبح شعرها الأبيض المجعّد مسطحاً فوق رأسها.

اللعنة. التقط قطعة قماش زرقاء صغيرة غطّى بها رأسه وأسرع نحوها.

عندما وصل إليها كانت قد اجتازت البوابة ودخلت إلى حديقة بيته. وضع قطعة القماش فوق رأسها وقال: «ماما جي، لا يزال الوقت متأخراً للخروج بنزهة».

«متأخراً؟» تحركت من تحت قطعة القماش ونظرت إلى السماء، تحدّق في المطر، ترمش بعينيها بينما كانت قطرات المطر الصغيرة تضرب وجهها.

أعاد قطعة القماش فوق رأسها، وقال: «هيا ندخل إلى البيت. غرايس ستعرف أين ثيو».

من صوت قطرات المطر القوية أدرك أن المطر بدأ يهطل بغزارة أكثر. ثم لاحظ أن الخفّ الذي تنتعله قد امتلأ بالماء. أجفل عندما خطر له أن الماء بارد عليها.

«لا أستطيع أن أسأل غرايس»، قالت ماما جي التي بدا أنها مندهشة من هذا الاقتراح، «إنها تأخذ قيلولة الآن».

«أظن أن ثيو في بيتك، يختبئ في مكان ما. لقد رأيته يذهب إلى هناك».

«هل رأيته؟ ربما لم أره. سنبحث مرة أخرى». ربتت على ذراعه، وابتسمت بسعادة كما لو أنها لم تكن تقف تحت قطعة قماش صغيرة تحت المطر في منتصف الليل، وأضافت، «نستطيع أن نشرب قليلاً من الشاي عندما نجده».

«طبعاً». رافقها إلى بيتها. عندما وصلا، ألقى قطعة القماش المبللة من فوق درابزين الشرفة وتبعها عبر الباب المفتوح لأنه لم يجرؤ على أن يتركها وحدها، خشية أن تعود وتخرج.

«ثيو؟»نادت، وراحت تبحث في كلّ مكان، تنظر تحت الوسادات وفي جميع الأماكن غير المحتملة.

مسح تراف قدميه فوق الحصيرة ثم دخل، ووقف يسدّ الباب، لا يعرف ما الذي يجب أن يفعله بعد ذلك. فإذا نادى غرايس، فإنه سيزعج ماما جي ويوقظ ديزي. ربما من الأفضل أن يكتب لها رسالة على الهاتف؟ يا لها من فكرة. ما إن أخرج هاتفه من جيبه حتى ظهرت غرايس على الدرج.

كانت ترتدي قميص نوم حريري أخضر طويلاً، شعرها منفوش من النوم وهالات باهتة تحت عينيها.

لم ير في حياته امرأة بهذا القدر من الجمال.

رأته غرايس، اتسعت عيناها. «ماذا...»

أومأ باتجاه ماما جي التي خرجت للتو من غرفة الجلوس.

«ماما جي؟ كيف تبللتِ هكذا؟» وهرعت غرايس تهبط الدرجات الأخيرة.

«كنتُ أبحث عن ثيو. يجب ألا يخرج في مثل هذا الطقس».

«سنجده. اخلعي ثوبك المبلّل»، وساعدتها غرايس على خلعه، «إنك ترتجفين. دعيني أجلب لك ثوب نوم جاف وعودي إلى السرير».

«لا أستطيع أن أعود إلى السرير وثيو في الخارج تحت المطر. ظننت أنه هنا، لكنني لم أجده». تجعّد وجه ماما جي من شدة القلق، «لا يمكنني أن أتركه تحت المطر. سأذهب وأبحث عنه...» وعادت باتجاه الباب.

لم يتزحزح تراف من مكانه يسدّ الباب.

أمسكت غرايس بذراع ماما جي، وقالت لها: «انتظري الجو بارد ورطب جداً في الخارج».

أفلتت ماما جي يدها، وقالت وقد تجهم وجهها غضباً: «يجب أن أجد ثيو وأحضره إلى البيت».

«إنه في بيتي»، قال تراف كاذباً.

نظرت إليه المرأتان.

رمقته ماما جي بنظرة مليئة بالارتياب، وسألته، «ماذا يفعل في بيتك؟»

«يحبّ أن ينام أحياناً على البطانية في زاوية الكراج. عندما كنت أتدرب جاء وجلس هناك»، ثم أضاف، «تعرفين كيف تتصرّف القطط عندما يسقط المطر. إنها تبحث عن زاوية مريحة وتتكور على نفسها وتقعي».

هزّت غرايس رأسها وقالت: «إذا كان نائماً، فيجب أن نتركه بدون إزعاج».

«وهو لا يحب أن يخرج عندما يهطل أيضاً». أغلق تراف الباب وتوجّه إلى إحدى نوافذ الشرفة وفتحها قليلاً. «هناك. عندما يتوقّف المطر، سيعود ثيو إلى البيت. إذا تركتِ باب غرفة نومك مفتوحاً، فإنه سيأتي إليك».

«أتظن أنه سيأتي؟» بدا أن ماما جي لم تكن مقتنعة.

«أنا متأكد من ذلك. إنه قطّ جيد».

«قطّ جيد»، استرخى حاجبا ماما جي وقالت لغرايس، «يحبّ ثيو أن ينام في سريري، إنه يدفئ قدميَّ».

كان يفعل ذلك لأبي. «القطط تجيد ذلك»، قال تراف.

«أنا... يا إلهي». ارتجفت ماما جي وشبكت ذراعيها، «كيف تبلل هذان النعلان بهذا الشكل؟»

«يجب أن تخليعهما. دعيني أذهب وأحضر لك نعلاً آخر»، قالت غرايس وأمسكت بذراع ماما جي وسارت بها نحو الدرج.

عندما بدأتا تصعدان الدرج، ألقت غرايس ابتسامة سريعة إلى تراف وقالت: «أرجو أن تنتظرني لحظة؟ سأعود في الحال».

إنه مستعد لينتظر أطول من لحظة. لو سألته فإنه سينتظر طوال العمر. لقد صدمته الفكرة.

فهو لا يعرف هذه المرأة.

وعلى الرغم من ذلك، في هذه اللحظة بالذات، وبنظرة واحدة، عرف كلّ ما تشعر به. كانت قلقة وحزينة ومرتاحة في آن معاً. كانت قدماها باردتين، لكنّها لم تبال بذلك، وشعرت بالحرج لأنه رآها هكذا.

لا يعرف كيف عرف كلّ ذلك، أو لماذا كان يشعر بأنه على يقين من ذلك. عرف فقط.

اختفيتا في أعلى الدرج، ثم سمع ماما جي تقول، «يجب أن أضع وسادة على السرير من أجل ثيو».

«طبعاً. إنه يحبّ ذلك».

بعد قليل عادت غرايس، هذه المرة متدثّرة بثوب، شعرها ممشّط ومرفوع إلى الأعلى. كان كلّ جزء فيها يبدو مثيراً، وأدرك أن ما ترتديه الآن لم يكن ما كانت ترتديه من قبل. لكنها هي.

وقفت أمامه، ثم قالت: «أريد أن أشكرك. فلو ضاعت في هذا الطقس...» وهزّت رأسها.

«أعرف. كان أبي يفعل ذلك أيضاً».

«كيف كنت تبقيه داخل البيت؟» ألقت نظرة قلقة نحو الباب، «لا أعرف كيف تخرج».

ذهب ليفحص القفل. ثم قال: «يجب أن تستخدم كرسياً لتصل إليه». نظر حوله، «يبدو أنه لم يُحرك أي شيء من مكانه».

«لا أظن أنها تستطيع أن تحرّك كرسياً، فقد ازدادت ضعفاً في الشهور القليلة الماضية». قالت غرايس ودسّت خصلة فالتة من شعرها وراء أذنها، «إنه شيء محبط».

«نعم. سأقفل الباب الآن. وإذا حاولت أن تخرج فإننا سنسمعها».

نظرت إليه غرايس نظرة تشي بالامتنان، «الأمور تزداد صعوبة».

ابتسم وقال: «إن ذلك أشبه بالاعتناء بأكثر طفل مشاغب في العالم وأكثرهم ذكاء، أليس كذلك؟» أقفل الباب بالرتاج والتفت ليجدها تنظر إليه.

«أعرف أن الوقت متأخر الآن، لكني سأعدّ كأس شاي لماما جي ولي. هل تريد كأساً من الشاي أيضاً؟»

إنه لا يشرب الشاي. لم يشربه في حياته، لكنه قال: «نعم» وتبعها إلى المطبخ.

استند إلى الكاونتر. أخرجت علبتين من الخزانة ووضعتهما على الطاولة، ثمّ ملأت ثلاثة أكواب بالماء، ووضعتها في المايكروويف، وشغلّته.

«يجب أن يكون فعالاً». وقفت بجانب الكاونتر بانتظار أن يسخن الماء، وقالت له: «تفضل اجلس».

جلس على كرسي إزاء الطاولة.

عندما أطلق المايكروويف رنيناً أخرجت غرايس الأكواب منه ووضعتها في صينية صغيرة وحملتها إلى الطاولة. ثمّ فتحت علبة ووضعت أكياس شاي في كوبين.

ذكّرته رائحة الشاي بأمّه. «شاي إيرل غراي».

ابتسمت، عيناها البنيتان تلمعان. «رائع. لكنّه شاي ليدي غراي. إنه ليس قوياً جداً»، ثم فتحت درجاً بجانب المغسلة وأحضرت ملعقة وكرة معدنية صغيرة يتدلّى منها سلسال. ملأت الملعقة بالشاي الأسود من العلبة الأخرى ووضعته داخل الكرة، ثم أغلقتها، ووضعته في الكوب الأخير، وظلت السلسلة تتدلّى من طرف الكوب، ثم قالت: «هذا لماما جي. إنه سيهدّئ أعصابها وتنام».

رفع العلبة. «إنه أحد أصناف الشاي الذي تعدّه أفا. سمعت أنّها تكسب جيداً منه».

« كانت هذه هدية من أفا، لذلك لا أعرف ثمنها. ذكرت لي مكوناته وقال الدكتور بولتون إنه لا يظن أنه يضرّ بصحة ماما جي أو يتداخل مع أدويتها، لذلك فإني أعطيه لها. يجب أن أقول إنه يفيدها»، ثم أضافت، «ذات يوم يجب أن أحارب الرغبة في أن أقدّمه لها كلّ عشر دقائق».

أعاد العلبة إلى الطاولة، «الشعور بالحيرة قد ينهك أعصابك».

«تماماً». رفعت كوب شاي ماما جي، وقالت، «سآخذه لها في غرفتها. سأعود في الحال».

أخذ يراقبها وهي تبتعد وتمنّى أن يستطيع أن يقول لها إن كلّ شيء سيكون على ما يرام، وأنها إذا احتاجت إلى أي مساعدة فإنه يستطيع أن يأتي و... ماذا يفعل؟ تحوم حول بيتك مثل أحمق؟ أن تبقى مستيقظاً طوال الليل وتتساءل ما هي المشكلة؟ إنك لست بحاجة إلى كلّ هذا في حياتك.

لا، إنها بحاجة إلى شخص يمكنه أن يقدّم لها دعماً حقيقياً. شخص أقوى وأقل قلقاً. أحد غيري.

اعترته رغبة قوية في أن يغادر. نهض واقفاً، لكنه تردّد. لن يكون من اللائق أن يختفي بهذه الطريقة. يجب أن يكتب ملاحظة. شيء قصير لكنه لطيف، يقول إنه أحسّ بالتعب فجأة. إنه متعب

حقاً لكنه كان يعرف أن عودته إلى البيت لن تساعده في شيء.

«هل ستغادر؟» كانت غرايس تقف عند مدخل باب المطبخ. لا بد أنها فوجئت عندما رأته واقفاً، «لم نشرب الشاي بعد».

«صحيح، الشاي»، عاد وجلس، «كيف هي ماما جي الآن».

دخلت غرايس وقالت: «تناولت رشفتين من الشاي وغطّت في النوم».

«هذا شيء يدعو للارتياح».

«أرجو أن تظلّ هكذا». رفعت غرايس أكياس الشاي ثمّ دفعت نحوه علبة السكّر والملعقة.

جلست وتناولت كوبها، أسندته على خدّها وأغمضت عينيها. «هذا مريح جداً».

وضع ملعقة سكّر في كوبه وحرّكه، محاولاً أن يبعد عينيه عنها، لكنّه لم يستطع. رشف الشاي. لم يكن سيئاً أبداً، لكنه أضاف ملعقة سكّر أخرى، وقال: «يجب أن تركبّي كاميرا على الباب الأمامي حتى تعرفي كيف تخرج».

«أخشى مما يمكن أن أكتشفه. إن ماما جي تؤمن بالأشباح»، قالت غرايس وضحكت ضحكة صغيرة، «وقد بدأت أومن بها أنا أيضاً».

عندما سمعت صوت صرير في الطابق العلوي التفتت نحو الباب. تجمّدت تعابير وجهها عندما سمعت الصوت.

ثم نهضت واقفة، وقالت: «آسفة. أظل أفكّر بأنّها يمكن أن تخرج. هل لديك مانع إذا انتقلنا إلى غرفة الجلوس حتى أستطيع أن أرى الباب الأمامي من هناك»

«بالتأكيد». حمل كوبه وتبعها.

أزاحت الغطاء المتدلّي من وراء الأريكة وجلست، وأجفلت عندما داس فوق لوح خشبي يصدر صريراً. «آسف. هناك بعض الأشياء في هذا البيت يجب إصلاحها وهذه واحدة منها».

نظر من جانب الأريكة إلى كرسي قريب. من الأفضل أن يجلس على الكرسي، لكنّه لم يستطع مقاومة أن يجلس قريباً منها. جلس على الأريكة، وأزاح بقدمه سلة حياكة ماما جي، ليتيح لغرايس مكاناً أوسع. «ما هو الشيء الآخر الذي يحتاج إلى تصليح؟»

«دعيني أرى. لوح الأرضية هذا، والدربزين على درج الشرفة مخلخل، ويجب استبدال بعض البلاطات عند السياج، والماء يتسرّب من المغسلة في الطابق العلوي». زمّت شفتيها. ثم أضاف، «أظن أن هذا كلّ شيء، لكن ربما نجد أشياء أخرى».

«لا يبدو الأمر سيئاً جداً. سآتي بعد ظهر أحد الأيام وأصلحها».

لوّحت بيدها، وقالت: «لا. لا يمكنني أن أطلب منك أن تفعل كلّ هذه الأشياء».

فقال: «سيتيح لي ذلك فرصة أن أمضي وقتاً أطول مع ديزي وماما جي». ضحك من نظرة غرايس المندهشة وقال: «أعرف. لا يمكنني أن أصدّق أنّني قلت ذلك أيضاً. لقد بدأت أتعوّد عليهما. من الممكن أن تصبح ديزي ميكانيكية جيدة. إنها تتعلّم بسرعة».

«إنها فتاة ذكية». أخذت غرايس رشفة من كوبها ولمعت عيناها وهي تنظر إليه.

«ماذا في الأمر؟»

«إنك... إنك شاب جلف وعنيد، وعلى الرغم من ذلك فإنك تجلس هنا تحتسي الشاي معي».

«الأجلاف يحبّون الشاي أيضاً. اسألي أفا».

ابتسمت غرايس وقالت: «أفا فتاة مرحة جداً، لكنّك أقرب إلى سارة».

«إنها أعزّ صديقة لي منذ أن كنّا في المدرسة الابتدائية».

«إنها تؤمن بالأشباح».

«سارة تؤمن بالجنّيات والعفاريت والعمالقة أيضاً. لقد قرأت كتباً كثيرة».

ضحكت غرايس، «أتظن ذلك؟ أظن أنها قرأت ما يكفي ما عدا موضوعاً واحداً».

«ما هو؟»

هزّت رأسها وقالت: «لا شيء».

«دعيني أحزر. بليك».

حكّت غرايس أنفها، وسألته، «هل يعرف ذلك الجميع؟»

«تقريباً. يتكلّم سكان البلدة، وهما صديقان لي».

«لا بد أن هذا محرجاً بالنسبة لك».

«قليلًا. لا أفهم حقاً ما الذي يجري بينهما، لكنّهما سيحلّان الأمر».

«أرجو ذلك». نظرت إليه غرايس من فوق كوبها، وأضافت، «بما أن الناس هنا يثرثرون، فأنا أجرؤ على القول إنك تعرف كلّ ما يجب أن تعرفه عنيّ».

لا بد أنه يعرف بعض الأشياء. فالناس هنا يتكلّمون، وبما أنها جديدة في هذه البلدة وتحدث تغييرات عديدة، فلا بد أنها أحد مواضيعهم المفضّلة.

لكنّه لم يكن يعرف الأشياء الهامة عنها، مثل ما هو لونها المفضّل، ولماذا تفرق شعرها كما تفعل عادة، أو هل تعرف أنها تبدو رائعة في هذا الثوب الفضفاض، بقدميها الحافيتين اللتين تضعهما على السجادة في غرفة الجلوس.

عندما رفع كوبه ليأخذ رشفة منه، التقت عيناه بعينيها. تجمّد الزمن. شرارة اشتعلت بينهما، شيء حار وبدائي جداً لا يمكن احتواؤه أو وصفه. أحسّ به، وأحسّ أنّها أيضاً تشعر بها.

«تراف؟»

«نعم؟» يا إلهي، إنها تمتلك أشهى شفتين رآهما في حياته. كيف لم يلاحظ ذلك من قبل؟

تضرَّج وجهها. «لا شيء». نظرت إليه من فوق حافة كوبها، «حدّثني عن نفسك».

«لا توجد أشياء كثيرة يمكنني أن أقولها عن نفسي. معظمها مملّ بالنسبة لك».

ابتسمت، وقالت «جربّني».

وهكذا فعل. حكى لها عن والده، وعن صداقته مع سارة، وعن السبب الذي يجعله يحبّ دراجته النارية والكراج. راح يتكلّم، وراحت تنصت له وتضحك، وبين الحين والآخر، كانت تسأله سؤالاً يجعله يتساءل لماذا لم يسأله أحد هذا السؤال قبل الآن. وبينما كان يتكلّم، بدا أن الحرارة المرّة بدأت تتلاشى، تساعده على ذلك خفّة ضحكتها وجمال نظرتها.

بعد مضي نصف ساعة أدرك أنّه كان يحكي كثيراً. عندما توقّف عن الكلام كان كوباهما قد فرغا. وعندما أدرك كم مرّ من الوقت شعر بحرارة شديدة في وجهه. «لقد تكلّمت كثيراً. حدّثيني عنك». استدار أكثر قليلاً نحوها عندما قال ذلك، فارتطمت قدمه بسلة حياكة ماما جي.

وضعت غرايس كوبها على الطاولة، وقالت: «دعني أزيح هذه»، وانحنت وسحبت السلة نحوها، وقالت: «لا توجد أشياء كثيرة قد لا تعرفها، فقد عشت...»، وتوّقف صوتها.

قطّب تراف جبينه.

لم تتحرّك غرايس لكنها أخذت تحدّق في سلة الحياكة عند قدميها.

«ما هو؟»

لم تجب.

«غرايس؟»

أخذت نَفَساً مرتعشاً، ثمّ مدّت يدها إلى السلة وسحبت منها خيطاً أحمر طويلاً مجعداً من الصوف.

على الرغم من عدم معرفته بالحياكة، فقد أدرك أنها في حالة فوضى. فقد كانت هناك عقد كثيرة في كرة الصوف المهترئة، كما لو أن أحداً كان يسحبه وهو في حالة إحباط شديد.

رفعت غرايس عينيها المبللتين بالدموع ونظرت إليه وقالت: «لقد نسيْت كيف تحوك الصوف».

أدرك هذه اللحظة. فقد انتابته نفس ردّة الفعل في ذلك اليوم الذي أدرك فيه أن والده لم يعد يتذكّر كيف يعيد تركيب محرّك السيارة، وهو ما فعله مئات المرات، وكان يعرف ذلك كما كان يعرف

اسمه.

ارتعشت شفة غرايس وسالت دمعة على خدها. ضمت الصوف المهترئ إليها كما كانت تعانق دبدوباً عندما كانت طفلة.

لم يتردّد تراف. اقترب منها، وضمها إليه، وأسندت رأسها على كتفه. عانقت خيوط الصوف المتشابكة، وأدارت وجهها نحو كتفه، ثم بنشيج مرتعش راحت تبكي.

أبقى تراف ذراعيه حول غرايس، خدّه على شعرها، راجياً بكلّ جوارحه أن يعرف كيف يمكنه أن يخفّف من حدّة ألمها، لكن لم يكن ثمة شيء يستطيع أن يفعله.

أبقاها هناك، ضمّها إليه وراح يفرك ظهرها، يهمس في شعرها بأنه لا بأس إذا بكت، وأن الدموع جيدة وتساعد على شفاء الجروح، وأنها إذا أرادت أن تتكلّم، فهو حاضر، وإذا لم تشأ، فلا بأس أيضاً.

عندما كان يتكلّم، هدأت، لكنّها لم تبد أي حركة لتترك دائرة ذراعيه.

بحرص شديد، مال تراف إلى الخلف وشدّها إليه. وجد البطانية المطوية خلف الأريكة وحملها إليها وغطاها بها.

وظلّ هناك.

بعد قليل، غطّا في النوم، دافئين تحت البطانية، أحدهما يلفّ الآخر، قميصه لا يزال مبللاً من دموعها.

استيقظ تراف ببطء شديد، وللحظة لم يعرف أنه كان مستيقظاً. رمش بعينين ناعستين نحو السقف غير المألوف له، محاولاً أن يشقّ طريقه عبر حافات حلم لذيذ.

يوجد شيء مختلف. شيء مبهم.

استغرق لحظة ليدرك ما هو. جسد دافئ يلتصق به، ذراع ملقاة على صدره، شعر حريري يدغدغ خدّه.

يا إلهي.

لكنّه كان أكثر من ذلك. فيض من أشعة الشمس في أولى ساعات الصباح التي أضأت الغرفة. إنها الحقيقة التي صحا فيها من نوم عميق، عميق.

استيقظ ورمش بعينيه. يا إلهي، لقد نمت الليلة كلّها. منذ متى لم ينم بهذا العمق؟ منذ سنة؟ سنتين؟

تحرّكت غرايس، تضمّه بقوة أكبر، تلتصق به كما لو أنه خُلق ليكون هناك، وتذكّر فجأة سلة حياكة ماما جي ومعاناة غرايس الليلة الماضية.

سحب البطانية فوق كتفها وعاد وأسند خدّه على شعرها. يجب أن يغادر قريباً قبل أن يستيقظ أحد في البيت، لكنه سيبقى الآن في مكانه، يضمّها إليه إلى أطول وقت ممكن.

الفصل (١٨)

غرايس

انعطفت غرايس بسيارتها الهوندا إلى مدخل البيت وأطفأت المحرّك، ثم أُطفئ ضوء السيارة في حين كان المطر لا يزال يضرب سقف السيارة بقوة. كان المطر ينهمر بغزارة، وومضات شاحبة من البرق تلوح في السماء، وهدير يلعلع بين الحين والآخر. من الأفضل أن أنتظر في السيارة حتى يخفّ المطر.

مبتسمة، أغمضت عينيها وأسندت ظهرها إلى المقعد. كانت متعبة لكنها سعيدة.

كان الوقت متأخراً، لكن ليندا كانت قد وعدتها بأن تبقى حتى الساعة الثامنة، لذلك كان لا يزال لدى غرايس عشر دقائق أخرى قبل أن تدخل إلى البيت. عشر دقائق تريد أن تجلس خلالها في السيارة وتسترخي وتستعرض قائمة الأشياء التي يجب القيام بها. فقد بقي على المهرجان أقل من شهر، وكانت متأكدة بأن كلّ شيء يسير على ما يرام.

اقترب هدير الرعد منها، وبدأ المطر يتدفّق في سيول. كان الشهر الماضي متعباً، فكلّما خيّل إليها أن خطتهم للمهرجان اكتملت، كان أحد أعضاء اللجنة يقترح فكرة عظيمة أخرى. لكن لم يكن المهرجان فقط، فقد كانت الأشياء الأخرى تسير بسرعة مدهشة.

وجدت ديزي متعة كبيرة في عملها «كمساعدة رسمية في البلدة» كما سمتها سارة، ولم تصدّق غرايس عينيها الفرق الكبير الذي طرأ على ابنة أختها. فقد كانت معكرة المزاج على الدوام، أما الآن فلم تعد تغضب بسرعة وبدأت تصادق الجميع بسرعة في البلدة. وأصبح انتقالها إلى مدرسة سويت كريك الابتدائية سهلاً وناجحاً بعد أن تعرفت على معظم الأطفال عندما كانت تساعد سارة في «ساعة قراءة الأطفال» في المكتبة.

وأصبح لغرايس أصدقاء أيضاً - أصدقاء حقيقيون - أصدقاء لم تتخيّل أن يكونوا في حياتها، وخصوصاً سارة. فقد أحبّت غرايس أمينة المكتبة في دوف بوند اللطيفة للغاية. وعلى الرغم من أوجه التناقض في شخصيتيهما، فقد استطاعت سارة التي تعيش حياتها بدون تخطيط أن تجعل حياة غرايس الشديدة التنظيم أكثر توازناً.

وتراف أيضاً. فتحت عينيها وهي لا تزال تسند رأسها إلى مسند المقعد ونظرت إلى بيته. كانت الأضواء في بيته منارة، وكبحت الرغبة في أن تبعث له رسالة نصّية تدعوه ليأتي لزيارتها مع أن الوقت كان متأخراً. فمنذ تلك الليلة التي مضى عليها أكثر من شهر، أصبح تراف جزءاً أساسياً من بيتهن. ففي اليوم الذي أعقب تلك الليلة، جاء حاملاً حقيبة أدواته وعرض أن يصلح الألواح الخشبية التي تصدر صريراً والماء المتسرّب في الطابق العلوي.

قدّرت غرايس جهوده تلك كثيراً، لكنها كانت تجد راحة في زيارته لهن. وكان يستثير ديزي دائماً ويعامل ماما جي بلطف شديد. كان هادئاً، وعندما يتكلّم كان يبدو ظريفاً وذكياً. كانت تحبّ تعليقاته الغريبة.

وأعجبت به أيضاً لأنه لم يحاول أن يلمح إلى تلك الليلة التي نامت فيها وذراعاه يطوقانها. كانت تعرف أنه يراقبها، وأن نظراته تلاحق كلّ حركة تقوم بها. ولم تكن غرايس تعرف تماماً ما الذي يجب أن تفعله، وتتمنّى أحياناً أن يقول لها شيئاً. لعله ينتظر أن تشجّعه على ذلك؟ لم تكن متأكدة من ذلك.

حسناً، لديها مزيد من الوقت لأنها لم تعد تفكّر بمغادرة البلدة قريباً.

تنهّدت ونظرت إلى حقيبتها وأخرجت منها ملفّها وأخذت تتصفّحه، تراجع البنود مرة أخرى. فبعد شهر واحد من الآن ستظهر نتائج الجهود التي بذلتها اللجنة، مهرجان التفاح برؤيته الجديدة في دوف بوند، يومان من المرح والبهجة العائلية. لم يكن بإمكان غرايس أن تنتظر ذلك اليوم.

هدأ المطر قليلاً، ورأت أن هذه هي فرصتها، فلملمت أغراضها وخرجت من السيارة. فتحت مظلّتها وشدّت إليها بلوزتها ولم تبعد عينيها عن الرصيف لتتفادى برك الماء. عندما وصلت إلى وسط الرصيف أدركت أن باب البيت مفتوح على مصراعيه.

تسمّرت في مكانها. ثمة شيء ليس على ما يرام.

لم يكن الباب فقط.

كان الصمت أيضاً.

في هذا الوقت من الليل، كان يجب أن تسمع صوت موسيقى الجاز التي تحبّها ماما جي، أو صوت ديزي وليندا وهما تتحدّثان. لكن الصمت المطبق كان يخيّم على البيت.

انقبض قلب غرايس، فهرعت إلى الشرفة غير عابئة بالمطر الذي يغرقها وهي تصعد الدرجات المائلة. رمت مظلّتها المفتوحة جانباً وجرت نحو البهو ونادت «ليندا؟ ديزي؟ ماما جي؟»

لكن أحداً لم يجبها.

بحثت في محفظتها عن هاتفها. قطبّت جبينها عندما لم تر فيه أي رسالة. عندما اتصلت بليندا جاءها صوت البريد الصوتي مباشرة.

ألقت هاتفها على منضدة جانبية بانزعاج شديد وهرعت إلى داخل البيت، وراحت تبحث من غرفة إلى غرفة. كان وقع صدى خطواتها يتردّد عالياً.

كان البيت مضاءً كالعادة، والستائر مُسدلة، والمصابيح التي على الطاولة مضاءة، والأضواء في غرفة الطعام والمطبخ منارة، كالعادة. لكن أين هنّ؟ ماذا حدث؟ هل أصيبت إحداهن بأذى؟ وفي خلال بحثها في أرجاء البيت، كانت تفتّش أيضاً عن آثار أو علامات تشير إلى وقوع حادث ما - مزهرية مكسورة، قطرة دم، قطعة أثاث في غير محلها.

لكن كلّ شيء كان في مكانه. كان هاتف ماما جي الخلوي لايزال في سلة الحياكة حيث تضعه عادة ثم تنسى أين وضعته. كان باب غرفة نوم ديزي منفرجاً، ورواية «نساء صغيرات» مفتوحة على الفصل الأخير، وكانت علبة طعام ليندا، جزء من جهودها في اتباع نظام غذائي، لا تزال قابعة فوق كاونتر المطبخ، ويوجد في المغسلة كوب شاي يكاد يكون فارغاً.

كلّ شيء في مكانه.

وهذا شيء مرعب.

بدأت التخيلات تومض في رأس غرايس. بدأ خيالها يزداد جموحاً من الرعب المتزايد.

عادت إلى الباب، خطت خطوتين، ثم وقفت. من أين بدأت؟ هل خرجن يتمشيّن؟ لكن ليس في هذا الوقت المتأخر من الليل، ولا تحت المطر، والسماء تعرف أنهن لن يتركن باب البيت مفتوحاً على مصراعيه هكذا.

عليها أن...

رمشت بعينيها. يا إلهي، إنها لا تعرف شيئاً، لكن لا بدّ أن شيئاً سيئاً قد حدث، شيئاً فظيعاً.

عادت إلى الشرفة ولاحظت أن آثار الأقدام الرطبة الوحيدة في الممشى المؤدي إلى داخل البيت هي آثار قدميها. لو أن شيئاً سيئاً قد حدث وجاءت سيارة الإسعاف، فلا بد أن يكون قد حدث قبل أن يهطل المطر منذ ساعات. لكن لماذا لم يتصل بها أحد آنذاك؟

إلى أين ذهبن؟ ومض البرق عبر صفحة السماء السوداء، أعقبه هدير رعد شديد. قفزت من مكانها وراح قلبها يخفق بعنف، ودخلت إلى البيت بسرعة. يا رب أرجو أن يكنّ بخير.

بيدين مرتعشتين، وجدت هاتفها وضغطت على الأرقام. لم تكد تنطق جملة واحدة حتى قالت لها سارة، «انتظريني هناك».

ثم اتصلت غرايس بتراف الذي وصل قبل أن تغلق الهاتف. ألقى عليها نظرة واحدة، وفي خطوتين واسعتين، اجتاز الغرفة وضمّها بين ذراعيه. «هل فتّشت البيت كله؟»

«نعم. لا توجد ولا واحدة منهن هنا. حاولتُ الاتصال بليندا لكني أسمع الرسالة الصوتية على الفور... «ثم نظرت إلى تراف، وقالت: «ماذا أفعل؟ لا أعرف من أين أبدأ». ضحكت غرايس بانكسار، «كانت ماما جي تفعل لي كل شيء - تحضّر طعامي، تضمّد جروحي، علّمتني كيف أحارب أسوأ مشاعري. عندما كنت صغيرة، كانت تقصّ لي شعري. لم تكن تفعل ذلك بشكل ممتاز، لكنّها كانت تحاول. والآن، لا أعرف أين هي أو من أين أبدأ في البحث عنها أو عن ديزي أو...»

«غرايس»، وضع تراف يده الدافئة على كتفها، «خذي نَفَساً عميقاً. سنجدها وسنجد ديزي. هل اتصلتِ بسارة؟»

«نعم» عضّت غرايس على شفتها، «هل تظن أن أحد الكتب سيخبرها أين...»

هزّ رأسه، وأجابها، «لكنها ستعرف ماذا يجب أن تفعل. هل اتصلتِ ببليك؟»

«لماذا... أوه، بليك، طبعاً. إنه رئيس الشرطة». ما إن أمسكت هاتفها، حتى ظهرت سارة عند الباب، معطفها المطري يقطر ماء، وأفا وراءها مباشرة.

«سنتصل ببليك»، قال تراف.

«لقد كلّمته للتو»، قالت سارة ونظرت إلى غرايس، «ألا تعرفين إلى أين يمكن أن تكونا قد ذهبتا؟»

«لا. كان الباب مفتوحاً على مصراعيه ولم يكن هناك أحد في البيت».

تبادلت أفا وسارة النظرات بينهما، ثم دنت سارة وقالت: «ظننا أنه ربما تكون ماما جي قد خرجت من البيت، وذهبت ديزي وليندا تبحثان عنها».

«هذا غير ممكن»، قالت غرايس، «لو حدث ذلك لاتصلت ليندا بي. أعرف أنّها كانت ستفعل ذلك».

«أنا متيقنة بأن هناك سبباً منعها من الاتصال بك. مهما حدث، لا تقلقي، سنبحث عنهن كلّنا».

«نحن؟»

«نحن. دوف بوند.» أصبحت ابتسامة سارة دافئة وأضافت، «لم أتصل ببليك فقط، وإنما اتصلت بسلسلة الصلاة أيضاً».

«ماذا؟»

«توجد كنيستان في دوف بوند. يذهب نصف السكان إلى إحداهما، والنصف الآخر إلى الكنيسة الأخرى. ولدى كلّ منهما سلسلة صلاة. فإذا اتصلت بشخص واحد فإنه سيتصل بشخص آخر، وهكذا دواليك. إذ يعرف كلّ شخص بمن يجب أن يتصل، وخلال عشر دقائق، يخرج جميع سكان دوف بوند للبحث عن ماما جي».

«الحمد الله».

عندما رنّ هاتف سارة، أخرجته من جيبها. «مرحباً، إد. لا، لا. لا شيء بعد. حسناً. يبدو هذا جيداً... نعم، اتصلت ببليك. طبعاً اتصلت به. قال يجب أن تبحثوا كلّكم في أرجاء البلدة وفي المباني الرئيسية. لسيارته ضوء كشّاف وهذا سيمكّنه من البحث في المزارع وفي جميع الأماكن الأخرى. لا يظنّ أنهن في مكان بعيد، لكن الحذر واجب». أصغت سارة لمدة دقيقة ثم هزّت رأسها وقالت، «فكرة جيدة. هل يمكنك أن تفعل ذلك؟... عظيم. حسناً. سنبدأ هنا». أغلقت الهاتف ونظرت إلى تراف وقالت: «إد يريد أن نذهب ونبحث في جميع البيوت والشرفات في الشارع، فربما لجأن إلى أحدها عندما بدأ المطر يسقط، وكلّف أشخاصاً آخرين بالبحث في الشوارع الأخرى».

«في أيّ شوارع؟» سألت غرايس، وبدأت تشعر بأن عالمها بدأ ينحدر بقوة.

فقالت سارة، «كلّها. أفا، يجب أن ننطلق أنا وأنتِ. طلب بليك من إد أن ينشئ مركز قيادة في مقهى ضوء القمر، وزوي ذاهبة إلى هناك، لكنها ستذهب أولاً إلى مبنى البلدية لتسمع المحادثات على أجهزة الاتصالات اللاسلكية في دار البلدية».

فقالت غرايس، «لا يوجد معها مفتاح».

«سترى رئيس البلدية مور هناك. ستتصل به عندما أُغلق الهاتف».

«لن يردّ على هاتفه. الاستقبال سيء في بيته».

فقالت لها سارة: «هل قال لك ذلك؟ سيردّ على هاتف زوي، وإذا لم يردّ فإنها ستذهب إلى بيته وتحضره من أذنه»، ثم التفتت إلى تراف، وقالت: «أرسل لي رسالة نصّية في اللحظة التي تكتشف فيها شيئاً، ويمكنني أن أبلغ الآخرين، ولا ترسل لي شيئاً من نصوصك القصيرة غير الواضحة. نريد تفاصيل. وهذا سيوفر عليك مكالمة هاتفية».

«حسناً. سأرسل تفاصيل، فهمت».

«يجب أن أرتدي معطفي»، قالت غرايس واتجهت إلى الخزانة، لكن سارة أوقفتها.

«لا. يجب أن تبقي هنا».

«لا يمكنني أن أجلس هنا وماما جي وديزي خارج البيت».

«يجب أن تبقي. يجب أن يكون أحد في البيت يجدنه عندما يعدن».

هدر صوت رعد مشؤوم. وجدت غرايس صعوبة في أن تبتلع ريقها. كان قلبها يؤلمها. «يجب أن آتي».

لان وجه سارة وقالت: «أنت الشخص الذي يردن أن يرينه عندما يعدن إلى البيت، الشخص الذي سيسألن عنه. يجب أن تبقي هنا».

مع أن غرايس لم تكن تريد أن تعترف بذلك، فقد كانت سارة على حقّ.

تهدّل كتفا غرايس. لقد كلّفها ذلك غالياً وأحرقت الدموع عينيها، لكنّها استطاعت أن تومئ بموافقتها. ماذا لو كانت ماما جي قد سقطت في خندق أو سقطت فوقها شجرة، أو...

«غرايس، لا»، قاطع صوت تراف العميق أفكارها المتلاطمة.

عندما التقت عيناه بعينيها، رأت القلق في عينيه، لكن الأهم من ذلك، رأت طمأنينة عميقة، ثم قال: «ستكون بخير».

«سيكنّ بخير»، قالت سارة وهي تومئ بقوة، عيناها تلمعان، «أعدك بذلك».

أعدك بذلك. كان وعداً فارغاً، أما الآن، بعد أن كبرت غرايس، أصبحت تعرف ما الذي تعنيه حقًّا - وهي أنه مهما حدث، فإنهم سيساعدونها في عملية البحث.

«يجب أن نذهب الآن». توجّهت سارة نحو الباب، يتبعها تراف. عندما خرجت سارة إلى الشرفة، رنّ هاتفها وحاولت غرايس أن تسمع ما الذي تقوله وهي تندفع تحت المطر.

توقّفت أفا عند الباب وقالت: «اصنعي لنفسك قليلاً من شاي ماما جي».

«كنت أظن أنه سيفيدها هي فقط؟»

«إنه يفيد عند الحاجة. تناولي كوباً منه»، ولوّحت لها بيدها وذهبت.

لبثت غرايس واقفة في مكانها، تنصت إلى المطر الذي يسقط بغزارة. في الخارج، كان صوت الرعد هادراً، والبرق يومض. لم تستطع أن تفكّر ماذا يفعل أحباؤها خارج البيت في هذا الطقس السيء. لا بد أنهن خائفات الآن.

وجدت غرايس هاتفها وغاصت في الكرسي.

أرجو أن يكنّ بخير.

أرجو أن يكنّ بخير.

أرجو أن يكنّ بخير.

لا تعرف كم انتظرت. ربما عشر دقائق، أو ربما ساعة. انتظرت عندما كان البرق يومض عبر السماء السوداء والمطر يهطل غزيراً. جلست.

ثمّ راحت تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً.

ثمّ جلست.

كاد هاتفها أن يقع منها عندما رنّ من حماستها لقراءة الرسالة النصيّة. إنها من تراف. أحدهم رأى ليندا وديزي منذ قليل. نتأكّد من ذلك الآن.

انتظرت غرايس وهي تحدّق في الهاتف. من السخرية أن الزمن يجري بطيئاً عندما نريد أن يجري بسرعة، كأنه يحبّ استثارة الذين يفقدون الأمل باستماتة.

مررت يدها عبر شعرها وتذكّرت اللحظات عندما كانت تنتظر مع ماما جي أخباراً من هانا عندما كانت صغيرة وبدأت تهرب من البيت. أتظنين أنني سأكون جيدة الآن.

لكنّها لم تكن، بل أسوأ.

كانت الدقائق تمرّ ببطء.

غير قادرة على البقاء جالسة، نهضت وراحت تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، نظرتها لا تغادر شاشة الهاتف.

لم يكن عليها أن تنتظر طويلاً.

لقد عثرنا عليهن، كتب لها تراف. إنهن بخير.

«نعم»، ردّت عليه غرايس، إنهن؟ ثلاثتهن؟ ماما جي أيضا؟

انتظرت.

ما عدا ماما جي. لا نزال نبحث.

أحرقت الدموع عينيها. هل ستجلبونهما إلى البيت؟ سألته.

قريباً.

انتظرت غرايس وهي تكبت الرغبة في أن تسأل ألف سؤال.

وأخيراً، كتبت، هل من أخبار عن ماما جي؟

لم يأتها ردّ.

مررت يدها في شعرها، ثم أدركت أنّها لا تزال ترتدي ثياب العمل. فخلعت حذاءها ذا الكعب العالي وجرت إلى الطابق العلوي لتغيّر ثيابها. ارتدت بنطلون جينز وقميصاً قطنياً وحذاء طويلاً متيناً في حال اضطرت للخروج في هذا الطقس.

ثم هبطت إلى الطابق السفلي.

كان البيت صامتاً على نحو ممض.

الشاي. اقترحت أفا أن أتناول قليلاً من الشاي.

ذهبت غرايس لتغلي ماء، ورجت ألّا ترتعش يداها كثيراً. ما إن مدّت يدها لتشعل الموقد حتى رنّ هاتفها.

حصلنا عليها، كتب لها تراف.

حصل على من؟ ماما جي؟ وماذا يقصد بكلمة «حصلنا عليها»؟ يا إلهي، ألا يعرف هذا الرجل أنها تريد معلومات؟ أكثر من كلمتين سيئتين؟ كما لو كان جواباً، وسرعان ما ظهرت رسالة نصيّة أخرى. قد تكون ماما جي بحاجة إلى رؤية الدكتور بولتون.

أمسكت غرايس نفسها عن البكاء. قد؟ بحقّ الجحيم ما هذا؟

بدأت تتصل به عندما وصلتها رسالة أخرى، هذه المرة من سارة. تراف أحمق. التواء في الكاحل، لا شيء أكثر. الدكتور بولتون في طريقه إلى البيت.

قبّلت غرايس الهاتف عندما وصلت رسالة أخرى، هذه المرة من تراف. إنها بخير يا غرايس. ستكون على ما يرام.

وقفت غرايس في منتصف المطبخ، لا تعرف إلى أين تذهب أو ماذا تفعل، وغمرتها السعادة وتمنّت لو أنها تستطيع أن تطير.

البطانيات.

الملابس الجافة.

المناشف.

يجب أن تحضر هذه الأشياء. جرت إلى الطابق العلوي وجمعتها بسرعة وعادت إلى الطابق الأرضي.

كوّمتها على الكنبة عندما أضاء ممر البيت. توقفت سيارتان، إحداهما سيارة تراف.

أخذت بطانية وركضت إلى الشرفة. كان تراف يسير في الممشى يحمل صرة، تسير وراءه أفا، وكان وجه ماما جي الشاحب يستند إلى كتفه، مدّثرة بغطاء أزرق، بدا لغرايس أشبه بكفن.

صعد تراف درجات الشرفة، الماء يتصبب منه ومن الغطاء، بعد أن غمرهم ضوء الشرفة. أجلس ماما جي بعناية على كرسي وسحب الغطاء.

اعتدلت قليلاً في جلستها. كانت ضعيفة لكنها لا تزال على قيد الحياة، مبللة بالماء وجسمها النحيل يرتجف، ذقنها تتحرك مع اصطكاك أسنانها. كانت تضع يدها على ساقها، لكنها أجفلت عندما لامس كعبها الأرض.

لفّتها غرايس في بطانية وضمتّها إليها وقالت، «كنت قلقة جداً عليك».

حاولت ماما جي أن تقول شيئاً، لكن أسنانها اصطكت كثيراً فلم تفهم غرايس ما الذي قالته.

«سأعدّ لك قليلاً من الشاي». دخلت أفا ووقفت عند الباب لتخلع معطفها المطري الذي يقطر ماء وعلّقته.

نظرت غرايس إلى تراف، وقالت: «هل يمكنك أن تُدخل ماما جي إلى البيت؟ يجب أن تكون في مكان دافئ.

هزّ تراف رأسه وانحنى ليلفّ البطانية حول ماما جي بإحكام، ثم حملها إلى غرفة الجلوس وأجلسها بلطف على الأريكة. أومأ نحو المدفأة التي لم تُستعمل منذ أن انتقلن إلى هذا البيت. «هل أشعل المدفأة؟ إنها ستدفئ البيت أسرع. يوجد حطب في الجانب الآخر من الشرفة. يجب أن يكون جافاً».

«سترتاحين بهذه؟ قالت غرايس ووضعت وسادة تحت ساق ماما جي التي تؤلمها وغطتها ببطانية تدلّى طرفها من جانب الأريكة. أسندت ماما جي ظهرها وأغمضت عينيها الهشّتين كالزجاج.

عاد تراف حاملاً عدة حطبات وحفنة من اللحاء.

راحت غرايس تراقبه وهو يشعل النار. «أين وجدت ماما جي؟»

«بعد ثلاثة شوارع تقريباً، في الحقل وراء المدرسة الابتدائية. أظن أنها لم تكن تعرف أين هي. كانت خائفة من البرق».

«أنا سعيدة لأنك وجدتها».

«لم أكن أنا الذي وجدتها»، مدّ يده إلى رف المدفأة وتناول علبة ثقاب كانت السّيدة فيلبس قد تركتها، «أبناء عائلة سبانكل هم الذين وجدوها. إنهم يقيمون بجانب المدرسة الابتدائية».

عادت أفا من المطبخ، ويبدو أنها سمعت ما قاله تراف، فقالت: «عندما سمعت عائلة سبانكل نداء الصلاة، قال أحد الأطفال إنه رأى شبحاً في الساحة».

«لم يكن شبحاً»، أضاف تراف دون الحاجة إلى أن يقول ذلك وهو يشعل كومة اللحاء بين الحطب.

ابتسمت أفا وقالت: «ليس هذه المرة».

«أين ديزي وليندا؟» سألت غرايس.

«مع سارة. في طريقهن إلى هنا».

دبّت الحياة في النار، وسرعان ما خفف الدفء من رعشات ماما جي.

قرع أحدهم الباب فذهب تراف ليفتحه.

«مرحباً». دخل الدكتور بولتون، بيده حقيبته.

أخذ تراف معطف الطبيب المبلل.

«كانت ليلة صعبة، أليس كذلك؟» قال الطبيب وتوجه مباشرة إلى ماما جي وأمسك رسغها، وراح يربّت على يدها وهو يقيس نبضها. «تسبّبين مشكلة، أليس كذلك؟ «

تحركت ماما جي ومدّت ذراعها بضعف. كانت منهكة، لكن أسنانها لم تعد تصطك. «ماذا تفعل؟»

جثت غرايس بجانبها، وقالت: «جاء الدكتور بولتون ليزورنا وسنتناول الشاي. أنا...أوه، الشاي»، ونظرت إلى أفا.

«سأذهب وأرى إن كان جاهزاً». قالت أفا وعادت إلى المطبخ.

«شاي؟» رمشت ماما جي بعينيها باضطراب.

«الشاي الساخن سيفيدك كثيراً»، قال الدكتور، «لكن أولاً، يجب أن ترتدي ملابس جافة وتأوي إلى الفراش»، ثم نظرت سارة إلى تراف، وقالت: «هل يمكنك أن تفعل ذلك يا تراف؟»

«طبعاً»، قال تراف وحمل ماما جي بين ذراعيه كما لو كان وزنها لا يزيد على وزن وسادة محشوة بالريش.

احتجت ماما جي بوهن، لكن تراف لم يكترث بذلك، وسألها، «السّيدة جيانو هل تتذكّرين عندما كنتِ تعتنين بأولاد باركر؟»

حدّقت به ماما جي وسألته، «أولاد باركر»، وافتّرت شفتاها عن ابتسامة خفيفة، وقالت: «كنتم كلّكم مشاغبين، ألا تعرف ذلك؟»

«ذات مرة أخذتُ بقرة إلى الكنيسة، أو هكذا قيل لي»، وحملها إلى الطابق العلوي وهي يكرر على أسماعها القصّة التي حكتها له ذات يوم.

التفتت غرايس نحو الطبيب وقالت: «أرجو أن تمهلني دقيقة، سأُلبسها ثوب نومها».

«طبعاً. يبدو أنها في حالة جيدة، لكن يجب أن أفحصها قبل أن أذهب».

«شكراً لمجيئك».

ابتسم وقال: «هذا واجبي».

صعدت غرايس إلى الطابق العلوي بسرعة. كان تراف لا يزال مع ماما جي الجالسة على حافة سريرها، تبدو مرهقة. وقالت له، «شكراً يا تراف، سآخذ عنك».

«نادني إذا احتجتِ إليّ».

همّ ليغادر الغرفة، لكنه عندما أصبح بجانبها، ضمتّه غرايس وعانقته بسرعة.

أراح خده على رأسها وعانقها.

تمنّت أن تبقى هكذا، دافئة تشعر بأمان، لكن ماما جي وضعت يدها على الطاولة الصغيرة بجانبها وحاولت أن تنهض، وأجفلت عندما وضعت كاحلها على الأرض.

تركت غرايس تراف وقالت: «ماما جي. يجب أن أُلبسها ثوب النوم».

«سأنزل إلى الطابق الأرضي لأتأكد من أن النار مشتعلة في المدفأة».

«شكراً». تمنّت أن يعرف أنها تعنيها حقاً.

عندما ذهب، جففت غرايس ماما جي وألبستها ثوب نوم جديد. أبدت ماما جي المتعبة والمتوترة تذمراً، لكن غرايس أبقت نبرة صوتها هادئة حتى عندما اغرورقت الدموع في عينيها عندما رأت الكدمات والجروح على ساقي المرأة العجوز.

عندما ارتدت ثوبها أخيراً، ومشّطت شعرها الرطب، استلقت ماما جي تحت بطانياتها وأسندت رأسها إلى عدة وسادات. كانت شفتها ترتعش وهي تنظر متعبة إلى غرايس، ثم قالت: «لا أفهم».

قبّلت غرايس ماما جي على جبينها، وقالت لها: «لقد تهتِ، هذا كلّ ما في الأمر. لكن كلّ شيء على ما يرام الآن».

خفّ المطر في الخارج. لقد عدنا إلى حالتنا الطبيعية، قالت غرايس لنفسها.

تمسكّت ماما جي بغطائها، وقالت: «كنت أبحث عن ثيو»، راحت تنظر في أرجاء الغرفة، «أين هو؟ «حاولت أن تنتصب في جلستها، «إنه لا يحبّ المطر».

«إنه بخير. سأضع وسادة عند أسفل سريرك ليستلقي عليها عندما يعود، فهو يحبّ ذلك».

«نعم؟» استندت ماما جي إلى وساداتها وقالت: «إنه يدفئ قدميَّ».

«طبعاً». غطتها غرايس، ولاحظت أنّ بشرة ماما جي بدت نصف شفافة تقريباً، العروق الزرق واضحة للعيان، وبدت هشّة جداً، رهيفة جداً. مررت غرايس ظاهر أصابعها فوق خدّ ماما جي، وقالت: «الدكتور بولتون يريد أن يراك لدقيقة، ليفحص كاحلك».

«إنه يؤلمني».

«أعرف. لهذا السبب يريد أن يفحصه. وبعد أن يُنهي فحصه سأجلب لك الشاي الذي تحبّينه».

هزّت ماما جي رأسها وقالت: «أحبُّ الشاي».

ابتسمت غرايس، وقالت: «إذاً ستشربين كوبين من الشاي».

في الخارج، توقفت سيارة عند المدخل، ثم تبعتها سيارة أخرى.

قبّلت غرايس ماما جي واستدارت لتغادر الغرفة، سعيدة عندما وجدت الدكتور بولتون ينتظر عند المدخل. عندما خرجت غرايس من الغرفة غمزها، لكنّها وجدت نفسها تغصّ بامتنان كبير لتمنحه أكثر من ابتسامة مرتعشة.

عندما ذهبت إلى غرفة الجلوس، تناولت منشفة قبل أن تهرع إلى الشرفة.

قفزت ديزي، المبللة بالماء من السيارة حتى قبل أن تتوقّف تماماً، وجرت إلى البيت وارتمت بين ذراعي غرايس.

«ديزي»، قالت غرايس وضمتها بقوّة.

انفجرت ديزي في البكاء.

«كلّ شيء على ما يرام. ماما جي هنا وهي بخير».

أخذت ديزي تبكي بحرقة.

أدخلت غرايس الفتاة الصغيرة إلى البيت، وأجلستها على الأريكة أمام المدفأة. جثت غرايس أمام ديزي، وضمتّها بقوّة غير عابئة بقطرات الماء التي تتسرّب من ثيابها. «كنت قلقة عليك كثيراً».

تكلّمت ديزي التي لا تزال بين ذراعي غرايس بسرعة وتساقطت كل كلمة فوق الأخرى حتى عندما كانت رعشات تهزّ جسدها الرقيق. «كـــــــــــانت هنا وفتحت الباب ثم ذهبـــــــت وخرجتُ أنا والسيدة لينـــــــــدا نبحث عنها، لكنّنا لم نعرف إلى أيـــــــــــــــن ذهبت وفرغت بطارية هاتف السيـــــــــدة ليندا ولم يعرف أحد إلى أين ذهبت وكان المطر يهطل بغزارة، وأنا.... «وبكت ديزي.

عندما ضمّت غرايس ديزي إلى صدرها وأسندت خدّها إلى شعر الفتاة المبلل، رأت تراف. عندما قالت «شوكولاتة ساخنة» ابتسم لها ابتسامة دافئة، ثمّ اختفى في المطبخ حيث سمعته يتكلّم مع أفا.

بعد قليل تركت غرايس ديزي، وتركت الفتاة تبكي، ثم قالت غرايس: «مهما حدث، فقد عدتِ إلى البيت بسلامة وأصبحت بخير».

بدا أن هذا هدأّ من روع الفتاة، لأن ديزي سكتت على الفور، ثم نظرت إلى غرايس بعينين بائستين دامعتين، وقالت «كنت أنا السبب في ضياع ماما جي».

«أوه، حبيبتي. لم يكن هذا ذنبك، فهي تشعر بالاضطراب في بعض الأحيان. لذلك ركبّت القفل فوق الباب، لكنّها وجدت وسيلة لفتحه، لهذا السبب...»

«لم تكن هي. إنها أنا»، قالت ديزي بصوت مسموع، «كنت أنا من يفتح القفل. كنت أفتحه كلّ ليلة بعد أن تذهبي لتنامي»

يا إلهي. «لكن... لماذا؟»

«القط كيلر يحبّ أن يأتي إلى بيتنا، وإذا لم تكن نافذة ماما جي مفتوحة، كان يخدش على الباب».

ضحكت غرايس وقالت: «هذا القطّ اللعين». نهضت وأحضرت منشفة ثانية لفّتها حول ديزي، «إذاً أنتِ التي كنتِ تفتحين الباب له لكي يدخل». كان عليها أن تفكّر بذلك من قبل.

«كنت أستعمل كرسي المطبخ لأصل إليه، لكنّي كنت أقفله ثانية. لم أكن أريد أن تعرفي إنني أفعل ذلك». نظرت ديزي إلى غرايس نظرة بائسة، وقالت: «ظننت أنك لم تكوني ترغبين في أن يأتي كيلر إلى بيتنا، لم أكن أعرف أنّك كنت تحاولين أن تحافظي على سلامة ماما جي. لم أكن أظن أن...».

عندما أجهشت في البكاء ثانية، ضمتها غرايس إليها، وقالت: «حبيبتي، كان يجب أن أخبرك بذلك. لكن حسناً، ماما جي بخير، والدكتور بولتون معها الآن، ويبدو أنه غير قلق عليها، لذلك يجب ألا نقلق نحن أيضاً».

«كان كلّ ما أريده هو أن يأتي كيلر».

أراحت غرايس خدّها على رأس ديزي، وقالت: «إنها تمطر الآن... وسمعت أنه لا يحبّ المطر».

تملصت ديزي من بين يديها وقالت بدهشة، «هل ستسمحين لكيلر أن يأتي؟»

«أظن أنني يجب أن أفعل ذلك، بما أنكما، أنتِ وماما جي، تحبّانه»، ونظرت حولها، «أتساءل أين هو الآن؟ هذا القطّ المسكين».

مسحت ديزي وجهها بطرف المنشفة، وقالت: «إنه تحت سريري. إنه لا يحبّ صوت الرعد».

«لا أحد يحبّه، أليس كذلك؟» قالت غرايس وعانقتها. يا إلهي، لكنّها تحبّ هذه الطفلة. تذكّرت عندما كانت في المستشفى مع هانا وضمّت ديزي إليها لأول مرة. كانت تلك لحظة خاصة جداً جداً. هذا صحيح. والآن يجب أن أرعاها. كانت ماما جي محقّة؛ إنها هدية. «يوم الإثنين، سأتصل بالأخين كالاهان وأطلب منهما أن يركّبا باباً من أجل كيلر».

نظرت ديزي إليها، وقد احمرّت عيناها الزرقاوان من الدموع، وسألتها، «حقاً؟»

«نعم. سأفعل كلّ ما يسعدك أنتِ وماما جي».

ذكّرت ابتسامة ديزي غرايس بقوس قزح بعد هطول المطر.

سُمعت أصوات على الشرفة وظهرت سارة وليندا وزوج ليندا، مارك، عند المدخل، يسير خلفهم إد وماغي مايهيو.

أغلقت سارة الباب وراءهم وخلعوا جميعاً معاطفهم المطرية المبللة وعلّقوها على رفّ المعاطف، وقالت: «انتهينا من البحث».

«الجميع هنا»، خلع مارك قبّعته وعلّقها فوق معطفه، «تقدّم جولز ستيوارت قهوة ساخنة لفرق الإنقاذ في ضوء القمر».

«لكن من دون وجبات خفيفة» قال إد محبطاً.

«كانت ستفعل ذلك لو أننا أمضينا فترة أطول».

نظرت ليندا إلى غرايس وقالت: «كيف حال ماما جي الآن؟»

«إنها متعبة وتوجد بضع كدمات في ساقها، لكنّها ستكون بخير».

«بفضل سلسلة دعاء الكنسية المعمدانية الأولى»، قال إد.

فزفرت ليندا وقالت: «تقصد سلسلة دعاء كنيسة دوف بوند الميثودية».

«لا، أقصد سلسلة دعاء الكنيسة المعمدانية، لأن عائلة سبانكل تنتمي إلى الكنيسة المعمدانية».

«نعم، لكن ليزا تيلدين رأتني أنا وديزي عند ناصية الشارع واتصلت بسلسلة الدعاء الميثودية وأخبرتهم أين يجدوننا، فهي الأول».

وقف أمام المدفأة وقال: «لم تضيعا أنت وديزي».

«وقفنا عند المدخل بعد أن بدأ البرق والرعد»، والتفتت ليندا إلى غرايس وقالت: «لقد ضربت الصاعقة عمّي، لذلك فإني لا أخرج أبداً إذا لم أكن مضطرة».

«أرجو أن عمّك لم يصب بأذى».

«لقد جعلت تلك الصاعقة شعره أبيض، لكن زوجة عمّي قالت إنّه أصبح جيداً في السرير بعد تلك الحادثة، لذلك لم يكن الأمر سيئاً بالنسبة لها»، ثم نظرت حولها وسألت، «أين هم الآخرون؟»

فقالت غرايس: «الطبيب مع ماما جي في غرفتها، وتراف وأفا في المطبخ يعدّان الشاي. هل يمكنك أن تعطيني منشفة أخرى؟ ديزي تستعمل هذه المنشفة كمنديل».

أخذ مارك منشفة، طواها في شكل أنبوب، وشرع برميها.

تمتمت له ليندا شيئاً، واختطفت المنشفة من يديه وسارت نحو غرايس وأعطتها لها، وقالت لها: «تفضلي».

لفّت غرايس المنشفة حول ديزي.

جلست ليندا. شعرها الندي يلتصق بفروة رأسها، وظهرت ضفائرها الصغيرة. «غرايس، أنا آسفة لأننا تركنا البيت من دون أن نخبرك. كنت قد أعطيت ماما جي كوب الشاي قبل أن تنام وأخذت الكوب الفارغ إلى المطبخ. وعندما عدت، لم أرها. لم أخرج من الغرفة أكثر من دقيقة، وربّما أقل، عندها أدركت أنها خرجت من البيت، فأخذت ديزي ولحقنا بها وظننا أننا سنجد ماما جي واقفة خارج البيت. كان هاتفي الخلوي معي أيضاً، وقلت في نفسي إنني أستطيع أن أتصل بك إذا استغرقنا أكثر من بضع دقائق حتى نجدها. لم أدرك أن بطارية هذا الهاتف الغبي قد فرغت، وما إن خرجنا إلى الشارع، حتى ازداد هدير الرعد وبدأ المطر ينهمر بغزارة، فالتجأنا تحت شرفة بيت كافانو الذين يزورون حالياً أبناءهم في نيو جيرسي، فعرفت أنّنا لن نزعج أحداً، وخيّل إليّ أنه عندما يتوقف المطر، سنجد ماما جي ونعيدها إلى البيت، لكن يبدو أننا كنا مخطئتين، وكان المطر...»

وضعت غرايس يدها على يد ليندا، وقالت: «لا أعرف كيف أشكرك لأنك حافظت على سلامة ديزي عندما كنت تبحثين عن ماما جي. إني مدينة لك كثيراً». رمشت ليندا بعينيها كي لا تسقط دموعها، وقالت: «كنت شديدة القلق عليها».

«وأنا أيضاً، لكن كلّ شيء أصبح على ما يرام الآن».

فُتح باب المطبخ وخرجت أفا تحمل كوب شاي ماما جي وصحناً صغيراً فيه قطعتا بسكويت بزبدة الفستق. عندما صعدت الدرج، التفتت وقالت: «توجد قهوة في المطبخ إذا أراد أحد منكم، وتراف يعدّ شوكولاتة ساخنة».

«قهوة»، قال إد مايهيو بحماسة، وتوجّه إلى المطبخ.

نهضت ليندا، وقالت: «أحتاج إلى شيء ساخن. غرايس، هل تريدين قهوة؟»

«ليس الآن، شكراً».

توجّهت ليندا إلى المطبخ وتبعها مارك.

أحضرت سارة بطانية لغرايس، وقالت: «يبدو أن ديزي تشعر بالبرد».

دسّت غرايس البطانية حول ديزي وقالت: «إن ما تحتاجين إليه هو الآن حمّام ساخن».

اندّست ديزي تحت البطانية. «بعد أن أشرب الشوكولاتة الساخنة؟»

«بعدها مباشرة».

هزّت ديزي رأسها بوداعة، وابتسمت لها غرايس. لكن الوداعة لن تدوم طويلاً، لأن الطفلة مفعمة بالنشاط.

نظرت سارة إلى الكرسي الذي تركته ليندا للتو، وأزاحته وقدّمته لصديقتها. «الكرسي مبلل»، قالت لغرايس. فجلست سارة على كرسي آخر ومدّت ساقيها أمامها، تستمتع بدفء المدفأة. «واو. يا لها من عاصفة. لقد فقدت عائلة كرامر شجرة. إنهم يسكنون بعد شارعين. وقعت الشجرة وأصابت شاحنتهم لكنها لم تصب البيت».

ابتسمت غرايس لكنها لم تجب.

مع كلّ ما حدث، لم تستطع أن تقول شيئاً آخر.

كما لو كانت تعرف، ظلت سارة تعدد العواصف التي هبّت على دوف بوند على مدى السنين. كانت نبرة صوتها منخفضة ومهدئة.

لم تكن غرايس تصغي جيداً إلى ما تقوله، لكن صوت سارة كان يخفف كثيراً من حدّة توتّرها.

بعد قليل، خرجت ماغي من المطبخ وراء إد. أعطت ماغي كوب الشوكولاتة إلى ديزي. «خذي حبيبتي. قال تراف إنك تحبين المارشمالو، وهذا لك».

«شكراً». أخذت ديزي كوب الشوكولاتة الساخنة وسرعان ما ارتسم خطّ رفيع من المارشمالو على شفتها العليا.

التفتت ماغي إلى غرايس، وقالت: «إذا لم تكوني بحاجة إلى أي شيء آخر، فإننا سنذهب أنا وإد».

«قدّمتما لنا مساعدة كبيرة». وقفت غرايس وحضنتهما، ثمّ أوصلتهما إلى الباب وتركت سارة مع ديزي. «شكراً لكما».

ابتسم إد وقال: «لو كنا بحاجة لفعلت الشيء نفسه».

«لقد هدأ إد الآن»، قالت ماغي وهي تنظر إلى زوجها بإعجاب، «لكن كان يجب أن ترينه عندما سمع الخبر. قلق كثيراً».

«لا أعرف ماذا كنّا سنفعل بدونه».

ابتسم إد وقال: «شكراً. هيا يا ماغي. بدأ الوقت يتأخّر».

ودعتّهما غرايس عندما بدأت أفا ودكتور بولتون يهبطان الدرج.

«كيف حالها؟» سألت غرايس.

أزاح دكتور بولتون السماعة عن رقبته ووضعها في حقيبته، ثم قال: «ضغط الدم مرتفع قليلاً، لكن ليس أكثر من المتوقّع»

«وكاحلها؟»

«سيكون متيبسًّا في الصباح. عليها أن تريحه، لكن ما عدا بضعة خدوش وكدمات فهي على ما يرام».

«أنا سعيدة جداً لسماع ذلك. لا أعرف ما الذي كان سيحدث لو لم نجدها. شكراً جزيلاً على مجيئك».

«أهلاً بك. الآن بعد أن أعيد تشغيل قسم الطوارئ في المقاطعة، لم أعد أتلقى اتصالات كثيرة في وقت متأخر من الليل. بدأت أشتاق إلى ذلك أحياناً»، وابتسم وأضاف، «إن ذلك يجعلني أشعر كأنني الدكتور كوين».

«هل تريد قهوة؟» سألته أفا.

«في الحقيقة، أريد قليلاً من ذلك الشاي الذي تصنعينه».

«لكنه لن يفيدك».

«لا، لكن بشيء من الحظّ، أستطيع أن أخمّن ما هي المكونات التي توجد فيه».

نظرت إليه أفا نظرة مليئة بالدهشة، وقالت: «أخبرتك ما هي مكوناته».

«صحيح؟ حاولت أن أقلّده لكن في حين أن الشاي الذي أعددته طيب المذاق، لم يكن له أيّ تأثير آخر».

«ربما كنت بحاجة إلى شيء من السحر تضيفه إليه».

«أنا لا أومن بالسحر»

«هذه مشكلتك»، ابتسمت أفا ودخلت مع الطبيب إلى المطبخ.

«لن تخبره بالمكونات ولن يعرفها بنفسه»، قالت سارة بارتياح. قرّبت كرسيها من المدفأة، وقالت: «يا إلهي، كم هذا المكان دافئ».

وافقتها غرايس وراحت تراقب ديزي وهي تشرب الشكولاتة الساخنة، تبتسم كلما رأت الفتاة الصغيرة تلعق المارشمالو من حافة كوبها.

خرجت ليندا ومارك من المطبخ. «يجب أن نذهب الآن. لا نثق بأن تبقى ابنتنا وحدها في هذا الوقت المتأخر. إنها في الحفلة»، قالت ليندا ثم نظرت إلى ديزي، وأضافت، «لا تخطر لك أفكار أخرى. فهي تمكث في البيت دائما».

« ديزي تعرف جيداً، أليس كذلك؟» سأل مارك.

هزّت ديزي رأسها، وقالت «أنا لا أحضر حفلات. ليس بعد في جميع الأحوال».

باسماً، أخذ مارك معطفه ومعطف ليندا التي قالت: «قبل أن نذهب، قال لي إد إنه ستُقدّم بيرة في المهرجان؟»

فقالت غرايس: «ستعرض ثمانية مصانع تخمير بيرة محلية على الأقل منتجاتها».

ثم أضافت سارة، «ويظن نيت أن بإمكانه أن يجلب عدة مصانع أخرى».

«عظيم»، قال مارك، «سيأتي أبناء عمي من هيندرسونفيل لزيارتنا في عطلة نهاية الأسبوع. لا يمكنني أن أنتظر حتى أخبرهم بذلك. متى ستُفتح الحنفيات؟»

«في الساعة الحادية عشرة تماماً يوم السبت، وفي تمام الساعة الواحدة يوم الأحد؟

«سنكون هناك في الساعة الحادية عشرة إلا خمس دقائق في أول يوم»، قالت ليندا، «يجب إعطائهم وقت لتركيبها وتنفيث الحنفيات. هذه هي الطريقة الوحيدة حتى تندفع جيداً».

«عظيم»، لمعت عينا سارة، وقالت: «ليندا، يبدو أن لديك معرفة جيدة في ذلك».

فقالت ليندا بافتخار، «أعرف قليلاً في أمور تخمير البيرة».

«إنك تعرفين أموراً كثيرة عن كلّ شيء»، وضمت غرايس ليندا إليها، «مرة أخرى شكراً على كلّ ما فعلتماه هذه الليلة».

«أنا آسفة لأن هاتفي الخلوي لم يكن يعمل. يجب أن أشتري هاتفاً جديداً له بطارية أفضل».

«نعم، يجب أن تفعلي ذلك»، قال مارك وهو يساعد ليندا على ارتداء معطفها، ثم ارتدى معطفه، «فأنت لا تجيبين على نصف رسائلي النصيّة بسبب تلك البطارية الغبية؟»

«لو كنت لا ترسل لي مئتي رسالة كلّ يوم، لدامت بطاريتي فترة أطول»، ردّت عليه وشبكت ذراعها بذراعه، ثم لوّحت بيدها للآخرين، وقالت: «طابت ليلتكم».

عندما غادرا، ابتسمت سارة في وجه غرايس، وقالت: «سيكون المهرجان ضخماً. الجميع يتحدّثون عنه».

«هكذا يبدو»، ثم نظرت إلى ديزي، «يجب أن آخذ ديزي لتستحم ثم أضعها في سريرها».

هزّت ديزي التي أنهت كوب الشكولاتة رأسها وتثاءبت.

مدّت غرايس يدها، وقالت: «تعالي يا حبيبتي؟»

نهضت سارة وقالت: «اذهبي أنت وأنا سأودّع الآخرين».

«إذا لم يكن لديك مانع؟ فأنا متعبة جداً».

«طبعاً لا»، وأغلقت سارة غطاء المدفأة، وقالت لها، «وسأغلق الباب أيضاً».

«شكراً لك»، قالت غرايس. ومع أنها لم تعدد الأشياء الكثيرة التي يجب أن تشكر سارة عليها، فقد كانت سارة تعرف.

ابتسمت وقالت: «اذهبي وضعي الطفلة في سريرها».

حملت غرايس ديزي إلى غرفتها في الطابق العلوي. تناهت إليها أصوات من الطابق الأرضي ثم أغلق الباب الأمامي، وخيّم الصمت.

بعد حمّام سريع، جفّفت غرايس شعر ديزي وألبستها قميص نومها، ثم وضعتها في السرير وغطتها. استدارت ديزي المتعبة إلى جانبها تحت الغطاء، ودمدمت «تصبحين على خير» وغطّت في النوم على الفور.

وقفت غرايس التي استنزفت كلّ طاقتها أمام غرفة ماما جي التي كانت تغطّ في النوم، تضع يدها تحت خدّها، وشعرها الأبيض الناعم المجعّد يفترش وسادتها، وعند قدميها، كان يجثم فوق وسادته مثل ملك، القطّ كيلر.

فتح القطّ عينيه عندما دخلت غرايس لكنه لم يتحرّك.

«حسناً، يا ثيو. أظن أنّك هنا لتبقى».

أغمض عينيه، غير مكترث لكرمها.

هزّت غرايس رأسها وعادت إلى غرفتها. عندما انسلّت تحت الأغطية، بدأت تفكّر بما حدث هذا المساء. كانت بحاجة إلى أصدقائها هذه الليلة، وهرع أهل بلدة دوف بوند لمساعدتها من دون أن تطلب منهم ذلك، ومن دون أن يتذمّر منهم أحد، كلّهم، وراحوا يبحثون في الزوايا في الظلام، تحت المطر، دون أن ينتظر أحد منهم أي مقابل. لقد جاؤوا لنجدتها لأنها كانت بحاجة إليهم.

عندما انتقلت غرايس إلى هذه البلدة، ظنّت أنها ستمضي فترة حكم بالسجن هنا، وأرادت أن تتكفئ على نفسها، وأن تعتني بماما جي وبديزي، وتمضي الوقت حتى تغادرها.

أما الآن... فقد راحت تنظر حولها في غرفة نومها المريحة، الدافئة، تنصت إلى صوت المطر الذي يهطل فوق السطح، وهي تعرف أن الأشخاص الذين أحبّتهم موجودون كلّهم هنا، في هذا البيت، في هذا الشارع، وفي هذه البلدة.

الفصل (١٩)

تراف

قبل أسبوع من بدء المهرجان، غير عابئ لهبات هواء الخريف الباردة، رفع بليك نظاراته الشمسية ووضعها على رأسه، وقال: «إذاً... متى ستطلب من غرايس ويلر أن تخرج معك؟»

«اسكت»، صاح تراف بصديقه وأعاد رأسه تحت غطاء سيارة الشرطة، «ألم نتفق أنّك لن تأتي إلى بيتي وأنت ترتدي بدلتك الرسمية؟ إنها تشوّه صورتي».

«صحيح، لكنّي جئت في مهمة رسمية»، قال بليك واتكأ على سيارته الواقفة أمام بيت تراف. «أوول تشارمر تحتاج إلى تغيير الضوء الأمامي».

«إنه اسم مضحك لسيارة شرطة».

«أطلقته عليها لأن أمّي لا تحبه»، قال بليك وربّت على سيارته، «إنه اسم جيد، أوول تشارمر».

«هل تريد أن أصلح الضوء الأمامي أم لا؟ فأنا في عطلة اليوم، ومع ذلك فإني سأصلحه إكراماً لك».

«أعرف. جئت إلى هنا لأني لم أجدك في الورشة».

«آرني هناك، وهو الذي أعطاك الضوء الجديد. كان بإمكانه هو أو أحد الرجال في الورشة أن يركبّه».

«عرف أن بإمكانهم أن يفعلوا ذلك، لكن لا يصلح أوول تشارمر أحد غيرك». أخذ بليك يراقب تراف وهو يعمل، ثم قال: «فوجئت عندما عرفت أنك في البيت، ولم تكن الساعة الخامسة بعد».

«لديّ أعمال يجب أن أنجزها».

«أنت هنا، وليس لديك أعمال أخرى. هل تذكر عندما كنت تعمل حتى وقت متأخر من الليل، حتى في عطل نهاية الأسبوع؟» ونظر بليك من وراء تراف إلى بيت غرايس، «طبعاً، كان ذلك قبل أن يأتي هؤلاء الجيران المثيرين للإعجاب».

«لم أعد إلى البيت باكراً من أجل ‹جيراني المثيرين للإعجاب›. عدت لأنني... اللعنة، لست بحاجة إلى أن أخبرك بأيّ شيء».

«طبعاً، لكن هذا يجعلني أغادر بسرعة».

شدّ تراف البرغي الأخير ثم اعتدل في وقفته، وقال: «حسناً، عدت مبكراً لأنني أفكّر بأن أغيّر شيئاً».

بدا الاهتمام على وجه بليك، وقال: «مثل ماذا؟»

وضع تراف المفكّ في علبة المعدات وأغلق غطاء سيارة بليك، وقال: «سأخبرك لو كان الأمر يخصّك، لكن هذا ليس من شأنك، لذلك أرجو أن تذهب».

«هكذا أنت دائماً. تراف باركر الذي نعرفه ونحبّه».

«هل جئت إلى هنا لتزعجني؟»

«لا، جئت لأغيّر ضوء أوول تشارمر ولأعرف إن كنت تريد أن تشاهد المباراة في بو دانكس. إنها ليلة بيرة بأربع دولارات، إلّا إذا كانت لديك، طبعاً، خطط أخرى».

نظر تراف إلى بيت غرايس. فمنذ أن لاحظت غرايس أن حياكة ماما جي لم تعد كما كانت في السابق، بدأ يذهب إلى بيتها كلّ يوم تقريباً. في البداية، ذهب لإصلاح الأشياء التي وعدها بإصلاحها - لوح الأرضية الذي يصدر صريراً، والدرابزين المخلخل، والسياج المكسور، والمغسلة التي يتسرّب منها الماء. كان بإمكانه أن يصلحها كلّها في يوم واحد لأنها كانت أعمال بسيطة، لكنه أخذ وقته، وكان يصلح شيئاً في كل مرة، وكان يجد دائماً شيئاً آخر يجب إصلاحه عندما يكون هناك، وكان يحرص أيضاً على أن يذهب في وقت العشاء، لأنه كان يعرف أنهن سيدعينه لمشاركتهن الطعام.

كان متأكداً بأن غرايس تعرف أنه يتلكّأ في عمله، لكنه كان يستمتع بوجوده هناك. كان يشعر بأنه في بيته وهو يستمع إلى إجابات غرايس الذكية على أسئلة ديزي، والراحة التي يجدها في حكمة ماما جي. لذلك كان يعمل ببطء، وكان يستمتع بكلّ لحظة يقضيها في بيتهن.

«ستفعل شيئاً حول ذلك؟» سأله بليك.

رمق تراف صديقه بنظرة باردة. «ما هو؟»

أومأ بليك باتجاه بيت غرايس، «ذاك».

«أقول لك شيئاً. سأفعل شيئاً حول ذلك عندما تفعل شيئاً حول...» وهزّ تراف رأسه نحو بيت سارة «ذاك». اختفى المرح من وجه بليك، «هذا شيء مختلف».

«حقاً؟»

«الأمر مختلف تماماً، وأنت تعرف ذلك». احمرّ وجه بليك وأخرج مفاتيحه من الحلقة الجلدية في حزام مسدسه، وقال: «يجب أن أذهب».

«هل ستغادر الآن؟» ابتسم تراف بتكلّف.

«نعم. وأنت ستبقى هنا ولن تعترف بأنك تحبّ جارتك الجديدة».

سحب تراف خرقة من حقيبته ونظّف يديه، ثم قال: «ليست هي فقط. فالطفلة مسلية وماما جي...» هزّ رأسه، بابتسامة، «إنها قاسية. أحبّهما كلاهما».

«إنهما شيئان إضافيان. أعرف أين يكمن اهتمامك الحقيقي. لا تتأخر كثيراً حتى تتحرك، فأسماك القرش تحوم حولها».

تلاشت ابتسامة تراف، وقال: «أسماك القرش؟»

«رجال آخرون. فقد رأيتها تتناول طعام الغداء مع شخص وبدا أنهما كانا مرتاحين مع بعضهما كثيراً».

اللعنة. «من هو؟»

«نيت ستيفينس».

حتى تلك اللحظة، لم يخطر ببال تراف أن نيت زير نساء، لكنه تأكّد الآن بأنه زير نساء حقيقي.

«يبدو أنه مفتون بغرايس»، قال بليك وهزّ رأسه بجدية، «لا بد أنه يحبّ ذلك النوع المنظّم من النساء والمثير أيضاً».

رمق تراف صديقه وقال: «انتهت سيارتك، يمكنك أن تغادر الآن».

رفع بليك يديه، وقال: «حسناً، سأذهب. ظننت أنّك يجب أن تعرف أن هناك فترة صلاحية لمن أنت مغرم بها. أرجو أن يكون هذا هو ‹التغيير› الذي كنت تتحدّث عنه».

«لا»، قال تراف كاذباً. كان ذلك جزءاً من السبب، لكنّه لم يكن السبب الوحيد الذي جعله يعود في وقت مبكر إلى البيت.

«سيء جداً». فتح بليك باب سيارته، «اتصل بي إذا أردت أن تذهب إلى بو دانكس لمشاهدة اللعبة، إذا كان عندك وقت، وصدقاً، أرجو ألّا يكون عندك وقت»، ولوّح له بليك بيده وصعد إلى سيارته وغادر.

أخذ تراف ضوء السيارة المحترق ووضعه في العلبة الفارغة ورماها في حاوية النفايات خارج باب الكراج، ثمّ دخل إلى البيت وغسل يديه. إذاً يظن نيت ستيفينس أنّ لديه فرصة مع غرايس. حسناً، لدى تراف قول آخر في هذا الأمر.

جفّف تراف يديه، ثم أخذ نَفَساً عميقاً، وخرج من البيت إلى بيت غرايس. سار بجانب سيارة ليندا المركونة وحدها عند المدخل، وصعد الدرجات المؤدية إلى الشرفة المائلة، وقرع على الباب الغربال.

تناهى إليه صوت وقع خطوات قبل أن تفتح له ليندا الباب. «مرحباً يا تراف. غرايس لا تزال في المكتب».

التهب وجهه. «هل ماما جي هنا؟ أريد أن أسألها شيئاً».

ارتسمت الدهشة على وجه ليندا، لكنّها تنحّت قليلاً وأفسحت له الطريق ليدخل، وقالت: «طبعاً. تفضل. إنها في المطبخ تشرب شاي أفا. أقسم أنه أشبه بقنبلة».

دخل وقال: «إذاً لا بد أنها تمضي يوماً جيداً؟»

«أنها أفضل بكثير اليوم مما رأيتها منذ فترة طويلة. إنها لا تعرف في أي سنة نحن، لكنّها لا تعيش في الماضي البعيد جداً».

هذا يعني أنه جاء في الوقت المثالي. «سأطلب منها أن تسدي لي معروفاً».

«الآن؟» سارت ليندا أمامه إلى المطبخ، وقالت من فوق كتفها «يبدو أنها مطلوبة كثيراً اليوم».

توقّف، وقال لها، «إذا كانت مشغولة، يمكنني أن أعود في وقت آخر».

وقفت ليندا أمام باب المطبخ، وقالت: «صديقة قديمة تزورها. صادفنا العمّة جو عندما كنّا في محل البقالة وأحضرت لهما قليلاً من الشاي. إنهما تسترجعان بعض الذكريات».

كان يعرف العمّة جو منذ طفولته، لأنها كانت تزور بيت دوف كثيراً. وكانت سارة تطلق على هذه المرأة أحياناً أمّي الثانية. العمّة جو تعرف الجميع.

«عندما تعيش طويلاً كما عاشت، وآمل أن تعيش مثلها»، ابتسمت ليندا، «من الجيد أن نراها هنا لأنها تُضحك ماما جي، ومن الجيد أكثر إذا انضممت إليهما».

«لا، ليس اليوم». رجع خطوة إلى الوراء، وأضاف، «سأعود عندما لا تكون ماما جي مشغولة».

«هل هذا ابن باركر؟» صاحت العمّة جو من المطبخ، «قولي له أن يهزّ مؤخرته ويأتي إلى هنا».

ابتسمت ليندا وفتحت باب المطبخ على مصراعيه، وقالت له، «لا أظن أن أمامك خيار آخر الآن».

كانت ماما جي جالسة إلى طاولة المطبخ، والعمّة جو جالسة قبالتها، أكواب الشاي وصحن الكعك أمامهما، والكلب نائم تحت الطاولة، يصدر شخيراً خفيفاً، لا يكاد يكون مسموعاً.

«حسناً، إذا لم يكن روبرت»، قالت ماما جي وهي تبتسم عندما بدأ تراف يعانقها، «ظننا أنّنا سمعناك تتكلّم مع ليندا».

قال إنه لن يضيره شيء في أن يمكث روبرت قليلاً، فهي تناديه هكذا في معظم الأيام.

انحنت العمّة جو إلى ماما جي وقالت لها من زاوية فمها، «الربّ يحبّك، إذ يأتي شبان وسيمون لزيارتك».

«صحيح»، أشارت ماما جي برأسها إلى الكرسي الفارغ بجانبها، وقالت: «اجلس هنا يا روبرت. إننا نحتسي الشاي. هل تريد أن تشاركنا؟»

«لا، شكراً» جلس وكان يأمل أن يكون وحده.

قالت ليندا المتكئة إلى الكاونتر بجانب باب المطبخ، «ماما جي، لقد جاء زائرنا ليسألك عن شيء».

ثلاثة أزواج من العيون توجّهت إليه مباشرة. اللّعنة.

كما لو أنها شعرت باضطرابه، ربتت ماما جي على يده وقالت: «تبدو متوتراً، أليس كذلك يا جو؟»

«مثل قطّة فوق أرض مبللة بالزيت»، قالت العمّة جو موافقة، «قد يخفف شيء من الشاي من حدّة توتره».

اعتدلت ليندا في وقفتها، وقالت: «أسأعدّ له كوباً من الشاي».

«لا، لا تفعلي ذلك». أمسكت العمّة جو عكازتها ونهضت واقفة، «إن الشاي الذي تصنعينه خفيف جداً».

أطلقت ليندا زفرة وقالت: «وأنت تصنعين الشاي قوياً جداً. يمكنني أن أقطع قطعة اسمنت بالشاي الذي تصنعينه».

«روبرت صبي كبير ويجب أن يكون الشاي الذي يشربه قوياً».

«أنا على ما يرام»، قال تراف، راجياً ألّا يجلس على الكرسي الذي قدّمته له ماما جي لأنه سيبتعد كثيراً عن الباب إذا أراد أن يخرج بسرعة. «من اللطف منكن أن تقدّمن لي كوب شاي، لكنّي يجب أن أذهب. سأعود عندما...»

«ها»، قفزت العمّة جو إلى الخزانة وأخرجت منها كوباً وصبّت فيه ماء ساخناً من القِدر فوق الموقد، «ستبقى في مكانك وتخبرنا عن سبب مجيئك».

شاعراً بشيء من العجز، نظر إلى ليندا التي هزّت كتفيها كأنها تقول إنك ستكون أحمق إذا قاومت.

افترض أنّها على صواب، فلن يكون بوسعه أن يجاري ثلاث نساء قويات. امرأة واحدة، ربّما. اثنتان، من الممكن، لكن ثلاث نساء، لا، أبداً. يجب أن يعرف الرجل حدوده وهذه هي حدوده.

كانت ماما جي تراقبه من فوق حافة كوبها. «ويمكنك أن تخبرنا أيضاً ماذا تريد، لأننا سنكتشف ذلك بطريقة أو بأخرى».

سيعرفن سبب مجيئي أيضاً. «ليس الأمر مهماً. أنا فقط...» فرك رقبته، وتساءل إن كان عليه أن يسأل. أظن أنه لا يوجد ضرر في ذلك. كلّ ما يمكنك أن تفعله هو أن تقول لا. كان وجهه

حاراً، أخذ نفساً عميقاً، وقال: «ماما جي، كانت غرايس قد ذكرت إنك كنت تقصّين شعرها عندما كانت طفلة».

اعتدلت ليندا المتكئة على الكاونتر في وقفتها، والتفتت العمّة جو التي وضعت كيس الشاي في كوب الماء الساخن للتو، ونظرت إليه.

حتى الكلب، فطيرة القمر، الذي كان نائماً تحت الطاولة، شخر كما لو أنه شعر بالتوتّر المفاجئ الذي ساد الغرفة.

«نعم، كنت أقصّ شعرها»، قالت ماما جي، «وكنت أفعل ذلك بشكل جيد أيضاً، أوفّر النقود».

«أظن أنك كنت تفعلين ذلك، وهذا سبب زيارتي اليوم. ماما جي، هل تستطيعين أن تقصّي شعري؟»

اتسّعت عيناها. نظرت إلى شعره ثم إلى حاجبيه وأسفل أذنيه، ثم إلى كتفيه، وقالت: «يا بني، لا شيء يمكن أن يجعلني أكثر سعادة من أن أفعل ذلك».

بعد خمس دقائق، أخذته النساء الثلاث إلى الفناء الخلفي وأجلسنه على كرسي. استخدمت العمّة جو ملقطاً يُستخدم لتثبيت مفرش مائدة حول رقبته، وأحضرت ليندا سلة حياكة ماما جي.

فتتشت ماما جي عن مقصّها في السلة. كان مدفوناً تحت كتل الصوف المتشابكة، لكنّها خلصّته من تلك الخيوط ثم لوّحت به فوق رأسها كأنه سيف، وقالت: «انظروا إلى المقصّ».

«أقسم بأنني أرى قصة شمشون ودليلة أمام عينيَّ»، قالت العمّة جو وابتسامة عريضة على وجهها.

«لا توجد دليلة هنا»، قالت ليندا آسفة.

«أنا سأكون دليلة»، قالت العمّة جو، واتجهت إلى الكرسي الذي وضعته لها ليندا.

ضحكت ليندا، وقالت: «انتظري هنا لحظة. إننا نحتاج إلى شيء آخر». عادت إلى داخل البيت، وأُغلق باب الغربال وراءها بقوة.

نظر تراف إلى المقصّ بهلع. بدا له أنه مقصّ شخص عملاق في يدي ماما جي الصغيرتين، وقال: «لا أظن أنك ستستخدمين هذا المقصّ. يبدو أنه مقصّ كبير جداً».

«لا أحبّ المقصّ الصغير الذي يستخدمه البعض في الحياكة»، وفتحت المقصّ وأغلقته بسرعة، وقالت: «أحبّ المقصّ الذي فيه شيء من الذكاء».

يا إلهي.

أسندت العمّة جو عكازها إلى كرسيها، وقالت «يبدو أنه حادّ جداً بالنسبة لي».

«إنه يقطع الخشب إذا أردتِ»، قالت ماما جي، وعادت تفتحه وتغلقه في الهواء مؤكدة على كلامها.

ودّع تراف أذنيه بصمت. سأموت. أتساءل عمّا إذا كان هناك أحد يعرف كيف يربط عصبة إيقاف النزيف؟ أمسك بمفرش المائدة بقوة الذي بدا له فجأة أنه مربوط بإحكام حول رقبته، وكان الملقط يثبتّه بقوة. «ربما لم تكن فكرة جيّدة. يمكنني أن أعود في وقت آخر».

«لا تقل ذلك». جاءت ماما جي وراءه، وقبل أن ينطق كلمة أخرى، بدأت تقصّ شعره.

لم يعد بوسعه أن يتحرّك الآن، ولا قليلاً. كان قلبه يخفق بقوة، وظلّ ثابتاً في مكانه مثل صخرة، وكان صوت طقطقة المقصّ عالية على نحو غير عادي في هذا السكون.

بعد لحظات، عادت ليندا وبيدها طاسة. جلست على الكرسي بجانب العمّة جو، وسألتها، «هل تحبين قليلاً من الفُشار؟»

«نعم، شكراً. أحبّ أن أتناول شيئاً وأنا أتفرج». راحت العمّة جو تمضغ الفُشار ثم مدّت ساقيها المكتنزتين أمامها. نخر الكلب الذي كان يقعي تحت كرسيها.

قصّت ماما جي قليلاً من الشعر بجانب أذن تراف ثم توقّفت. «روبرت، يا طفلي، أرى أنك تكزّ على أسنانك».

«آسف»، غمغم تراف.

ضحكت ماما جي وعادت إلى عملها. «يا إلهي، كم كنا نتسلّى عندما كنت طفلاً. جو، هل تتذكّرين المشاكل التي كان روبرت وأخوه يسببانها؟»

فقالت العمّة جو: «نعم. مثل تلك المرة التي تسللا فيها واختبآ في صندوق سيارة ليني يورك وعلقا هناك؟ وظنّ ليني أنهما شيطانان ورفض أن يخرجهما؟»

ضحكت ماما جي ثم بدأت تتذكّر أشياء أخرى كان والد تراف يقوم بها. وبشكل غريب، بدا أن مفعول هذه القصص مهدئاً جداً عليها ووجد تراف نفسه يبتسم عندما كانت ماما جي والعمّة جو تتذكران ما كان يفعله والده.

كان تراف قريباً جداً من أبيه، لكنّه بدأ يدرك الآن أنّه كان يعرف جانباً واحداً منه فقط كأب، واكتشف أنه كانت هناك جوانب أخرى في حياة أبيه وهي أن روبرت باركر كان شخصاً يحب المزاح، لكن من يعرف أشياء أخرى عنه. يا له من أمر مضحك، لكننا لا نعرف في حياتنا إلّا الأشخاص بحسب قرابتهم لنا - أب أو أمّ أو أخ - فإننا لا نراهم أبداً كما يراهم الآخرون.

كانت الدقائق الخمس عشرة التالية مقلقة. ظلّ تراف ثابتاً في مكانه بقدر ما يستطيع، ومع أن المقصّ الكبير كان يقترب منه كثيراً أحياناً، فلم يلمس جلده ولا مرة. وتساقطت خصلات شعره الأسود فوق العشب، وكان الهواء الناعم يجرفها بعيداً. كان يراقبها وهي تتساقط فوق العشب ثم يجرفها الهواء وتستقر بجانب شجرة بلوط قديمة.

أخيراً، أنزلت ماما جي مقصّها وقالت: «أظن أن هذا أصبح أفضل»، ودارت حوله ببطء، «نعم، هذا جيد».

نظر إلى العمّة جو وليندا ووجد أنهما متسمّرتان في مقعديهما، عيونهما مثبتّة عليه، وقد نسيتا الفُشار في الطاسة.

ثم قالت العمّة جو «هه. نسيت كم كان أبناء باركر وسيمين».

«إنه يشبه والده كثيراً، أليس كذلك؟» قالت ليندا.

أرخت ماما جي الملقط الذي يثبّت مفرش المائدة حول رقبة تراف ووضعته جانباً.

نهض تراف واقفاً ومرر يده في شعره، وشعر بالارتياح عندما وجده قصيراً، لكنه لم يكن قصيراً جداً. أحسّ برأسه أخفّ، وبدا هواء الخريف أكثر برودة. فرك رقبته وأجفل عندما أدرك أن ندوبه قد ظهرت. كان يعرف أن ذلك سيحدث، لكنه شعر بضعف غريب.

ربتت ماما جي على ذراعه وقالت: «لا تختبئ يا بنيّ». يا إلهي، نعم». أمسكت العمّة جو عكازها وجرّت نفسها على قدميها، «تبدو جميلاً، سواء بهذه الندوب أم بدونها. لو كنتُ أصغر خمسين سنة، لأصبحت صديقتك مع أن فطيرة القمر سيغار».

فقالت ليندا ساخرة، «اللعنة على العمر المناسب، فلولا أن مارك طاه ماهر، لطاردتك الآن».

خيّل إلى تراف أن وجهه لا يمكن أن يزداد احمراراً، لكنّه كان مخطئاً. ولكي لا يأخذ الحديث منحى أسوأ، التفت إلى ماما جي وقال: «بكم أدين لك لحلاقة الشعر هذه؟»

«اسكت. اعتبرها هدية لقاء بعض الأعمال التي فعلتها لنا في هذا البيت»، ونظرت إلى العمّة جو، وأضافت: «إذا كنت بحاجة إلى إصلاح أي شيء، فهو جيد، لكنه يا إلهي، بطيء».

«هممم. قد يكون هناك سبب يجعله بطيئاً».

«هذا ما أظنه»، قالت ليندا موافقة.

يا إلهي، أرجوك لا تدعهن يبدأن التكلّم عن ذلك.

ابتسمت ماما جي وقالت: «إنه يحبّ ابنتنا غرايس».

إنه كابوس. «لم أفكّر حقاً...»

«إنه أكثر من أنه يحبّها، إذا سألتموني»، قالت العمّة جو، «انظرن كيف تضرّج وجهه عندما ذكرتِ اسمها».

أومأت ليندا، وقالت: «يجب أن نساعده، أن ننصحه».

فقالت العمّة جو، «هذا أقلّ ما يمكننا أن نفعله. إذ لدينا نحن الثلاثة أكثر من مائة وخمسين سنة من الخبرة، أما هو فلا توجد لديه أكثر من ثلاثين سنة».

نظرن إليه جميعهن بشيء من العطف.

نصف ضاحك، ونصف ميت من شدّة الحرج، رفع يديه وقال: «إنكن في غاية اللطف، لكن أظن أنني أعرف ما الذي يجب أن أفعله».

«من الأفضل أن تفعل ذلك بسرعة»، قالت ليندا، «فهي تقول إنّها لن تبقى كثيراً هنا، ويجب أن تجعلها تغيّر رأيها.»

«قد يأخذ ذلك وقتاً»، قالت العمّة جو، «ويحتاج إلى تشجيع».

«إنها تحبّ الزهور»، قالت ماما جي، «والأفلام أيضاً. إننا نشاهد أفلاماً في كلّ ليلة، وهي وديزي تحبّان الأفلام القديمة. وأظن أنها تحبّ أن تتناول العشاء خارج البيت أيضاً، في مطعم ليس فاخراً جداً. إنها... آه. اذكر الذيب»، وأومأت ماما جي نحو الشارع، «ها هي غرايس قادمة».

التفت تراف ورأى سيارة الهوندا تتوقف عند المدخل، وكانت العجلات تطقطق فوق الحصى.

«عادت في وقت مبكر». نهضت ليندا من كرسيها ونظرت من فوق السياج، «هذا شيء غير معتاد. كان على غرايس المسكينة أن تعمل كثيراً وتتأخر في العودة إلى البيت للتحضير المهرجان. سأكون سعيدة جداً عندما ينتهي».

توقّفت السيارة بجانب الشرفة. فتحت ديزي من جانبها الباب بقوة وقفزت من السيارة، واختفت في مكان ما أمام البيت، وتركت الباب مفتوحاً. وبخطوة أكثر أناقة، خرجت غرايس من السيارة وتبعت ابنة أختها، ثم توقّفت لتغلق باب السيارة الذي تركته ديزي مفتوحاً قبل أن تختفي عن الأنظار.

بعد لحظة، سمع تراف صوت باب الغربال يُغلق فشعر فجأة بالرغبة في أن يغادر. وبسرعة ودعهن وسار بهدوء، لكن بسرعة، واجتاز السور وعاد إلى أمان بيته.

لكن قبل أن يتمكّن من أن يفعل أكثر من أن يفكر بما حدث، فُتح الباب الخلفي بقوة واندفعت ديزي إلى الفناء الخلفي.

عندما رأت الجميع توقّفت في مكانها، وانتقلت عيناها الزرقاوان من العمّة جو إلى ليندا ثم إلى المقصّ الذي كان لا يزال في يد ماما جي، وأخيراً إلى تراف، وصاحت، «واو. إنك تبدو مختلفاً»، واقتربت منه ثم دارت حوله.

قاوم الرغبة في أن يغطي ندباته، ثم قال «حسناً؟»

«أصبحت تبدو أصغر سناً. أصغر بكثير».

هذا جيد. أليس كذلك؟ «شكراً لك».

هزّت ديزي كتفها بلا مبالاة وقد تحوّل انتباهها بسرعة، «أنا ذاهبة لأرى فطيرة القمر».

نظرت العمّة جو بابتسامة عندما جثت ديزي على ركبتيها وضمت الكلب إليها، وقالت: «ألن ترحبّي بي؟»

فقفزت ديزي ووقفت على قدميها، وقالت: «آسفة يا عمّة جو»، وحضنت المرأة العجوز.

ربتت العمّة جو على كتف ديزي، وقالت: «حسناً. أنا معتادة على ذلك، لأن هذا الكلب يسرق مني الأضواء مرة في اليوم على الأقل، وأحياناً أكثر. إنه...» قطبّت جبينها، وتحوّلت نظرتها إلى ماما جي، «إرما، عزيزتي، هل أنت على ما يرام؟»

كانت ماما جي تحدّق في المقصّ الذي لا تزال تمسكه في يدها كما لو أنها تراه للمرة الأولى. «كنت...» وانتقلت نظرتها إلى سلة الحياكة، «هل كنتُ أحوك الصوف؟»

غاص قلب تراف عندما سمع صوتها المتهدج.

أعطت ليندا طاسة الفُشار الفارغة تقريباً إلى العمّة جو وذهبت ووقفت بجانب ماما جي. «نعم. سآخذ هذا المقصّ. سلة الحياكة هنا. ألا ترينها؟»

استرخى حاجب ماما جي، وقالت: «نعم. طبعاً»، وضحكت محرجة، «لا أعرف لماذا لا أستطيع أن أتذكّر ذلك».

وضعت ليندا المقصّ في السلة التي وضعتها بين ذراعي ماما جي، وقالت: «لماذا لا ندخل، فقد بدأ الجو يبرد هنا. ديزي، هل تريدين أن تساعدي جدتك لتصعد الدرج؟»

«طبعاً». وضعت ديزي ذراعيها حول ماما جي وسارتا معاً نحو الشرفة. «هل كنتِ تعملين في حديقتك؟»

«كنتُ أنتظرك، لكنّي أشعر بقليل من التعب الآن».

«قد تساعدك وجبة خفيفة»، قالت ليندا، «يمكنني أن أعدّ زبدة الفستق وشرائح التفاح».

«أحبّ التفاح»، قالت ماما جي مع أنها بدت منهكة فجأة، وضمت إليها سلتها بينما كانت ديزي تقودها إلى الشرفة.

سارت ليندا خلفهما مع العمّة جو، يتبعهن الكلب وهو يلهث. «العمّة جو، كان من الممتع جداً أنك زرتنا. سنذهب عندما أعدّ وجبة لديزي وسأرافقك في طريقي إلى البيت».

«شكراً. عندي أعمال كثيرة هذا المساء. إذ ستشارك الكنيسة المعمدانية الأولى في مهرجان التفاح، وسأقوم بطباعة فقرات من الانجيل على قصاصات صغيرة سنضعها داخل أغلفة المصاصات. ستكون أشبه بورقة يانصيب».

نظرت ديزي خلفها، وسألتها، «هل يمكنني أن أساعدك؟»

«طبعاً يمكنك أن تساعديننني. اسألي خالتك إن كان بإمكانك أن تمضي بعض الوقت في بيتي غداً. الكلب يحبّ الضيوف. ها هي خالتك».

خرجت غرايس للتو من البيت، ووقفت على الشرفة. فوجئت عندما رأت عدة أشخاص في فناء البيت - ثم انتقلت نظراتها إلى تراف.

كبح تراف الرغبة في أن يلمس شعره. لم يكن يعرف ماذا يفعل بيديه، فعقد ذراعيه على صدره.

صعدت ديزي وماما جي الدرج، ثم دخلت ماما جي التي كانت لا تزال تحمل سلتها إلى البيت، وبقيت ديزي لتتكلّم مع غرايس. أدرك تراف أنها تبدو متعبة قليلاً هذا المساء، فقد كان شعرها الذي تعقده في شكل كعكة دائماً، محلولاً قليلاً، وخصلة طويلة تنسل فوق رقبتها.

أراد تراف أكثر من أي وقت مضى أن يكون قد غادر. لماذا عادت إلى البيت اليوم في وقت مبكّر على غير عادتها؟ لم يكن مستعدًّا لأن يكلّمها بعد. فهو يحتاج إلى وقت ليفكّر جيداً، ليعرف ماذا يقول. لقد عاد للتو إلى البيت، وكان عليه أن أن يمر بجانب غرايس في الشرفة، ويهرب من المطبخ.

ضمّت ديزي غرايس إليها وعانقتها ثم تبعت ليندا والعمّة جو إلى داخل البيت حيث كانت ماما جي تنتظرهما.

أُغلق باب الغربال وراء ديزي وأصبح تراف وحده مع غرايس.

ماذا أقول لها الآن؟ لم يستطع أن يفكّر بأي شيء. فرك ذقنه، متمنياً أن تكون لديه موهبة بليك في التكلّم.

هبطت درجات الشرفة، وسارت نحوه فوق العشب. توقّفت أمامه، وحرّك نسيم المساء البارد خصلة شعرها السوداء المنفلتة وشدّت إليها بلوزتها الزرقاء. عقدت ذراعيها، كما لتدرأ الهواء البارد عنها.

وهكذا وقفا، وجهاً لوجه، ذراعا كلّ منهما معقودتان، يبدو أن أحدهما لا يعرف ماذا سيقول للآخر.

تنحنح أخيراً تراف وقال: «تبدو ديزي سعيدة اليوم».

استرخت تعابير غرايس، وقالت: «نعم، بفضل اللجنة. فقد أحبّت العمل في البلدة هذا الصيف. كانت مشغولة وأصبح عندها عدد من الأصدقاء. وعندما بدأت المدرسة، كانت تعرف معظم الأطفال في صفّها».

«قالت سارة إن العديد منهم يحضرون ساعة قراءة الأطفال التي تقيمها في المكتبة».

«كلّهم تقريباً، وهذا ما ساعد ديزي كثيراً فجعل الأطفال في صفّها يحبّونها أيضاً. لم يكن لديها قط هذا العدد من الأصدقاء».

«هذا جيد».

«جيد جداً. لقد تغيّرت كثيراً في الشهور القليلة الماضية».

«إنها طفلة جيدة وأنتِ والدة جيدة».

فتحت فمها لتجادله، لكنها توقفت وهزّت كتفيها، بدت محرجة على نحو يثير الإعجاب. «شكراً. فهي كلّ شيء بالنسبة لي».

«كما ينبغي أن تكون».

ابتسمت غرايس، وقالت: «إنها تحبّك أيضاً».

«إنها تحبّ كلّ من يدعها تغسل دراجته النارية».

«ويدفع لها مقابل ذلك. تقول إنها ستنفق الدولارات العشرة في معرض الكتاب»

«إنه مكان جيد لتنفقها فيه».

انتقلت نظرة غرايس من عينيه إلى شعره. «أنت... تبدو جميلاً حقاً».

«ماما جي قصّته لي».

ارتفع حاجبا غرايس، وسألته بدهشة، «صحيح؟»

«قلتِ إنها كانت تقصّ لك شعرك، فقلت لنفسي لم لا تقصّ شعري أنا أيضاً». لمَ لا. على الرغم من أن هذه الكلمات قليلة، فهي في محلها، وقد تعني الكثير.

«ظلّت تقصّ شعري حتى أصبحت في المدرسة الثانوية، عندها قرّرت إنّني يجب أن أذهب إلى حلاق محترف». دسّت غرايس خصلة شعرها الفالتة وراء أذنها وقالت بنبرة ماكرة، «لم يكن ذلك يعجبني آنذاك».

«كنت أذهب إلى الحلاق في البلدة، لكنّه تقاعد منذ عدة سنوات وأغلق محله».

«ألهذا السبب تركت شعرك طويلاً هكذا؟»

«لا. كان الذهاب إلى الحلاق يبدو لي مضيعة للوقت، ولم أكن أخالط الناس آنذاك، لذلك...»

«ما الذي غيّر رأيك؟»

أنتِ. رنّت الفكرة بصوت عال وواضح في رأسه، ودنا منها. ليس كثيراً، لكن بما يكفي ليعلمها أنه تعمّد ذلك، «قرّرت أنه حان الوقت لأخالط الناس وأصبح شخصاً اجتماعياً».

«أوه».

لم يكن ذلك مشجَّعا تماماً، لكنّه قطع كلّ هذا الشوط ولن يتوقّف. «أريد أن أصبح صديقاً لك بعد انتهاء المهرجان، ويتاح لك مزيد من الوقت».

وضعت يدها على خدها، وقالت: «تصادقني، تقصد...»

«نخرج معاً». يا إلهي، قالها أخيراً، ولا يمكنه أن يسحبها الآن.

انتظر، أطبق صدره عليه كأنه سينفجر.

انتقلت نظرتها إليه، واستقرّت على شعره، ثم على عينيه، وقالت أخيراً: «لا أنوي أن أمكث في دوف بوند دائماً».

«أعرف. مع أنّني أظن أن هذا خطأ».

أظلمت نظرتها. «ربما. الحياة هنا جميلة. فقد أصبحت ديزي سعيدة وتشعر ماما جي براحة أكثر بكثير لأن الأشخاص الذين تعرفهم أصبحوا حولها، لكن...» نظرت غرايس باتجاه البيت عندما سمعت صوت نساء يضحكن داخل البيت، فاسترخى ووجهها وأضافت، «لا أعرف. ربما»، ثم عادت إليه وقالت: «لكن مهما كان، سواء بقيت هنا أم لا، فإني سأكون مسؤولة دائماً عن ديزي».

«طبعاً».

«وماما جي أيضاً، بقدر ما أستطيع». تهدّج صوت غرايس عندما قالت ذلك.

تمالك نفسه عن الرغبة التي اعترته في أن يقترب أكثر ويضمها إليه. «أعرف»، كرّر بحزم ومن دون تردد.

«والتعامل معي ليس سهلاً دائماً أيضاً، فأنا سريعة الغضب».

هزّ رأسه وقال: «لاحظت ذلك».

فانفجرت ضاحكة، «لا أظن أنك يجب أن توافقني في ذلك».

«آسف. هذا صحيح. وأنا هكذا، وصدقاً، لا يهمني ذلك. في الواقع، عندي سؤال واحد فقط».

«وهو؟»

«هل سنتناول العشاء معاً ونذهب إلى السينما في أول لقاء لنا؟ أم أننا سنتعشّى فقط؟ ربما نريد أن نتكلّم. أن يتعرّف أحدنا على الآخر أكثر. والله، فأنا أحبّ أن أبادلك الحديث». لقد أحبّ أشياء أخرى في هذه المرأة، لكن حتى لو أن كلّ ما سيحصل عليه منها مجرد خيط من الكلمات، فإن ذلك يكفيه ولن يندم على أيّ شيء فعله في حياته.

عضّت على شفتها. كان بإمكانه أن يشعر بصراعها داخل نفسها. كانت تريد أن تقول نعم، وكان يرى ذلك في عينيها. لكنّها امرأة مزهوة بنفسها، وحذرة، وعازمة على أن تحافظ على استقلاليتها. كان بوسعها أن تحتفظ بكل ذلك لو قالت كلمة واحدة قصيرة - لا.

«حسناً»، قالت لاهثة «دعنا نحاول».

صُدم فقال: «حقاً؟» عندما نطقها تمنّى أن يعيدها، فأسرع ليضيف، «أقصد، جيد. جيد جداً. سأ... يمكنني أن أحجز مكاناً. ربما يوم السبت بعد المهرجان؟ هناك عدة مطاعم ممتازة في أشفيل و...»

«لا. دعنا نبدأ هنا، في دوف بوند. لنذهب إلى مقهى ضوء القمر. سنطلب وجبة خبز باللحم وطبق...» ضحكت بهدوء وهزّت كتفيها بلا مبالاة، «وسنرى ما الذي يمكن أن يحدث».

تملكته الرغبة السخيفة في أن يلكم الهواء ويطلق صرخة الحرب «ووووووب»، لكنه حافظ على رباطة جأشه وقال: «إذاً لنذهب إلى ضوء القمر. أظن أنّني يجب أن أذهب الآن».

«نعم. عدت في وقت مبكر لأدرس ميزانية المهرجان للمرّة الأخيرة. لم أشأ أن أبدأ بدراستها ثم أذهب لأحضر ديزي، فقررت أن أجلب العمل معي إلى البيت وأحضرت ديزي في وقت مبكّر قليلا أيضاً».

«أنتِ مشغولة الآن. عليّ أن أذهب. لكنّي سأراك بعد أسبوع من يوم السبت. أقصد، سأراك قبل ذلك الوقت أيضاً. يجب أن آتي لأصلح الرفّ في خزانة المعاطف، وسأراك في المهرجان أيضاً، لكن... «يا إلهي، اسكت! وابتسم بشيء من الخجل وقال، «تعرفين كلّ ذلك».

تورّد خداها، أومأت، وقالت «طبعاً. فيما بعد يا باركر».

« فيما بعد يا ويلر»، ثم استدار واجتاز الشرفة ثم دخل إلى البيت. عندما دخل إلى المطبخ، نظرت إليه السيدات العجائز الثلاث، كلّ واحدة منهن تدرس تعابير وجهه.

«لقد فعلها»، قالت العمّة جو فرحة.

«فعل ماذا؟» سألت ديزي وهي تلعق زبدة الفستق من أصابعها.

«الشيء»، قالت ليندا.

«أيّ شيء؟»

«الشيء الذي كان يجب أن يفعله منذ شهر»، أجابت ليندا وهي تضع قطعة تفاح أخرى في صحن ديزي.

«حان الوقت»، قالت ماما جي.

رأى تراف أن ديزي تريد أن تسأل أسئلة أخرى، فغمغم مودعاً وخرج من المطبخ بسرعة. ثمّ، ابتسم ابتسامة عريضة، وعاد إلى بيته.

الفصل (٢٠)

سارة

من المكان الذي كانتا تجلسان فيه على كراسي خشبية قابلة للطيّ على المدرّج الفارغ، راحت سارة وأفا تراقبان ليني سميث وريكي بوب وتومي وهم يحملون خيم المهرجان ويضعونها في مؤخرة الشاحنة. ومن بعيد، تناهت إليهما أصوات موسيقى من الاحتفال الأخير لمهرجان التفاح، والنار الموقدة في باحة مدرسة دوف بوند الثانوية على مسافة غير بعيدة عنهما. أراد إد ونيت إطلاق أسهم نارية، لكن بما أن ميزانية المهرجان لم تسمح بذلك، فقد استقرّ رأيهما على إشعال نار في باحة المدرسة وإحضار فرقة موسيقية محليّة لتعزف الموسيقى.

هواء الخريف البارد جعل سارة تدسّ رأسها في معطفها وكوّرت يديها حول كوب شراب التفاح الدافئ الذي أحضرته لها أفا. ومع أن شراب التفاح كان لذيذاً ومنعشاً، لم تشعر سارة بالتعب طوال حياتها كما تشعر الآن. لقد حقق مهرجان التفاح نجاحاً عظيماً - حتى أكثر مما كانت تتمنّى. في الواقع، كانت الشكوى الوحيدة التي سمعتها حتى الآن هي أنه كان مزدحماً جداً.

مدّت أفا الجالسة بجانبها ساقيها التي يبدو أنها متعبة أيضاً، وقالت: «كانت عطلة نهاية أسبوع رائعة».

«أعرف. أشعر كأنني ضُربت بمضرب».

«لا عجب في ذلك. لقد أبليت بلاء حسناً. كان بيع الكتب نجاحاً عظيماً».

ابتسمت سارة، وقالت: «كانت الكتب متلّهفة جداً. بيوت دائمة لها كلها».

«كان المهرجان كلّه عظيماً». نظرت أفا إلى أختها من فوق حافة كوب شراب التفاح، وأضافت، «يجب أن تكوني فخورة بنفسك. لقد أنجزت الكثير».

«لا، غرايس هي التي أنجزت الكثير. أنا ساعدتها فقط».

«أستطيع أن أقول إنك أنت المسؤولة عن هذه المعجزة التي حدثت». خفضت أفا كوبها، وأضافت، «عندما كنّا صغاراً، كنت تقولين دائماً إنّك ستنقذين البلدة، لكن ليس بالطريقة التي حدثت بها الآن».

«ليس تماماً». قالت سارة وقد افترّت عن شفتيها ابتسامة، «انتابني شعور بالغيرة عندما أدركت في البداية أن غرايس هي التي ستنقذ دوف بوند. فمن القصص القديمة التي تقول إن عائلة دوف تكون موجودة دائماً عندما تحدث أشياء غريبة - كان يفترض أن أكون أنا التي ستنقذها. نوع من

بطلة سحرية، لكن تبيّن أن إنقاذها كان يحتاج إلى كلينا»، ثم نظرت إلى أفا، «في الحقيقة، احتاج إنقاذها إلينا نحن الثمانية. لقد أنقذت اللجنة هذه البلدة، وليس أنا وغرايس فقط».

«أنتِ كريمة»

«أنا صادقة».

رشفت أفا شراب التفاح، وقالت: «هل تظنين أن صفيحة يوميات شارلوت دوف كذبت عليك؟»

«لا أظن أنها كانت تعرف التفاصيل، لكنّها لم تشأ أن تعترف بتلك الحقيقة. فهو كتاب قديم فخور بنفسه كثيراً، وغريب جداً. وقفتُ بجانبه اليوم وأبلغته بأن الأمور تسير على ما يرام. أظن أنه كان سعيداً، مع أنه غطّ في النوم في وسط حديثنا».

فقالت أفا: «هذا الكتاب مزعج».

«نعم. لكن بلدتنا ستعود كما كانت، وهذا هو المهم. بالإضافة إلى أنه أصبحت لديّ صديقة رائعة بسببه. إن غرايس فتاة خاصّة».

«أتظنين أنها ستبقى؟»

«نعم. لا أظن أنها قالت ذلك بعد، لكنّها بدأت تفكّر في الأمر».

ضحكت أفا، وقالت: «من المؤكد أنها تعرف كيف تدير مهرجاناً».

تقدمت إرما تينغل نحوهما، تحمل حقيبة، وقالت: «أنت هنا. كان يجب أن أخمن أنّك ستكونين هنا».

«حقيبتي»، قالت سارة ومدّت يدها نحوها، «أين وجدتها؟»

أعطتها إرما الحقيبة، وقالت: «لقد نسيتها في خيمة الكنيسة المعمدانية الأولى».

«لم أدرك أنني نسيتها». نظرت سارة داخل الحقيبة إلى الكتب الثلاثة التي كانت بانتظارها. حيّتها دندنة خفيفة. «لم أنس»، قالت للكتب.

«هل هي غاضبة؟» سألتها أفا.

«ليس بعد» وضعت سارة الحقيبة عند قدميها ولاحظت أنّ إرما تحك أسفل ظهرها. «اصعدي واجلسي معنا».

«شكراً، يجب أن أعود إلى البيت. هل رأيت زوي مع رفيقها الإيطالي الوسيم؟»

«نعم، من هو؟» سألتها أفا.

«إنه يمتلك مطعماً في شارلوت، لكنّه يقول إنه سيفتح مطعماً هنا».

نظرت أفا إلى سارة، وقالت: «الآن عرفت لماذا كانت تريد كتاب تعليم العبارات الإيطالية».

فقالت سارة، «لهذا السبب كانت غاضبة. فهي لا تريد أن تصدّق. هناك أناس لا يصدّقون شيئاً».

«إنهم الخاسرون»، قالت إرما بغضب. نظرت حولها، ولانت قسمات وجهها، وأضافت، «كان مهرجاناً عظيماً، أليس كذلك؟ لم أر ازدحاماً كهذا. لقد بعت كلّ شيء وكسبت نقوداً تعوّضني عن الموسم البطيء».

«وأنا أيضاً»، قالت أفا، «قالت زوي إن أربع شركات تجارية تريد أن تجتمع معها للتعرف على البلدة أكثر، وتقول إنها متأكدة بأن ثلاث شركات منها ستأتي، وقالت كات إنّها تلقت خمسة عشرة طلباً لزيارة بعض العقارات في البلدة».

«سمعت أن أحدهم وقّع معها عقداً مباشرة»، قالت إرما.

أنهت أفا شرابها وقالت: «هذا أنا».

متفاجئة، نظرت سارة إلى أختها، وقالت: «أنتِ؟ غير معقول. تقصدين مقهى الشاي؟»

«صالة الشاي»، قالت أفا مصحّحة، «لقد فكّرت بكل ما تحدّثتم عنه في الاجتماع عن الاستثمار في بلدتنا، وقررت أن أفتح صالة شاي. قدمّت لي كات صفقة عظيمة لمحل بيع الزهور الفارغ بجانب مقهى ضوء القمر. سننهي الاتفاق صباح غد».

«ستعقدين الاتفاق؟» نظرت سارة إلى أختها، «هل ستشترين المبنى؟»

«سأستخدم الطابق الأول لصالة الشاي، وأبني شققاً في الطابق العلوي. توجد شقة فيه للتو، لكنها بحاجة إلى ترميم. نظن أن هناك مساحة تكفي لبناء شقة أخرى إذا بدّلنا أماكن بعض الجدران».

قالت لها سارة، «يمكنك أن تبني الشقق التي تريدين، لكنك لن تنتقلي من بيتنا».

فابتسمت أفا ابتسامة عريضة وقالت: «طبعاً، لا. فمن سيقوم بالغسيل عندئذ؟»

فقالت سارة ساخرة: «أنا سعيدة لأنك تقدّرين عملي».

قالت إرما، «أعجبتني فكرة صالة شاي. ستكون رائعة وهذا يناسب بلدتنا».

ابتسمت أفا بهدوء، وقالت: «سأقدّم جميع أنواع الشاي التي أعدّها، ووجدت موزِّعا في أشفيل للقهوة. وسأبيع أباريق شاي أيضاً ومصافٍ وكلّ تلك الأشياء».

«ألن تقدّمي طعاماً؟» سألت إرما.

«كعك وفطائر ومعجّنات. لا أكثر. سأشتريها من مخابز محليّة. قالت العمّة جو إنّها ستعدّ تشكيلة متنوعة من الكعك كلّ أسبوع، وأظن أنها ستكون سعيدة لأن تكسب نقوداً إضافية، وعرض مارك روبنسون أن يزودني بفطائر الفاكهة، وسأجلب الباقي من مقهى ضوء القمر».

رمشت سارة بعينيها وقالت: «هل جولز لا تمانع بفكرة صالة الشاي؟ ألن تشعر بالمنافسة؟»

«عرضت جولز أن تزودني بفطائر طازجة كلّ أسبوع، وبكمية كبيرة أيضاً إذا وعدتها بألّا أقدّم وجبات طعام كاملة».

«آه. هذه اتفاق إذاً».

ابتسمت أفا، وقالت: «لا أنوي منافستها، وهي تعرف ذلك. بهذه الطريقة سنربح كلانا، وقلت لها إنني سأوزّع نشرات عن الوجبات الخاصة التي يقدمها مقهى ضوء القمر كلّ الأسبوع، وكانت سعيدة بذلك».

أومأت سارة وقالت: «كنتِ دائما سيدّة أعمال جيدة».

«وكنتِ دائماً بطلة جيدة في البلدة». كانت نظرة أفا دافئة.

«إن شاء الله»، قالت إرما.

«شكراً. هذا يعني الكثير». بدأت سارة ترشف شراب التفاح، لكنها رأت شيئاً جعلها تنسى على الفور الكوب الدافئ الذي تمسكه بيدها. «أووووه، انظري إلى هناك».

التفتت إرما وأفا لتريا ما الذي أثار انتباهها.

كانت غرايس واقفة مع تراف بجانب النافورة، يتحدّثان، لكن يدها تلمس ذراعه وكان قريباً جداً منها كما لو كان يخشى ألّا يسمع كلمة تقولها له.

تنهّدت سارة بارتياح، وقالت: «يشكلان زوجاً لطيفاً، أليس كذلك؟»

«لطيفان مجنونان»، وافقت أفا.

«أتظنّي أن الأمر جدّي؟» سألت إرما.

«أوه، إنه جدّي جداً. لا لأنه قصّ شعره فقط، وإنما لأنه طلب مني أيضاً الأسبوع الماضي أن ألقي نظرة على خزانة ملابسه ليتخلص من الأشياء التي يجب أن يتخلص منها». ضحكت سارة، وأضافت، «ثم ذهبنا لنتسوّق لأنه لم يبق عنده سوى أربع بناطيل جينز زرقاء، وكومة من القمصان، وعدة قمصان قطنية».

«أتظنين أنه فعل ذلك من أجلها؟» بدا قدر من الحسد على وجه أفا.

«ومن أجله أيضاً. فقد قرر أن يتخلّى أخيراً عن الماضي، وسيبيع الأشياء التي لا يريدها الأسبوع المقبل. ونظّف جميع الأغراض التي تعود إلى أبيه وقرّر أن يجدّد الحمّامات والمطبخ».

«يا إلهي»، قالت أفا، «كان تائهاً منذ فترة طويلة».

«نعم، لكن غرايس وجدته الآن».

بدا أن إرما تأثرت بما سمعته، فقالت: «ترافيس شاب طيب. آمل أن يعرف أنه عثر على كنز ثمين بغرايس».

ضاقت نظرة أفا وانتصبت واقفة في كرسيها، وقالت: «الأزهار».

عبست إرما، وسألتها، «أي أزهار؟»

«الأزهار التي حول النافورة وراء غرايس وتراف. في الأسبوع الماضي، زرعت أنا وليني زهوراً نجمية زرقاء في كل مكان من أجل المهرجان أصبحت الآن قرمزية».

اتسعّت عينا إرما، وقالت: «اللون القرمزي يشبه الحبّ».

ابتسمت سارة وقالت: «يبدو أن حظّ عائلة دوف السعيد وافق على هذا الاتحاد».

«في هذا اليوم بدأت الأمور تتحسّن أكثر فأكثر»، قالت إرما وهي تنظر إلى غرايس وتراف وهما يبتعدان عن النافورة ببطء، فبدأ لون أزهار النجمية الممتدة على طول الدرب يتغيّر وراءهما، «بارك الله في حظّ عائلة دوف. أحبّ كثيراً النهايات السعيدة».

«وأنا أيضاً»، قالت أفا.

هزّت إرما رأسها معبّرة عن موافقتها، «حسناً يا بنات، الوقت ممتع معكما لكن يجب أن أعود إلى البيت. لكن قبل أن أذهب، عندي فكرة أريد أن أقولها لكما».

«ما هي؟» سألتها سارة.

«لدينا رئيس بلدية كسول منذ زمن بعيد».

لوت سارة وجهها، وقالت: «كان مزعجاً في عطلة نهاية هذا الأسبوع. كان يطوف في أرجاء المهرجان وينسب إلى نفسه فضل إقامة المهرجان كلّه».

«نعم، لكنّه لم يكن يعرف ما الذي كان يجري»، قالت أفا.

«كالعادة.»

فقالت إرما: «لذلك نحتاج إلى رئيس بلدية جديد. شخص أفضل منه يعرف كيف تتقدم البلدة».

رمقت سارة المرأة العجوز وقالت: «سأصوّت من أجلك».

«لا. من أجل غرايس».

رفعت سارة كوبها لتأخذ منه رشفة، لكنها عادت وأنزلته.

«غرايس؟ لمنصب رئيس البلدية؟»

هزّت إرما رأسها، وقالت: «أريد أن أقود حملتها. كما تعرفين، عندما تسلّمت غرايس رئاسة اللجنة في البداية، كانت الشكوك تساورني حولها، أما الآن فأنا أؤيدها بالكامل».

«سجلّي اسمي كمتطوّعة في الحملة»، قالت سارة.

رفعت أفا يدها، وقالت: «وأنا».

ابتسمت إرما، وقالت «هذا شيء رائع، أليس كذلك؟ لكن يجب أن أقنع مرشّحتنا أولاً لأن تقبل أن ترشّح نفسها. وعندما تقبل، سأتصل بكما».

«أرجو أن تتمكني من إقناعها»، قالت سارة، «إذا كنتما تريدان أيّ مساعدة، فأنتما تعرفان أين أنا».

«سأفعل ذلك. اطلبي من كتبك أن تفكّر في هذا الأمر أيضاً».

«سأحاول، لكنّك تعرفين كيف هي».

«ألم تعطِ غرايس كتاباً؟» سألتها أفا.

«نعم. نساء صغيرات».

«هل عرفت لماذا أراد أن يزورها؟»

«لا، لكنّها أعادته في الأسبوع الماضي. مهما كان يريد أن يفعله، فلا بد أنه فعله».

هزّت إرما رأسها، وقالت: «لن أفهم أبداً كيف يعمل كلّ ذلك، لكنّي سعيدة بأنها تفعل ذلك». شدّت معطفها عليها، وقالت: «الجو يزداد برودة، أظن أنني سأتوقّف عند شعلة النار قليلاً قبل أن أعود إلى البيت».

«هل ستنتظرين حتى تنهي الفرقة عزفها؟» سألتها أفا.

«لا أظن ذلك. فأنا متعبة، ويجب أن أعدّ النقود. طابت ليلتكما». لوّحت لهما إرما وغادرت، وسارت بخفة أكثر مما يُبدي عمرها الحقيقي بكثير.

صمتت سارة وأفا للحظة، ثم قالت أفا أخيراً، «يبدو أن منصب رئيس البلدية معقول جداً».

فقالت سارة موافقة، «يمكنها أن تجمع أموالاً للبلدة أكثر من كونها مجرد أمين سجل البلدية».

«أموال أكثر بكثير، وهناك تراف أيضاً»، تنهّدت أفا بسعادة، «أتمنّى أن أصبح وصيفة له. سأفقد صوابي إذا لم أصبح وصيفته».

ضحكت سارة وقالت: «سأوصي بذلك عندما يحين الوقت».

نهضت أفا وقالت: «افعلي ذلك»، أظن أنني يجب أن أعود إلى البيت. يجب أن أستيقظ في وقت مبكر لألتقي بزوي وكات في البنك».

«اذهبي. لكن اتركي ضوء الشرفة مشعولاً».

«إني أفعل ذلك دائماً»، ابتسمت أفا وبدأت تهبط الدرج.

«انتظري. كدت أنسى»، مدّت سارة يدها إلى حقيبة كتبها، وقالت: «لديّ شيء من أجلك».

تنهدت أفا وقالت: «أوه لا. لا أريد كتاباً».

«طبعاً إنه كتاب». أخرجت سارة الكتاب وأعطته إلى أفا.

اكتست وجه أفا نظرة مشوّشة. «كيف تصنع أجهزة سقاية بنفسك وأشياء أخرى حول تصميم المناظر الطبيعية». يا إلهي، سارة، لست بحاجة إلى هذا الكتاب، فلم يطلب مني أحد شيئاً عن أجهزة السقاية ولا أنوي أن أفعل ذلك».

«هيه، أنا لا أخبر الكتب شيئاً، هي التي تخبرني. وقال هذا الكتاب إنّك يجب أن تقرأيه».

تمتمت أفا بحدّة ثم قالت: «حسناً، سأقرأه»

«جيد، لأن هناك كتاباً آخر».

«لاااااااااااااا».

مدّت سارة يدها إلى حقيبتها، وأخرجت كتاباً آخر وأعطته إلى أفا. آخر كتاب في حقيبة سارة الذي كان يقبع عميقاً في طيّات حقيبتها.

نظرت أفا إلى الكتاب الذي أعطته لها سارة وتكدّرت قسمات وجهها، وقالت: «لا. ودفعت الكتاب نحو سارة، «لا أريد هذا الكتاب».

«لا أحد يريد»، قالت سارة موافقة، واعتراها شعور بالذنب، وأضافت، «كنت أودّ أن أعرف لماذا يظن أنّك بحاجة إليه، لكنّه يقول ذلك، لذلك... «وضعت يدها على الكتاب ودفعته نحو أفا، «هذا كلّ ما أعرفه».

نظرت أفا إلى الكتاب ثانية. بعد لحظة طويلة، وضعت الكتاب فوق الكتاب الآخر ودسّتهما تحت ذراعيها، واختفت ابتسامتها، وقالت: «يجب أن أعود إلى البيت الآن».

«سأراكِ هناك»، قالت سارة وأخذت تراقب أفا وهي تهبط الدرج، ثم توقّفت لتلقي كوبها الفارغ في سلة النفايات قبل أن تعود وتسير في الحديقة التي أصبحت فارغة وصعدت إلى سيارتها.

«كان يوماً حافلاً، أليس كذلك؟»

التفتت سارة ورأت غرايس تقف عند الدرج المؤدي إلى المدرّج، وقالت: «أهلاً يا ملكة المهرجان».

ضحكت غرايس. لمعت عيناها البنيتان وهي تصعد الدرج.

«تعبنا كلّنا. كان هناك الكثير من العمل، لكن ما أنجزناه يستحق العناء الذي بذلناه».

«يبدو أن الجميع يفكّرون بذلك».

ابتسمت غرايس وجلست على الكرسي الذي تركته أفا للتو، وقالت: «سأخبرك بشيء آخر».

«هل له علاقة بك وبتراف؟ إذا كان الأمر كذلك، فكلّي آذان صاغية».

تضرّج وجه غرايس، لكن ابتسامتها لم تبرح وجهها، وقالت: «لا. لقد ذهب إلى باحة المدرسة حيث يوقدون النار. ليندا وماما جي وديزي هناك».

«رأيت ماما جي منذ قليل. كانت جالسة في كرسي للمعوّقين».

«قالت ليندا إن الجلوس على هذا الكرسي سيريحها. قلت لتراف أن يخبرهن بأنني سأنضم إليهم بعد قليل».

«سمعت إنّك تعرفين كيف يمكن الاعتماد على رجل في نقل رسالة».

ضحكت غرايس، وقالت: «لم أكن أعرف ذلك، لكنّي سأسأل أحبائي عندما أراهم». استندت إلى كرسيها، ثم سألتها، «بالمناسبة أين هو بليك؟»

«أظن أنه يستمع إلى الفرقة الموسيقية». كانت سارة تعرف أين هو بدقة، لكنّها لم تعترف بذلك.

لم تُظهر غرايس أنها خُدعت، «ينبغي أن تكلّمي هذا الرجل، وتخرجينه من تعاسته».

«سأكلّمه عندما يحين الوقت».

«تعرفين أنك مستحيلة؟ لكن ما أردت أن أقوله لك لا علاقة له ببليك أو تراف أو بأي شخص آخر، له علاقة بميزانية المهرجان».

«أوه.. أوه».

ابتسمت غرايس وقالت: «لا. لقد أحضرت لي زوي الأرقام النهائية بعد أن وقعت عقوداً. سارة، كانت الميزانية أقل مما كان متوقعاً».

«بالرغم من ضخامة المهرجان؟»

«لم تكن كبيرة بسبب ضخامة المهرجان. لقد ربحنا ما يكفي لتغطية الأسعار التي حددناها لبيع الخيم، وكلما زاد عدد الخيم، أصبحت أرخص. لذلك... لم نكسب منها كثيراً، لكن عندما نضيف نسبة الأرباح من الباعة، نكون قد حقّقنا أرباحاً جيدة».

«إرما قالت ذلك».

ارتفع حاجبا غرايس وسألت، «كيف ذلك؟»

ابتسمت سارة وقالت: «سترين قريباً».

«هذا شيء غير مفهوم».

«وهو كذلك». مدّت سارة يدها إلى حقيبتها وأخرجت الكتاب الأخير، وأعطته إلى غرايس، وقالت: «أظن أنكِ بحاجة إلى هذا؟»

نظرت غرايس إلى الكتاب. كان كتاباً صغيراً، لكنه سميك، كَتب على غلافه بأحرف كبيرة زرقاء دليل الحائكين لبلوغ درجة الكمال. وقالت: «لكني لا أمارس الحياكة».

«الكتاب يقول إنّك بحاجة إليه».

«الكتاب يقول»، تمتمت غرايس وهي تهزّ رأسها. «أنت امرأة غريبة الأطوار يا سارة دوف».

«يجب أن تقرأيه».

«سأثق بكلامك». مشّت غرايس إصبعها فوق إبرة الحياكة المرسومة على غلاف الكتاب وقالت: «لا بدّ أن ماما جي حاكت مائة زوج من القفازات خلال الفترة التي عشتها». ابتسمت بهدوء، ومضت تقول: «وهذا شيء جيد، لأني ظللت أفقدها».

«يبدو أن الوقت قد حان لتصنعيها لنفسك».

«أو لديزي». لاحت مسحة حزن على وجه غرايس عندما أضافت، «كانت ماما جي تقول لي دائماً إنها ستعلّمني الحياكة، لكن لم يكن بوسعها أن تعلّمني الآن».

لم تحب سارة مسحة الحزن التي ارتسمت على وجه غرايس، وقالت: «جربّي الكتاب، لن يؤذيك. لقد استعارت هذا الكتاب جميع اللاتي تعلّمن الحياكة في دوف بوند».

«أتظنين أنّني يجب أن أتعلّم الحياكة؟»

«نعم. وعندما تتعلّمينها يمكنك أن تعلّمي ديزي»، ابتسمت سارة، «والآن بعد أن انتهى المهرجان وتعلّم رئيس البلدية مور كيف يُدخل البيانات، سيصبح عندك وقت فراغ جيد».

ضحكت غرايس وقالت: «صحيح»، ربتت على الكتاب، وأضافت، «أظن أنني سأحتفظ به. لم أكن أظن أنني سأستفيد من أول كتاب أرسلته لي، لكنني كنت مخطئة». اتسعت عيناها وأضافت، «لم أكن أعرف لماذا أرسلت لي كتاب نساء صغيرات، لكنني يجب أن أعترف بأنه ذكّرني بكلّ الأشياء التي كنت أريدها عندما كنت طفلة - عائلة مترابطة، أصدقاء، حياة بسيطة، لكنها حياة كاملة. ألهذا السبب أرسلته إليّ؟»

«أرسلته لأنه طلب مني ذلك. أنا لا أختار الكتب. إنها تختار القرّاء. فقد اختارك هذا الكتاب».

«وديزي».

هزّت سارة رأسها.

«جزء منّي يقول إنك تمزحين عندما تقولين أشياء كهذه، وجزء منّي يأمل بأنّك لا تمزحين».

فقالت سارة بجدية، «أنا لا أمزح أبداً حول ما تقوله الكتب».

ابتسمت غرايس وقالت: «ماذا ستفعلين الآن بعد أن انتهى كلّ هذا الجنون؟»

«سأنام. ربما سأنقع نفسي في حوض الحمام أسبوعاً كاملاً».

«ثم؟»

«كنّا نتحدث أنا وأفا عن زيارة ابن عمّ لنا في بيركشاير».

«في ماساشوستس؟»

«المكان الذي نشأت فيه عائلة دوف. لدى ابن عمنا قصر يعود إلى العصر الذهبي يُدعى بلانتير. يبدو أنه يظن أنه يعاني من مشكلة وجود أشباح في القصر».

هزّت غرايس رأسها، وقالت: «للأسف لا تستطيع ماما جي أن تذهب معك، فهي تحبّ الأشباح».

«آنسة غرايس؟»

التفتتا لتجدا ليني وريكي بوب وتومي واقفين بجانب المدرّج، والشاحنة النصف ممتلئة تقف في مكان غير بعيد. «كلّ ما بقي علينا هو أن نفكّ المدرّج»، قال ريكي بوب.

«أظن أن هذا يعني أننا يجب أن نذهب»، قالت سارة ونهضت واقفة.

لحقت بها غرايس. هبطتا الدرج، ووقفتا جانباً، وراحتا تراقبان الرجال وهم ينقلون الكراسي ثم يفككون المدرّج ويضعونه خلف الشاحنة. ثم انطلقت الشاحنة باعثة هديراً عميقاً.

بعد قليل، أصبحت الحديقة فارغة ماعدا غرايس وسارة، وكانت أضواء الشارع تومض فوقهما من بعيد، وتناهى إليهما من بعيد صوت الموسيقى أعقبه صوت صرخة سعيدة.

«هذا كلّ شيء»، قالت غرايس.

« هذا كلّ شيء» قالت سارة موافقة، «الآن».

وسارتا يداً بيد باتجاه الفرقة الموسيقية، والابتسامة ترتسم على وجهيهما.

الخاتمة

عندما بدأ الثلج يسقط لأول مرة في أواخر شهر كانون الثاني (يناير)، توفيت ماما جي بهدوء أثناء نومها.

حضر جميع سكان دوف بوند الجنازة، ونسي القسّ تومسون والقسّ لويس خلافاتهما الطويلة وشاركا في تأبينها. ووقفت غرايس بجانب القبر وبكت بحرقة شديدة حتى تساءلت سارة هل يوجد جسد يمكن أن يحوي كلّ هذه الدموع ولا يغرق. وكان تراف وديزي وسارة واقفين على مسافة قصيرة من غرايس. لا يستطيع الحبّ أن يعالج قلباً محطماً، لكنّه يستطيع أن يجمع طرفين معاً ويشفيهما. لقد احتاج ذلك إلى جهودهم ثلاثتهم، وهذا ما فعلوه لغرايس.

بعد انتهاء الجنازة ببضعة أيام، أرت ديزي لغرايس المندهشة حديقة ماما جي. فقد صفّت أشياء عديدة: ملعقة محنية، ساعة مكسورة، دبوس زينة فُقدت منه قطعة العقيق. لا شيء ذو قيمة، لكن كلّ قطعة منها تحمل ذاكرة جعلت غرايس تبلّل الأرض بدموع جديدة. وفي ربيع السنة التالية، أزهرت الورود في المكان الذي سقطت فيه دموع غرايس - ورود نضرة، حمراء، كبيرة، تنبض بالحيوية، بالغة الجمال - وطلبت أفا أن تحصل على بعض تلك الورود لتجعل منها صنف شاي خاصّ أطلقت عليه اسم «ذهب جيانو الأحمر»، وقيل إنّ رائحة هذا الشاي كانت تجعل الناس يتذكّرون أشياء نسوها منذ زمن بعيد - أعياد الميلاد، أو عيد ميلاد، أو رائحة خبز طازج خُبز في فرن شخص محبوب رحل منذ زمن، وحتى همسة بلوزة مفضّلة، لكنها فُقدت.

ولسعادة سارة وتراف الأبديّة، مكثت غرايس في دوف بوند ولم تغادرها. وظلت غرايس وديزي حزنتين على ماما جي، وأصبحتا عائلة مترابطة بفضل أصدقائهما، وبفضل الوقت الذي أمضتاه في تعلّم الحياكة معاً من كتاب خاصّ جداً.

وفي هذا الشرخ العميق الذي خلّفه موت ماما جي، وجد حبّ بيتاً لن يغادره أبداً.

شكر وتقدير

أتوجّه بجزيل الشكر إلى بيث ل.، وليزا س.، وجون ف.، ومارك ج.، وجميع الأصدقاء الأعزاء الذين أمضوا ساعات طويلة في مشاركتي في نضالهم الشخصي ومعاناتهم في تعاملهم مع آبائهم وأمهاتهم الذين كانوا يعانون من الآثار المدمّرة لمرض الزهايمر، والذين قرأوا مسوّدات كتابي القاسية للتأكد من أنني بقيت صادقة مع التجارب والمحن التي عاشوها.

لقد استمعت إلى كلّ واحد منكم، وبكيت مع كلّ واحد منكم. إنها إحدى حقائق الحياة غير العادلة التي يمكن أن تجعل الحبّ مؤلماً أحياناً، وأرى أن كلّ واحد منكم بطل حقيقي.

المترجم: خالد الجبيلي

حائز على الإجازة باللغة الإنكليزية وآدابها من جامعة حلب، سورية. عمل مترجماً ومراجعاً في دائرة اللغة العربية، قسم المؤتمرات في الأمم المتحدة بنيويورك. في جعبته أكثر من ستين عملاً مترجماً.

ملاحظات

[←1]

بطل مسلسل صراع العروش.

[←2]

إحدى شخصيات رواية هاري بوتر.